الحملة الفرنسية على مصر

فى ضوء مخطوط عثمانى

مخطوطة «ضيانامة» للدارندلى

بقلم

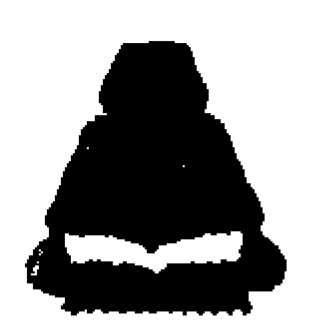
عزت حسن أفندى الدارندلى

دراسة وترجمة

جمال سعيد عبد الغنى

تاريخ المصريين

١٣٤



الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٩٩

رئيس مجلس الإدارة

د. سمير سرحان

رئيس التحرير

د.عبد العظيم رمضان

الحملة الفرنسية على مصر

في ضوء مخطوط عثماني

مخطوطة "ضيانامة" للدارندلي

بقلم

عزت حسن أفندي الدارندلي

دراسة وترجمة

د. جمال سعيد عبد الغني

تقديم

يسرني أن أقدم للقارئ العزيز هذا الكتاب المهم عن تاريخ الحملة الفرنسية على مصر. والكتاب فى الأصل رسالة علمية من قسم لغات الأمم الإسلامية، قدمها الأستاذ جمال سعيد المدرس المساعد بآداب حلوان، ترجم فيها مخطوطة عثمانية أصلية بعنوان «ضيانامة»، تعد هى المصدر العثمانى الوحيد الذى ظهر حتى الآن، وانفردت بتقديم وجهة النظر العثمانية فى موضوع الحملة الفرنسية على مصر والشام، ودور الدولة العثمانية فى إخراج الفرنسيين.

ومن هنا أهمية الكتاب، إذ يضيف مصدراً جديدا من مصادر تاريخ الحملة الفرنسية غير الجبرتى ونقولا ترك، ويقدم بُعداً جديدا كان غائب

وصاحب المخطوطة هو مؤرخ عثمانى عاصر السلطان سليم الثالث، ورافق الصدر الأعظم يوسف ضيا باشا فى حملته لطرد الفرنسيين من مصر. وقد كتب الكتاب بتكليف رسمي من الصدر الأعظم أثناء صحبته له، وهو عزت حسن أفندى الدارندلى.

وقد قدم المترجم الأستاذ جمال سعيد للمخطوطة العثمانية بمقدمة تحتوى على دراسة مهمة للمخطوطة، ولصاحبها. وهذه المقدمة والدراسة صدر بها المترجم الكتاب. ثم أتبع هذه الدراسة بترجمة المخطوطة من التركية إلى العربية، وهى ترجمة ممتازة استوحي فيها المترجم أسلوب مؤلف المخطوطة، وتظهر فيها قدرته وإمساكه بزمام اللغتين التركية والعربية.

وقد زود المترجم الكتاب بكشاف مهم للمصطلحات التاريخية والعثمانية الواردة بالمخطوط العثمانى ضيانامه.

وأملى أن يجد المؤرخون والباحثون فى هذا الكتاب ما هو جدير به من تقدير وفائدة علمية، ويجد المثقفون فيه ما ينشدون من متعة.

والله الموفق ،،،

رئيس التحرير

أ . د . عبد العظيم رمضان

المقدمة

الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، والصلاة والسلام على نبى الخير والمكرمات ، ثم أما بعد ...

فإن هضم التراث ثم تجاوزه هدف نبيل ينبغى على جمهرة الباحثين فى أمتنا الالتفات إليه والاهتمام به ، فإن أمة لم تستوعب ماضيها لا يمكنها أن تخطو بخطى ثابتة نحو مستقبلها ، وإذا كانت الأمم غيرنا تستجدى تراثاً فتجد أو لا تجد فإن تراث أمتنا على العكس من ذلك من المجد والفخر بمكان وحجمه من الكثرة بحيث نستطيع أن نقول فى اطمئنان أن حجم ما خرج منه للنور حتى الآن - وبرغم كل الجهود المبذولة فى ذلك الميدان ـ مازال قليلاً بالنسبة لما ينبغى علينا نحو ذلك التراث الإسلامى والعربى .

إن جل تراثنا ما زال إلى الآن مخطوطا ينتظر أن تمتد إليه الأيدى الفتية مترجمة ومحققة ، لتزيل عنه غبار الزمن وتعطى لنا امتداداً حقيقيا لماض زاهر صنعه آباؤنا وأجدادنا .

إن تاريخنا الإسلامى على سبيل المثال ما يزال فيه جوانب تحتاج إلى إيضاح وتنقيب ، فالكلمة الأخيرة لم تقل فيها بعد ، ومازالت محل جدل وأخذ ورد بين الباحثين . ولعل الحملة الفرنسية على مصر والشام إحدى تلك الحوادث التى اختلف حولها الباحثون ، بين قائل بأن الحملة الفرنسية كانت شعلة النور التى فتحت أعيننا على طريق النهضة وبين قائل بأنها كانت موقد النار التى أحرقت نهضة إسلامية حقيقية كانت بذورها قد بدأت تنمو فى الأزهر الشريف وأنها كانت بداية الانحراف عن نهضة نابعة من كيان الأمة .

كل ذلك كان خير باعث لى على العمل على مخطوطة تركية عثمانية أصلية تُعد ـ لعلمنا إلى اليوم ـ المصدر العثمانى الوحيد الذى انفرد بتأريخ الدور

العثمانى فى إخراج الحملة الفرنسية من مصر ... وهى بذلك تسد فراغاً طال عليه الأمد دون شك أو ريبة .

والفضل فى تعرّفى على هذا المخطوط القيم يعود للأستاذ الدكتور / محمد حرب ، فقد كان هذا المخطوط ضمن مجموعة من المخطوطات العثمانية القيمة التى حازها إبان وجوده فى تركيا منذ سنوات عديدة مضت ، وكان لديه العزم على إخراجه للنور ولكن حالت مشاغله دون ذلك ، فكان لى الشرف أن عهد إلىّ به لأقوم بذلك الواجب .

ولقد بذلت وسعى فى ترجمة المخطوط ترجمة أمنية على الرغم من أسلوب المؤلف الذى كان يحاول استعراض ثقافته ، وأتعبنى كثيراً حتى تعودت على أسلوبه واستطعت أن أجاريه فى عباراته التى كنت أسهر على بعضها الليالى .

وقد ألزمت نفسى فى هذه الترجمة بعدم الإكثار من الحواشى والتعليقات فقد وجدت كثيراً ممن يتعرضون للترجمة يكثرون من الحواشى والتعليقات بطريقة تغطى على النص الأصلى ذاته ، لذلك اكتفيت بتخريج الآيات والأحاديث وعوّضت ذلك بصنع كشاف للمصطلحات التاريخية العثمانية الواردة فى النص ووضعته فى ختام الترجمة لمن أراد أن يعود إليها .

ولعله كان من الصواب والأنسب قبل الخوض فى الترجمة أن أقدم للقارئ نبذة عن المخطوطة وعن صاحبها عزت حسن افندى الدارندلى والعصر الذى عاش فيه ، ومنهجه فى الكتابة وكيفية سرده للأحداث التاريخية ، وكذلك نوعية المصادر التى عَول عليها فى بناء مادة مؤلفه ، ثم أوضح أهمية هذه المخطوطة فى دراسة العلاقات الدولية بين الدولة العثمانية وانجلترا وفرنسا وروسيا ، وكذلك أهميتها فى دراسة التاريخ المصرى فى العهد العثمانى وأخيراً أعرض لمكانة عزت حسن افندى الدارندلى بين المؤرخين العرب المعاصرين له .

ولما كانت هذه المخطوطة من ألفها إلى يائها مكتظة ومشبعة بالمصطلحات التاريخية العثمانية ، فقد صنعت كشافا لتلك المصطلحات وعَرّفت

بها ، بعدها صنعت فهرسين أحدهما للمراجع والمصادر التى وسعنى الاطلاع عليها ، والفهرس الآخر للموضوعات .

وختاماً ... فلا يسعنى سوى التقدم بالشكر لكل آزرنى ومد لى يد العون طوال فترة إعداد هذا البحث ، وأخص منهم بالذكر الأخ الفاضل الأستاذ / أحمد طه والدكتور طارق شلبى .

وإحقاقًا للحق لا يفوتنى فى هذا المقام التقدم بأسمى آيات الشكر والعرفان لكل من الأستاذالدكتور / عبد العظيم رمضان المؤرخ والناقد الحصيف ورئيس تحرير سلسلة " تاريخ المصريين" ، والأستاذة الدكتورة / زبيدة عطا أستاذ ورئيس قسم التاريخ بكلية الآداب ـ جامعة حلوان على ما لمسته فيهما من تواضع جم وتشجيع ورعاية لى ولمثلى من الباحثين الشباب واللذان لولاهما لما رأى هذا البحث المتواضع النور ، فجزاهما الله خيراً ، وأساله عز وجل أن ينفع بهذا العمل والله من وراء القصد وهو يهدى إلى سواء السبيل .

القاهرة فى ٨ أكتوبر ١٩٩٨ م

جمال سعيد عبد الغنى
مدرس مساعد بقسم اللغات الشرقية
كلية الآداب ـ جامعة حلوان

التعريف بالمخطوطة

بتكليف رسمي من الصدر الأعظم يوسف ضيا باشا ، ألف عزت حسن أفندي الدارندلي مخطوطة عنوانها (ضيا نامه) ، ضمّنها كل ما شهد من وقائع لضيا باشا في إقليم كردستان ، ووقائع الحملة البرية العثمانية التى قادها لطرد الفرنسيين من مصر ، مبينا خط سير تلك الحملة ، والمنازل التى نزلت بها ، وما كان يقع من أحداث ومن تمرد في صفوف الجند ، وما كان من القضاء على الخارجين عن طاعة الدولة في تلك المنازل ، وختم مخطوته بذكر تراجم عدد من الوزراء وقادة الجيش العثماني الذين ساهموا في تلك الحملة .

والنسخة الأصلية للمخطوطة محفوظة فى مكتبة جامعة استانبول [١] تحت رقم (T.Y.6115) [٢] وهى مدونة بخط الرقعة الجميل ، وبخط المؤلف نفسه. وتقع المخطوطة في ٢٦٤ورقة ، تتألف الورقة الواحدة من صفحتين ومقاس الورقة ٢٣,٩ × ١٥سم ، وتحوى كل صفحة ٢١سطراً ، وفي كل سطر بين ٦ : ٩ كلمات .

والمخطوطة خالية من الترقيم ، والمؤلف كتبها على نظام الورقة إذ اتخذ نظام التعقيبة أى أن يكتب في هامش الصفحة الأولى من أسفل الكلمة الأولى في الصفحة التالية . والمخطوطة في حالة جيدة للغاية ، لم تطرأ عليها عوادي الزمن كالتآكل والخرم وآثار الأرضة والرطوبة . وهى نسخة كاملة إذ ختمها المؤلف بعبارة (تمت الحروف بعون الله الرءوف) ، ولا تحمل تاريخا

١- تعد مكتبة جامعة استانبول من المكتبات الغنية بالمخطوطات التركية والعربية والفارسية فبها نحو ١٧٧٨٤ مخطوط إضافة إلى ١٤٧٥٤٠ كتاب مطبوع .

Türkiye Gazetesi Rehber Ansiklopedisi , Ist. 1984 c.8 , s. 306 .

2- Agah Sirri Levend , Gazavat - Nameler, T . T . K - Ankara 1956, s. 158

لكتاباتها ، ولكن بما أن المؤلف كتبها إثر خروج الفرنسيين من مصر عام ١٨٠١م ، بتكليف من الصدر الأعظم الذي بقى في الصدارة إلى عام ١٨٠٥[1] تأتي لنا أن نحدد تاريخ كتابة هذه المخطوطة بين عام ١٨٠١ وبين عام ١٨٠٥.

ومداد المخطوطة أسود ، والعناوين مكتوبة بمداد مغاير وهو المداد الأحمر . ويبدو من المخطوطة أن المؤلف كان شديد العناية بضبط الكلمات بالشكل زيادة في الدقة وأخذاً للحيطة من الوقوع في خطأ في نطقها نطقا صحيحاً.

صاحب المخطوطة وعصره

هو عزت حسن أفندى الدارندلى[2] ، لم يرد في المصادر العثمانية تاريخ ميلاد له ولا وفاة . كل ما جاء فيها أنه مؤرخ في القرن الـ١٨ الميلادي وعاصر السلطان سليم الثالث الذى تربع على عرش آل عثمان عام ١٢٠٤ هـ = ١٧٨٩م.[3]

ولد عزت أفندي لأب فقير معوز هو محمد أفندي الدارندلي ، وكان محباً للعلم والمعرفة ميالاً إلى أرباب الفضيلة ، حض ابنه ورغبه في تحصيل العلم والمعرفة فى المكتب وهو طفل في الخامسة من عمره ، فتتلمذ لعدد من المعلمين، وعلى شدة فقره نال حظا من المعرفة ، ثم تأتى له أن يشتغل بالتدريس فى بلدته (دارنده) ، و غادرها ساعيا في طلب الرزق فلحق بخدمة

١- **Ismail Hamı Danişmend , Izahle Osmanli Koronolojisi ,Osmanlı Devlet Erkanı . c.5 , s.69 .**

٢- نسبة إلى دارنده ، وهي قرية صغيرة تقع إلى الجنوب الشرقي من مدينة سيواس بالأناضول (تركيا) على مسافة ست عشرة ساعة .

انظر على جواد ، (ع.ك.ا) ، ص ٣٨١ .

٣- بورصلي محمد طاهر ،عثمانلى مؤلفلرى ، استانبول ١٣٣٥هـ ، ج ٣ ، ص ٤٩ .

بعض الوزراء و الأمراء و الأعيان وعمل كاتبا فى دوائرهم ، بيد أنه ظل على فقره ، فعزم على أن يعود إلى (دارنده) ، و فى طريقه إليها توفي أبوه [1] و كان لوفاة أبيه أثراً عميقا فى نفسه ، وهو يذكر ذلك قائلا : " انتقل أبى إلى روضة الجنة ، فأخرست فجيعتي فيه لساني ، وانقصم ظهري تحت أعباء الهم والعوز "[2] ويبدو أن هذه الصدمة النفسية العنيفة كانت سبباً في عدم ذكره أي شئ عن أسرته . إلى أن أقبلت عليه الدنيا بعد إدبارها ، فلحق بخدمة (يوسف ضيا باشا) الذي كان يحب العلم ويرعى العلماء ، وعمل عزت أفندي في إدارته ولازمه أثناء توليه أمانة المناجم السلطانية وصحبه في عملياته العسكرية ضد العشائر الكردية في آخسخه وطرابيزون وجانكلر . إلى أن تبوأ يوسف ضيا باشا منصب الصدارة العظمى ، واصطحبه معه إلى استانبول ، فنال كرمه ونعم بتقديره له ، وأصبح على صلة وثيقة بما يدور من أحداث الدولة ، وكُلف ببعض المهام إبان فتح جزيرة (قورفو) وتوابعها ، حينما أُرسلت التشريفات الجليلة معه إلى مختار باشا الذى أبدى بسالة عظيمة في فتح جزيرة (بيروزه) إحدى توابع جزيرة قورفو ، وعودته إلى الآستانة بعدد من كبار القادة الفرنسيين الأسرى .[3] ولقد رافق عزت حسن أفندى الصدر الأعظم يوسف ضيا باشا في حملته على مصر [4]، وشارك في بعض مهامها ، وشغل منصب (تشريفاتي) ، غير أنه لم يدم طويلاً في ذلك المنصب ، فعُزل بعد عدة أشهر .[5]

١- عزت ، حسن افندى الدارندلي : ضيانامه ، (نسخة مصورة من مخطوط فى جامعة استانبول موجودة بمكتبة مركز بحوث العالم التركى بالقاهرة)، ص ١١ - ١٢ .

٢- ضيا نامه : ص ١٢ .

٣- ضيا نامه : ص ١٩٢ ، ٢ ٩ب .

٤- ضيا نامه : ص ٣ب .

٥- ضيا نامه : ص ١١٨٨ ، ١٢٦٠ .

علاقة المؤلف الاجتماعية :-

أما عن علاقة المؤلف الاجتماعية فيبدو من خلال الإشارات التى وردت في ثنايا مخطوطته أنه كان وثيق العلاقات الاجتماعية كثيرها ، حائز على محبة الجميع وثقتهم فيه ، إذ هم تحدثوا عنه في مجلس الوزير يوسف ضيا باشا إبان توليه على أرضروم ، وكان يوسف ضيا باشا إذا سمع بعالم فاضل من قريب أو بعيد استدعاه إلى مجلسه واختصه لنفسه .[١]

ثقافتـــــــه :-

أما عن ثقافة عزت حسن أفندى الدارندلى فيبدو أنه كان واسع الثقافة الإسلامية ، حاذقاً للغاتها الثلاث العربية والفارسية والتركية العثمانية ، وهذا ما يتجلي في أسلوبه الذى حشد فيه الكثير والكثير من الأشعار والحكم العربية والفارسية .

صفاتـــــــه :-

ونحن لا نعرف عن صفات المؤلف عزت أفندي الكثير ولكن قارىء (ضيا نامه) يتضح له التواضع الشديد الذى كان يتميز به عزت أفندى ، فقد كان لايذكر اسمه إلا بعد أن يصدره بلفظ حقير أو فقير ، كما كان يضع نفسه موضع التقصير أو العجز كنحو قوله :

" ....ورغم إنني لم أكن ذا علم ومعرفة ، ولا سهم لى من البلاغة والفصاحة ، ذُكر اسمى في مجلسه العالى " [٢] وقوله : " ما نُفّذ من أوامر الديوان السلطانى لم يتعد خلع عبدى بك من وظيفة تشريفاتى ، وإسنادها إليّ أنا الذليل (عزت حسن) دون أن أكون مستحقاً لها " [٣]

١- ضيا نامه : ص ٢ب .

٢- ضيا نامه : ص ١٣ .

٣- ضيا نامه : ص ١١٨٨ .

وهناك بعض العبارات التى تستوقف القارىء لتدله على ميل عزت أفندى إلى عدم الاهتمام بالمناصب الدنيوية ، بل كان يراها عبئاً على صاحبها . مثال ذلك قوله :

" وحزن حضرته (أى يوسف ضيا باشا)، غاية الحزن لابتلائه بضوضاء الدنيا الدنية واستنكف من تحمل وزر الوزارة الثقيل الذى ليس بوسع بشر أن يتحمله في يومنا هذا ليوم واحد " [1]

وقوله أيضاً :

" كان المشار إليه شخصاً تقياً ديناً مستقيماً لم يُؤخذ عليه أى مأخذ سوى تشوقه إلى حمل وزر الوزارة الذى كان بلاء عظيماً في أيامنا تلك " [2]

ومثل هذه الأفكار نبعت من التدين الواضح الذى يلمسه في كثير من مواضع مؤلفه مثال ذلك وصفه لجيش العثمانين بالمجاهدين ، وجيش الفرنسين بالكفرة والمشركين .

مؤلفـــــــاته :-

تذكر المصادر العثمانية أن لعزت حسن أفندى الدارندلى تاريخاً بعنوان (ضيا نامه) وهو المخطوطة موضوع البحث يتناول فيها وقائع الصدر الأعظم يوسف ضيا باشا فى إقليم كردستان وكيفية اسهامه فى إخراج الفرنسين من مصر [3] . ولم تذكر تلك المصادر مؤلفات أخرى له .

١- ضيا نامه : ص ١١٥ ، ١٥ب .

٢- ضيا نامه : ص ٢٢٠ب .

٣- بورصلي محمد طاهر ، (ع.ك.ا) ، جـ ٣ ، ص ٤٩ .

عصر المؤلف :-

أما إذا تحدثنا عن عصر المؤلف عزت حسن أفندى والظروف السياسية التى كانت سائدة آنذاك ، نقول أنه عاش فى عصر السلطان سليم الثالث الذى اعتلى عرش آل عثمان عام ١٢٠٤هـ = ١٧٨٩م والأوضاع السياسية تموج وتضطرب . فالحرب دائرة رحاها بين الروس والعثمانين منذ عامين وهى حرب أعلنها السلطان عبد الحميد الأول على روسيا من أجل استخلاص القرم التى استولى عليها الروس عام ١١٩٩هـ =١٧٨٤م ، والحيلولة كذلك دون الاتفاق الذى أبرمته روسيا والنمسا لاقتسام أملاك الدولة العثمانية فيما بينهما . لكن دخول النمسا الحرب إلى جانب روسيا أضطر الجيوش العثمانية إلى أن تحارب في جبهتين ، مما أفضى إلى تشتيت قواتها وإضعافها وهزيمتها هزيمة ساحقة في الأشهر الأولى من الحرب [١] .

حتى أن السلطان عبد الحميد الأول مات كمداً في ١٠ رجب ١٢٠٣هـ =٦ ابريل ١٧٨٩م عندما تلقى فاجعة سقوط قلعة أوزى بـ (أكرانيا) ، واجتياح القوات الروسية لها ، وذبحها ٢٥ ألفا من أهلها الأبرياء فى ١٨ ربيع الأول ١٢٠٣هـ = ١٧ ديسمبر ١٧٨٨م [٢] ، وخلفه السلطان سليم الثالث ، وواصل الحرب ضد الروس والنمساوين ، ولكن مُنيت الجيوش العثمانية بالمزيد من الهزائم المتلاحقة [٣] .

ثم اندلعت الثورة الفرنسية ، وأعلنت الجمهورية في فرنسا ، وأعدمت الملك لويس السادس عشر ، ونجح السفير الفرنسى لدى الآستانة في

1- Enver Ziya Karal , Fransa- MısırVeOsmanlı Iptaratorluğu (1796-1802) , Milli Mecnua Basinevi - Ist , 1938, c.5 , s.14 .

2- Ismail Hami Danişmend , Izahle Osmanlı Koronolqjisi , c.5 , s.67 .

3- Enver Ziya Karal , (a.g.e) , c.5 , s.14,15,16 .

إقناع الباب العالى بالاعتراف بالجمهورية الناشئة ، فـاعترفت الدولـة العثمانيـة بها في سبتمبر ١٧٩٤م ، وتبادلت الدولتان التمثيل الدبلوماسى الكامل وأرسلت فرنسا سفيراً لها إلى الاستانة يسمى (وريناك) ، وعينت الدولـة علـى أفندى سفيراً لها فى باريس[١].

ثم بدأ السفير الفرنسى الذى قدم الآستانة يعرض على الباب العالى توقيع اتفاق تحالف بين الدولة العثمانية والجمهورية الفرنسية ، وأغراه بما سوف يعودعلى الدولة من فوائد إن هى وقعت هذا الاتفاق ، ومـن أبرزها أنه سوف يمكنها من توسيع حدودها واستعادة القرم من روسيا ، وبذلك ضرب الفرنسيون على الوتر الحساس فى نفس السلطان سليم الثالث ، ونجحوا في جعله يتحمس للمشروع . وسُودت نصوص الاتفاق في خمسة عشر مادة ، نصت على تحالف الدولتين في حروبهما في أوربا بمجرد أن تنتهى حروبهما آنذاك ، ووقوف الدولة العثمانية على الحياد فى أى حرب تنشب بين فرنسا وإنجلترا [٢].

وقد قوبل مشروع هذا الاتفاق بمعارضة شديدة من جانب شيخ الإسلام وكبار رجال الدولة الذين أيقنوا أن اتفاق كهذا من شأنه أن يؤلب النمسا وروسيا على الدولة ، مما أضطر السلطان سليم إلى أن يوقع هذا الاتفاق سراً دون معرفة رجال دولته في ٢٤ مايو ١٧٩٦م . [٣]

1- Mustafa Nuri Paşa , Netayic ulvukuat(Kurumlari ve Orgutleriyle Osmanlı Tarihı) sadeleştiren , Açiklamları ekleyen Neşet çağatay T .T . K - Ankara 1979 ,c.4 , s.200 .

2- Mustafa Nuri Paşa , (a.g.e) ,c.4 , s. 201 .

3- Mustafa Nuri Paşa , (a.e) ,c.4 , s.201 .

وبعد فترة من التوقيع على هذا الاتفاق عقدت فرنسا مع النمسا اتفاق عرف باتفاق (كامبو فورميتو) ، وبمقتضى هذا الاتفاق قُسمت جمهورية البندقية بين الدولتين فكانت قورفو والجزائر السبعة وجزء من سواحل بلاد الأرناءوط (ألبانيا) من نصيب فرنسا [١] . وبذا أصبحت فرنسا وهى دولة قوية آخذة فى التوسع مجاورة للدولة العثمانية للمرة الأولى فى التاريخ ، وشرعت في إثارة القلاقل على حدودها ، اذ بدأت تنادى بالدعوة إلى الاستقلال والحرية فى بلاد المورة ، وتؤلب الرعايا غير المسلمين على الدولة العثمانية ؛ الأمر الذى أقلق الباب العالى تجاه نوايا الجمهورية الفرنسية [٢] ، وزاد من هذا القلق أن نشرت إحدى الصحف الفرنسية نبأ عن أن نابليون بونابرت قد ينوى غزو مصر بما عكف على تجهيزه من أساطيل في ميناءى طولون ومرسيليا[٣]

كما قدم السفير الروسى إلى الباب العالى وأخبره بأن نابليون قائد الجيوش الفرنسية عبأ جيوشه وجهزأساطيله فى ميناءى مرسليا وطولون ، وأنه ربما يتوجه بذلك للاستيلاء على أملاك العثمانيين فى المورة [٤] .

كلف الباب العالى السفير العثمانى فى باريس باستيضاح نوايا فرنسا ، فأظهر نابليون ووزير خارجية فرنسا (تاليران) الود غير العادى تجاه السفير العثمانى ، وخدعاه بمجموعة من الأكاذيب وأوهماه أن هذه الإشاعات لا أساس

1- Ismail Soysal , (a.g.e) , s. 245 .

على رشاد : قرون جديدة تاريخى مطبعة عامرة ، استنبول ١٣٣٣ هـ ، جـ ٢ ، ص ١٣١ .

٢- ضيا نامه : ص ٩٠ب .

3- Nigar Anafarta ,Napoleon Bonaparte in Misir Işgali Hayat Tarih Mecmuasi ,sayi :2 , Mart 1970 , , s. 27 .

4- Enver Ziya Karal , (a.g.e) , c.5 , s. 28 .

لها من الصحة ، وأن نوايا الفرنسين متجهة إلى غزو (صقلية) [1] لا إلى أى جزء من الدولة العثمانية. [2]

وكان نشاط الفرنسيين الحربى قد بلغ مداه فى تلك الآونة ، وكان نابليون بونابرت قد حقق مجداً عسكرياً عظيماً فى حروب ايطاليا ، فأراد أن يزيد من شهرته ومجده بمشروع عظيم كمشروع غزو مصر . وكان يهدف من وراء الاستيلاء على مصر ،إلى فتح قناة تربط بين البحر الأبيض والبحر المتوسط والسيطرة على طرق التجارة إلى الهند ، وفرض إرادة فرنسا على الإنجليز وطردهم منها وتحويل البحر المتوسط إلى بحيرة فرنسية . [3]

خرج نابليون بونابرت من طولون بجيش قوامه ٣٨ ألف جندى وخمسة عشر سفينة إلى البحر المتوسط واستولى على جزيرة مالطة في ١٢/٦/١٧٨٩م، وظهر أمام سواحل الإسكندرية في ١/٧/١٧٩٨م دون أن يعلن الحرب على الدولة العثمانية [4] ، واستولى على المدينة ، وزحف على القاهرة ، فتصدى له واليها أبو بكر باشا والمماليك ، غيرأنهم هُزموا ، وهرب مراد بك إلى الصعيد ، وهرب والي مصر وإبراهيم بك شيخ البلد إلى بلاد الشام[5]

١- صقلية : جزيرة إيطالية في وسط البحر المتوسط ، مساحتها ٢٥٧٤٠كم٢ .

Hayat Kucuk Ansiklopedi , s. 1031 .

2- Turgut Isiksal , XVIII . Yuayil Sonunda Ortadogu ' da Fransiz-ingiliz çatismasi Ve Osmanli Imparatorlugu , Belgelerle Türk Tarihi Dergisi , Dun , Bugun , Yarin , Ekim 1969 - Sayi , 25 , s. 37 .

3- Turgut Isiksal , (a.m) , s. 37 .

4- Mustafa Nuri Pasa , (a.g.e) ,c.4 , s. 202 .

٥- الجبرتي : عجائب الآثار ، جـ٣ ، ص ٨ وما بعدها

واستولى الفرنسيون على عاصمة البلاد ، وأعلن بونابرت أنه ما قدم مصر إلا للاقتصاص من المماليك أعداء السلطان وتخليص الشعب المصري من ظلمهم ، وأنه لن يمس حقوق الدولة العثمانية في مصر وكان يرمي من وراء ذلك خداع الباب العالي . [١]

وبعد عشرة أيام من دخول الفرنسيين القاهرة ، قدم الأسطول الإنجليزي بقيادة (نيلسون) وحطم الأسطول الفرنسي الراسي في (أبو قير) شمال شرقي الإسكندرية ، وقطع بذلك صلة الحملة بفرنسا وحصر الفرنسيين في مصر. [٢] ثم أدرك نابليون أنه لكي يضمن الاستقرار في مصر عليه أن يمتلك سوريا [٣] ، خاصة بعد أن سمع أن الباب العالي قد أسند قيادة الجيش الزاحف لتحريرمصر إلى أحمد باشا الجزار وأنه يعكف على تقوية القلاع والحصون من عكا إلى العريش ، وأن الدولة بدأت ترسل إليه الإمدادات من الأناضول ، وأن الأسطول الإنجليزي قد مضى كذلك لتقديم العون إليه . فأسرع نابليون قاصداً سوريا ، فاستولى على غزة والرملة ويافا وحاصر عكا . [٤]

وكان بونابرت قد أرسل إلى أحمد باشا الجزار من قبل رسالة مع سفير خاص يعرض عليه فيها الصداقة ، ويذكر له أنه ما قدم لمحاربته ، ويطلب إليه إبعاد إبراهيم بك عن حدود مصر ، وفتح طرق التجارة بين مصر وسوريا. [٥] غير أن أحمد باشا الجزار طرد هذا المبعوث ورفض مقابلته

١- الجبرتي : عجائب الآثار ، جـ٣ ، ص ٤ ، ٥ .
انظر كذلك على رشاد ، (ع.ك.ا) ، جـ ٢ ، ص ١٣٦ .
٢- ضيا نامه : ص ٧١ب - ٧٢ب .

3- Nigar Anafarta , (a.g.m) , s. 28 .

٤- انظر كذلك على رشاد ، (ع.ك.ا) ، جـ ٢ ، ص ١٤٠، ١٤١ .

5- Ismail Hakki Uzunçarşili : Bonapart'in Cezzar Ahmed Paşa'ya Mektubu VeAkka Muhasarasina Dair Bir Deyis , Belleten , Temmüz 1964 , c. XXVIII T.T.K- Ankara , Sayl III , s.542 :

واستمر حصار بونابرت لعكا أربعة وستون يوماً ، تكبد فيها خسائر فادحة إلى أن أضطر إلى الرجوع عنها والعودة إلى مصر في ١٥ ذي الحجة ١٢١٣هـ = ٢٠مايو ١٧٩٩م [١] ، وأدرك أنه ليس بإمكانه البقاء في مصر ، فغادرها إلى فرنسا سراً، وترك قيادة الحملة لكليبر.[٢] وعندما وصلت أنباء استيلاء الفرنسيين على مصر إلى استانبول قام السلطان سليم الثالث بعزل محمد عزت باشا من الصدارة العظمى وعين مكانه والي أرضروم يوسف ضيا باشا ، وقدم الصدر الجديد إلى الآستانة في جمادى الأولى ١٢١٣هـ = أكتوبر ١٧٩٨م ، وعقد اتفاقي تحالف أحدهما مع الروس في ٢٣ ديسمبر ١٧٩٨م ، والثاني مع الإنجليز في ٥ يناير ١٧٩٩ لإخراج الفرنسيين من مصر .[٣]

وبناء على الاتفاق الذي وقعته الدولة مع روسيا قدمت أربع عشرة قطعة من الأسطول الروسي إلى استانبول ،وخرجت مع الأسطول العثماني لاستخلاص الجزر السبعة التي كانت في حوزة فرنسا وتهدد الدولة العثمانية على حدودها الغربية ، وتمكن الأسطولان العثماني والروسي من الاستيلاء على تلك الجزر من فرنسا [٤] ، وإخضاعها للدولة العثمانية تحت اسم (جمهورية الجزر السبعة) على أن تؤدي هذه الجمهورية خراجاً كل ثلاثة أعوام للدولة مقداره ٧٥٠٠٠ قرش .[٥]

1- Ismail Hakki Uzunçarşili : (a.g.m) , s. 454 .

٢- ضيا نامه : ص ١١٣٨ .

3- Enver Ziya Karal : Fransa - Misir Ve Osmanli Devlet , s. 98 .

وانظر كذلك على رشاد (ع.ك.ا) ، جـ ٢ ، ص ١٣٩ .

٤- لمزيد من التفاصيل حول العمليات العسكرية التي قام بها الأسطولان : العثماني والروسي لفتح الجزر السبعة انظر ضيا نامه ، ص ٨٩ب - ١٩٣ .

٥- على رشاد (ع.ك.ا) ، جـ ٢ ، ص ١٤٢ - ١٤٣ .

ومن جهة أخرى كان الباب العالي قد عهد بقيادة الجيش الزاحف لغزو مصر إلى أحمد باشا الجزار ، غير أن الصدر الأعظم عرض على السلطان استعداده للقيام بتلك المهمة ، فأثنى رجال الدولة على هذا الإقتراح ، وخرج الصدر الأعظم من الآستانة في أوائل عام ١٢١٤هـ = يونيو ١٧٩٩م بجيش من الإنكشارية وجند بابه ووصل دمشق ، وهناك انضوى تحت لوائه الولاة والأمراء وجنود الإقطاعيات ، فبلغ عدد جيشه نحو خمسين ألف جندي ، واستأنف الزحف قاصداً مصر ، واستولى على العريش وأسر نحو مائة وخمسين من الحامية الفرنسية وقتل الباقين ، وفي تلك الأثناء كان بونابرت قد استخلف كليبر على قيادة الحملة وأعلمه في رسالة تركها له قبل عودته إلى فرنسا ، أنه ما لم يأته المدد في غضون ستة أشهر فليفاوض الدولة العثمانية في الجلاء عن مصر .[1] فأرسل كليبر إلى الأميرال الإنجليزي (سميث) يرجو وساطته في عقد اتفاق مع العثمانيين لتنظيم جلاء القوات الفرنسية عن مصر ، واجتمع الصدر الأعظم والأميرال الإنجليزي ومفوضو كليبر وعقدوا اتفاقاً عرف باتفاق العريش في ٢٨ شعبان ١٢١٥هـ = ١٤ يناير ١٨٠١م .[2] وكان هذا الاتفاق ينص على جلاء القوات الفرنسية من مصر بكامل عتادها على سفن إنجليزية . وبدأ كليبر في إخلاء القاهرة وسوق جنده إلى الإسكندرية ، ومن جهة أخرى اقترب الصدر الأعظم بقواته من القاهرة لاستلام بعض المواقع . لكن القائد الأعلى للأسطول الإنجليزي في البحر المتوسط وقف على الحالة السيئة التي وصلت إليها القوات الفرنسية فرفض التصديق على اتفاق العريش الذي وقعه الأميرال الإنجليزي (سميث) ، وأمر بأسر القوات الفرنسية

1- Mustafa Nuri Paşa , (a.g.e) ,c.4 , s. 205 .

٢- عن الدور الذي قام به القائد الإنجليزي " سميث " في الوساطة بين العثمانيين والفرنسيين لعقد الصلح انظر ضيا نامه ، ص ١١٤٢ ، ١٤٢ب ، ١٤٧ب ، ١١٤٨ .

وإرسالها إلى إنجلترا بدلاً من فرنسا.[1]

وعندما تلقى كليبر هذا النبأ هاجم طلائع قوات الصدر الأعظم وألحق بها الهزيمة في المطرية وعين شمس ، واضطره إلى الارتداد بقواته إلى بلبيس ثم إلى يافا .[2]

وعلى الرغم من أن الفرنسيين قد حققوا انتصاراً كهذا على القوات العثمانية فإنهم في الوقت ذاته كانوا قد تكبدوا خسائر عظيمة ، وضعفت قدراتهم العسكرية حتى تمكن فدائي سوري يسمى سليمان الحلبي من اغتيال كليبر ، فخلفه مينو على قيادة الفرنسيين في مصر .[3]

وبعد مدة قدم الصدر الأعظم من بلاد الشام بنحو أربعين ألف جندي ودخل مصر ، كما قدم الأسطول الإنجليزي في ربيع الأول عام ١٢١٥هـ = أبريل ١٨٠١م وأنزل عشرة آلاف جندي إلى (أبو قير) ، وقدم كذلك الأسطول العثماني بقيادة القبودان حسين باشا بستة آلاف جندي نظامي واستولى بقواته على رشيد والرحمانية بمساعدة القوات الإنجليزية ، وزحفت قوات الصدر الأعظم نحو القاهرة تؤازرها القوات الإنجليزية وقوات القبودان حسين باشاوضيقوا الخناق على من بها من الفرنسيين حتى اضطروهم إلى التسليم والجلاء عن القاهرة بنفس شروط اتفاق العريش .[4]

ثم اتجهت قوات القبودان باشا إلى الإسكندرية ومعها القوات الإنجليزية التي زحفت على القاهرة مع قوات الصدر الأعظم للتضييق على مينو

١- على رشاد : (ع.ك.ا) ، جـ ٢ ، ص ١٤٤ .

٢- على رشاد : (ع.ا) ، جـ ٢ ، ص ١٤٤ .

وانظر أيضاً ضيا نامه ، ص ١٥٢ب - ١١٥٦ .

3- Mustafa Nuri Paşa , (a.g.e) ,c.4 , s. 206 .

٤- ضيا نامه : ص ١١٧٥ - ١١٩٧ .

الذي كان قد مضى لنجدة الإسكندرية ، فلحقت به الهزيمة على يد القوات الإنجليزية وتحصن في قلعة الإسكندرية واضطر مينو إلى طلب هدنة ثلاثة أيام يستعد خلالها للتفاوض في الجلاء عن مصر[١] ، وفعلاً تم التوقيع على اتفاق الجلاء وحُملت القوات الفرنسية إلى فرنسا بنفس شروط معاهدة العريش وذلك في ١٢١٦هـ =١٨٠١م [٢].

وعندما أرسل الصدر الأعظم بشريات تحرير مصر إلى الآستانة عمتها الأفراح وأرسل السلطان الخلع إلى الصدر الأعظم والقبودان باشا وخلع عليهما لقب (غازي) [٣]. ثم عُين كتخدا القبودان حسين باشا والياً على مصر بعد أن مُنح رتبة الوزارة ، وتُرك له نحو ثمانية عشر ألف جندي من أجل القضاء على المماليك ، وعاد الصدر الأعظم والقبودان باشا إلى الآستانة . وبعد ثمانية أشهر بدأ الإنجليز في الجلاء عن الإسكندرية .[٤]

١- ضيا نامه : ص ٢٠٢أ ، ٢٠٢ب .

٢- على رشاد : (ع.ك.ا) ، جـ ٢ ، ص١٤٥ .

٣- غازي : لقب من الألقاب السنية أُطلق على الملوك والقادة المسلمين الذين حققوا انتصارات باهرة على أعدائهم في ما كانوا يخوضوه من حروب وغزوات في سبيل الله ونُصرة دينه .

B. Sitki Baykal , (a.g .e) , s. 51 .

حسن الباشا : الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار ، النهضة ١٩٥٧م ، ص ٤١١ .

4- Mustafa Nüri Pasa , (a.g.e) ,c.4.s , 208 .

منهج عزت أفندي في مخطوطه (ضيا نامه)

أما إذا تدبرنا منهج الكتابة عند عزت حسن أفندي ، وكيفية سرده للأحداث التاريخية ، ألفيناه قد آثر أن ينهج منهج التراجم المعروف ، فهو الأنسب إلى فكرة رسالته التي قامت أساساً على تدوين وقائع الحملة البرية التي قادها الصدر الأعظم يوسف ضيا باشا ، ووقائعه في كردستان قبل تبوئه منصب الصدارة العظمى .

أى أن هذه الرسالة من ألفها إلى يائها تستمد مما أحاط بيوسف ضيا باشا إبان صدارته من ملابسات وما تقلب فيه من أحوال ، وما صدر منه من سلوكيات ، وإلى هذا مرد تسميتها (ضيا نامه) .[1] وإذا نظرنا إلى عرض المؤلف للأحداث وتنسيقها ، وجدناه قد رتب رسالته هذه على مقدمة وملحمة وخاتمة .

أما المقدمة ، فحديثه فيها عن الوزير يوسف ضيا باشا منذ النشأة ، حتى تقلده أمانة المناجم الهمايونية ، ونيله رتبة وزير ، وتوليه ولايات ديار بكر وملاطيا وأرضروم ، وما بذله إبان تلك الفترة من جهد جهيد في قمع تمردات زعماء العصبيات والأشقياء واللصوص ، والقضاء على كثير من الخارجين على سلطة الدولة في تلك النواحي ، إلى أن آنس فيه السلطان وكبار رجال الدولة العثمانية الكفاءة والجدارة لتولى الصدارة العظمى والخروج على رأس الجيش العثمانى لطرد الفرنسيين من مصر .

والملحمة تبدأ بعد توليه الصدارة العظمى ، وخروجه قائداً للحملة البرية العثمانية لتحرير مصر من استعمار الفرنسيين ، ثم عودته بعد أن وُفّق في مسعاه، وما وقع فى تلك الأثناء من أحداث في صفوف الحملة والمنازل التي نزلت بها .

١- ضيا نامه : ص ١٥ .

أما الخاتمة ففي تراجم من ساهم في تلك الحملة من الوزراء والقادة ورجال الدولة [1] .

أما عن الأسلوب الذى اتبعه عزت أفندى فيذكر أنه لما أمر بكتابة مؤلفه هذا بأسلوب بسيط يفهمه العوام والخواص ، نهج نهج (حمزة نامه) [2] وكتب مؤلفه هذا بلغة تركية يسيرة عارية من الفصاحة والبلاغة [3] .إلا أن قارىء (ضيا نامه) يستطيع من خلال نظرة سريعة إليها أن يدرك أن عزت حسن أفندى قد خرج على المنهج الذى اشترطه على نفسه من حيث الأسلوب ، فقد حاول التأنق وركن إلى استعراض ثقافته الاسلامية متعددة الروافد، وعمد إلى أسلوب يتضمن ما لاحصر له من ألفاظ عربية وفارسية وأبيات من العربية والفارسية وآيات من القرآن الكريم وأحاديث نبوية شريفة ، وتجلى ذلك من أول سطور مؤلفه الذى استهله بعبارات عربية محضة يقول فيها :

" بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لمن تحيّر في صنعه سواه ، والصلاة والسلام على سيدنا وسندنا ومولانا محمد خير خلق الله وعلى آله وأصحابه الذين هم نجوم سماء الهداية وهداية سبل السلامة بلا اشتباه وبعد ...."[4]

١- ضيا نامه : ص ٤ب -١٥ .

٢- حمزة نامه : بمعنى كتاب حمزة ، وهو أحد نماذج القصص البطولي في الأدب التركي الشعبي ، ظهر فى النصف الثاني من القرن الـ١٤ الميلادي ، وكان يتضمن قصة أسد الله حمزة بن عبد المطلب .

انظر حسين مجيب المصري : في الأدب الشعبي الإسلامي المقارن ، الأنجلو المصرية - القاهرة ١٩٨١م ، ص ١٨٤ - ١٨٥ .

٣- ضيا نامه : ص ٢٦٤ب .

٤- ضيا نامه : ص ١١ .

ويبدو عزت حسن أفندى من خلال مؤلفه (ضيا نامه) مؤرخاً على درجة عالية من الاتقان والوعى بالتاريخ ، وتتضح بصماته في كل ما يكتبه ، يستوى في ذلك ما ذكره كشاهد عيان أو كناقل عن غيره من المؤرخين ، فنجده يشرح ويفسر ويعلق وينقد .

ومن الملامح المميزة لعزت حسن أفندى في (ضيا نامه) أنه كان لا يكتفى بسرد الأحداث بل كان يتدخل بالتعليق وإبداء الرأى في بعض الحوادث ويتخذ ذلك أشكالاً عديدة منها :

أ- الثناء على التصرف في بعض الحوادث :

كنحو قوله :

" والحق أن عدم اكتراث السردار الأكرام بهجوم ستة أوسبعة آلاف من طائفة الأرناءوط على خيمته واعتباره ذلك كأنه لم يكن وإخماده تلك الفتنة بسهولة ببضع كلمات رقيقة دون أن يصد عن تناول طعامه ، لأمر يستحق كل ثناء واطراء [1] .

ب- المدح أو الذم :

ومن ذلك قوله عن الجزار باشا :

" ... واذا تأملنا ذلك ووزناه بميزان الإنصاف ، وجدنا أن الجزار باشا أنسى اسم رستم من الدنيا وأسكت راوى قصص جمشيد وعنترة ، واستحق رأسه أن يزين بطرة مرصعة بكثير من الجواهر ، وكان خليقاً بكل اطراء وثناء لقاء تلك الخدمة التى أسدها للدين والدولة [2].

وقوله كذلك عن الجزار باشا :

" غير أن سيرة المذكور لم تكن على وتيرة واحدة ، وكان شخصاً غريب

١- ضيا نامه : ص ١١٨٣ .

٢- ضيا نامه : ص ١١١١ .

الأطوار ، متلوناً ، يخشى الصديق خشيته للغريب ، ومن ثم صدرت عنه بعض الأحوال الخرقاء ... مما ألصق شرفه ومجده بالرغام[1] .

وكقوله يصف أحد أنهار قرية (نبك) إحدى قرى الأناضول :

" ويخترقها نهر لطيف عذب ماؤه صيفاً وشتاءً ، وهو حقاً ماء عذب لذيذ يعمر الروح ،وربما أنه لم يُشاهد نظيره كذلك في أرضروم التى تشتهر بعذوبة أنهارها [2] .

وكنحو قوله في وصف فساد طائفة الديوانكان :

" إنها طائفة فاجرة ، لاحياء لها ولا إيمان ، احتشدت من الأكراد والتركمان ، ورويداً رويداً فاقوا طائفة (اللوندية) [3] وسبقوهم آلاف الفراسخ في درب الطغيان والفساد،" قاتلهم الله أنى يؤفكون " [4]

جـ - نقد أحوال الناس وتصرفاتهم :

تمثل ذلك في نقده لتصرف أهالى الإسكندرية عندما لبوا دعوة نابليون للقدوم إلى الأسطول الفرنسى وقت مجيئه لأول مرة ، الأمر الذى سهّل على الفرنسيين الاستيلاء على البلاد بعد أن أصبح الأهالى بلا قائد يسوسهم ، يقول المؤلف في ذلك :

"وفى حين كان الدفاع عن البلاد حقا عليهم ، انعدم فيهم وجود شخص أريب يفطن إلى حقيقة الأمر ، فاصطحب كل من وجد من كبار البلد القنصل الفرنسى الملعون واستبقوا فيما بينهم المضى إلى أسطول الفرنسيين ... ولم

١- ضيا نامه : ص ١١١١ ، ١١١ب .

٢- ضيا نامه : ص ١٢٧ب .

٣- اللوندية : فئة من الجند كانت تعمل بالأسطول العثماني .

B. Sitki Baykal , (a.g .e) , s. 88 .

٤- ضيا نامه : ص ١١١٩ ، المنافقون : (٤).

يكن بين عامة الناس في الإسكندرية من يميز بين الغث والسمين فكانوا طائفة من الفلاحين البلهاء عديمي الفهم ، محصوري التفكير ومن ثم لم يسألوا أنفسهم عن معنى مثل هذه التداركات الحربية العظيمة وعدم عودة من مضى من رجالهم إلى الأسطول ... وعلى حين كان حقاً عليهم الدفاع عن السواحل ورد أجناد المشركين ..... استكانوا جميعاً قريري العين في فراش النوم والغفلة ، فسر الأعداء وامتنوا من غفلتهم وحماقتهم هذه ولم يؤجلوا عمل اليوم إلى الغد وتحينوا الفرصة واعتقلوا من دعوه من كبار رجال الإسكندرية في تلك الليلة داخل سفنهم وشدّوا وثاقه."[1]

كما كان عزت أفندي يحاول الكشف عن مواطن العبرة والعظة في الحوادث التي يذكرها ، ومن أمثلة ذلك كلامه في معرض الحديث عن نساء المماليك وجواريهم اللاتي احتجزن من قِبَل الفرنسيين ثم أفرج عنهن بعد شفاعة الأعيان والمشايخ ، بعد أن جردن من ثيابهن وأوين إلى الجامع الأزهر عليهن زرق الثياب ، يعشن على صدقات أهل الخير ، يقول المؤلف في ذلك :

" وهؤلاء النسوة كن منذ أسبوع يتقلبن في أعطاف نعيم الأمراء والكشاف ، إذ بهن في غضون أيام قلائل صرن يأوين في الجامع الأزهر الشريف ، حافيات متسولات ، يأكلن من صدقات فاعلي الخير ، ولما طالع ذلك أولو الألباب ، اعتبروا من تلك الدنيا الغرورة الفانية " [2] .

وكذلك قوله في معرض حديثه عن أحوال المماليك :

" ... ومضوا في طريق الغي إلى أبعد مدى فأنكروا الآيات القرآنية والأحاديث النبوية واتخذوها هزوا ، فسلط الله عليهم قوماً دهريو المذهب

١- ضيا نامه : ص ٤٨ب ، ١٤٩ .

٢- ضيا نامه : ص ٦٧ب .

كفرة معاندين هم الفرنسيون ، وذلك مصداقاً للحديث القدسي الذي جاء فيه :
" إذا عصاني من يعرفني ، أسلط عليه من لا يعرفني " [1] وكقوله كذلك في معرض حديثه عن المصائب التي نزلت بالجيش العثماني أثناء مقامه بصحراء يافا :
" بيد أنه مصداقاً لقوله تعالى : " لا عاصم اليوم من أمر الله " [2]، استفحل الوباء، واشتد الشتاء ، وتعاظم البلاء ، وفي حين تجلى معنى المصراع القائل " لا طاقة لبشر على احتماله حتى ولو كان جبلاً شامخاً .... انجلت الغمرة بحمد الله تعالى وعلم أرباب البصيرة أن بعد العسر يسراً "[3]

ومما يميز عزت أفندى في (ضيا نامه) أيضاً أنه كان يفصح عنعاطفته تجاه الأشخاص والأحداث ، فيشعر القارىء بوجود شخصيته وروحه في ثنايا الكلام ، مما يشعر قارىء (ضيا نامه) بالمشاركة الوجدانية للأحداث حسب رؤية عزت أفندى وربما ينساق دون أن يدرى إلى وجهة نظر عزت أفندى في الأحداث . كنحو قوله :

" انتقل والدى إلى روضة الجنة ، فأخرست فجيعتى فيه لسانى ،وانقصم ظهرى تحت أعباء الهم والعوز[4] .

وقوله كذلك عن مراد بك الذى خان الدولة وتحالف مع عدوها :

" أزهق الطاعون المبارك روح الملعون ، وأحله دار البوار [5] .

١- ضيا نامه : ص ١٢١١ . وقد ورد هذا الأثر في كتاب البداية والنهاية لابن كثير ، جـ ١٣ ، ص ٨١ .

٢- هود : (٤٣) .

٣- ضيا نامه : ص ١٢ .

٤- ضيا نامه : ص ١١٧٢ .

٥- ضيا نامه : ص ٢١١ب .

كما لم يملك عزت حسن أفندى نفسه من غلبة سخطه على الفرنسيين أعداء دينه ، فكان يمعن فى سبهم واصفاً اياهم دوماً بالمشركين والكفـرة ، ولا يذكر قائداً من قادتهم إلا ويصدر اسمه بلفظة لعين أو كافر .

مصادر (ضيا نامه)

حيث إن أي مـؤرخ لا يمكـن أن يعتمـد فيمـا يكتـب علـى المشـاهدات الشخصية فحسب ، بل لابد له من روافد بديلـة ليكتمل لـه بنـاء الأحـداث التـي يسردها ، فقد اعتمد عزت حسن أفندي في بناء مـادة مؤلفـه علـى نوعين مـن المصادر هما :

(أ) – المشاهدة والمشاركة الشخصية :

سجل المؤلـف الحـوادث التـي عايشـها وشـاهدها بنفسـه ، وتتضمـن مخطوطتـه الكثير مـن العبـارات الدالـة علـى أنـه اعتمـد اعتمـاداً أساسياً علـى عنصـري المشـاهدة والمشـاركة الشـخصية كمصـدر يسـتقي منـه المعلومـات ، خصوصاً في تدوينه لأحداث حملـة الصـدر الأعظـم يوسـف ضيـا باشـا لتحريـر مصر ، وملابساتها التي وقعت تحت ناظريه ، علماً بأنـه كـان مشتركاً فـي تلـك الحملة .

ومن أمثلة تلك العبارات قوله :

" ... وكنت أحضر مجالسه أينما انعقدت [1] " .

---

١ – ضيا نامه : ص ٣ب .

وقوله :

" ... شرعت في في الكتابة إجمالاً عن هذه الأحداث التي وقعت تحت ناظري[1] " .

وقوله :

" ولاشتراكي في هذه العملية العسكرية فقد دونت حوادثها [2] " .

وقوله :

" ...كما أن التشريفات الجليلة التي أُرسلت إلى مختار باشا ... أرسلت معي أنا عزت حسن أفندي نامق هذه الحروف " . [3]

وقوله أيضاً :

" ... التقيتُ بعلي باشا في ... وخلع عليّ هو الآخر " . [4]

وقوله :

" ... رجعتُ أدراجي ومعي القادة الأسرى " . [5]

كذلك نقرأ :

" ... فإذا بي في هذه المرة لا أجد الضريح المذكور كما سمعت عنه من قبل ... وجدته مزاراً ... ولما استفسرت عن ذلك من خدمة الضريح أخبروني أنه ... " . [6]

١- ضيا نامه : ص ١٥ .

٢- ضيا نامه : ص ٢٥ب .

٣- ضيا نامه : ص ١٩٢ .

٤- ضيا نامه : ص ٩٢ب .

٥- ضيا نامه : ص ٩٢ب .

٦- ضيا نامه : ص ١١٥ب .

وأيضاً قوله " ... حتى أنني الفقير أمرت بالمضي مع السر عسكر ... فخرجت معه ".(١)

ومن ذلك أيضاً قوله :

" وعند نيل المشار إليه الوزارة ، مثلت بين يدي الحضرة العالية الآصفية".(٢)

وقوله :

" ... حتى أن الخيمة العتيقة البالية التي كانت تأويني انهدمت فوقي ... وأخرجوني من تحت أنقاض الخيمة ... فإذا بي أرى أن جميع العساكر قد تشوش نظامهم ."(٣)

(ب) – المصادر العربية :

ليس بإمكان قارئ (ضيا نامه) التعرف على المصادر التاريخية التي اعتمد عليها عزت أفندي في بناء مادة مؤلفه هذا إذا لم يكن لديه طول نظر وقراءة في مصادر تلك الحقبة التي تناولت ذلك الحدث ، حيث إن المؤلف كان يجري على عادة المؤرخين في عصره فيهمل الإشارة إلى المصدر الذي استقى منه ، أو أن يسنده إلى مبهم كنحو قوله :

" يذكر التاريخ فيما يذكر من أخبار الزمان وأهله أنه ... " (٤) ، وقوله أيضاً:

١- ضيا نامه : ص ١٧٩أ .

٢- ضيا نامه : ص ٢٢٠ب .

٣- ضيا نامه : ص ٢٣١أ .

٤- ضيا نامه : ص ٤٦أ .

" يذكر المتبحرون في أخبار الزمان من المؤرخين أن ... " [1] .

لم يشذ المؤلف عن هذا المنهج إلا مرة واحدة حينما أشار إلى نقله عن كتاب (تقويم البلدان) للملك المؤيد "أبي الفداء في معرض حديثه عن قلعة (قورفو)[2] .

وعدا ذلك لم يذكر المؤلف أى مصدر من المصادر التي اعتمد عليها ولكن بالنظر في (ضيا نامه) والمقابلة بين ما ورد بها من مادة تاريخية ، وبين ما ورد في المصادر العربية التي تتناول نفس الحقبة نجد أن عزت أفندي قد اعتمد اعتماداً عظيماً على مصدر عربي شهير هو (مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس) لعبد الرحمن الجبرتي . وليست هناك صعوبة في التعرف على هذه الحقيقة ، إذ أن عزت أفندي كان يورد نص الجبرتي بحذافيره ، وبنفس ترتيب العبارات ، وذلك بالنسبة للأحداث التي وقعت في مصر قبل قدومه مع حملة الصدر الأعظم يوسف ضيا باشا ؛ أما الأحداث التي عايشها وشهدها فقد سجلها ـ كما سبق أن أشرنا ـ اعتماداً على مصادره الشخصية . ولنورد الآن نصين أحدهما لعبد الرحمن الجبرتي والآخر لعزت حسن أفندي لنتبين تلك الحقيقة ولنر إلى أى مدى اعتمد عزت أفندي على كتاب عبد الرحمن الجبرتي في تدوينه لبعض الأحداث التي لم يتأت له رؤيتها .

– نص الجبرتي :

" ... وفيه طلب صاري عسكر بونابرت المشايخ ، فلما استقروا عنده

١- ضيا نامه : ص ٧١ب .

٢- ضيا نامه : ص ٩٤ب .

نهض بونابرت من المجلس ورفع بيده طيلسانات ملونة بثلاثة ألوان ، كل طيلسان أبيض وأحمر وكحلي ، فوضع منها واحداً على كتف الشيخ الشرقاوي ، فرمى به على الأرض واستعفى وتغير لونه ، فقال الترجمان : يا مشايخ أنتم صرتم أحباب صاري عسكر ، وهو قصده تعظيمكم وتشريفكم بزيه وعلامته ، فإنكم إذا تميزتم بذلك عظمتكم الناس والعساكر وصار لكم منزلة في قلوبهم " فقالوا له : لكن قدرنا ينحط عند الله وعند إخواننا المسلمين ، فاغتاظ لذلك ورطن بلسانه وبلّغ عنه بعض المترجمين أنه قال - عن الشيخ عبد الله - : هذا لا يصلح للرياسة ، ونحو ذلك ، فلاطفه بقية الجماعة واستعفوه من تلك الشالات ، فقال : إن لم يكن هذا فلازم وضعكم (الجوكار) في صدوركم ، وهى العلامة التي يقال لها الوردة ، فقالوا : أمهلونا حتى نتروى في ذلك ، وأنفقوا اثني عشر يوما، وفي ذلك الوقت حضر شيخ السادات[1] باستدعاء ، فلما استقر به الجلوس بش وضحك له الصاري عسكر ، وتملق بين يديه بلطيف القول الذي يعربه الترجمان، وصار يقبل يده تارة ، وركبته أخرى ، وأهدى له خاتماً من ماس ، وكلفه للحضور عنده من الغد وقام وانصرف ؛ وفي ذلك الوقت نادى جماعة القلقات على الناس بوضع العلامات المعروفة بالوردة ، وهي عبارة عن ظهور علامة إمرة الطاعة والمحبة عندهم ، فأنف الناس ذلك ، وبعضهم رأى أن ذلك لا يخل بالدين إذ هو مكره ويترتب على

---

١ - شيخ السادات : هو شمس الدين أبو الأنوار بن عبد الرحمن بن عارفين ، ولد بالقاهرة وجاور بالأزهر ، وفي عام ١١٨٢هـ خلف جده أبا الامداد في شياخة سجادة السادات (الوفائية) ، عين عضواً في الديوان الذي أنشأه نابليون في القاهرة ، ثم اشترك في ثورة القاهرة الثانية مما أدى إلى حبسه . توفى عام ١٢٢٨هـ = ١٨١٢م .

أحمد عطية : القاموس الإسلامى ، مكتبة النهضة المصرية - القاهرة - ١٩٦٣ - جـ١ - صـ١٨٣

عدم الامتثال مزيد من الضرر ، فوضعها ، ثم في عصر ذلك اليوم نادوا بإبطالها من العامة ، وألزموا بعض الأعيان ومن يريد الدخول عندهم لحاجة بوضعها ، فكانوا يضعونها إذا حضروا، ويرفعونها إذا انفصلوا عنهم ، وذلك أياما قليلة "[١]

– نص عزت أفندي :

" ... وفي اليوم التالي استدعى بونابرت كبار المشايخ وأعيان البلاد إلى مجلسه ، وأحضر عدة أوشحة ملونة بثلاثة ألوان هي : الأبيض والأحمر والكحلي ، وطلب إلى المشايخ أن يلبسوها ، فوضع واحداً منها على كتف الشيخ الشرقاوي ، فطرحه على الأرض وامتقع لونه وبدت عليه أمارات الغضب والحدة ، فقال الترجمان يا مشايخ إنما يقصد قائدنا إلى التعبير عن محبته لكم وتعظيمه ، وتشريفكم بين الناس والعساكر ، فقالوا له : ولكن هذا الأمر يتنافى مع ديننا ، ومن شأنه إسقاط قدرنا وهيبتنا لدى إخواننا المسلمين ، وعليه نحن نؤثر القتل والاستشهاد على أن نفعل ذلك ، وأبوا ارتداء ذلك النوع من الأوشحة، فاغتاظ بونابرت وثارت ثائرته وقال : إن الشيخ الشرقاوي هذا غير جدير بالرياسة ولا يصلح لها ، ثم لج في إلحاحه وقال ، لابد أن تضعوا الجوكار على صدوركم ، فقالوا : أمهلونا حتى نتشاور في الأمر فيما بيننا ، وخرجوا من مجلسه . وفي اليوم التالي مضى بونابرت إلى شيخ السادات وغالي في مجاملته، فقبل يده تارة ، وركبته تارة أخرى ، وبعدها نادوا بوضع الشارات المذكورة المعروفة بالجوكار على صدور العوام كافة شيبا وشباباً ،عظماء ووضعاء ، وبعد عدة ساعات ولحكمة لا يعلمها أحد نادوا من جديد بإبطال وضع تلك الشارات على صدور العوام وقصرها على الأعيان دون غيرهم " .[٢]

١– الجبرتي : مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس ، تحقيق حسن محمد جوهر وعمر الدسوقي ، دار البيان العربي ١٩٦٩م ، ص ٥٩ – ٦٠ .

٢– ضيا نامه : ص ٧٣ب – ١٧٤ .

وبمقارنة النصين يتضح أنهما متشابهان إلى حد بعيد جداً ، وتكاد تكون العبارات بنفس الترتيب ، وأن صنيع عزت أفندي لا يعدو أن يكون حذفاً لبعض العبارات التفصيلية والتعبير بإسلوبه الخاص عن بعض العبارات ، وإليكم النص التالي :

– نص الجبرتي :

" ذهب جماعة من القوامة الذين يخدمون الفرنسيس وشرعوا في هدم التراكيب المبنية على المقابر بتربة الأوزبكية ، وتمهيدها إلى الأرض ، فشاع الخبر بذلك ، وسمع أصحاب الترب بتلك الواقعة ، فخرجوا من كل حدب ينسلون وأكثرهم النساء الساكنات بحارات المدابغ وباب اللوق وكوم الشيخ سلامة والفوالة والمناصرة وقنطرة أمير حسين وقلعة الكلاب ، إلى أن صاروا كالجراد المنتشر ، ولهم صياح وضجيج واجتمعوا بالأزبكية ووقفوا تحت بيت صاري عسكر ، فنزل لهم التراجمة واعتذروا بأن صاري عسكر لا علم له بذلك الهدم ولم يأمر به ، وإنما أمر بمنع الدفن فقط ، فرجعوا ورُفع الهدم عنهم ".[1]

– نص عزت أفندي :

" شاع أن الفرنسيين شرعوا في هدم المراقد والمزارات الواقعة في الأوزبكية ، فتحزب الأهلون وتقاطرت جموعهم إلى باب بونابرت ، فنزل إليهم من أعلمهم أن سر عسكرهم لاعلم له بذلك ولم يأمر به وهدأوا من روعهم وطمأنوهم " .[2]

بعقد المقارنة بين النصين يتضح لنا أن عزت أفندي تلقى تلك المعلومة عن الجبرتي وأجملها إجمالاً دونما إخلال ، وسردها بأسلوب أكثر إجمالاً من أسلوب المشاهدة الذي يسترسل فيه المشاهد في وصف ما تقع عليه

---

١ – الجبرتي : مظهر التقديس ، ص ٦٩ .

٢ – ضيا نامه : ص ١٧٥ .

عينه ، حيث ينساق مع الرواية فيسهب ويستطرد ، أما من يعتمد في تسجيله على مصادر غير مصادره الشخصية فيحاول دائما الإيجاز مثلما فعل عزت أفندي في تدوينه لهذه الحادثة ، وأكثرية الحوادث التي لم يشاهدها فنقلها عن الجبرتي .

أهمية مخطوطة (ضيا نامه)

أولاً : أهمية (ضيا نامه) في العلاقات الدولية بين الدولة العثمانية وإنجلترا وفرنسا وروسيا :

تعد (ضيا نامه) وثيقة تاريخية لها أهمية كبيرة تؤرخ لفاتحة مرحلة الصراع بين القوى الاستعمارية وعلى رأسها إنجلترا وفرنسا وروسيا للاستيلاء على أملاك الدولة العثمانية المنهارة ، وفرض سيطرتها على الشرق عموماً وعلى مصر خصوصاً التي كانت ولا تزال تتمتع بموقع استراتيجي هام على طرق التجارة العالمية جعلها مطمعاً للغزاة والمستعمرين على مر العصور

وفي الإمكان أن نتبين أهمية (ضيا نامه) في التأريخ للعلاقات الدولية بين الدولة العثمانية وإنجلترا وفرنسا وروسيا فيما يلي :

١- تتبعت (ضيا نامه) مواقف إنجلترا إزاء الحملة الفرنسية ، منذ قدوم الأسطول الإنجليزي بقيادة (نيلسون) إلى سواحل الإسكندرية ـ قبيل مجيء الفرنسيين ـ بحثاً عن الأسطول الفرنسي ، ثم رحيله لتمشيط مياه حيفا وعكا واللاذقية والإسكندرونة ، وعودته أدراجه إلى الإسكندرية ، وعثوره على الأسطول الفرنسي وتدميره في معركة من المعارك الحاسمة في مسيرة التاريخ الحديث للعالم عموماً وفي تاريخ البحرية خصوصاً .إذ حسمت هذه المعركة مصير الحملة الفرنسية على مصر والشام ، بل حسمت الحرب بين إنجلترا وفرنسا في الأعوام التالية لها ، حيث انتهت بانتصار إنجلترا على فرنسا لانهيار القوة البحرية لفرنسا ،كما رصدت (ضيا نامه) الدور الهام للأسطول

الإنجليزي بقيادة (سدني سميث) [1] في مساعدة أحمد باشا الجزار - والي صيدا - في الدفاع عن عكا أمام غزو نابليون ، وتحطيمه السفن الفرنسية الصغيرة التي نجت من موقعة (أبو قير) ، ورسوه بالأسطول في ميناءي حيفا وعكالموالاة العون للجزار باشا ، وقطع خطوط إمدادات الفرنسيين ، مما زاد من مقاومة حامية عكا وقدرتها على الصمود ، ويأس نابليون من نجاح حملته على الشرق ، وإجباره على التراجع عن عكا والعودة إلى فرنسا سراً فيما بعد .[2]

٢- تشير (ضيا نامه) على وجه التفصيل إلى ملابسات الوساطة التي قام بها الإنجليز بين جيش الصدر الأعظم يوسف ضيا باشا وجيش الفرنسيين في مصر بقيادة كليبر لتنظيم إجلاء الفرنسيين عنها ، فيتحدث المؤلف فيبين كيف أن هذه الوساطة بدأت بقدوم سميث - قائد الأسطول الإنجليزي في البحر المتوسط - إلى يافا ولقائه مع الصدر الأعظم ، وإخباره بأنه تلقى رسالة من كليبر قائد الفرنسيين، يعرب له فيها عن رغبته في الصلح مع الدولة العثمانية ، ويطلب التوسط معها في أمر المصالحة ، وما أفضت إليه هذه الوساطة من إبرام اتفاق عرف باتفاق العريش (شعبان ١٢١٤هـ = يناير ١٨٠٠م) ، والذي كان ينص على خروج الفرنسيين وجنودهم وجميع مهماتهم إلى فرنسا على نفقةالحكومة العثمانية ، وبدء دخول طلائع القوات العثمانية مصر[3] ، وهنا يذكر عزت أفندي أن سميث أرسل رسالة إلى القائد العثماني سيد مصطفى باشا ، يطلب إليه نقض المعاهدة والقضاء على الفرنسيين ، متى خرجوا للبحر

١- سدني سميث : من أمراء البحر الإنجليز ، ولد عام ١٧٦٤م ، دافع عن عكا ضد نابليون بونابرت عام ١٧٩٩م ، ووقع معاهدة العريش مع كليبر والصدر الأعظم يوسف ضيا باشا .

انظر شمس الدين سامي : قاموس الأعلام ، جـ ٢ ، ص ١/٩٥٤ .

٢- ضيا نامه : ص١٤٦ - ١٠٧

٣- عن الدور الذي قام به الإنجليز للتوسط بين العثمانيين والفرنسيين انظر :

ضيا نامه : ص ١٤٢أ ، ١٤٢ب ، ١٤٧ب ، ١٤٨أ .

الأبيض المتوسط ، الأمر الذي أدى إلى تشكك العثمانيين في تواطؤ الإنجليز مع الفرنسيين ، من جهة ، وتشكك الفرنسيين تجاه العثمانيين من جهة أخرى ، مما حدى بكليبر إلى المبادرة بفسخ المعاهدة ومداهمة طلائع قوات الصدر الأعظم التي بادرت إلى دخول القاهرة دون أن تحمل معها العتاد الحربي الكافي ، وتتخذ الضمانات الكافية ، ورابطت في المطرية وعين شمس ، مما أجبر الصدر الأعظم على الارتداد إلى يافا [1] .

٣- تعرضت (ضيا نامه) لما قام بين إنجلترا والدولة العثمانية من تحالف وتعاون لإخراج الفرنسيين من مصر حينما طلب السلطان العثماني العون من الأسطول الإنجليزي ، ودعاه للقدوم لموازرة الأسطول العثماني الذاهب لمهاجمةالفرنسيين في مصر ، وقدوم الأسطول الإنجليزي إلى موانى مارماريس ومكري وقبرص - من موانى الدولة العثمانية - للتأهب للزحف مع الأسطول العثماني نحو مصر ، وتشرح (ضيا نامه) بالتفصيل ما بذله الأسطولان في العمليات العسكرية لاستخلاص القلاع والحصون الساحلية الرئيسية والهامة على النيل والبحر المتوسط مثل رشيد ودمياط وإجبار من بها من الفرنسيين على التسليم ، ونقلهم إلى السفن الإنجليزية والعثمانية التي تولت ترحيلهم إلى ميناء طولون الفرنسي ، حتى تم التنسيق بين قوات الصدر الأعظم وبين القوات الإنجليزية لتنفيذ الهجوم المشترك على القاهرة ، وإجبار من بها من الفرنسيين كذلك على اللجوء إلى قائد القوات الإنجليزية (آنشف) للوساطة في أمر الصلح مع الدولة العثمانية ورحيل الفرنسيين عن القاهرة ، إلى أن خلصت الأساطيل العثمانية والإنجليزية إلى حصار مينو المحصور في الإسكندرية وتشديد الحصار عليه إلى أن اضطر إلى طلب هدنة ثلاثة أيام يستعد خلالها لتسليم الإسكندرية ، والجلاء عن البلاد ، بعدها تم الاتفاق بين القوات

١- ضيا نامه : ص ١١٥٢ - ١١٥٦ .

العثمانية والإنجليزية والفرنسية على ترحيل الفرنسيين إلى بلادهم لتنتهي بذلك فترة الاحتلال الفرنسي لمصر .[1]

٤- تكشف (ضيا نامه) على نحو شديد التفصيل عن الأزمة التي طرأت على علاقات الحليفتين : الدولة العثمانية وإنجلترا ، بعد أن نجحتا في إخراج الفرنسيين من مصر ، حتى أن الحرب بين القوات العثمانية والإنجليزية في مصر كانت وشيكة الوقوع ، وذلك حينما أقدم الصدر الأعظم يوسف ضيا باشا والقبودان دريا حسين باشا - بناء على أوامر صريحة وحاسمة من السلطان - على اعتقال المماليك تمهيداً لنقلهم إلى الآستانة بعد أن تطلع هؤلاء الأمراء إلى امتلاك زمام الأمور في مصر بعد خروج الفرنسيين منها ، مما أدى إلى تدخل قائد القوات الإنجليزية في مصر ، مدفوعاً بما وعده المماليك من امتيازات ، إذا ضمن الإنجليز الحماية لهم والبقاء في مصر ، وقام القائد الإنجليزي بطرد القوات العثمانية من الإسكندرية ، وأعلن أنه مكلف من قِبَل حكومته بحماية أمراء المماليك ، ووبّخ قائد القوات العثمانية البحرية إذ قال له : " إن قتل الأمراء وحبسهم يوجب علينا حربكم " ، وأردف قائلاً : " ولقد أرسلتُ إلى رجالي في رشيد كذلك لتخليص من قُبض عليه من الأمراء في مصر لدى بلوغه رشيد ، ولن أدع الصدر الأعظم يمر في البحر ، وليمض إذاً من حيث أتى ، ومن الآن فصاعداً لا شأن لكم بنا ، وإذا ما قدمتم إلينا فسوف تتوبون وقد لطخ العار وجوهكم " [2].

كما أحاطت القوات الإنجليزية بالقوات العثمانية ، فتأهبت القوات العثمانية لقتالهم ، فمنعهم القبودان باشا وأطلق سراح من قبض عليه من

١- ضيا نامه : ص ١٧٤ب ، ١٨٠ا، ١٨٠ب، ١٨١ا، ١٨١ب، ١٨٢ا، ١٨٨ب، ١٨٩ا، ١٨٩ب، ٢٠١ب، ٢٠٢ب، ٢٠٣ا.

٢- ضيا نامه : ص ٢١٥ا ، ٢١٥ب .

المماليك، وتوضح (ضيا نامه) استمرار الأزمة وكيف أن الباب العالي أرسل إلى ملك إنجلترا يخبره " أنه لم يعد من الجائز أن يبقى الأمراء في مصر ، لما سبق أن أبانوا عنه من الاستبداد والطغيان وأن الدولة لا تريد بهم سوءاً ، وسوف توفر لهم كل أسباب العيش الرغد في الآستانة ، أو في أي ولاية أخرى من الولايات الشاهانية يرغبون في الإقامة بها " ، وأعرب السفير الإنجليزي في الآستانة عن عدم رضاء حكومته عن تصرفات الأميرال الإنجليزي (آنشف) وتواطؤ هذا السفير معه ، حتى مكنوا المماليك من الهرب إلى نواحي أسوان والسودان ، وفوّتوا على الدولة فرصة القضاء على نفوذهم في مصر .[1]

٥- لم تغفل (ضيا نامه) تسليط الضوء على مرحلة من مراحل العلاقاتالعثمانية ـ الروسية وهي مرحلة تحالف وصداقة لم تدم طويلاً ، وكيف أن روسيا ألد أعداء الدولة العثمانية دعتها مصلحتها وظروفها إلى عقد تحالف مع العثمانيين ، علاوة على ذلك أرسلت عدة سفن من أسطولها وعدداً من جنودها لمساعدة الأسطول العثماني في فتح جزيرة (قورفو) [2] وتوابعها واستخلاصها من الفرنسيين ، وقد كان هذا الفتح هاماً للعثمانيين إذ إن هذه الجزر كانت قريبة جداً ومواجهة لسواحل المورة وألبانيا ، وكان بسط الفرنسيين سيطرتهم عليها يعد تهديداً للممالك العثمانية ، إضافة إلى وصول الأنباء إلى الباب العالي بأن الفرنسيين بعد أن استولوا على مصر عمدوا إلى إثارة الفتن بين نصارى الأرناءوط في المناطق القريبة من قلاع (قورفو) والتحريض على الدولة العثمانية والانقياد للجمهورية الفرنسية ، وتصور (ضيا نامه) العمليات العسكرية العثمانية ـ الروسية المشتركة ونجاحها

١- عن الخلاف الذي نشب بين القوات الإنجليزية والعثمانيين بسبب المماليك انظر : ضيا نامه : ص ٢١٥ب - ١٢١٧ .

٢-قورفو : جزيرة تبلغ مساحتها ٥٩٣ كم٢ ، باليونان ، ثانية الجزر اليونانية مساحة ، يفصلها خليج ضيق عن الساحلين : اليوناني والألباني ، عاصمتها قورفو .

الموسوعة العربية الميسرة ، جـ ٢ ص ١/١٥٠٠ .

فيمهمتها [1]، ويذكر المؤلف أن الصدر الأعظم كلفه بالسفر إلى (قورفو) لإحضار عدد من كبار الأسرى الفرنسيين الذين أسروا في تلك العملية [2] .

ثانياً : أهمية (ضيا نامه) في التاريخ المصري في العهد العثماني :

ما من شك في أن (ضيا نامه) لها منزلة مرموقة بين المصادر التاريخية التي أرّخت لمصر في فترة من أخطر فترات تاريخها الحديث ، وهي فترة الاحتلال الفرنسي لها (١٢١٣ - ١٢١٦هـ = ١٧٩٨ - ١٨٠١م) ، وفي الإمكان إيضاح هذه الأهمية فيما يلي :

١- يكفي (ضيا نامه) قيمة أنها تعد المصدر العثماني الأوحد إلى اليوم - على حد علم الباحث - الذي انفرد بتأريخ دور العثمانيين في إخراج الحملة الفرنسية من مصر ، وذلك في دقة بالغة واستيعاب شامل ، فهذا المخطوط تكملة لحقائق وتفاصيل هامة لم يتمكن الجبرتي أو غيره من مؤرخي تلك الحقبة من الإحاطة بها وتوضيحها على وجه التفصيل ، فعلى الرغم من أن الجبرتي ونقولا الترك أرّخا للغزو الفرنسي لمصر ، فإنهما اقتصرا على ذكر الأحداث التي وقعت داخل مصر فحسب ، ولم يستطردا إلى ذكر شيء عن الحملة البرية والحملة البحرية اللتين أرسلتهما الدولة العثمانية إلى مصر لاستخلاصها من الفرنسيين ، كما أنهما لم يتحدثا عن أحوال أساطيل الحلفاء وجهودها في هذا الشأن ؛ وقد كان هذا هو السبب الأساسي لتأليف (ضيا نامه) بناء على تكليف رسمي من الصدر الأعظم يوسف ضيا باشا [3] ، ومن هنا كان تأليف (ضيا نامه) بمثابة رد الحلقة المفقودة إلى وضعها في المصادر العربية المحلية التي أرخت للحملة الفرنسية على مصر ، وحوت وفرة من التفاصيل العربية لم يتأت للمؤرخين المحليين أمثال الجبرتي ونقولا الترك ذكرها .

١- ضيا نامه : ص ٩٠ب-٩٣ب .

٢- ضيا نامه : ص ٩٣ب .

٣- ضيا نامه : ص ٤أ ، ٤ب .

ومما يزيد من قيمة هذا المصدر أن مؤلفه عزت حسن أفندي كان مرافقاً للحملة البرية التي قادها الصدر الأعظم لإخراج الفرنسيين من مصر[1] ، مشاركاً في عملياتها[2]، مشاهداً عن قرب ما تتابع من وقائع ، متحرياً الأمانة والدقة والموضوعية في وصف الحقائق ما استطاع إلى ذلك سبيلا .

٢- أكسب المؤلف مخطوطه قيمة أخرى وهي ذكره المنازل التي نزلت بها الحملة البرية العثمانية لفتح مصر مع ذكر لمحات عن أحوال تلك المنازل وقت نزول الحملة بها ، فتحدث عن بعض مزاراتها ونبذة عن تواريخها ووصف آثارها وجبالها وبساتينها وحقولها ، كما أنه لم يغفل ظروف الحملة والأحداث التي مرت بها في طريقها منذ خروجها من الآستانة حتى عودتها إليها ، مثال ذلك الفصل الذي يحمل عنوان (في بيان المصائب المختلفة والنوازل المتنوعة التي نزلت بالجيش الهمايوني أثناء مقامه بصحراء يافا) حيث صور فيه المؤلف تفشي الطاعون بين صفوف حملة الصدر الأعظم ، صوره بمرارة يشعر بها قارؤه فيقول : " أثناء مقام الجيش الهمايوني بصحراء يافا ـ بحكمة الله تعالى ـ وبسبب تعفن الجيف والقاذورات والروائح الكريهة المنبعثة من أجساد الحيوانات، تفشت عديد من الأمراض ... من بينها طاعون غير مسبوق المثال ، فتك فتكاً ذريعاً بالشيخ والشاب والقوي والضعيف فتساقطوا كأوراق الخريف الذابلة ... ولم تنج خيمة من سهمه الفتاك ولم يخل موضع في مخيم الجيش في ليلة من الصراخ والعويل ، ولم تمر ساعة دون سماع صيحات وأنّات يذوب لها الفؤاد تأثراً وكمداً "[3].

٣- قدمت (ضيا نامه) صورة حية للمعارك التي دارت بين القوات العثمانية وقوات الفرنسيين منذ دخول طلائع القوات العثمانية القاهرة لأول مرة بعد توقيع

١- ضيا نامه : ص ١٣ .

٢- ضيا نامه : ص ١١٧٩ .

٣- ضيا نامه : ص ١١٧٠ .

اتفاق العريش (١٢١٤هـ = ١٨٠٠م) وهزيمتها في عين شمس والمطرية والقرين مبينة أسباب تلك الهزائم التي لحقت بالعثمانيين أثناء دخولهم مصر للمرة الأولى ، وصعوبة الظروف التي أحاطت بالعثمانيين ، وكيفية تغلبهم على هذه الظروف الصعبة وإعادة الكرّة على مصر ونجاحهم في إخراج الفرنسيين منها بمساعدة الإنجليز .

٤- اشتملت (ضيا نامه) على ترجمة إحدى الشخصيات التي تركت بصمات واضحة في تاريخ المنطقة وهي شخصية أحمد باشا الجزار [1] ، وقد ترجم عزت حسن أفندي له ترجمة أمينة فذكر ما له وما عليه ، فتحت عنوان (شجاعة الجزار باشا ودوره البطولي في هذه الحرب) نرى المؤلف يكيل آيات المديح لأحمد باشا الجزار فيقول :

" وحينما اتضح أن الجميع يائسون من محاربة الفرنسيين ومصاولتهم ، إذا بالجزار باشا بفئة قليلة من جنده ، وبعد طول محاصرة يلطخ وجوه أولئك الملاعين (يقصد الفرنسيين) بالعار وينال من هيبتهم واعتبارهم . وإذا ما تأملنا ذلك ووزناه بميزان الإنصاف وجدنا أن الجزار باشا أنسى اسم رستم من الدنيا وأسكت راوي قصص جمشيد وعنترة ، واستحق أن يزين رأسه طرة مرصعة

١- أحمد باشا الجزار : ولد في البوسنة . رحل إلى استانبول وهو في الثامنة عشر من العمر والتحق بخدمة حكيم أوغلو علي باشا الذي تولى على مصر عام ١١٦٩هـ = ١٧٥٥م ، ومضى معه إلى مصر ، ثم دخل في سلك المماليك واشتهر بالشجاعة وقوة البأس ولقب بالجزار لقتله سبعين من العربان من بينهم أربعة من كبار زعماء قبيلة الهنادي بمصر ، فدعاه علي بك بلوط قبان ، وعينه رئيساً للشرطة في مصر ، فأخلص الجزار وأبان عن كفاءة وجدارة ، فخلع عليه علي بك لقب بك ، ثم عاد أحمد بك الجزار إلى الآستانة ، ومنها رحل إلى سوريا حيث حالف ضاهر العمر ، لكنه سرعان ما انقلب عليه ووقف إلى جانب الدولة العثمانية ضده ، فكوفئ على صنيعه بمنحه ولاية عكا ، ثم ولاية صيدا .

انظر أحمد جودت باشا :تاريخ جودت، جـ ١ ص ٣٠٧ -٣٠٨ . وانظر أيضاً :

M. Çağatay Uluçay , (a.g.e) ,s.89/2 .

بكثير من الجوهر ، وخليق بكل إطراء وثناء لقاء تلك الخدمة التي أسداها للدين والدولة ."[1]

بعد ذلك ينتقل المؤلف بموضوعية شديدة لإحصاء المآخذ على الجزار باشا فيقول ٠ " غير أن سيرة المذكور لم تكن على وتيرة واحدة ، فقد كان شخصاً غريب الاطوار متلون ، موسوس ، يخشى الصديق خشيته للغريب ؛ ومن ثم صدرت عنه بعض الأحوال الخرقاء التي أُخذت عليه بخصوص غزو الفرنسيين لبلاد الشام مما ألصق شرفه ومجده بالرغام ".[2]

ويعدد المؤلف تلك المآخذ فيذكر أن أحمد باشا الجزار طرد الجند العثمانيين الذين قدموا لنجدة عكا وكانوا يبلغون ثمانية آلاف ، ولم يسمح لهم بدخول عكا ولم يقدم لهم المؤن ، وكذلك تعيينه قائد يفتقر إلى الكفاءة والحنكة العسكرية على التجريدة اليسيرة التي أرسلها لنجدة العريش ؛ مما تسبب في إلحاق الهزيمة بهذه التجريدة وإفناء أغلبية أفرادها ، وامتناعه عن مساندة الجيش العثماني بقيادة الصدر الأعظم يوسف ضيا باشا ، ومحاولة إثارة القلاقل ضده في الجزية العربية .[3]

٥- تضمنت (ضيا نامه) فصلاً طويلاً قدم فيه المؤلف معلومات قيمة عن وضع المماليك في مصر ، منذ الفتح العثماني لها على يد السلطان سليم الأول وتنظيماته وتنظيمات ابنه السلطان سليمان القانوني ، راصداً بدء اضطراب الأمور فيها إلى أن آل إلى المماليك زمام الحكم وخرجوا على سلطة الدولة وممثليها من الولاة العثمانيين ، ويعرّج المؤلف على حركة علي بك (بلوت قبان) للاستقلال بمصر مبيناً رأيه فيها ، ويتحدث عن انحراف المماليك عن صراط الدين وشروعهم في إبطال أحكام الشريعة المنصوصة في

١- ضيا نامه : ص ١١١أ .

٢- ضيا نامه : ص ١١١أ .

٣- ضيا نامه : ص ١١١ب - ١١٢ب .

القرآن الكريم، وكيف أنهم استحلوا دماء المسلمين والذميين وصادروا أموالهم وممتلكاتهم ، وكيف أبطلوا أحكام المواريث واعتبروا أنفسهم الوارث الشرعي الوحيد للمتوفين في مصر سواء كانوا مسلمين أو ذميين؛ ولذا يعد عزت أفندي الحملة الفرنسية عقاباً إلهياً أنزله بهم فيقول في ذلك : " فسلط الله عليهم قوماً دهريو المذهب ، كفرة معاندون هم الفرنسيون وذلك مصداقاً للحديث القدسي الذي جاء فيه : إذا عصاني من يعرفني أسلط عليه من لا يعرفني ".[1]

ويستمر المؤلف في إحصاء مآخذه على المماليك فيتحدث عن خيانة مراد بك واتفاقه مع الفرنسيين في مقابل تأميره على الصعيد والكف عن محاربتهم، ثم تودد المماليك في نهاية الأمر إلى الإنجليز بعد أن أحسوا أنهم الفئة الأقوى ، ووعدوهم بأنهم سوف يمنحونهم مزيداً من الامتيازات إن هم حموهم وضمنوا لهم البقاء في مصر ، بعد أن أيقنوا أن الدولة العثمانية تخطط للإطاحة بهم والقضاء على نفوذهم في البلاد ، ومحاولة الصدر الأعظم يوسف ضيا باشا والقبودان دريا حسين باشا اعتقال أمراء المماليك تمهيداً لنقلهم إلى الآستانة ، وتدخل الإنجليز وحمايتهم للمماليك ، حتى تمكنوا من الفرار إلى أسوان والسودان.[2]

٦- بالنسبة للأحداث التي دونها المؤلف نقلاً عن الجبرتي أو غيره من المؤرخين، وجدناه لا يكتفي بالنقل ، وإنما وجدناه شارحاً ، محللاً ، مبدياً رأيه فيما ينقله ، فعلى سبيل المثال لم يقتصر على نقل المنشور الذي أرسله بونابرت إلى أهالي مصر أول قدومه إليها من (مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس) للجبرتي ، بل ناقشه وتدبره ودحض مزاعمه وفضحها ، واستفاض في ذكر أحوال الفرنسيين ومذاهبهم وعقائدهم قبل الثورة الفرنسية وبعدها ، وكان يسأل ويجيب عن أسئلة لم يفطن لها أحد وهي : كيف طُبع ذلك المنشور ؟

١- ضيا نامه : ص١٢١١ . وهذا الأثر أورده الإمام ابن كثير في البداية والنهاية جـ١٣ص٨١

٢- ضيا نامه : ص ٢٠٨ب - ٢١٦ب .

ومتى تعلم الفرنسيون الخط العربي ؟ وكيف تأتى لهم الوقوف على شئون مصر وسبر أغوارها ؟ ، وأوضح قدم فكرة غزو مصر وبين أنها أقدم من نابليون وأنها تعود إلى عهد الملكية في فرنسا وليست فكرة وليدة الثورة الفرنسية ، ويذكر أن دعوة الفرنسيين للإخاء والمساواة والحرية إنما كان لخداع البلهاء والأجلاف من الناس.[1]

٧- وأخيراً إذا كنا نعلم من خلال المصادر العربية وجهة النظر العربية في مسألة إخراج الفرنسيين من مصر ، وكذلك نعلم وجهات النظر الفرنسية والإنجليزية من خلال مصادرهما التي تحدثت عن الفترة ، فإن (ضيا نامه) تعد الممثل الشرعي لوجهة النظر العثمانية الرسمية في هذه المسألة ، وهذا أمر يكسبها أهمية خاصة أكثر من كونها مجرد مصدر تاريخي عن الحملة الفرنسية على مصر .

١-ضيا نامه : ٥٢ ب ، ١٥٨

مكانة عزت حسن أفندي
بين المؤرخين العرب المعاصرين له

في هذه الفقرة سنتعرض لمكانة عزت حسن أفندي بين اثنين من المؤرخين العرب الذين اشتهروا في تلك الفترة ، هما الجبرتي ونقولا الترك اللذان أرخا لفترة من أكثر الفترات تقلباً واضطراباً في تاريخ مصر ، وتعرضا لحدث هام وحساس وهو الحملة الفرنسية على مصر وبلاد الشام .

ولمعرفة مكانة عزت حسن أفندي من هذين المؤرخين ينبغي علينا أولاً أن نعرض بإيجاز لسيرة كلٍ من الجبرتي ونقولا الترك كالتالي :

١ - الجبرتي :

هو عبد الرحمن بن حسن بن إبراهيم بن حسن بن علي ، حبشي الأصل، نزح أسلافه من (جبرت) - إحدى مقاطعات جنوبي شرقي الحبشة - وسُميت كذلك باسم قبيلة عربية هاجرت من بلاد العرب واستقرت فيها وكانت أرقى القبائل الحبشية المسلمة ، وأرجحها عقلا ، عُرفت بالتفاني في حب دينها والتفقه فيه ، وبميلها إلى تحصيل العلوم عامة والعلوم الدينية خاصة .[1]

ويذكر المؤرخون أن والده الشيخ حسن كان من كبار علماء الأزهر الشريف ، وكان على جانب كبير من الثراء ، ومغرماً بجمع نفائس ونوادر الكتب والمخطوطات .[2]

وُلد عبد الرحمن الجبرتي في القاهرة في سنة ١١٦٧هـ = ١٧٥٤م ، وقد نشأ في بيت علم ودين فشب على حب العلم والعلماء حتى غدا من كبارهم ، واشتغل بالتدريس في الأزهر ويبدو أن عبد الرحمن الجبرتي كان

١-الجبرتي : مظهر التقديس (طبعة لجنة البيان العربي) ، مقدمة المحققين .

٢- المصدر نفسه ، الموضع نفسه .

بطبيعته ميالاً إلى التاريخ فهو يقرر أنه " علم يُبحث فيه عن معرفة أحوال الطوائف وبلدانهم ورسومهم وعاداتهم وطبائعهم وأنسابهم ووفياتهم ، وموضوعه أحوال الأشخاص الماضية من الأنبياء والأولياء والعلماء والحكماء والشعراء والملوك والسلاطين وغيرهم ، والغرض منه الوقوف على الأحوال الماضية من حيث هي ، وكيف كانت وفائدة العبرة بتلك الأحوال ، والتنصح بها ، وحصول ملكة التجارب بالوقوف على تقلبات الزمن ، ليحترز العاقل عن مثل أحوال الهالكين من الأمم المذكورة السالفين ويستجلب حيار أفعالهم ، ويتجنب سوء أقوالهم ، ويزهد في الفاني ، ويجتهد في طلب الباقي ."[1]

وقد جُبل الجبرتي منذ الصغر على تسجيل ما يرى ويسمع وما يحس ، غير متأثر فيما يسجل بآراء أهل عصره ، والدهماء منهم بخاصة الذين اتهموه بميله إلى الفرنسيين على الرغم من أنه كان كارهاً للفرنسيين وسيئاتهم ولم يمنعه اختياره عضواً في الديوان في عهد (مينو) من أن ينتقد أعمالهم انتقاداً مراً الأمر الذي جعل الفرنسيين يصفونه بأنه (شيخ متعصب) .[2]

وقد استهل الجبرتي أعماله بكتابه المعروف (مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس) الذي أهداه للصدر الأعظم يوسف ضيا باشا ، ثم أتبعه بعمله الأشهر (عجائب الآثار في التراجم والأخبار) المعروف بتاريخ الجبرتي والذي يُعد أوثق مصادر عصره التاريخية .

وسنعرض في عجالة لكتابه الأول ، إذ أنه هو الذي يهمنا في هذا المقام:

بدأ الجبرتي تصنيف هذا الكتاب إثر خروج الفرنسيين من مصر في أواخر صفر من عام ١٢١٦هـ ، وانتهى منه كما يقول في سلخ شعبان من

١- الجبرتي : عجائب الآثار ، جـ١ ، ص ٣ .

٢- الجبرتي : مظهر التقديس ، مقدمة المحققين.

السنة نفسها ، وأهداه إلى الصدر الأعظم يوسف ضيا باشا إذ قال في خاتمته :
" ثم في الختم به إيماءة إلى أن مَن ألف الكتاب باسمه وحَليت ديباجته برسمه ، وهو مولانا الوزير دام علاه وتحلت الأيام بوجودها فيه وبقاه ... ثم لسدته التي هي مُلثم شفاة الإقبال ومحط رحال أفاضل الرجال أهدي كاسد هذا التصنيف وخامل هذا الترصيف ، فإن لاحظه بعين القبول ، وذلك هو المُبتغى والمأمول ، راج في معالم الأدب سوقه وبطابع السعود لاح شروقه ."[1]

ومن هذا المخطوط في دار الكتب المصرية نسختان : إحداهما بخط أحمد رزق النساخ ، والأخرى مجهول ناسخها . ونشر محمدعطا هذا المؤلف تحت عنوان (مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس ، يوميات الجبرتي) في جزئين ، ضمن مجموعة (اخترنا لك) ، في القاهرة عام ١٩٥٨م .

والجزء الأول يتضمن مقدمة تاريخية قصيرة يبدأ المؤلف بعدها بسرد أحداث شهر المحرم سنة ١٢١٣هـ، وينتهي بأحداث شهر جمادى الأول سنة ١٢١٤هـ .

أما الجزء الثاني فيبدأ بسرد أحداث شهر رجب سنة ١٢١٤هـ ، وينتهي بأحداث شهر شعبان سنة ١٢١٦هـ . ويشير الناشر في مقدمة الكتاب إلى أنه اعتمد في نشره على (النسخ الخطية المستعارة من دار الكتب المصرية)[2] ، دون أن يُعرِّف بهذه النسخ .

وفي عام ١٩٦٩م قام حسن محمد جوهر وعمر الدسوقي بنشر هذا الكتاب وشرحه تحت عنوان (مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس) في جزء واحد ، يبدأ بأحداث شهر المحرم سنة ١٢١٣هـ ، ويقف عند سلخ شهر شعبان سنة ١٢١٦هـ .

١- الجبرتي : مظهر التقديس ، ص ٣٨٠ ، ٣٨١ .

٢- الجبرتي : مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس ، نشر محمد عطا (مجموعة اخترنا لك) دار المعارف القاهرة ١٩٥٨م ، جـ ١ ، ص ٦ .

ويشير الناشران إلى أنهما اعتمدا في إخراج هذا الكتاب على نسخة خطية بدار الكتب دون إدلاء بأية تفصيلات عن هذه النسخة ، واعترفا بأنهما لجآ إلى تصحيح الأخطاء النحوية الواردة بالمخطوط ونبها إليها في الهامش حتى يستقيم المعنى ، وتركا الأخطاء اللغوية مع التنبيه إليها ، إلا في المواضع التي وجدا أن المعنى فيها سيتغلق على القارىء .[1]

وتُوفي الجبرتي في القاهرة عام ١٢٤٠هـ = ١٨٢٥م بعد مقتل ابنه خليل الذي قيل أنه قُتل عام ١٢٣٧هـ = ١٨٢٢م ، ويبدو أن صدمة مقتل ابنه قد هدته، وجعلته يبكيه بكاءً حاراً أفقده بصره .[2]

٢- نقولا الترك :

هو نقولا بن يوسف بن ناصف الترك ، شاعر ومؤرخ من أسرة يونانية الأصل ، وولد في دير القمر بلبنان عام ١١٧٦هـ = ١٧٦٣م . بدأ حياته مدرساً للقراءة والكتابة لأبناء بعض الأسر الإقطاعية في جبل لبنان ، وقد تأتى له زيارة مصر عام ١٧٨٩م وأقام بها مدة ،[3] وقد كان في القاهرة بالتحديد عام ١٧٩٣م، ورجع إلى لبنان في العام التالي حيث لحق ببلاط الأمير بشير الشهابي ومدحه فعهد إليه بمهمة معرفة بعض التفاصيل عن خطط الحملة الفرنسية والخطر الزاحف على منطقته قبل أن يقدم هذا الأمير على مغامرة التحالف مع بونابرت عند قدومه الشام . وقد ساعدت الفترة التي قضاها نقولا في مصر على صقل معرفته بشئون القطر المصري ، فجاء إلى مصر وعُين كاتباً للحملة الفرنسية وأخذ يدون ما يتصل به من أخبار عن هذا الحدث

١- الجبرتي : مظهر التقديس (طبعة حسن جوهر وعمر الدسوقي) ، مقدمة المحققين .

٢- المصدر نفسه ، مقدمة المحققين .

٣- الموسوعة العربية الميسرة ، ص ١٨٤٦ .

التاريخي الخطير ، فجمع مادة تاريخية هامة ، صنفها في كتاب حول الحملة الفرنسية على مصر وبلاد الشام سماه تاريخ الحملة الفرنسية على الديار المصرية والشامية.[1]

ويوجد من هذا المخطوط عدة نسخ تحت عناوين مختلفة أهمها :

ـ مخطوط المكتبة الظاهرية بدمشق ، وهو الذي يحمل عنوان (تاريخ نابليون الأول) . وقامت الدكتورة أمل بشور بنشر هذا المخطوط بعد تحقيقه تحت عنوان (حملة بونابرت إلى الشرق ، مخطوط نقولا الترك) دار جروس برس بلبنان ١٩٩٣م . وأحداث هذا المخطوط تبدأ من عام ١٢٠٧هـ = ١٧٩٢م ، وتنتهي في أواخر ربيع الأول لعام ١٢١٦هـ = ١٣ أغسطس ١٨٠١م .[2]

ـ مخطوط مكتبة عيسى إسكندر المعلوف اللبناني : وهي التي تحمل عنوان (ذكر تملك جمهور الفرنساوية الأقطار المصرية والبلاد الشامية) . وتمتد أحداث هذا المخطوط إلى ما بعد الحملة الفرنسية حتى عام ١٨١٥م .[3]

وبعد هذا السرد السريع لسيرة هذين المؤرخين ، وبالمقارنة بينهما وبين ما سبق ذكره عن عزت حسن أفندي نجد أن المؤرخين اتفقوا في كونهم بدأوا حياتهم بالتدريس إلى أن بزغت مواهبهم وتجلت قدراتهم العلمية والأدبية ولا سيما في مجال التاريخ ، وأتاحت لهم تلك المواهب فرصة الاتصال بالقادة ورجال السياسة ، الأمر الذي جعل كل منهم على مقربة من مجريات الأمور في دولته وقد استطاع هؤلاء المؤرخين أن يغطوا أحداث الحملة الفرنسية ، وقدموا صورة حية لوقائعها إلى أن جلت هذه الحملة عن مصر في عام ١٢١٦هـ = ١٨٠١م .

١- نقولا الترك : حملة بونابرت إلى الشرق ، تحقيق أمل بشور ، دار جروس برس بيروت لبنان ١٩٩٣م ، ص١٠ ، ١١ .

٢- المصدر نفسه ، ص١١ ، مقدمة المحقق .

٣- المصدر نفسه ، ص٢٠-٢١ ، مقدمة المحقق .

منهج المؤلفين :

أما عن المنهج الذي اتبعه المؤرخون الثلاثة في تسجيلهم للحوادث فهناك فروق طفيفة بينهم ، فعلى حين نجد أن عزت أفندي قد نهج نهج التراجم المعروف الذي ناسب مؤلفه الذي قام أساساً على تدوين الأحداث التي وقعت في عهد الصدر الأعظم يوسف ضيا باشا وأجلها خطراً على الدولة العثمانية هي الحملة الفرنسية على مصر والتي كُلف بقيادة الجيوش العثمانية لطردها منها .

أما الجبرتي ونقولا الترك فقد سارا على المنهج الحولي المعروف ، أي كتابة أحداث العام مُرتبة وفق الشهور والأيام وكلما انتهيا من أحداث عام يبدآ في سرد أحداث العام الذي يليه .

وقد اعتمد عزت حسن أفندي في تسجيله لأحداث الحملة الفرنسية التي لم يرها ـ كما سلف أن أشرنا ـ على مظهر التقديس للجبرتي أما أحداث الحملة العثمانية التي جاء معها فقد سجلها كشاهد عيان ورسم لها صورة صادقة تفيض بالحيوية .

وبالنسبة للجبرتي ونقولا الترك فقد أتاحت لهما الظروف تلك الفرصة أيضاً فكتبا غالب ما كتباه من خلال معاصرتهما للأحداث ، فالجبرتي كان يعمل بديوان القاهرة ، ونقولا الترك كان كاتباً مع الحملة الفرنسية .

مؤلفات المؤرخين الثلاثة في الميزان :

إذا التفتنا إلى كتاب مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس لعبد الرحمن الجبرتي ، ألفيناه لا يقل أهمية عما كتبه المؤرخون الغربيون ، خاصة وأن أولئك المؤرخين وثقوا بهذا الكتاب واعتمدوا عليه اعتماداً تاماً وعدوه المصدر الأهم لهذا الحدث التاريخي ، فقد ترجمه (كاردان) ونشره في باريس عام ١٨٣٨م.

وهذا الكتابة مع غزارة مادته والمعلوم من أهميته لا يخلو من قصور في بعض المواضع ، ونعني بذلك أنه أغفل ذكر جهود الحملة البرية العثمانية التي قادها الصدر الأعظم يوسف ضيا باشا لإخراج الفرنسيين من مصر ، ويبدو أن الجبرتي لم يشاهد تلك الحملة قبل دخولها مصر ليكتب عنها في واقعية ثابتة محددة ، ولم يتتبع تلك الحملة في خروجها من استانبول إلى مصر ، ولم يتعرض لدور الأسطول العثماني والأسطول الإنجليزي في تحرير مدن وقلاع القطر المصري من الفرنسيين ؛ ومن ثم رأيت (ضيا نامه) هذا الصدع وسدت هذا الفراغ بتركيزها على تلك النواحي التي أغفلها الجبرتي في كتابه .

أما إذا انتقلنا إلى كتاب نقولا الترك ألفيناه أقل أهمية من (ضيا نامه) و(مظهر التقديس) ، لأنه كان سطحياً فيما كتب ، وكان كلامه كلام مشاهد غريب عن المنطقة يؤدي مهمة عُهد بها إليه ولم يكن في وسع هذا المتفرج أن يدرك الأحداث التي عايشها الجبرتي في مصر ، وعايشها عزت حسن أفندي وهو في معية الحملة البرية العثمانية ، فنقولا الترك لم يكن مؤرخاً محترفاً مثل الجبرتي وعزت أفندي وهو لم يهتم بالتاريخ لذاته ، بل لإتمام المهمة التي عُهدت إليه ، ووجدناه يمر على الأحداث مرور الكرام دون توضيح ولا تمحيص ، كما أنه في كثير من الأحايين لم يكن موضوعياً في نظرته ، لتحيزه للفرنسيين . وهذا التحيز وضح في كلامه ، ولا غرو فهو الأديب العربي الوحيد الذي نظم شعراً في تمجيد المحتلين الفرنسيين .[١]

١- اختتم نقولا الترك كتابه بقصيدتين إحداهما يمتدح فيها بونابرت حين استولى على مصر ، والأخرى يرثي فيها كليبر ويؤرخ قتله .

نقولا الترك : المصدر السابق ، ص ٢٧٥ - ٢٧٧ .

والرأي أن كتاب نقولا الترك لا يعدو أن يكون مصدراً هامشياً لكتاب مظهر التقديس للجبرتي ، فتأريخه للعمليات العسكرية التي قام بها الفرنسيون في مصر ووصفه لحملتهم على الشام استُقى كله من بيانات نابليون إلى ديوان مصر ليس إلا ؛ فمذبحة يافا التي اعتبرها جميع المؤرخين ، شرقيين وغربيين ، وصمة عار في جبين نابليون بررها نقولا الترك كما بررها مرتكبها فيما بعد في جزيرة القديسة هيلانة .[1]

وعلى ذلك فإن الميزة التي تميزت بها (ضيا نامه) عن المؤلفين الآخرين هي الخروج عن النظرة المحلية الضيقة التي اتسم بها كل من : (مظهر التقديس) و (ذكر تملك الجمهور الفرنساوية الأقطار المصرية والبلاد الشامية) ، فلم يمد أحدهما بصره خارج حدود مصر فحرما أنفسهما من مورد غني لكتابيهما ، بينما نجد عزت حسن أفندي قد أبان في مؤلفه عن رؤية شاملة لأحداث الحملة الفرنسية على مصر ، وكيف تحالف العثمانيون والإنجليز في إخراجها من مصر وكيف ساعدت الأحداث العالمية آنذاك في إتمام هذا التحالف وطرد الفرنسيين من مصر في نهاية الأمر .

١- نقولا الترك : المصدر السابق ، مقدمة المحقق ، ص ٣٥ .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لمن تحير في صنعه سواه . والصلوة والسلام على سيدنا وسندنا
ومولينا محمد خير خليقة الله وعلى آله واصحابه الذين هم نجوم سماء
الهداية . وهداية سبل السلامة بالاشتباه . اما بعد
بو سقاطه چين مطبخ لذائذ النوال فضل وكمال وريزه خوار
خوان نعيم الفيضان معارف وافضال اولان خلق آثار
وپير نشان روزكار وعزت حسن كمقدار وبمقدار زمره
كتابدان وارنده وي محمد افندي نام كمسنه نك فرزند
صلبيسي ولوب پدرم جنتمكان مومي اليه بدايت ايام
شبابندن نهايت هنكام پيري وشيبنه قدر
راغب علم ومعرفت ومائل ارباب فضيلت
اولمق تقريبيله بو احقر وري عبد كمينه لي هنوز طفل پنج
ساله ايكن مكتبه ويروب تحصيل علم ومعارفه اغرا
وترغيب وسن موفقنده تكاسل تشابده سنده تازيانه
تاديبله اخافه وترهيب ايليه رك حقمده بذل ايلديكي
همت جميله سي حددن افزون وليل ونهار صرف
ايلديكي نقدينه حميت جميله سي قياسدن افزون

الصفحة الأولى من المخطوطة

ذوات پسندیده خو دانشور رغبت نموده تحریرینی سلیس و لیدیفنز

ترجمه‌سی کبرادنی بوست دارا اکتفا اولنوب اگرچه خونکار

دیوان منشیان ارکان و سفرلرا بین دوزکار سالیندن نیچه ذوات

کرام رساله خدمه دولتدن و ضابطاندن او جیقدن نیچه ذوات

الاحترام افواهندن کشته بو سفرنامه‌یی یونده امک و خدمتلری

سبقت ایتمش ایسه‌ده بو مختصرک بوندن زیاده تحریر

ترجمه‌یه تحملی اولمدیغندن اکثرینک محللرنده مناسبتلری

یاد و خدمت سبوقه‌لری تعداد اولنمدیغندن بو قدرجه‌ایله

اکتفا اولندی زیرا بو فقیر پرتقصیر وادی کتابت و انشاده

یاور کمال عجز و قصور اولدیغندن غیری اشبو رساله مختصره‌لی

خواص و عوامک فهم ایلیه‌جکی وجهله تحریر و ابلاغیه مأمور

اولدیغم مابسینی تمیز نامه رفتارنده بلاغت و فصاحتدن

عاری ساده‌جه تورکی لسان اوزره جاری اولدیغندن خوان

کرامدن لطفاً و عنایةً عذرمزی قبول و واقع اولان سهو و خطامزی

پوشیده بیورمزلری ایلیه‌لر؛ این نوشتم تا بماند روزگار

من نمانم این بماند برقرار؛ من شدم زیر زمین با درد و غم

کس نداند حال من در روزگار؛ مانیجه بو پریشان مقالمز بزدن

چکره زیور صحیفه وجود اولدقجه روزگارده ملفات مطالعه ایلین

ذوات کرام حسبةً لله برفاتحه ایله بوزره تیمقداری

یاد و روحمی شاد ایلیه‌لر والله الهادی و علیه اعتمادی

تمت الحروف بعون الله

الملك الرؤوف

الصفحة الأخيرة من المخطوطة

مخطوطة ضيا نامه

للدارندلى

(الترجمة العربية)



الحمد لمن تحير فى صنعه سواه ، والصلاة والسلام على سيدنا وسندنا ومولانا محمد خير خلق الله وعلى آله وأصحابه الذين هم نجوم سماء الهداية وهداية سبل السلامة بلا اشتباه وبعد :

إن جامع فتات مطبخ الفضل والكمال لذيذ النوال ، آكل بقايا المائدة عميمة الفيضان للمعارف والأفضال ، ذليل زمانه وتعس دهره (عزت حسن) كان ابنا للمدعو (محمد أفندى الدارندلى) . ووالدى ساكن الجنان هذا ، منذ مطلع شبابه إلى نهاية أيام شيبته ، كان نازعا إلى العلم والمعرفة ، ميالا إلى أرباب الفضيلة ؛ فزين للعبد الأحقر الأذل تحصيل العلوم والمعارف فى المكتب وهو لا يزال طفلا فى الخامسة .

ولما رأى بلادته وكسله خوفه بسوط التأديب . وما بذلـــه ليـل نـهار فى تربيته من قصارى همته ، وما استفرغه من وســـعه وطاقتــه يجل عن الوصف والتمثيل [١- ب].

وبرغم ضعف استعدادى ويدى القصيرة وعجزى الـذى فطـرت عليه ، نلت قسطاً من المعرفة والفضل . بيد أن ناقة أملى لم تبلغ كعبتها، ولم يبلغ جوادى محلة السعادة المقصودة ؛ إذ إن مسقط رأسى وهى قرية (دارنده) ينطبق عليها قوله تعالى :{ ربنـا إنـى أسكنت مـن ذريتـى بـواد غير ذى زرع}[1] فقد كانت خاوية من أسباب العيش ، مشحونة بالشـدائد واثقال الفقر والعوز ، وكنت مشغول البال دوما بتحصيل الـرزق. وكـان تحصيل شتى العلوم واجبا كتحصيل الرزق . وقد وُفقت فى تحصيل العلـم من أربابه ، كما أتيح لى يوما ما أن أشتغل بتســـويق بضـاعتى وهـى تدريس العلم .

ولما تمثلت قول :

لما لم يتيسر الرخاء والاستقرار عند الأحباب

كـان لزامـا عـلى الضـيف تـرك الديـار

تحتم على ترك الدار والديار سعياً وراء الـرزق ودفعـاً لغائلـة الفقـر والعوز، واخترت لنفسى العمل بالكتابة والسياحة لزمن ، فلحقت بخدمـــة بعض الوزراء العظام والأمراء الكرام وبعض المرموقين ، كاتباً لهم .

١- إبراهيم : (٣٧)

[٢-١] وعلى الرغم من تطوافى فى الولايات ، فإنه مصداقــا لقــول الشاعر :

إذا توافرت الآمال كأنها قطرات المطر

المنهمرة فإن التعس يظل خائبا خاسراً

لم أتمكن من استخلاص تلابيب أملى من قبضة الفقر .

وأثناء رجوعى ضيفا خالى الوفاض إلى وطنى البلدة المذكورة ، انتقل والدى إلى روضة الجنة ؛ فأخرست فجيعتى فيه لسانى ، وانقصـــم ظهرى تحت أعباء الهم والعوز . وفيما كنت فى حيرة من أمرى أردد :

إن كان عندك يا زمان بقية

مما تسوء به الكرام فهاتها

قدم (ملاطيا) والى ديار بكر وكافة المناجم السلطانية الذى يشبه أرسطو فى حكمته وسداد رأيه ، الوزير الهمام ، كـــهف الفقــراء والمســاكين ، ناصر الإسلام والمسلمين ، ضياء الدنيا والدولة والدين الحـــاج يوســف ضيا باشا الغازى يسر الله بالخير ما يروم وما يشاء ، وكان بصدد التنكيل بأشقياء الكرد فى اللواء المذكور.[٢-ب] وبحسب القــرب والجــوار وصفنى بعض الأشخاص وتحدثوا عنى فى مجلسه فائض النور ، فنلــت حظا من عطفه ورعايته.

ونظرا لما كان له من سجايا رضية وشمائل سنية ، فقد كان يخالل أهــل العلم والفضل والشعراء فى اتصال ودوام ، ولم يكن يجــروء أحـد فــى مجلسه على التفوه بكلمة فى غير مسائل العلم والعقيدة وما يستتبع ذلــك من أحاديث حول الحكم والرياضيات وتزكيــة النفــس وســير ســلاطين السلف، وما يروى عن قدماء البلغاء من أقــوال ومــأثورات . [٣-١]

وكان إذا ما طاف بسمعه خبر عن عالم فــاضل مــن قريــب أو بعيــد ، استدعاه إلى حضرته ، مجتذباً إياه بتكريمه وتوقيره وإجزال صلته . وإذا جاءه الخبر عن شاعر أو كاتب فى بلد من البلاد ، اســتقدمه فــى التــو والحال واختصه لنفسه .

ورغم أننى لم أكن ذا علم ومعرفة، ولا سهم لى مــن البلاغــة والفصاحة، ذكر اسمى فى مجلسه العالى ؛ فاستقدمنى ، وأفاض على من إنعامه وأفضاله ، واستخدمنى كاتبا فى بابه ، وشملنى بما لا أستحق مــن رعايته وحدبه .

ورافقته فى المناجم السلطانية و(أرضروم) وكنت موضع نظره والتفاتــه بالخــــــدمة فى بابه فى (آخسخه، وطرابيزون ، وجانكلر) . وبينمــا كان مرابطاً فى صحراء (ترشمك) لدى قيامه بالتنكيل بأكراد الديسميين ــ على نحو ما سوف نذكره تفصيلا ــ ورد خط همايونى بدعوته إلى مقــر الصدارة العظمى، وعندما يمم شطر الآســـتانة ، تجلــت آثــار رحمتــه وشفقته؛ فاصطحبنى معه إليها ونلت منه بالغ الحفاوة وكرم المثوى حتى مضيه إلى مصر دار النصر؛ ورافقته حتى نهاية حملته عليها وقفلت معه إلى الآستانة .[٣-ب]

وبعد أن طهر الأراضى المقدسة المصرية من دنس المشــركين والكفرة بعد مشقة وعناء ، عاد منصور اللواء المظفر على الأعداء إلــى الآستانة العلية، وكان شغله الشاغل على الدوام هو التفكــير فــى نظــام الملك وصلاح حال الرعية، وكان يستنير فى كل تصرفاته بالشرع المبيــن والقانون المتين .

وفــى لياليــه كــي لا يضيعها فــيما لا يفــيد كــان يقرأ كتاب

(درر الغرر) لزبدة الفضلاء أحمد حياتى أفندى ، ولقد فرغ من الاطلاع عليه واستفاد منه ، وهو فى ذلك ممتثلا لقوله صلى الله عليه وسلم : " اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد "[1] وكان ينهز أوقات الفراغ ليستوفيها فى مسائل العلم ولطائف الشعر
والنثر . وكنت أحضر مجالسه أينما انعقدت .

وذات ليلة حدث أن أفضت شجون الكلام إلى ذكر كتب التاريخ فقال حضرة الصدر الأعظم [٤-١] :

ـ "إن عالما من علماء مصر القاهرة له كتاب باللغة العربية ، أرخ فيه للغزو الفرنسى ، مقتصراً على ما وقع فى مصر وحدها . وعلى الرغم من أنه ذكر فى تاريخه المذكور الأحداث التى وقعت داخل القاهرة فحسب، لم يتعرض لذكر الحملة البرية والبحرية اللتين أرسلتهما الدولة العلية العثمانية إلى مصر، كما لم يورد ذكرا ـ بأى شكل من الأشكال ـ لأحوال أساطيل الدولتين المتحالفتين وهذا منه تقصير واضح فى كتابه .

ورغم أن ما دونه بحر المعارف ـ الذى كلف بتدوين وقائع الدولة العلية وأحداثها فى الجرائد المطولة ـ يُعد درر جاد بها قلمه فإنه لا جرم من تدوين كافة الأحداث والوقائع كبيرها وصغيرها للدولة العلية قوية النظام.

١- رواه ابن عبد البر فى (جامع بيان العلم) ، وأبو نعيم فى (أخبار أصبهان) . حديث ضعيف .راجع محمد نصر الدين الألبانى ، سلسلة الأحاديث الموضوعة ، المكتب الإسلامى القاهرة ، ص ٤١٣ ، حديث رقم ٤١٦ .

ولأن تدوين كافة الوقائع المصرية والتأريخ لها تضيق بـــه المجلــدات ؛ حبذا لو تكلفت بالكتابة عن تلك الوقعة المصرية فحسب بأسلوب عار من الفصاحة وتكلف العبارة ، فى مستوى فهم العوام والخواص".
فصدعتُ بما أمرت به ، وعلاوة على أن الوقعة المصرية تلك عبرة لأولى الألباب ، جديرة بأن تدون فى صحف الآثار ، فإن وقائع الصدر الوقـــور فى المناجم الهمايونية ، وخطوبها ، طائفة من جليل الحوادث التـــى لـــم تصدر عن أسلافه الكرام .

ولأنها أحداث غير قابلة لأن تطرح فى زاوية النســـيان ، فقــد شرعت فى الكتابة إجمالا عن هذه الأحداث التى وقعـــت تحــت نـــاظرى كمقدمة موجزة متكئاً على توفيق المولى ونعم الرفيق ، ملتمسا العفـــو عما قد يقع فى كلامى من تقصير .

وقد رتبت رسالتى هذه على مقدمة وملحمة وخاتمة .

أما الملحمة فحديثى فيها عن حضرة الوزير المشار إليـــه منــذ نشأته الأولى، [٥-١]وتقلده أمانة (كبان معدن) ، ونيله رتبه وزيـرو ، إلى أن تبوأ منصب الصدارة العظمى.

والقصة تبدأ بعد توليه منصب الصدارة ، وخروجه علـــى رأس الحملة العثمانية إلى مصر ، ثم عودته مظفرا منها ، وما وقع فـــى تلــك الغضون من أحداث .

أما الخاتمة ففى تراجم من ساهم فى تلك الحملة مـــن الـــوزراء والقادة ورجال الدولة .

ولما كانت رسالتى هذه من فاتحتها إلى خاتمتها تدور حول مــــا وقع من أحداث زمن صدارته ، فقد سميتها (ضيا نامـــــه) نسـبة إلــى حضرة الصدر الأعظم يوسف ضيا باشا .

والله أسأل أن يحفظه من كل ما يحول دون تحقيق المقصود ، وأن يُيَسـر لى إتمامها ، آمين ، وأسأل الله التوفيق وأستلهمه السداد ، فإنـــه نعـم المولى ونعم الرفيق .

المقـــــــدمـــــــة
نشأة الســـــــــردار الأكـــــــــــرم
منصـــور اللواء الحاج يـــوسف ضيـــا بـــاشـــا
الغـــازى
يســـر الله بالخير مـــا يريـــد وما يشـــــاء

كان حضرته [1] عبداً للمرحوم مصطفى باشـــا المـــير آخـــور ، والقبودان دريا ، الذى تكلفه وهو لا يزال طفلا فى الخامسة ، فبذل الوسع فى تنشئته وكأنه ولده ، وجلب له صفوة المؤدبين والمدرسين .

وما إن يفع عُوده وبلغ أشده حتى كان قد ملك نواصى العلـــوم الشرعية ، وحذق الخط . وإضافة إلى تضلعه من العلوم والفنـــون فـــى مجال الإنشاء والمحاسبة ، فقد تحنك فى فنون القتال مثل : ركوب الخيـــل والضراب والطعان، وبرع فيها وفاق أقرانه وفضلهم فى هذا الصدد .

وحالما شاعت محامده وميزاته بين أصدقائه وأقرانـــه ، وافـــى الأجل مصطفى باشا . وعندئذ انخرط فى خدمة ابنه الحاج حافظ مصطفـــى باشا الذى كان على وشـــك التحـــرك إلى (كبان معدن) أميناً للمناجـــم السلطانية ، فمضى معه إلى هناك .

١- الترجمة الحرفية للجملة حسب النص التركي : "كان حضرة المشار إليـــه" وقد استبدل المترجم تعبير " المشار إليه " بنظيره العربي الفصيح ، وهـــو هـــاء الغيبة وسيتكرر ذلك في العديد من المواضع التالية .

ونظرا لما أبان عنه من استعداد صادق مترسخ فى طبعه ، اكتسب ود المشار إليه وعطفه فى زمن قصير ، وانتشرت محامده وميزاته بين أقرانه وأشباهه ،[٦-أ] وطاف لعدة سنوات مع حافظ مصطفى باشا فى أرجاء المناجم السلطانية وأرضروم وقارص ، ثم عزم على المضى معه إلى الحج، وطابت نفسه من زيارة البقاع المقدسة .

ولدى عودته إلى الرقة ، حدث أن استأذن حضرته من حافظ باشا فى الفراق متعللاً ببعض الأسباب ، ووافى الآستانة العلية حيث لحق بخدمة المرحوم محمد باشا الدارندلى ـ الصدر الأعظم ـ آنذاك . وعقب خلعه من الصدارة ، جمع حضرته بين العمل كمساعد للدفتردار فى باب الباشا ، وخدمة بعض أعلام الدولة ، وفى النهاية مضى صوب (كبان معدن) مهر داراً لـ (جيل أمين أغا) الذى تقلد أمانة المناجم وقتذاك ، وبذل إخلاصا وتفانيا فى خدمته ؛ ولذا عندما عُزل (جيل أمين أغا) وآلت أمانة المناجم إلى (يكن أغا)، أسندت (المهر دارية) إلى حضرته بناء على طلب جيل أمين أغا ورغبته ، فأخلص وتفانى فى استحصال الأسباب المتعلقة بأعمال المناجم ، وعُيِّن على رأس حملة ، عندما لزم ردع بعض الأشقياء الكرد ، والعشائر التى اجترأت على العصيان ، فاستأصل شأفة كثير من أشقيائهم وقتل كثير من طغاتهم، ومن ثم اكتسب حسن السيرة لدى العوام والخواص .[٦ ـ ب]

ومن بعد ذلك استأذن من يكن أغا وقفل إلى الآستانة العلية ، ولحق بخدمة المرحوم خليل حميد باشا زمن تقلده أمانة (الترسانة العامرة) .

ولم يمض طويل زمن حتى صار خليل باشا كتخدا للصدر الأعظم، ثم صدرا أعظما بعد عدة أشهر ، فظفر حضرته بمنصب (مهردار) وبعد عدة أيام تقلد منصب (سلاحدار).

وفى تلك الأثناء توفى يكن أغا أمين المناجم فأفضت إلى حضرته المناجم السلطانية نظرا لوقوفه على أحوالها . وأخلص وتفانى فى تلك المهمة ؛ ولذا فقد حظى بعطف خليل باشا وتقديره واكتسب محبة الناس كبيرهم وصغيرهم.

وعندما لزم مكافأته ، على أى وجه من الوجوه ، أجرى عليه راتبا مناسبا من الأوقاف ، فعلا بذلك قدره وزاد اعتباره بين أقرانه .

وبعد زمن ، قضى الله بأن يستشهد خليل باشا ، وعندئذ نفض حضرته يده من كل أمر وقبع فى ركن العزلة فى داره عندما ألمت به مصيبة فقد ولى نعمته على ذلك النحو . ولم يزل على تلك الحال من الانزواء واعتزال الناس ، [٧-١] حتى أسندت إليه أمانة المناجم السلطانية من جديد دون أن يسعى فى طلبها .

إسناد أمانة (كبان معدن) إلى حضرته

لم يوفق (ديوركلى كوسه مصطفى) باشا ـ الذى ولى أمانة (كبان معدن) و(آرغنى) منذ بضع سنين ـ إلى نيل رضاء الدولة العلية. وبسبب خلافه مع محمد أفندى الأرناءوطي ، ناظر الضربخانه العامرة آنذاك ، لزم عزله بأى حال من الأحوال ، وإسناد أمانة (كبان) لشخص

ذى كفاءة وجدارة، يقبض بيد الحزم والحسم على أزمة الأمور فى المملكة.

وبينما كانوا يبحثون عن ضالتهم المنشودة ليل نهار ، جرى قضاء الله بأن يدلهم بعض الناس على حضرته ؛ فاستدعوه . ولدى مناقشتهم له غير مرة عن أحوال المناجم آنسوا فيه رشدا وسدادا وحسن استعداد .

وبعد أن وزنوا كفايته وقوموا معدنه ، صح منهم العزم على إسناد أمانة (كبان) إليه . وبعد أن اتفقوا على جدارته ولياقته الكاملة لتولى تلك المهمة أفصحوا له عما انتهوا إليه ، وعزموا عليه فى هذا الصدد ؛ فلم يسلك حضرة المشار وادى التهالك ، بل حمد المولى عز وجل وتوكل عليه قائلا :" إذا ما قدر الله أمرا فى دنيا الفناء باركه وهيأ له الأسباب "[٧-ب]

وفى النهاية رفع محمد أفندى ناظر (الضربخانه) تقريره إلى الباب العالى بشأن إسناد أمانة المناجم إلى حضرته ، فصدر فرمان منيف بناء على ما ورد فى ذلك التقرير ، ودُعى إلى الباب العالى وخلع عليه القفطان فى حضرة الصدر الأعظم ونال بعض نفحاته .

وفى التو وفى غضون أيام قضى حضرته أشغاله ومضى سويعا إلى (كبان معدن)، فمدت له البسط لدى وصوله إلى قصر البكوية الخاص بأمين المناجم . ورحب برؤساء المناجم وعمالها وأخذ بعضهم بالوعد ، والبعض الآخر بالوعيد ، وحضهم على نقر الغيران فى شتى الجهات ، وقام بشراء عدة مئات من البغال من ماله الخاص ، وبذل قصاراه فى استخراج الفحم من (أولو قلعة) وسائر الأماكن المناسبة ، وقطع كميات

ضخمة من الحطب من (كماخ ، وكَرجانيس) ونقل الفحم والحطب عبر نهر الفرات ، [٨-أ] وبذلك تكدست تلال الفحم والحطب بجانب كل فرن، وصهرت الأفران أضعاف ما كان يصهر فى السنوات الماضية ، وبذل حضرته وسعه فى استخراج قناطير مقنطرة من الفضة الخالصة .

استئصال أشقياء (أكراد كره چورلى)

منذ فترة طويلة وأمناء المناجم الهمايونية لا يستخدمون الجند أمثال التوفكجية والأدلاء ، ويقتصرون على استعمال واصطحاب ما بين أربعين إلى خمسين من خدم (الأندرون) ، وما يقرب من عشرين من (الجوقدارية) ، وعدد من الكتبة وأغوات (البيرون) . علاوة على عدد من التتار ، ونحو مائة من (سكبانية الكرد) ، ومن ثم إذا ما حدث أن ظهر شقى يعيث فسادا فى بقاع المناجم الهمايونية واستوجب الأمر خروج هؤلاء الأمناء بجندهم إليه ؛ كانت هزيمتهم واقعة لا محالة إذا ما خرجوا بأولئك الجند من ذلك القبيل ؛ ولذا كان يجب أن يرسل ولاة الولايات القريبة والمجاورة مثل : أرضروم وسيواس وديار بكر والرقة الجند بفرمان عال ؛ وذلك لمحو الفساد والخلل فى أمور المناجم .

ولم يكن حضرته ليرضى باستهلاك عمال مناجم الفحم تحت سنابك خيول صفوة الجند ؛ ولذا وبعد مرور عدة اشهر على قدومه المناجم استقدم عددا من التوفكجية والأدلاء ، وعين رئيسا للتوفكجية وأخرا للأدلاء .[٨-ب]

وكان أشقياء العشائر الذين تجاسروا على العصيـــان يســكنون المناطق الوعـــرة والصخريـــة مـــن الجبـــال الشـــاهقة الواقعـــة بيـــن (ديوركى ، وعربكير ، وآرغون) . وقـــد تعـــاظم شـــرهم وفســـادهم ، فاستطالوا على السابلة ، وعسفوا بسكان البلاد وأسرفوا فى القتل وهتـك الأعراض ؛ فأمر حضرته بتجريد حملة للتنكيل بهم ؛ فداهموا الأشـــقياء على غفلة منهم وقتلوا ما يزيد عن خمسين منـــهم، وأســـروا البـــاقين ، وصارت رءوسهم المقطوعة عبرة لمن يعتبر .

وبعد أن نكلوا بهم أخذوا عليهم تعهدا بقرارهم فى أماكنهم وديارهم ، كما بثوا الرعب كذلك فى قلوب سائر الأشقياء .

واقعة قضاء (خربرت) وتأديب أغواتها

منذ أمد طويل وأهالى خربرت قوم عتاة ، بهم عنف وعصبيـــة ، وكان كافة أعيان وأغوات القضاء المذكور وطائفة تجاره عموما يظهرون الأحقاد لبعضهم البعض ويعملون على إهاجة نار الفتنة بينـــهم ؛ وذلـك لانتمائهم إلى كتائب ثلاث من كتائب الإنكشارية . وكم كـــان يقتـــل مـــن الرجال كل عام ظلما دون وجه حق .

ولعدم إحقاق الحق بإقامة حدود الله وإجراء القصاص ، ودفـــع الدية ؛ تعاظم بغيهم وفسادهم يوما بعد يوم . وقطعا لدابر الفتنـــة ؛ نقـل أغواتهم وأبعدوا إلى القرى المحيطة ، ونزح كل منهم إلى قرية ســكنها وبنى فيها دارا ضخمة . وظل الأهالى والتجـــار وأهـــل الحـــرف داخـــل

المدينة. غير أنهم لجوا فى تناحرهم وتنازعهم من جديد ، وبذلت كتائب الإنكشارية العون لأصدقائهم من الأغوات .

وعلاوة على عدم انقطاع مفاسدهم ، خرجوا على أمانة المناجم عندما كان قضاء (خربرت) تابعا لأمانة المناجم الهمايونية ، وأقدموا على تصرفات خرقاء بها شيء من التحقير مثل تقديمهم (مطلوبات) المناجم على أسنة الرماح .

وعندما قدم حضرته المناجم الهمايونية بعث إليهم بمرسوم طالبهم فيه بتأدية ما عليهم من ضرائب ، فامتنعوا وأقدموا على عدد من الأعمال الحمقاء ؛ فأرسل فى طلب الحاج (إبراهيم أغا) و(جوته لى زاده محمد أغا) ، وكانا من رؤساء الأغوات ، إلى المناجم وقام بتجريدهما من قدر من توجسهما وخشيتهما ، بتشغيلهما فى بعض الأعمال ، ثم زج بهما فى السجن وقيدهما بالسلاسل .

ولما نما نبأ ذلك إلى أغوات خربرت ، ركبوا من فورهم الجياد وخرجوا على بغال المناجم التى تنقل الفحم إلى المناجم الهمايونية فى الطريق ونهبوها . [٩-ب] وعندما علم حضرته بذلك استدعى على الفور (على أغا) رئيس أدلاء (حافظ مصطفى) باشا رحمه الله ، الذى كان يقيم فى قضاء ترجان ، كما استدعى حشدا من الفرسان والمشاة من سائر الجهات ، وزحف مستعينا بالله على رأس تلك الحملة على قضاء (خربرت) ؛ ففر جميع أغواتها وأعيانها واعتصموا بداخل المدينة ، فحاصرهم بما يشبه الهالة ، وناوشهم غير مرة ، وقتل الكثير من أشقيائهم .

ولما لم تعد لهم القدرة على الصمود والمقاومة طلبوا الأمان ، فلم يعمد حضرته إلى ترويعهم .

وعندما كانوا يستعطفونه ويسترضونه أخذ عليهم تعهدا بتسديد أضعاف أضعاف أثمان ما كان من الممكن استخلاصه من فضة خالصة بصهر مقدار ما تحمله بغال المناجم من خام فى الأيام التى احتجزوها لديهم ، ثم منحهم الأمان ، وعاد أدراجه إلى المناجم الهمايونية.[١٠-١]

وبعد فترة عاقب المدعو موطان أغا ـ أحد طغاة عصابة (چونه لى) ـ لتجاسره على بعض التصرفات المجافية للياقة ؛ ولذا لم يظهر من تجرأ على الزلل أو التقصير . ومنع استخدام السلاح ؛ فلم يجد أحد فى نفسه الشجاعة لإراقة نقطة دم واحدة ، وتوقفت دعاوى القتل والقصاص ، ولم ترفع كذلك دعاوى القذف والتعزير .

القضاء على أشقياء الشيخ حسن فى لواء چمشكزك

ثمة جبل بجوار المناجم الهمايونية يقال له جبل (دوجيك)يسكنه أكراد الديسميين وأكراد الشيخ حسن . وقطع أطراف ذلك الجبل المعروفة فحسب ، يستوفى عشرين يوما . وهو جبل شاهق ، طرقه وعرة ، تحف بها المخاطر ، أعجز خواص الناس وعوامهم الوقوف على حقيقته . فتاريخه السالف غير معلوم، ومنذ مائة عام فقط وجد ولاة عظام ، ضعفت قبضتهم على تلك الجهات . وقد صدرت أوامر

أكيدة أكثر من مرة بإنفاذ الكثير من الوزراء الأكفاء ذوى الجدارة والاقتدار لإعادة الأمور إلى نصابها فى تلك الجهات . غير أنه لم يتأت لأحد منهم النجاح فى مسعاه ،[١٠-ب] ونزلت بهم الهزيمة جميعا وافتضحوا وساءت سيرتهم .

وبعد أن قدم حضرته (كبان معدن) ، أخذ يفكر فى بغى وفساد أولئك الأكراد ، وتذكر عودة الوزراء – الذين عينوا من قبله – منهزمين، فعمل بالقول القائل : " من عجل شيئا قبل أوانه عوقب بحرمانه" وأرجأ القضاء عليهم إلى وقته المرهون ، وتشبث بالحديث الشريف : " الحرب خدعة "[1]، وعين رجلا من رجالهه يدعى (أوزون حسن) – وكان شجاعا مقتدرا – محافظا على قضاء (چمشكزك) ؛ وذلك بهدف القضاء على عصابة الشيخ (حسن) التى استفحل بغيها وامتد شرها إلى أهالى البلاد ، وساق معه نحو مائة من صفوة رجاله.

وعندما وصل أوزون حسن إلى (چمشكزك) ملقتا بالتدابير السديدة – آتية الذكر قريبا – [١١-أ] أذاع أنه يعد أكراد الشيخ حسن من إجلاء المملكة ، وأنهم كانوا يعتدون على سكانها فى عهد أسلافه من المحافظين ، وأنه يريد عقد أواصر الود والأخوة بينه وبين زعماء أولئك الأكراد. وأشار إلى أنه سوف يخلع فاخر الخلع على كل منهم ويهديهم الجياد المسومة ، ويقيض لكل منهم خرجا يليق بمكانته،

١- البخارى ، ج ٤-ص ٧٧ . مسلم حديث رقم :١٧٤٠، ج ٣ ص١٣٦٢.

وأنه سوف يرتبط معهم بميثاق يقضى بعدم اعتدائهم علـــى أى شـــخص مطلقا مدة مباشرته .

وبعد أيام من إشاعة تلك الأخبار وجه الدعاة إلى عشيرة الشيخ حسن لاستعجال كافة رؤسائهم ووكلائهم ، فاستبقوا فيمـــا بينـــهم تلبيـــة الدعوة ، وقد فاضت بحور جشعهم وطمعهم . ووصل قصبة (جمشكزك) زعماء نحو ثلاثين قبيلة وما يربو على سبعين من أتباعهم ، ولما انتـهوا إلى مقر محافظها (أوزون حسن) امتن لمقدمهم .وبعد أن أجابهم إلى مطلبهم ، أرسل كلا منـــهم وأتباعـــه إلـــى مـــن يناســـبه مـــن أغـــوات (جمشكزك)، فأوسعوهم كرما وحدبا بأكثر مما كانوا يتوقعـــون . وفـــرط عقدهم بألف خدعة وحجة .

وبعد أن حل المساء استدعى الوجهاء والأعيان بحجة التشاور معهم فى أمر ما سيخلع من خلع ، وأظهر الأمر السامي الذى تلقـــاه ســـرا مـــن حضرته بشأن مطالبة كل منهم برأس ضيفه . [١١-ب]

وحينما أميط اللثام على أن تلك هي أوامـــر أميـــن المنـــاجم ، استجاب لها الأهالي الطيبون عن طيب خاطر ، وصدع كل منهم بما أمـــر به أن يصدع ، ثم مضى كل واحد منهم إلى داره حتى إذا حـــل نصـــف الليل شرع ينفذ مهمته ودون أن يشعر ضيفه العزيز وهو فى نوم الغفلة. وفى غضون ساعتين أو ثلاث ، وبسهولة ويسر شهروا سيوفهم البتـــارة وأعملوها فى رقاب ضيوفهم ، وأرسلوا ما يزيد عن مائة رأس إلى مقـــر المحافظ ، فأرســـلها مـــع (معروضـــات) البشـــرى إلـــى حضـــرته فـــى (كبان معدن) ، فأرسلها بدوره إلى الباب العالى مرفقة بتقرير عن كيفية

استئصال شأفة الطائفة المذكورة ؛ فأنعم علية بلقـــب (خوجه) وقبض له راتبا من المصرف السلطانى .

وبفضل تلك التدابير الصائبة لم يسمع بنزول أى بغى أو ضـــرر بسكان البلاد من قبل العشيرة المذكورة لسنوات عدة . وعندما شـــرعوا يجترءون على أعمال السطو والسرقة ، [١٢-١] مضى إليهم حضرتـه بنفسه على رأس حشد من جنده لتأديبهم والتنكيـــل بـــهم ، فأخضعـــهم وأدخلهم فى دائرة الطاعة لعدة سنوات أخرى .

وسوف نفصل القول فى الفصول الآتية عما أذاقهم من القهر والتنكيل .

واقعة عشيرة رشوان وتأديب مجرمى حصن منصور

منذ أمد طويل ويجرى تعيين (خـــاصكى) لأمـــهات الســلاطين العدول (برّد الله مضاجعهم إلى يوم الدين) . غير أن الوالــدة المــاجدة للسلطان عبد الحميد خان ـــ ساكن الجنان عليه الرحمة والغفران ـــ كانت قــد توفــيت قــبل تربعـــه عــلى عرش السلطنة ؛ ولذلك أنعم بمقاطعـة (حصن المنصور) على (رشوان زاده سيد عمر باشا) ـــ مـــن المـــير ميران ـــ يتصرف فيها وكأنها ملكا له . وفى تلك الأثناء اعتلى حضـــرة سليم خان عرش الدولة ، وعندئذ سحبت المقاطعة المذكورة من رشـــوان زاده ، وتم تعيين (خاصكى) لإكليل المحصنات وتاج المخدرات والـــدة السلطان .

وعندما أحيلت أزمة أمور المقاطعة إلى أمين المناجم السلطانية (حضرته) ، وجه متسلما إلى حصن منصور وهو الذى يعرف كذلك بحصن بنى رشوان ، وأمر أغا منهم عليهم وجعله ينبه عليهم ، ويستعجلهم لاستيفاء الضرائب الواجبة قبل أوانها بفترة ؛ [١٢-ب] إلا أنه بسبب رخاوة متسلم المقاطعة المذكورة ــ من بنى رشوان ــ وما به من جبن متأصل فى طبعه ، وتقاعسه عن تأديب الأشقياء ؛ تراكمت فى ذمته أموال (الميري) ، وركن إلى المطل والتسويف عند سداد تلك الأموال ؛ تماما مثلما كان يحدث فى زمن عمر باشا .

فضلا عن هذا فقد تفاقمت تعديات بنى رشوان على السابلة فى المنطقة من مشتاهم على سواحل نهر الفرات وحتى مصيفهم فى جبال (بجيت بجمن) ، وزادت عن الحد ؛ ومن ثم أصبح من اللازم تأديبهم والأخذ على أيديهم ؛ فنهض حضرته بجيش جرار من المشاة والفرسان وخرج من (كبان) وضرب الفسطاط عند قلعة (آغچه) بجوار (آلاجه خان) ، وحصر العشيرة المذكورة وضيق عليها فى جهات شتى ، واستوفى منها ما تراكم عندها من أموال الميرى [١٣-أ] ، وأدب الأشقياء ومزقهم كل ممزق ، ثم عاد أدراجه منصورا إلى (كبان) .

وعلى الرغم من أنه كان قد نصب أحد رؤساء (التوفكجية) يدعى (خربرتلى أوغلو محمد) متسلما على حصن منصور ــ على نحو ما ذكرنا آنفا ــ فقد خرج الأهالى المذكورون كذلك فى وقت حكومة رشوان زاده من دائرة الطاعة ، واستشرى بغيهم وفسادهم بحيث أصبح لهم دأب على طرد متسلم كل شهرين أو ثلاثة ؛ ولذلك خرجت شرذمة من

الأشقياء على المتسلم المذكور تبغى طرده ، فبرز لهم لردهم ، فتكـــاثرت عليه الأراذل حتى غلبوا عليه، وصرعوه فى نفر من خدمه .

وعندما نمت تلك الأنباء المؤسفة إلى حضرته ، استشاط غضبـا واتقد حمية ، فحشد كثيرا من المشاة والفرسان من شتى الأنحاء ، إضافة إلى صنوف جنده وخرج من (كبان) بريد القضاء المذكور ؛ فاســـتحوذ الرعب على الأشقياء وتزلزلت أركانهم ، وتفرقوا تاركين أهلهم وديارهم، ولاذوا بجبال الأكراد للنجاة برءوسهم . وطوى حضرته المنازل ، ودخـل حصن منصور ، وأنزل العقاب بالمدعو(كل حسين) ، [١٣-ب] وسائر المقبوض عليهم من الأشقياء الذين اختبئوا فى الزوايا والأركـــان ، ثـم ساق جنده كذلك إلى جهات شتى لملاحقة الفارين ، وظفـــر بمعظمـــهم ، وأعمل السيف فيهم ، وشتت شمل العشيرة وأشقيائها، وأرسى النظــــام، وأقر الأمن فى تلك الجهات ، وعاد إلى (كبان) بعد أن نصـــب متسـلما كفئا عليها .

توجيه لواء ملاطيا إلى حضرته

منذ مئات السنين ولواء (ملاطيا) فى حوزة بنـــى رشـــوان ، وبينما كان هذا اللواء فى حوزة عمر باشا زاده أدركه الأجل ولم يكن لـــه ولد من صلبه . ولأنه لم يكن قد أعقب سوى حفيد فى الخامسة من العمر يدعى عبد الرحمن بك وابن أخ مخبول ؛ فإنه بعد وفاة عمر باشـــا جــاء ابن أخيه هذا ببعض التصرفات الخرقاء والأفاعيل المستقبحات ، وادعـــى أن لواء ملاطيا ملكا لذرية عائلته منذ القدم ، وأن أزمة أموره حكر علـــى

أفراد أسرته يتوارثونها أبا عن جد ولم يبال قط بالتماس التكليف من الدولة العلية ، [١٤-أ] وقام باستخدام عددا من أتباع عمه وأشياعه وشرذمة من رعاع العشائر ممن فسدت ضمائرهم وساءت سيرتهم . وملك ابن الأخ هذا السفيه اللواء المذكور وترسم خطى آبائه وأجداده، وأرسل المتسلمين إلى أقضية ملاطيا ، وكركر ، وشيرو .

وعندما نما إلى الباب العالى ادعاؤه الاستقلال وسائر أوضاعه الغريبة والشاذة تلك ، أخطر حضرته سرا باتجاه النية نحو إسناد لواء (ملاطيا) إليه وتكليفه بطرد الأمير المذكور والقضاء عليه .

ورغم أنه كان من السهل أن يخرج إليه (حضرته) ، ويطرده من اللواء بقوة الساعد، ويمحو اسمه من سجل الزمان ، فإن ذلك — على أية حال — كان من شأنه إلحاق الأذى بسكان البلاد إذا ما حدث وخرج هو الآخر بجنده؛ وعليه اقترح حضرته على أولى الأمر أن يرسل (كتخدا باب) عم الأمير المتوفى أمرا إلى المير المذكور يكون مضمونه: " إن إسناد لواء ملاطيا إلى بنى رشوان أمر غنى عن الجدال . ولوفاة عمك ينبغى على أية حال إسناد ذلك اللواء إليك دون داع لالتماس ذلك من الدولة العلية (أدامها الله) .[١٤-ب] ولدى مجيئك بقدر من المال سوف ينعم عليك برتبة (مير ميران) ، ويسند إليك اللواء المذكور ، وربما صدر بشأنك العديد والعديد من التوصيات."

وأخبرهم أنه لما كان المير المذكور أبلة محصور التفكير ؛ فإنه سوف يطير إلى الباب العالى ولن يخامره الشك قط . وعليه وبمنة الله تدفع غائلته ، ويعتقل فى سجن (باش باقى قولى) أغا ، ويصادر المبلغ الذى

فى حوزته لتغطية الديون الميرية التى تراكمت فى ذمته ، ويكون الأمـــر فيه لأولى الأمر .

وقد سرت الأمور على النحو المراد لها ، ووصل الأمير المذكور على جناح السرعة فتم اعتقاله فى سجن (باش باقى قولـــى) أغـــا ثـــم أسندت ملحقات لواء ملاطيا ومشتملاته إلى حضرته ، وأطلقت يده فى كل أمور تلك الجهات ، كبيرها وصغيرها ، وعلى الفور نصب حفيـــد عمـــر باشا عبد الرحمن بك على (بهسني) وأرسل المتسـلمين الأكفـــاء إلـــى نواحى كركر ، [١٥-١] وشيرو ومضى بنفسه إلـــى ملاطيـــا ونـــزل بمصيف (أسبوزي) .

ولما علم أن أهالى لواء ملاطيا ازدادوا عتوا واستكبارا وأقدموا على كثير من الفواحش والمنكرات عندما توفى رشـــوان زاده ؛ قـــام ــ لإعادة الأمور إلى نصابها الطبيعى ــ بإعدام المدعو (قيرجه دلى أغلـــو دلي حسين) ــ من أهل الفساد والذى كان قد تجرأ على ارتكاب الكثـــير من أعمال الظلم والعدوان وادعى تفرده بين أعيان اللواء ، وقتل كذلـــك عددا من مثيرى الشغب والقلاقل فى البلاد من الأكراد فاســدى الخلــق ؛ وبذلك أقر الأمن والأمان فى البلاد وحقق الرفاهية للعباد .

توجيه رتبة الوزارة السامية وإيالة دياربكر إلى حضرته

بعد مدة من قدوم حضرته اللواء المذكـــور ، صـــدرت الأوامـــر السنية من الخليفة الأعظم بمنحه رتبة الـــوزارة الســـامية وهـــى أرفـــع

وأسمى الرتب ، وكان ذلك باعثا على ابتهاج السامعين وسببا لسرور الناس أجمعين .

[١٥-ب] وحزن حضرته غاية الحزن لابتلائه بضوضاء الدنيا واستنكف من تحمل وزر الوزارة الثقيل الذى ليس بوسع بشر أن يتحمله فى يومنا هذا ليوم واحد . غير أنه صدع بمنطوق الأمر السلطانى ؛ إذ إن طاعة أولى الأمر من طاعة الله .

وعلى الفور استناب رجلا أهل كفاية واقتدار ، ووجه به إلى ديار بكر ، ولما لم يأت الإيالة المذكورة — منذ زمن بعيد — وال مقتدر على تخويفها وإرهابها؛ فقد خرجت أغلبية تلك الجهات عن دائرة الطاعة وتعاظم البغى والفساد فيها حتى بلغ غاية الغايات ؛ ولذلك أرسل حضرته (الحاج على أغا) — رئيس الأدلاء — فى حشد من الجند إلى تلك الجهات ، فقمع أشقيائها فى عدد من المواضع ، وأخضعهم ، وأدخلهم جميعا فى دائرة الطاعة والانقياد .

واستكمل حضرته الأسباب اللازمة لإقرار الأمن فى البلاد وأخضع ألوية مثل هانى وترجيل وأطاق وجسقه وجباقجور وهى التى لم يفلح أسلافه من الوزراء فى إخضاعها والسيطرة عليها .

[١٦-أ] وعلاوة على هذا بسط هيبة الحكومة وهيمنتها — بقدر الكفاية — على أقضية مثل جزيرة ابن عمر ، وحذو ، وأسعر ، والقرى الموجودة داخل بايزيد والتى فهم من السجلات العتيقة ، وسمع من الناس أنها تابعة لديار بكر . واستدعى كبار بكواتها وأعيانها . ومضى يحق الحق ، ويقيم العدل فى الناس ، ويحكم بالقسط.

ظهور منجم (توفيق) فى جبال أكراد (ملوكا نلو) وقمعهم

كان تفكير حضرته وأكبر همه موجه إلى دعم بيت المسلمين والتفانى فى خدمة الدولة العلية ؛ لذلك بث المعدنين العارفين بأحوال المناجم فى شتى الجهات التى يشتبه وجود خام المعدن فيها ، وأنفق أموالا طائلة على حفر الغيران .

ولم يزل هؤلاء ينقبون ويفتشون حتى علموا بوجود غار لخام المعدن داخل الجبال التى يسكنها أكراد (ملوكانلو) فأرسل فى التو والحال عددا من المعدنين الذين يعرفون خام المعدن ، مع مباشرين أقوياء إلى تلك الجهات ، وأحضروا عدة أحمال من خام المعدن ، ولدى فحصها من قبل مهرة المعدنين تبين أنها ليست خام فضة ، واستدل على وجود الذهب فيها ، ونصبوا الموقد فى الحضرة السنية لضيا باشا وقاموا بصهر الخام . ورغم أنه لم يتضح كنه ذلك المعدن كلية ، إلا أنه كان يثق فى احتوائه على الذهب بوفرة . [١٦-ب] وعليه رفع الأمر إلى الباب العالى ، وسمى المنجم بـ (منجم توفيق) ، وصدرت الأوامر السلطانية بإلحاق المنجم المذكور وإدارته بـ (كبان) وإسناده أيضا إلى حضرته ، فبذل جهده وطاقته فى تشغيله.

ولوقوع المنجم المذكور فى بقاع مسدودة المسالك ،كثيرة المهالك فى الجبال التى يسكنها أكراد (ملوكانلو) ، سالفى الذكر، وخروج هؤلاء عن جادة الطاعة والانقياد منذ أكثر من خمسين عاما ، وقطعهم طريق الغادى والرائح فى تلك الجهات ؛ فقد لزم استئصال

شأفتهم لتشغيل المنجم المذكور والاستفادة منه ، فحشد حضرته الجند من شتى الجهات والنواحي وأعد العدة من آلات الحرب اللازمة وخرج إلـــى العشيرة المذكورة وهاجمها ببضع من كتائبه وألقى الرعــب فـــى قلـــوب أشقيائها وقتل منهم الكثير فيما وقع معهم من معارك .

[١٧-أ] ولما لم يعد لهم طاقـــة علـــى الصمـــود والمقابلـــة استأمنوا على أنفسهم وألقوا أسلحتهم فى الفسطاط الآصفـــى لحضرتـــه ورجوا عفوه والتمسوا صفحه ، فأجابهم إلى ملتمســـهم عمـــلا بقـــول : " العفو زكاة الظفر " وأخذ عليهم تعهدا بعدم عصيانهم وانحرافـــهم عـــن جادة الطاعة والانقياد قط . ونصب على منجم (توفيق) أمينا أهل درايـــة كفاية، وعددا من مهرة المعدنين لتشغيل الأفران، كما عين أمـــيرا علـــى العشيرة المذكورة واستكمل أسباب تشغيل المنجم، ثم عاد إلـــى (كبـــان) وقد أقر الأمن فى تلك الجهات بحيث بات بمقدور أى أحد الطواف أعـــزل بلا رفيق ولا مرشد فى الموضع الممتد من بوابة حلـــب حتـــى ســـواحل (سيواس) ــ الذى يقدر بعشرين مرحلة ــ دون أن يمسه سوء .

إلحاق أمانة (كمشخانه) بــــ (كبان)
وقمع أوجنجى زاده

إن ما بذله حضره المشار إليه من جهد جهيد فى ضبـــط أمـــور البلاد ، وتوفير الأمن والراحة للرعية ، [١٧-ب] وما صرفه من سـعى وحماس فى أعمال المناجم، فاق جهد أسلافه بمراحل كثيرة ؛ ولذلك فقـــد صدر الأمر بإلحاق أمانة مناجم (كمشخانه) كذلك بـــ (كبان) وإسنادها

إلى عهدته الآصفية . وعلى الفور نصب أمينا كفئا قادرا على أعمال المناجم ، مقتدرا على ضبط أمور البلاد وربطها ، وزوده بالسلاح الكافي، ولقنه بالوصايا اللازمة ، وأنفذه إلى جهة مهمته ، وأرسل معه كذلك قدرا كافيا من جند المشاة .

وصل الأمين السابق ذكره إلى كمشخانه ، واشتغل بأعمال التعدين ، ولم يكن هناك من يخالف أوامره ، ويقف في سبيل رأيه وتدبيره إلا شقى يقال له (أوجنجى أوغلو) كان قد طغى وتجبر ورفع راية العصيان فى قضاء (طرول) الملاصق لـ (كمشخانه) منذ سنوات عدة .

وكان ذلك الشقى قد بنى حصنا حديديا يشبه القلعة ، وظل فترة طويلة يتمرد على أمناء كمشخانه . وكان قد غلب على زعماء القبائل من حوله ؛ وبرغم عدم تجاسره على إساءة معاملة أمين كمشخانه المذكور ــ كما كان شأنه مع أسلافه ــ لم يلبث أن عاد إلى سيرته الأولى .

وعندما نما ذلك إلى حضرته ، أرسل إليه ينتهره ، ويوبخه ، فوجه(أوجنجى أوغلو) ابنه ــ وكان طفلا فى العاشرة ــ إلى (كبان) محملا بالهدايا اللائقة ؛ وذلك لالتماس العفو، [١٨-١] وطلب الصفح عما سلف من زلات .فأعاد حضرته هذا الصبى إلى والده حاملا رسالة ترهيب ونصح يقول فيها :

" اعلم أننى قد تجاوزت عما سلف من سيئاتك حتى تلك اللحظة ، لكن إذا ما حدث أن صدرت منك زلة أخرى فاعلم أن حديثى معك من بعد ، بالسيف والسنان لا باللسان " .

وإن يكن الشقي المذكور قد انصرف عن إساءة معاملة أمين كمشخانه ، إلا أنه لم يكن يتورع عن ظلم الناس والعسف بهم . ولما صار لزاما قمعه ـ بأى شكل من الأشكال ـ ساق حضرته كتخداه عبدى بك فى كثرة من الفرسان والمشاة والعتاد الحربي إلى تلك الجهات ، وأرسل فى معيتهم كذلك أمين كمشخانه ، وأعيانها ، وأغواتها . وعندئذ استدل (أوجنجى أوغلو) اللعين على أحوال الغد من مرآة اليوم ، فأخذ عياله وفر صوب بعض (الدره بكوات) فى جبال (جانيك) مستجيرا بهم ، [١٨-ب] وأبقى ابن أخته فى داخل الحصن فى عدة مئات من المشاة .

وصل عبدى بك بمن معه وحاصروا الحصن المذكور ودكوه دكاً بقذائف مدافعهم ، ودام القتال سبعة أيام بلياليها . ولما بات محالا على الشقى المحصور داخل الحصن الصمود والمقاتلة ؛ خرج هاربا تحت جنح الظلام وأرسل عبدى بك خمسين من رءوس القتلى من الأشقياء إلى حضرته فى كبان. وبعد أن سوى الحصن بالتراب بما صبه عليه من قذائف مدفعيته أخذ تعهدا على أهل المنطقة بعدم إدخال (أوجنجى أوغلو) إلى قضاء (طرول) ثانية ، فأعاد بذلك النظام وأصلح الأمور بعد فسادها، ثم عاد منصورا إلى (كبان) .

توجيه إيالة أرضروم إلى حضرته
ومغادرته (كبان) بعد عدة أشهر

بعد أن سقطت الدولة الصفوية في إيران شملتها الفتن والاضطرابات ، وهذا مدون على وجه التفصيل في سجلات وقائع الدولة العلية.[١٩١-١]

وفي النهاية تحقق الأمن والاستقرار في ذلك القطر على عهد (زند كريم خان) الذي تولى مقاليد الحكم في إيران إثر تغلبه على منافسيه. ولما توفي زند خان هذا اختلت الأمور في إيران مجددا وأدركتها الفتن والقلاقل وظهر في كل إيالة من إيالاتها طاغية يدعي الاستقلال، وأصبحت الخطة الإيرانية نهبا للفوضى والقلاقل .

وفي نهاية الأمر غلب المدعو (خادم أغا محمد خان) على نواحي دلير عنتر وآستان استر أباد وطهران وبسط سيطرته على مازندران ثم أصفهان المعروفة بـ (عراق العجم) ، وحارب (ابن صادق خان) ، نجل زند كريم خان ، أقوى ملوك إيران قاطبة ، وحاصره، وضيق عليه الخناق في قلعة (كرمان) وتمادى في إذلاله والزراية به ؛ فامتد الحصار سنوات ثلاث في اتصال ودوام.

وفي النهاية هزم (خادم محمد خان) ابن صادق خان و (طائفة الزندية) وأبادهم عن آخرهم وغلب بذلك على ديار فارس ، وتنكر لأعوانه ، واستبد برأيه ، وانتهب أموال خانات البلاد التي ملكها واستقل بالملك ، ثم حدثته نفسه وداخله الطمع للسيطرة على بقية إيران حتى آرزنجان وكورجستان فلبس التاج الملكي في صحراء (أردبيل) ،

وحمــل خـــانات إيران عــلى الاعــتراف بـــه شاه مستقلا على إيـران ، [١٩-ب] ثم عهد لابن أخته سليمان خان بإخضاع أرزنجـــان ، وســـاق معه جيشا جرارا من خمسين أو ستين ألف مقاتل ، وانطلق هـــو الآخــر على رأس جيش من مائة ألف للاستيلاء على (كنجه) و(تفليس) .

ولأن تحركات أغا محمد خان بثت الرعب والفـــزع فـــى ديـــار (آرزنجان) بأكملها ، و(كورجستان) ، و(طاغســـتان) ؛ تحـــالف خانـــات شـــوش ، وكنجـــه ، وبعـــض خـــانات طاغســـتان مـــع عركيـــل خـــان (خان تفليس). ومن جهة أخرى تعضد كل واحد مـــن خانـــات (روان) ، و(خون) ، و(روميه) ، و(مراغه) ، و(تبريز) ، و(نخجوان) ، و(قره داغ) مع بعضهم البعض .

وفى الوقت الذى كان فيه كل منهم مستعدا فى ميدانـــه ، دخـــل القائد سليمان خان آذربيجان واجتاح ينهب ويدمر كل ما يصادفه ، ولـــم يكن لأحد من الخانات المشار إليهم قبل بره ؛ فتبعثروا فى طرفة عـــين ، [٢٠-أ] وأسرع كل منهم إلى إيالته للدفاع عن قلعته ، فتقـــدم القـــائد سليمان لحصار نخجوان دون عناء . وعلى الفور استطاع فـــى غضـــون يوم أو يومين إخراج متصرفها (كلب علـــى خـــان) مستســـلما وألحقـــه بخدمته وبعد أن نصب سليمان خان على نخجوان خانا قويا ذا بأس ، شرع يحاصر قلعة (روان) ، ويشدد عليها الحصار ليل نهار ، فاستمات فجر محمد خان وطائفة روان ، ولم يفتروا عن الصمود والمقاومة طيلـــة ثلاث عشرة يوما . ورغم هذا لم يعد بمقدورهم التصدى لرماه البنـــادق ، بأى حال من الأحوال ، فاستأمنوا على أرواحهم ، وسلموا القلعـــة لقـــاء تأمينهم على أنفسهم .

ولقد زلزلت أحداث (نخجوان) ، و(روان) الأرض من تحت أقدام سائر الخانات ، وبثت الرعب في قلوبهم ؛ فلم يسعهم إلا الانقياد للخان المشار إليه وتسليم مفاتيح قلاعهم وبلادهم له .

واجتاز أغا محمد وجنده سفاكو الدماء صحراء مغان مارين بطريق(بردع) بـ (طاغستان) وغلبوا على قلعة كنجه وعندما بدأوا يتخذون الأهبة لتدمير تفليس ، عمد غركيل خان إلى المقاومة ، غير أنهم تكاثروا عليه ، فاضطر إلى الفرار بأولاده إلى قلعة (كاخت) . ودخل محمد خان وجيشه تفليس وعاثوا فيها نهبا وتخريبا ،[٢٠-ب] وأعملوا سيوفهم في سبعين ألفا من أهلها ، وسبوا نحو سبعين ألفا آخرين من نسائهم وذراريهم ، كما انتهبوا أموالهم وحواصلهم ودمروا دورهم وسووها بالتراب ؛ فغدت أعشاشا للبوم والغربان .

ورأى أهالي تفليس خراب بلدتهم بحيث أصبح ينطبق عليها قول :

وبلدة ليس بها أنيس

إلا اليعافير وإلا العيس

فرحلوا عنها إلى مشتى مغان وهي صحراء مترامية الأطراف على بحيرة كوكجه.

وعلى نحو ما سلف بيانه زحف محمد خان من طهران قاصد آذربيجان. وفي تلك الأيام ارتاعت الخلائق واستبد بهم الخوف والفزع ، فالتجأ ما يزيد عن ثلاثين ألف أسرة إلى الثغور العثمانية ، وعندما اجتازوا بحيرة (آربة) إلى بيروقه طلبا للأمان أرسل سكان الثغور إلى السلطنة السنية يستجيرون بها ويناشدونها المدد. [٢١-ا] وعليه تحتم إرسال وزير همام مقدام إلى الطرف الشرقي واليا على أرضروم ،

فكر رجال الدولة وأولو الرأى والمشورة فـــى كــل وزراء الأنـــاضول ، ووزنوا كفايتهم وقوموا معدنهم ؛ فلم يجدوا شخصا قادرا على رتق هــذه الثلمة سوى أمين المناجم السلطانية الوزير الشجاع حضرته ؛ فصرفـــت إيالة ديار بكر من عهدته السنية وأسندت إليه إيالة أرضروم .

ولما كانت الأوامر قد صدرت إليه بالتحرك إلى جهة أرضـــروم بعدة وعناد قويين يرهب بهما محمد خان ؛ [٢١-ب] انطلق حضرتـــه من (كبان) بجيش جرار عدتـــه سبعة أو ثمانيـــة آلاف مـــن الجنـــد المخصصـــين للمناجـــم السلطـــانية ، عـــلاوة على ألف وخمسمائة مـــن (الديوانكـــان) وخمسمـــائة مـــن (التوفكجـــية) وصفـــوة من أغوات (الأندرون) ، و(البيرون) ، وبث المهابة عن يمينه وعن شماله مـــارا بشرق قره حصار ، وآرزنجان ، وترجان ، ثم قطع المراحـــل وطـــوى المنازل ودخل أرضروم فى موكب حافل ، ونزل بالقصر الخاص بالولاة .

وبسبب صدور بعض الأحوال غير اللائقـــة مـــن الحـــاج عبـــد الرحمن أفندى مفتى أرضروم الذى ينحدر من سلالة مفتيى أرضروم منـــذ زمن بعيد ، تسببت فى إثارة البلبلة والقلاقل فى البـــلاد ، تحتـــم تـــأديب الأفندى المذكور فنفاه حضرته إلى كبان ، وعاقب كذلك عددا مـــن أهـــل الفساد .

وقبل ذلك عندماكانت تأتي أوامر رسوم الوبر والصوف والقطـــن لم يكن الولاة الكرام السابقون يجسرون على إظهارها خوفا من الفتنـــة . ولم تزل هذه الأوامر فى طى الكتمان حتى فتحها حضرته وقرأهـــا علـــى رءوس الأشهاد وأشاع منطوقها الجليل خارج أرضروم وداخلها، وأمـــر بتحصيل الرسوم المطلوبة ، جديدها وقديمها .[٢٢-١]

وأخذا للحيطة فى أمر حماية الثغور الشرقية فى أزمنة الفتنة فى إيران ، صدرت أوامر جليلة إلى ولاة جلدر ووان وقارص مضمونها : " إنه علاوة على أن ولاة أرضروم كانوا فـــى جميـع الأزمنـــة بمثابـــة (سر عسكر) للثغور الشرقية فإن وزيـــر أرضـــروم ســـمير المكـــارم لا يضاهى ولا يساوى بسائر الوزراء . ولما كـــانت شـــجاعته وشـــهادته مقبولة ومؤثرة فى تلك الجهات ؛ فإنه يجب على أولئك الولاة رفع كافـــة أمورهم كبيرها وصغيرها ـــ التى يرفعونها إلى الباب العـــالى ـــ إليـــه ، وعليهم معاملته كـــ (سر عسكر) فى كل الأمور ، وهم مسئولون أمامه عن كافة الموضوعات المتعلقة بالثغور الشرقية للدولة." وعلاوة علـــى التنبيه عليهم بذلك، وضعت كافة أمراء أرضروم وديار بكـــر ومرعـــش وأهاليها تحت إمرته.

وبنى حضرته دارا لصناعة المدافع الخاصة بأرضروم من صلب ماله ، وأحصى عدد مخازن المؤن والذخيرة فى قلاع الثغور الشـــرقية . وبنى مخزنا ضخما للغلال فى قلعة قارص وابتاع كميات وفيرة من الغلال [٢٢-ب] لذلك المخزن وباقى المخازن ؛ فهيأ المـــؤن وعمـــر الثغـــور الشرقية من أدناها إلى أقصاها .

تأديب شاه حسين أوغلو
(من أشقياء أكراد الديسميين)

عندما أسندت إيالة ديار بكر إلى حضرته ــ على نحو ما تقدم ــ خرج الزعماء وأصحاب التيمارات وكافة من ينضوى تحت لواء طائفة البكوات من ديار بكر .

وبينما كانوا قادمين إلى أرضروم نزلوا بقرية أرمنية فى سفح جبل كشمير تسمى (ملكان) . وفى تلك الليلة وبسبب العداء القديم الذى كان مستحكما بين المدعو شاه حسين أغلو ــ من أشقياء أكراد الديسميين ــ ويازيجى أوغلو محمد بك ــ حاكم (كيغى) ، وكون تلك القرية فى عهدة الأمير المذكور ؛ داهمها شاه حسين أوغلو بعدة مئات من الأوباش ، وبادر أهل الإيالة ، دون أن يعرفوا حقيقة الأمر ، إلى صدهم وقتالهم . وفى أثناء القتال الذى استمر ساعة أو ساعتين هلك عدد من سفهاء الأكراد ؛ غير أنه حدث أن استشهد (يازيجى أوغلو محمد بك) فى نفر من رجاله . ولما علم الأكراد بذلك، انسحبوا إلى ديارهم. [٢٣-١]

ولما نما إلى حضرته نبأ ارتكاب الأكراد ــ خبيثي الطبع ــ لمثل هذه الجرائم البشعة ؛ أرسل على الفور إليهم ولى باشا متصرف مجنكر وأنفذ معه حشدا من الديوانكان واللاز ومقدارا من أغوات (البيرون) ، فشتتوا شمل أسرة الشقى المذكور ، وقتلوا نحو خمسين من رجاله وعادوا منصورين مظفرين إلى أرضروم ، وظفر ولى باشا بارتداء الخلعة من ضيا باشا .

توجيه إيالة جلدر إلى حضرته وإخراج شريف باشا من آخسخه

عندما توفى سليمان باشا ــ الوالي المستبد في إيالة جلــــدر ــ منذ أكثر من عشرين عاما ، أسندت الإيالة مجدداً إلى اسحق باشــا ابــن المرحوم حسن باشا ــ من أعرق عائلات آخســخه ــ [٢٣-ب] فقــدم جلدر وعندما دخـلها أســاء معامــلة شــريف بـك بـن سليمان باشــا (من رؤساء بوابي الباب العالي) ؛ فخرج شريف بك إلـــى (ألوانــه) مسقط رأس آبائه وأجداده منذ أمد بعيد . وبعد أن مكث بها أياما التفــت حوله شرذمة من أسافل الناس وأراذلهم .

أما كافة أمراء جلدر وبكواتها فقد زعموا أنهم عبيــد ســليمان باشا ، وأنه هو الذي اشتراهم بذهبه وأغدق عليهم من إحسانه ، فشايعوا شريف بك وآزروه، وهاجموا (آخسخه) يريدون طرد اسحق باشا منها، وكان المشار إليه وزيراً سيئ التدبير ، محصور التفكير لا يفــرق بيــن الأرض والسماء لا يحذو حذو أسلافه من الوزراء الكرام ، فلم يكــن لــه قبل بمقاومتهم ــ بأي شكل من الأشــكال ــ ولاذ بالفــرار إلــى قصبــة (أولطو) ، فتعقبه شريف بك ، فلم يصمد له كذلك . وبادر شريف بــك إلى الاستيلاء على جلدر ، وغلب عليها بلا مقاومة ، وتجاسر علــى إدارة دفة الحكم فيها من تلقاء نفسه ، ثم أخذ يتقرب ويتذلل لتوجيه إيالة جلــدر ورتبة الوزارة إليه بإرسال (المعروضات) إلى الباب العالي من كافــــة الأقضية .

ولما كانت غوائل الحروب العثمانية ظاهرة في ذلك التاريخ ؛ فقد أحيلت الإيالة المذكورة إلى شريف بك ومنح رتبة الوزارة ؛ وذلك بما يتفق مع مصلحة الدولة .

غير أن شريف باشا اعتقد أنه حصل على رتبة الوزارة بمساعدة الأهالي، [٢٤-أ] ولم يعبأ بأي حال من الأحوال بكسب رضا الدولة العلية وتقاعس عن إرسال الأموال الميرية ، وصدر منه الكثير من التصرفات الحمقاء التي استوجبت إخراجه من جلدر ، وإبعاده عنها بمنحه منصب في بلاد قصية .

ولما كان واضحاً أنه لن يفارق جلدر بالحسنى ، ولا يوجد وال قوى الشكيمة قادر على إخراجه منها عنوة فقد أرجئ تنفيذ ذلك إلى الوقت المناسب.

ولما شاعت الأنباء باعتزام أغا محمد خان الخروج من صحراء مغان وقدوم كورجستان ، لم يكن حضرته قد ولى أرضروم بعد .

ولما علم أغا محمد خان أن أبناء تيمور شاه ــ الذين استحوذوا على مقاليد الحكم في نواحي خرا سان ــ قد تخطوا بعض حدوده ، خرج من مشتاه في مغان سريعا متجها إلى خرا سان .

ولما وصل نبأ ذلك إلى الباب العالي كان قد أزف وقت قمع شريف باشا؛ [٢٤-ب] فورد كتاب من الصدر الأعظم إلى حضرته مع اثنين من السعاة ، جاء فيه : " إنه بسبب حداثة والى جلدر شريف باشا وصغر سنه لم يفتر عن تصرفاته الطائشة والمخالفة لرضاء الباب العالي؛ لذلك صدرت الأوامر الجليلة بإحالة إيالة جلدر إلى عهدتك الآصفية . وإذا حدث أن عمد شريف باشا إلى العناد والمخالفة ؛ فسوف

يصدر الأمر السلطاني بقتله ؛ ولذا عليك الإسراع بالكتابة إلـــى البــاب العالي عن التدابير الصائبة اللازمة لتنفيذ الأمر السلطاني "

ولما بلغ ذلك حضرته ، كتب إلى الباب العالي يقول : " لما كــان واضحا أن شريف باشا يرتبط بعلائق الود والألفة بأهـــالي إيالـــة چلـــدر وبعض خانات طاغستان المجاورين له ، فإنه حالما يمـــر بسـمعه أنـــه سيُعزل ويبعد عن الإيالة المذكورة ؛ سوف يحشد أمراء الألوية وطوائــف اللاز ، فيستفحل أمره وتقوى شوكته.

ولما كانت نواحي آخسخه جبال شاهقة وأدغال منيعـــة صعبـــة المسالك ؛ فبديهي أن يكون اجتيازها من العسير ، وعليـــه فحتـــى لـــو صدرت الأوامر بإسناد إيالة چلدر إلى شخص آخر ، ومنح شريف باشـــا منصبا في إيالة قصية . فإنه على أية حال ، سوف توجــه إليـــه أوامـــر التكليف خطاباً ،[٢٥-١] فإذا امتنع عن المضي إلى منصبه في الإيالـــة ينبغي إرسال أمر عال للقضاء عليه واستئصاله إلى الأمراء كل على حده، وإذا ما أشعرت متصرف قارص نعمان باشا ـــ من الميرميران ـــ وأمراء الألوية ، وأرسلت إلي أوامر زحفهم سرا وبعثت الجنـــد إلـــى آخســـخه وشريف باشا في غفلة من أمره ، فسوف يحاصرونه ويضيقـــون عليـــه الخناق . ونسأل الله وهاب العطايا التوفيق والسداد " .

وبعد مرور عدة أيام على رسالة حضرته هذه إلى الباب العالي ، صدرت الأوامر بإلحاق إيالة چلدر بعهدته المشيرية طبقا لما طلب فـــي رسالته، وأرسلت إليه مختومة .

واتفق أنه في ذلك الوقت كان قد كلف أحمد باشا والي سيواســـي بالزحف على (ميلا سلى قرة صـــالح) ، [٢٥-ب] وتـــواردت الأنبـــاء

بعودته مكسوراً ؛ فصدر مرسوم قاطع بقهر (قـره صـالح) والقضـاء عليه. ولاشتراكي في هذه العملية العسكرية فقد دونت حوادثها .

وعلاوة على جند ضيا باشا الذين كانوا يبلغـون نحـو خمسـة آلاف، ونحو ألف فارس ، وولى باشا متصرف مجنكر وألف من صفـوة انكشارية أوجاقات أرضروم ومعهم كافة زعماء إيالات أرضـروم وديـار بكر ومرعش ، صدرت الأوامر لكل من متصرف (بايزيد) اسحق باشـا، [٢٦-1] ومتصرف (موش) مراد باشا، وبكوات ملازكـرد ، وحـاكم كيغى ، ومحافظي كمآخ وكرجـاتيس ، وقوربجـاى ، وقـره حصـار ، وآرزنجان ، وبايبود ، وترجان ، واسبر ، وكالكيد ؛ وشيران مـن أجـل احتشادهم جميعا في خلال أربعة أو خمسة أيام في صحراء أرضروم .

وبناءً على ذلك وفى اليوم الخامس من وصول الفرمان العـالي إلى ضيا باشا ؛ خرج قاصداً قرية (لوكان) على مسـافة سـاعة مـن أرضروم ، وأحضر معه كافة وجهاء أرضروم .

وبعد أن لبثوا ليلة بالقرية المذكورة ، وفـي الصبـاح أوضـح حضرته لكل منهم مهمته ، ونصب ولى باشا قائمقاماً على آخسخه وأمره بالمضي إليها سريعاً وإحكام قبضته عليها ، وسلمه مرسوماً بالبقاء فيـها ريثما يصل إليه ، وخلع عليه خلعة القائمقامية وأرسله إلى مهمته .

وفى يوم الخروج من أرضروم ، قدم مراد باشا زاده ميرزا بـك في ألف من خيرة الفرسان والكتخدا خليل بك (أَلَشكَرْ) فيما يقرب مـن خمسمائة من الفرسان ، فبعث بهم حضرته هم والحاج على أغا رئيـس الإدلاء في معية ولى باشا ، وزود كلاً منهم بالوصايا اللائقـة ، وأرسـل

معهم خمسة آلاف فارس ، ونصب كذلك كتخـداه الحـاج إبراهيـم أغـا قائمقاماً على أرضروم .

وبعد أن دار الحديث بينه وبين كافة الأعيان ، نادى الشاويشـية بالتأهب، وتحرك جيش جرار من القرية المذكورة ؛ فـامتلأت صحـراء أرضروم ــ مترامية الأطراف ــ بجند بعدد نجوم السـماء ، [٢٦-ب] وحطوا الرحال بقرية تسمى (حنث) . وقدم تلك القرية ألف من الجنـد أرسلهم متصرف بايزيد مع صهره تيمور بك ، وخمسمائة جندي آخـرون مع إبراهيم بك ملازكرد ، وفرسان كيغى في معية حاكمها ، وخلع علـى كل منهم خلعة فاخرة حتى فاق أقرانه .

وفي يوم الخروج من قرية (لوكان) ، أرسل الحاج ممش أغـا (أغا السلام) إلى دار شريف باشا ، وأنبأه بمرسوم سني بإسناد إيالـة أدنه إليه ، وصرف إيالة جلدر منه ، [٢٧-١] وإلحاقها بعهدة حضرته، وصرح له بأنه إذا ما عمد إلى العناد والـتردد فسـوف يعـامل معاملـة أخرى، ومن ناحية أخرى بلغ ولى باشا بجنده قريـة (بارنـام) قبيـل المساء قادمين من قرية (لوكان) ، وبعد أن أطعموا الجياد ، استمروا فـي سيرهم ليل نهار حتى بلغوا قلع أر دهان بعـد ثلاثـة أيـام ، فعسـكروا بجوارها .

وفيما كانوا على وشك التحرك من المرحلة المرموقة ، عاد أغـا السـلام مـن جهـة شـريف باشا ، واخبر ولى باشا بأن المشـار إليه (شريف باشا) لاذ بالفرار في نحو عشرين من خدمه إلى جهة مضيـق (كورجى) ومكث في قرية يترقب الأخبار ويلتمس الأمان مـن الجـانب الأصفى . وأوضح له أن توجهه إلى آخسخه سيتسبب في إخافة شـريف

باشا وفراره ، وإلحاق الضرر كذلك بسكان البلاد ، وأنه من اللازم عليه أن يمكث في موضعه ريثما يقدم سيده (ضيا باشا) إلى أر دهان .

وعندما أنهوا إلى حضرته نبأ طلب شريف باشا الأمان ، حرر فى التو والحال مرسوما لطيفاً يتضمن الأمان ، وأرسله إلى المذكور مع كتخداه أحمد أفندي ، من سادة الديوان الهمايوني ، ورئيس الإدلاء السابق ذكره .

وفى اليوم الذي يليه تحرك حضرته بالجيش من قصبة (مامروان) وتوقف بقصبة (أولطو) في ترقب ورود الخبر من كتخداه المشار إليه ، ورئيس الإدلاء ، ووصول الجند المأمورين من ورائهم . ومن بعد طوى حضرته وجنده سناجق (بنك) و(كوله) ، واستقبلتهم قوات ولى باشا ، وبالتقاء الجيشين اكتظ فضاء (أر دهان) من أقصاه إلى أقصاه بجيش كالبحر الخضم .

وفى يوم الخروج إلى سنجق (بسقو) ومنه إلى قرية (آلاي) على مسافة ثلاث ساعات من آخسخه ، قدم شريف باشا في نحو مائة من رجاله ، فاستقبله حضرته وواساه وطمأن خاطره المحزون ، وهدأ من روعه ، وأكرمه غاية الكرم ، وأخبره أنه سوف يجيبه إلى كل ما يطلب ويسعفه بكل ما يريد ، وأعاده إلى قصره الواقع فى حديقة على مسافة ساعة من (آخسخه) .

وفى اليوم التالي رتب (ضيا باشا) المواكب صفاً صفاً من الفرسان والمشاة من قرية الموكب حتى أخسخه نفسها ، ودخل آخسخه في جلبة عظيمة وأبهة هائلة وأطلقت المدافع من القلعة حتفاء بقدومه ، ونزل بقصر البكوية الخاص بالأمراء .[٢٨-١]

ولما لم يحمل شريف باشا ولم يسافر إلى أية جهة ، منذ بـــدء توليه الوزارة وحتى ذلك التاريخ ؛ فقد افتقد أسباب الوزارة ، حتى أنه لم يكن لديه دواب كالفرس والجمل ، ولا (مهتر خانه) ، إلى غير ذلك مـن لوازم الأبهة والعظمة ؛ ومن ثم أرسل إليه حضرته ما يقرب من مائه من الجياد والجمال على سبيل الهدية ، وأبان عن كمال مروءته معــــه بــأن زوده بسائر لوازم السفر والحرب وأسباب الوزارة ، وأرسل إليه كل ذلــك إلى (أدنه) خلال عدة أيام وأرسل معها كلاف حتى حدود سيواسي كـــي يهيئ لها الكلفة ، وأمره بأن يوفيه التبجيل والتوقير .

ولعدم الاهتمام بإحقاق الحق حسبما يقتضية الشـــرع القويــم ، وعدم النظر في الدعاوى على أساس من العدل والنصفة منذ ثلاثيـــن أو أربعين سنة في هذا البلد ؛ فقد أفسح حضرته صدره وألقى سمعه وبصره لدعاوى آلاف من الضعفاء الذين شقوا جيوبهم ، ورفعوا ظلاما تهم إليه، وفصل في الخصومات على أساس من الحق والعدل ، وبذل وســعه فـــي إعادة النظام إلى نصابه في البلاد .

وبعد أن لبث أربعين يوما تقريبا في البلدة المذكورة ، نصب بـك (أرد هان) قائمقاماً عليها .[٢٨-ب] ولدى عودته ، فطن إلى أن جنده ـ وكانوا كالبحر الخضم ـ سوف يكونون عبئاً على كاهل الرعايا ؛ ولكي يتحاشى ذلك ولكي يستعرض قواته على الحدود الإيرانيـــة ؛ أســتصوب المرور على قارص . وفي يوم الخروج من (آخسخه) نقـــل الأثقــال والأمتعة إلى قلعة (آسبنزه) ومنها إلى قلعة (خير توس) ، ومنها إلـــى قلعة (آخيل كلك) ، ومنها إلى سنجق (جلدر) ، ثم خرج مــن السـنجق

المذكور قاصدا قضاء (ذار شات) ــ أحد أقضية قارص ــ ومنه بلغ قرية (كبند) على مسافة ثلاث ساعات من قارص .

وفى اليوم الذى يليه دخل قارص فى موكب حافل من نحو عشرين ألف جندى ، وأطلقت المدافع من القلعة احتفاءا بقدومه ، وعمت مظاهر الفرح والبهجة ، ونزل بقصر مدرس أفندى.

وفيما كان حضرته لا يزال باسطا ظله على (آخسخه) ، أخبرته جماعة من أهالى قارص أن ثمة عشيرة كردية تسمى (كاسكانلو) فى الثغر السلطانى ، [٢٩-١] أشقت بظلمها العباد . ولعدم توارد وال مقتدر إلى قارص ؛ لم يقدر أن يقمعوا بأى حال من الأحوال ، فاستطالوا على الناس وعاثوا فى البلاد فسادا وبلغ طغيانهم غاية الغايات ، وحادوا عن جادة الصواب والاستقامة . وعليه وإبان خروجه من آخسخه عين رجلا شجاعا يقال له (عرب سليم) ــ أغا المطوعة ــ فى ألف من صفوة فرسان الديوانكان الأشداء ، وساقه لاستئصال العشيرة المذكورة .

وبعد أن أوصى الجند بالطواف من وراء جبل (صوغانلو) ، ومداهمة العشيرة المذكورة ليلا تقدم بسرعة بإرشاد (خاتون أغلو محمد بك) ــ من أغوات (مغازبرد) ــ وأشعل نار الحرب على ضفة بحيرة (آربه) الحد الفاصل بين الأناضول وإيران ، وابتدر أولئك الأكراد بالمقابلة. وبعد ساعة أو ساعتين من القتال ، لم يعد لهم قدرة على الصمود والمقاومة ؛ فلاذ كل واحد منهم بالفرار إلى جهة ، وقطعت رءوس نحو سبعين من أسراهم ، واغتنمت أموالهم وحواصلهم وكان جزاؤهم من جنس عملهم ، وعندما دخل حضرته قارص ، ألقيت الرءوس المقطوعة فى ساحة العقاب ، واستجلب بذلك دعوات الرعايا .

وأقام أربعة أيام فى (قارص) نزولا علـــى رجـــاء متصرفـــها وعموم أعيانها وأهاليها ، وبذل الصدقات للعلماء والصلحاء والمحتـــاجين والفقراء ، ثم خرج متجها إلى أرضروم ، [٢٩-ب] وساق جنده طاويا (مجنكر) وقلعة حسن من جبل (صوغـــا نلـــو) ، ودخـــل أرضـــروم منصورا مظفرا بعد أن قطع مسافة سبع مراحل ، ونزل بقصر تنشرح لـــه الصدور .

مقتل أغا محمد خان فى قلعة شوش

رغم أن وقعة أغا محمد خان لم تكن من وقائع حضرتـــه التـــى نحن مكلفين بالكتابة عنها ، فإن قدوم الثانى من المناجم السلطانية إلـــى أرضروم إنما كان أخذا للحيطة من استفحال أمر الخان المذكور ، وكنا قد بينا إجمالا فيما مضى كيفية ظهوره واستيلائه على الخطة الإيرانية والآن نسوق الخبر فيما آل إليه أمره وعاقبته الوخيمة .

سبق أن استولى أغا محمد خان على آذربيجـــان ومشـــتملاتها كافة ، وخرب تفليس ، ثم قفل إلى صحراء (مغان) ، وأقام فى مشـــتاه فيها فى جماعة من رجاله ، [٣٠-أ] وفى مستهل الربيع ذاع الخـــبر بأنه عازم على غزو كل ممالك كورجستان ، غير أن تدبيره لم يوافق مـــا قدر العلى القدير ، إذ استولى أبناء تيمور شاه على إقليم خراسان ـــ على حدود (ما زندرانه) ـــ وتخطوها كذلك ، ولما نما نبأ ذلك إلى أغا محمـــد خان ، لم يطق صبرا ، وخرج من صحراء مغان قاصدا خراسان ونـــادى بالنفير العام فى كل الجهات ؛ فاجتمع له جمع عظيم وجم غفير من الجنـــد

فى زمن يسير ، وانقض على خراسان ، وأخضع أبناء تيمور شاه ثم عاد إلى حاضرة ملكه طهران ومكث بها حتى إذا استهل الربيع اتجه صـــوب آذربيجان يريد اقتناص كرجستان . وكان أول ما قام بـــه أن بـــادر إلـــى حصار قلعة (شوش) وكانت من أمنع حصون الخطة الإيرانيـــة، ولـــم يأنس محافظها إبراهيم خان فى نفسه القـــدرة علـــى المقاومـــة ؛ فـــأخذ زوجته وأبناءه ولجأ إلى طاغستان وذلك قبل عدة أيام من وصول خـــادم خان إلى القلعة.

وقدم الخان المذكور وترك جيشه على مسيرة أربع ساعات مـــن القلعة واستولى عليها بعدة مئات من فرسانه ، [٣٠-ب] ودخلها لنـــهب ما بها من أموال إبراهيم خان وحواصله، فقام اثنان من خـــواص خـــدم خادم خان ـــ بإيعاز من صادق خان ـــ بقتله وهو نـــائم فـــى فراشـــه ، وهربا.

ولما كان اعتلاء ولى عهده مسند سلطنة أبيـــه ، وســـائر أحوالـــه خارجا عن نطاق مبحثنا ؛ فقد إكتفينا بهذا القدر.

توجـــيه إيـــالة طـــرابيـــزون ومحصـــلية (جـــانيك) إلى حضرته وتجركه مـــن أرضروم ، وأحـــوال الأشقيـــاء

بسبب خروج أسرة المرحوم (جانكلى على باشا) مـــن ديـــار جانيك وابتعادهم عنها منذ أمد ، ظهر فى كل ركن من أركانها (دره بك) حارب بعضهم بعضا فى اتصال ودوام وأشقوا بذلك الرعيـــة والفقـــراء ، وبسط كل منهم نفوذه على أحد الأقضية ، وقام مجرم من حثالة النـــاس

يدعى (كَنج مصطفى) ببسط سيطرته على نحو تسعة أقضية تابعة لسيواس كان من أبرزها القضاء المعروف بـ (كول جانيك) ، واستبد برأيه وقضى على منافسيه من (الدره بكوات) واحد بعد الآخر وانفرد بمقاليد الأمور ولما شايعه شقى خبيث الطبع يقال له (انكيزلى على أقره) أبقاه فى قضاء (بافره) .

وعندما أرسل (جديد أحمد أفندى) ـ من سادة الديوان العالى؛ وكتخدا والدة السلطان السابق ـ من جهة السلطنة السنية محصلا للميرى ، طرده الشقى المرقوم علنا وأظهر التمرد والعصيان ؛ [٣١-١] فترتب على ذلك بالضرورة إسناد المحصلية المذكورة إلى (كَنج مصطفى) متغافلين عنه مراعاة للظروف والأحداث .

ولما كان حصوله على المحصلية بالقوة على ذلك النحو مؤديا لاغتراره وتبطره ، فإنه علاوة على ازدياد تصرفاته الخرقاء ، تقاعس عن أداء مطلوبات الدولة العلية ، فاستوجب ذلك عزله .

ولما كان القضاء عليه منوطا بوجود شخص حازم ، قوى الشكيمة ، قادر على قمعه . وكانت المحصلية المذكورة قد أحيلت بفرمان عال إلى والى أرضروم ، ولزم تعيين محصل كفء من جهة الباب العالى؛ فقد أرسل حضرته (الحاج ممش أغا) ـ أغا السلام ـ فى صفوة من خدمه القدامى . وعندما بلغ الموضع المذكور لم يجرؤ (كَنج مصطفى) على طرده مثلما فعل مع سلفه ، واستقبله متظاهرا بالإذعان والانصياع . ورغم هذا لم يسلم زمام الأمور إليه وعاد يستبد بالأمور ويقول للمحصل: "سأسدد أنا مال المحصلية إلى حضرة والى أرضروم ، وأبذل جهد طاقتى فى خدمته ، ولا دخل لك بأى شىء ، وأنعم بصفاء البال " .

ورغم أن تصرفه المستبد هذا كان يستوجب قمعه ؛ فقد أجيب إلى طلبه، وقسم (كَنج مصطفى) قره حصار وجانيك ـ من ضواحي إيالة أرضروم ـ بين (الدره بكوات) أمثال: (كديك على أوغلو) و(شيخ أوغلو) ، و(دزدار أوغلو) ، و(شيخ أوغلو)، و(نوح أغلو) ،[٣١-ب] كما سيطر (كل على أوغلو) على قضاء(تيره بولى) ـ من لواحق كمشخانه ـ وفرض المغارم على أهله كما حلا له .

ولما كانت الأقضية التي سيطر عليها (الدره بكوات) المذكورون تدخل فى نطاق الإدارات السنية لضيا باشا ؛ فقد تحتم القضاء على هؤلاء الطغاة واستئصال شأفتهم ، ولما كان ذلك منوطا بالوقت الشاغر والعتاد القوى ؛ فقد عمد إلى مصانعتهم ومجاراتهم .

وفى تلك الأثناء كان أحد بلوكباشية أحمد أغا ـ من خاصكية الأوجاق العامر ، ومن أعيان (آلوج آره) من ملحقات قره حصار ـ مقيما فى عشرة من خدمه فى قلعة حصينة تسمى (قواطه) ، وكانت تحت إدارة أحمد أغا ، قدم شقى يدعى (دلي علي) شقيق الحاج على أوغلو كوبه لى سليمان الذى كان يسكن فى حصن منيع يسمى (ديلكيجك) ـ على مسافة ثلاث ساعات من القلعة المذكورة ـ فيما بين أربعين إلى خمسين من رجاله إلى قلعة قواطه على أنهم ضيوف ، وبطريقة ما تأتى لهم دخول القلعة ، وعندئذ أطاحوا بمحافظها ومن معه وسجنوهم فى إحدى الدور ، وبسطوا سيطرتهم على القلعة .

واتفق أن كان أحمد أغا فى تلك الليلة ضيفا فى عدد من رجاله على قرية على مسافة ساعتين من قلعة (قواطه) ، [٣٢-ا] ولما علم (دلي علي) بذلك ، استبقى ما بين خمسة إلى عشرة من رجاله بالقلعة

للحفاظ عليها ، ومضى بالباقين ، وداهم أحمد أغا على الغفلـــة وقتلـــه .
ولما ارتفع النهار قدم ما بين مائة إلى مائتين من حثالــــة النـــاس مـــن أطراف القرى التابعة للقتيل، وقصدوا داره ، وقبضـــوا علـــى زوجتـــه ، وفجروا بها ، وبعد أن انتهبوا ما صادفوه من أموال وأمتعة ، أضرمـــــوا النار فى الدار وسبوا زوجته ، وبطشـــوا بأهـــالى المنـــاطق المجـــاورة وعسفوهم .

ولما نمت أنباء ذلك إلى أرضروم اشتد حنق حضرته واشمئزازه من وقوع مثل هذه الأحوال البشعة ، كما كان القتيل أحمد أغا فى أصلـــه بلوكباشياً فى بابه فى أرضروم ؛ فلم يقو على الصبر والاحتمال وأرســـل على الفور الحاج على أغا (رئيس الأدلاء) وساق معه مائه وخمســـين من الديوانكان وحشداً من الجند من شتى النواحى إلـــى قلعـــة قواطـــه، [٣٢-ب] ولما انتهى إليها الأغا المذكور بمن معه ، أحاطوا بـــها مـــن جميع الجهات بما يشبه الهالة ، واستماتوا فى القتال ليل نـــهار. ولعـــدم تمكنهم من فتح القلعة ما يقرب من سنة ؛ فقد تضاعفت إمداداتهم ممـــا أثار قلق كل (الدره بكوات) ، فأرسل رئيس الأدلاء إلى حضرته يخـــبره بمحاولة (الدره بكوات) نجدة الشقى المرقوم ؛ وعليه ومن أجل سد بـــاب الإمداد على (دلي علي) ، أنفذ حضرته متصرف مجنكر (ولي باشا) ـــ من المير ميران ... وساق معه نحو ألف من الجند على (كوبـــه لـــي) سليمان شقيق (دلي علي) المتحصن فى حصـــن (ديلكيجـــك) علـــى الشاطىء الآخر وعلى مسيرة ثلاث ساعات من قواطه ، وساق معه كذلك أمين كمشخانه (يمني إبراهيم بك) ، وأغوات كافة أقضيـــة كمشـــخانة وأعيانها ، وأمره باصطحاب المدافع والعتاد اللازم ؛ فوافى ولي باشا بمن

معه إلى الحصن المذكور وبادروا إلى محاصرته ، ووالوا عليه طلقات مدافعهم وبنادقهم ليل نهار، واستوفوا الوسع والطاقة فى الحصار .

ولما اكتمل حصار قلعة قواطه أربعة عشر شهرا وبسبب امتداد حصار الشقى (دلي علي) ؛ بدأت تنفذ لديه المؤن والذخيرة ؛ ولم يعد له طاقة على المقاومة فيما بعد ؛ [٣٣-أ] فلم يلبث أن خرج المحاصرون يستجيرون بأفراد الديوانگان المتترسين بالقرب من باب القلعة ويطلبون الأمان ، غير أن استئمانهم هذا لم يعتد به لدى الجند ، وقتل جند الديوانكان ما يزيد عن ثمانين رجلا منهم بالسيوف، وبسطوا سيطرتهم على القلعة ، وعينوا عليها محافظا شجاعا مقتدرا ، وعرفوه بدقائق أمور القلعة .

واقتضت حكمة الله أن يظاهر محافظ تيره بولي (كل علي أوغلو) ، أمين كمشخانه ويرافقه فى الزحف على (ديلكيجك) فيما يقرب من ألفى جندى وكان هناك نحو خمسين رجلا من رجال (كل علي أوغلو) فى جيش رئيس الأدلاء . وأثناء قتل دلى على وإعدام خدمه ، اندس هؤلاء الخمسين فى صفوف الديوانكان لنهب بعض الأمتعة وعندئذ وبسبب مشابهتهم لـ (اللاز) فى بزتهم؛ سل الديوانكان سيوفهم البتارة ظنا منهم أن أولئك من أتباع [٣٣-ب] (دلى على أوغلو) فقتلوا عشرة منهم إلى أن تحققوا من أنهم رجال كل على أوغلو .

ولما بلغ ذلك أغاهم فى (ديلكيجك) انفتل عن جند كمشخانه معتبرا ما حدث إهانة متعمدة لرجاله ، وانضم لـ (كوبه لسي) اللعين المحصور فى الحصن، وسلمه مدفعين كانا فى حوزته . وفى هذه الأثناء كان أمين كمشخانه قد لحق بجيش (قواطه) فتقاطرت جند كمشانه إلى

قواطه وهاجم (كل على أوغلو) ، و(كوبه لى العين) ولى باشـــا الــذى أبدى شجاعة وبسالة عظيمتين فى القتال ، وأخذ معه المدفعين الخفيفيــن اللذين كانا فى حوزته وتقهقر إلى ناحية (قواطه) حيث رابط إلى جــانب رئيس الأدلاء .

وفى الوقت الذى وصل فيه نبأ فتح (قواطه) مع ما يزيــد علــى مائة من الرءوس المقطوعة إلى أرضروم وبعــث هــذا علــى الســرور والاستبشار ، تواردت الأنباء الموحشة بإقدام (كل علي أوغلو) علـــى بعــض التصرفات الخرقاء والحمقاء ، وعودة الجــند منكســـرة مـــن (ديلكيجك) ؛ فبات من الحتم قمع (كوبه لى) الملعون و(كل على أغلو) والقضاء عليهـــما بأى شـــكل من الأشـــكال ،[٣٤-أ] غــير أن ذلك الأمـــر أرجىء إلى وقـــته المـــرهون وكتب حضرته إلى قــادة جنده يشد من أزرهم ويدعو لهم بالظفر والنجاح وطلب منهم تشتيت شمل الجند المحتشدة وإرسال رءوسهم إلى الباب العالى.

وفى هذه الأثناء سبت إحدى فرق الشقى (كديك علي أوغلـــو) زوجة أحد الرجال قهرا ؛ فرفع شكواه إلى الباب العالى ، وصدر أمر عال مع (مباشر) إلى حضرته بإحقاق الحق ، وحرر أمرا آخـــر مـــن جهـــة الأطراف السنية ، وأرسل مع مباشر آخر .

ولما وصل هذان المباشران إلى (كديك علـــي أوغلـــو) وعلــم بفحوى المرسومين ، تطاول فى حديثه وبسط لســـانه بفحــش الكــلام إذ قـــــال : "ماذا يعنى إحضار رجل من جانبك إلى أرضروم ، إن لم يكــن قتل الرسل أمرا مذموما بين الناس لقتلتكما . عودا أدراجكما [٣٤-ب] وإذا ما زحف على باشوات كهؤلاء فان خروجى لردهم بنفسى من العار .

ومن السهل أن أبعث إليهم برئيس فرقة أو فرقتين لكسرهم ، فـــإذا مـــا خرج على الجيش الهمايونى والسردار الأكرم ؛ فإن تشتيت شملهم حق على ذمتى "

ولما وصل المباشران إلى أرضروم بالأخبار المؤسفة سقط فـــى يـــد حضـــرته ؛ فكتب للفـــوره إلى البـــاب العـــالى ينهى إليـــه أفاعـــيل (الدره بكوات) المذكورين ويخبره بأن ألوية طرابيزون ، وكمشـــخانه ، وجانيك ، وقره فى قبضتهم ، وأنهم متحدون متعاونون علـــى العـــدوان والبغى ، وأنه مهما استحكم العداء واستفحل بينهم ، يســـعفون بعضـــهم البعض وقت اللزوم ؛ مما سيكون سببا فى هزيمة مأموره . وأنه إذا مـــا صـــدرت الأوامر بإلحـــاق إيالة طرابيزون كذلك بعهدته والقضـــاء علـــى (الدره بكوات) فإنه بعون البارى وعنايته ، وحسن توجيـــهات حضـــرة السلطان ، يصبح استئصال شأفتهم جميعا والتنكيل بهم أمرا سهلا يســـيرا وهو المأمول من الله المستعان .

ولم يصبر حضرته حتى يأتيه الرد من الباب العـــالى فاســـتناب رجلا على أرضروم فاتجه صوب قره حصار ، ونشر أوامره باســـــتدعاء كافة الفرسان والمشاة وكل القادرين على الحرب والضراب من مرعش ، وعينتاب وديار بكر، ووان ، وكردستان ، وكافـــة الأقضيـــة والأرجـــاء، [٣٥-١] ثم طوى المنازل على مهل حتى إذا نزل بقصبة (كلكيد) صدر أمر جليل الشأن بإلحاق إيالة طرابيزون بأرضروم وإسنادها إليه ، وقمـــع كافة (الدره بكوات) ، فاستناب على الفور شاهين زاده مصطفى باشا ــ من الميرميران ــ على طرابيزون واستدعاه من أجل تكليفه بالزحف مع جند طرابيزون الذين سينضمون إليه ، والذين قدموا مع أخيه محمد بك .

وخــرج حضـرته كذلك مــن (كلكيد) وبعد أن نزل بالســـهل المسمى (قره چاير) على مسيرة ست ساعات من (قـــره حصـــار) ، أرسل إلى المحافظين و(الدره بكوات) يدعوهم إليه وذلك للتمييز بين السقيم والمستقيم منهم ؛ وعندئذ فر كل من (حاجى بك) شريف آقشــهر آباد ، و(ججن أوغلو) شريف صوشار و(أوت يقمـــاز) ـ مــن دره بكوات تلك الجهات ـ وسعيد بك ، وعثمان بك ، إلى والى سيواس ســيد أحمد باشا وذلك مصداقا لقول : " الخائن خائف ".

غير أن المدعو (قره صالح) تاب ، واستغفر عما اقترف مـــن سيئات ، وتعهد بالإخلاص واستيفاء الوسع والطاقة هو وما يقــرب مـن خمسة آلاف من صفوة جنده فى خدمة حضرته فأرسل إليه عهد الأمان . ولما دعاه إلى قره جاير قدم على الفور فيما يربو على خمسة آلاف مـــن المشاة ، ونال شرف تقبيل ذيل ثوبه ، ومكث وفيا مخلصـــا فـــى معيتـــه الآصفية.

وقدم عليه كذلك من ناحية طرابيزون قالجى أوغلـــو ، وشـــاطر أوغلو ، ودملى أغلو ـ من أغوات البيرون ـ وحاجى صالح أوغلـــو ، [٣٥-ب] وقوغو أوغلو ، وصقه أوغلـــو ، وســـردار (بولادخاتـــه) ، ومعقول أوغلو ، ولاچين أوغلو عين (كشاب) السابق ، ودزدار أوغلو دزدار كَيره سون ، والكثير والكثير من أمثال هؤلاء من الدره بكـــوات ، قدموا فوجا بعد فوج فى أعداد من خدمهم ، وشرفوا بلثم طرف ثوبـــه . وخلع عليهم جميعا فاخر الخلع ونبه عليهم بضرورة التواجد مع جنودهـم فى الموضع الذى ستناط بهم فيه المهام، وأعيدوا جميعا إلـــى ديـــارهم.

وأقام حضرته خمسة وعشرين مخبزا فى قـــره چـــاير وابتـــاع

كميات وفيرة من الغلال ورءوس الأغنام . وقـــدم مـــن جهـــة المنـــاجم الهمايونية ما بين ألف إلى ألفين من الأكراد المشاة وكذلك أجناد كمـــاخ وكرجانيس وقوريجاى وآرغون وآغجه داغ ؛ فاحتشد بذلك حشد عظيـــم وأنفذ حضرته أول ما أنفذ جند نواحى چاقراق وچوهاق ، [٣٦-١] كـل منهم على رأس فرقة من الجند .

ورغم أن حشود الأشقياء الكثيفة ظهرت وكأنها الســـد المتيـــن فإنه ما إن اشتعل القتال ساعة أو ساعتين حتى انتصرت عليهم فرقتـــان وأرسلتا رءوس القتلى إلى الجيش ، وفتحت الطـــريق لبقـــية القـــوات ؛ فحملـــوا علـــى قضـــاء (كشـــاب)، فتفـــرق أشـــقياؤه وفـــروا إلـــى (كَيره سون) ، فخف الجند المظفرون يتعقبونهم ، ولما بادروا بضـــرب الحصار حول قلعة (كيره سون) لم يقـــم المدعو(دزدار أوغلو أحمد) — وهو الذى كلف من قبل كديك على أوغلو بحراسة القلعة المذكورة وفر ليلا إلى (كديك على أوغلو) ، ولاذ به ، فغلبوا على القلعة ، وســـيطروا عليها ، وأرسلوا رءوس القتلى من الأشقياء إلى حضرته وزفـــوا إليـــه بشريات النصر ؛ فأرسل الخلع إلى قادتهم ، ثم أمرهـــم بـــالزحف علـــى (تيره بولي)، وزودهم باللازم من الوصايا .

ومن جهة أخرى ساق كافة أغوات طرابيزون كذلك مع شـــاهين أوغلو محمد بك للزحف على (تيره بولي) من جهة الساحل لإشعال نـــار الحرب من الطرفين .

ثم وجه محافظ قره حصار ، ثم الكتخدا عبدى بـــك ، ومعـــهما مدافع عظيمة على (كوبه لي) اللعين المتحصـــن فـــى (تيلكيجـــك) . [٣٦-ب] وبعد مرور عدة أيام على ذلك ترك الجيش فى (قره چـــاير)

ومضى بنفسه فى عدة مئات من الفرسان لمعاينة الحصن المرقوم ولما انتهى إليه أخذ يعمل ناظريه فى أطرافه بدقة وإمعان ثم أعرب عن منعته وحصانته .

ولما أحاط بكل شئ عنه أدرك استحالة فتح ذلك القبر المطلسم ما لم يقدم بنفسه على ذلك ؛ فنصب فسطاطه على رأس المتراس لمباشرة الحرب بنفسه ، وأحاط بالحصن ما بين ستة آلاف إلى سبعة آلاف مقاتل ووالوا صب نيران مدفعيتهم عليه ليل نهار ، وعلاوة على هذا كان قد جلب مائتان من المعدنين الذين تعلموا نقب الأرض ، قدموا فى معية أمين (كمشخانه) على سبيل الاحتياط ؛ فقام هؤلاء بنقب ثلاثة سراديب ، وجمع لتلك المهمة خمسمائة من الجند ، فعهد لمائتين وخمسين منهم بسحب التراب من السراديب نهارا ، وعهد لمائتين وخمسين آخرين بنفس المهمة ليلا .

وامتد الحال على هذا المنوال ثلاثة عشر يوما بلياليها وهم فى قتال شديد ، فدكت قذائف مدفعيتهم الحصن المذكور دكا وبث ضجيج طائفة المعدنين المنبعث من تحت الأرض،[٣٧-١] الرعب فى نفس (كوبه لي) وأطاح بصواب كل المحاصرين ، وفى الليلة الثالثة عشرة من أيام الحصار استخلف الشقى فى داخل الحصن بلوكباشيا شجاعا يدعى (جليل أوغلو) فى نفر من المشاة . واقتضت حكمة الله أن يهطل المطر مدرارا فى تلك الليلة دامسة الظلام فترك كافة الجند المتراس وبينما كان كل منهم يلوذ بخيمته ، انتهز (كوبه لي) الفرصة وخرج خفية من الباب الخلفى للحصن ومعه أربعين أو خمسين من جنده وفروا إلى (تنيره بولي) .

ولما بلغ هذا النبأ حضرته على السحر ، هب لفوره ودنا من الحصن وتأسف على فرار صيد كان على وشك الظفر به ،. فعمد إلى الجند يحضهم على القتال يقول لهم : " إن بغيتى ومرامى هو تدمير هذا البرج فعجلوا باقتحامه الآن " .

فأسرع مشاة الأكراد يتحركون من كل حدب ، ودون أن يكترثوا بطلقات المدافع والبنادق المنهالة عليهم من الحصن ، تسلقوا أسواره وكأنهم العناكب واستولوا عليه فى برهة ، وأعملوا القتل فيمن بداخله من الأشقياء وصارت أموالهم وحواصلهم نهبا للجند ؛ فاشتعلت الحمية فى نفوس الأكراد الشرهى إلى المغانم .[٣٧-ب]

ولوجود الماء الجارى داخل الحصن المذكور نظرا لوقوعه وسط واد عميق بين ثلاث جبال ؛ لم تنفذ مؤنه طيلة عام أو عامين كاملين ، ولم تمس من به حاجة إلى أى شئ .

إنه برج حجرى قوى البناء حصين ، صعب التسخير . وبرغم أن عددا من الوزراء العظام اعتزموا استئصاله بأنفسهم ، فقد باءوا جميعا بالهزيمة والانكسار ، حتى أن المرحوم على باشا وهو الذى ذاعت هيبته وصولته وجابت الآفاق ،[٣٨-١] لم يجرؤ يوما قط على رفع ناظريه إلى ذلك الحصن ، واستطاع أن يستميل والد (كوبه لي) اللعين ومن بعده ابنه المذكور بالمصانعة ؛ ومن ثم فإن جميع (الدره بكوات) فى وقت الفرار والشدة كانوا يضوون إلى (كوپه لي) ، ويلوذون به ؛ فاشتهر الحصن المقصود بأنه (مالطة دره بكوات تلك الجهات) ، ولذا كان هدم ذلك الحصن وتخريبه أمرا حتميا فنسفوه بالألغام وسووا جدرانه وأسواره بالتراب هدما ، ثم عاد حضرته منصورا

مظفرا إلى مقر الجيش فى (قره جاير) وبعد أن مكث بها ليلة ، اعـــتزم المضى إلى (قره حصار) لقرب حلول الشتاء فأقام بضعة أيام فى خانات الطريق .

ومن جهة أخرى حاصر شاهين زاده محمد بك الذى سبق مــن طرابــيزون مــن قبــل مــع أغواتــها والجنـــد الجنـــد المكلفيـــن بــ (كشاب ، وكَيره سون) تيره بولى ليل نهار من الجهتين . وفى تلــك الأثناء تأتى لذلك الملعون وهو الذى فر بصعوبة من الوزيـــر الــهمام ، اللحاق بمحافظ (تيره بولي) ، ووصف له صولة حضرته وقوة شــكيمته وأنه ليس كمن رأى وخبر من الباشوات ، وأخبره بأن مصاولته بصـــدر مفتوح أشبه بمن يقابل عينيه بالصخور الحادة ؛ فاستحوذ الفزع علـــى محافظ تيره بولى فأخذ زوجته وعياله وركب البحر فارا مع(كوبه لـــي) حتى انتهوا إلى بلاد الأبخاز وتشتت جنودهم وتفرقـــوا فداهمـــت قــوات شاهين زاده دورهم وأسرهم ، وأسرعوا يرسلون أنباء ذلك إلى حضرته، فبعث إليهم بالخلع ورسائل المديح والإطراء وأمرهم بالزحف مجتمعيـــن على (كديك على أوغلو).

وفى هذه الأثناء كان ممش أغا (محصل جانيك)، وجيهها كَنج مصطفى قد قدما فيما يربو على ثمانيـــة آلاف مــن الجنــد ، وحصـــروا المدعو شيخ أوغلو عبد الله المتحصن فى قلعته ، وبعد نحو سبعة أيـــام من القتال الشديد ، غلبوا على القلعة ، وفتكوا بذلك الشقى الملعون فـــى نحو مائة من أعوانه وأرسلوا رءوسهم المقطوعة إلى حضرته ، وزفــوا إليه بشريات إنتصارهم فأرسل إليهم الخلع الفـــاخرة ورســائل الإطــراء والثناء ، ومن أخرى أمرهم بالزحف على (كديك على أوغلو) .

[٣٨-ب] ولما كان هجوم الجند فى كثرة نجوم السماء من الجهتين على الشقى المذكور باعثا على ارتياعه وتزلزل الأرض من تحت قدميه ، اصطحب فى التو (دزدار أوغلو أحمد) وفرا فيما يقرب من ثلاثين فارسا عبر السراديب والقنوات الواقعة داخل الغابات والأدغال ، ومروا من (توقاد) إلى أن استقر بهم المقام لدى متصرف (بوز أوق) عبد الجبار زاده سليمان بك ، فاستولى الجند على قلاع (بما لو) ، و(يوروس) ، و(جيويل) ، و(كونى) التى كانت فى قبضة الشقى المذكور، وبسطوا سيطرتهم عليها.

وأرسل ضيا باشا متسلمين أكفاء إلى أقضية أردو ، وتيره بولي، ونصب أعيانا وضباطا على أقضية كشاب ، وكَيره سون ، وجمسانه وسائر الأقضية الأخرى ، [٣٩-ا] وبث المباشرين فى كل الأنحاء لهدم كل ما هو كائن من الحصون والأبراج والمزاغل الحجرية ، فسووها جميعا بالأرض فى غضون أيام وأصلحوا الأمور بعد فسادها ، وأعادوا النظام إلى تلك الجهات ، وأخذوا على الأهالى تعهدا بألا يتجول أى شخص يحمل سلاحا فى البلاد ، وأن يحسنوا السيرة ، ثم سمح لجند تلك الجهات بالانصراف واستدعى الأعيان والأغوات إلى قره حصار ، وتعهدوا كذلك بالسير على الصراط المستقيم فى العمل ، وبذل كل طاقتهم فى القضاء على كل من يتعدى حدوده ويطغى ويصبسح (دره بك) . وأعيدوا جميعا إلى ديارهم معززين مكرمين .

ومن بعد هذا لم يبق على حدود طرابيزون ، وكمشخانه ، وقره حصار، وجانيك أحد قط فى حوزته قلعة أو حصن يتجاسر فيه على التمرد والعصيان ، وطهرت البلاد المذكورة من دنس الأشقياء ولوثهم ،

ولم يعد هناك ما يستوجب المكث فى تلك الجهات ، كما ازداد الشتاء قـوة وعنفوانا يوما بعد يوم فترك حضرته قره حصار ويمم شـــطر (كبـان) طاويا المنازل حتى انتهى إليها منصورا مظفرا ،[٣٩-ب] وبسط فيها فرش الراحة والاستجمام .

قمع أكراد ديسم وأكراد الشيخ حسن

يعرف الجبل الذى يسكنه أكراد (ديسم) ، وأكراد الشيخ حســن بجبل(دوجيك) . ويذكر أن محيط هذا الجبل المهيب يبلــغ مــن خمــس عشرة مرحلة إلى عشرين مرحلة ، ويتوسط الشعب المتشابكة والعظيمــة للجبل الكثير من السهول ، منها سهل عظيم يعرف بـــ (أوه جق)، يضم الكثير والكثير من قرى الترك وأهل الذمة من الأرمــــن ، فــنزح أكــراد (ديسم) ، والشيخ حسن سالفو الذكر بخيامهم ، وسكنوا رءوس الجبــال وكانوا يؤدون ما عليهم من ضرائب . وكانت تلك القــرى الواقعــة فــى الصحارى تدار وتضبط أمورها من قبل أصحاب التيمار والإقطاعيات على نحو ما قسمت لدى تسجيلها .

ومع مرور الأيام تبدل الحال وامتنع أولئك الأكراد عن أداء مـــا عليهم من أموال ميرية اتكالا على وعورة الجبال المذكـــورة ومنعتــها ، إضافة إلى أنهم بسطوا سيطرتهم شيئا فشيئا على تلك القرى ، وتجاســر كل واحد من رؤساء الكرد على الاستئثار لنفسه بعدد منـــها ، [٤٠-أ] وامتد شرر شرورهم وعسفهم إلى الرعايا، وعلاوة على أنهم استرســـلوا فى عنادهم ، ولجوا فى طغيانهم ، فقد امتنعوا عن أداء ما عليـــهم مــن

أموال ميرية وارتكبوا كثيرا من الفظائع والأفاعيل المنكرة دون التمييز بين الأكراد وسائر الرعايا.

ولقد كانت تلك القرى الواقعة في الصحراء تلفها الجبال الشامخة وكأنها الأسوار ، ولما كانت تنحصر في ممر صعب بين مضيق يعرف بمضيق(جمشكزك) من جهة جمشكزك ، ومضيق ميرجان من جهة آرزنجان ؛ فإنه منذ ستين سنة والمعبر المذكور مسدود المسالك أمام أهالي أقضية آرزنجان ، وكماخ ، وقوربجاى ، وآين ، وجمشكزك ، وچارسنجق ، وپالو ، وكيغى ، وترجان وهي الأقضية الموجودة في نواحي الجبال المذكورة ، فشقوا جميعا عصا الطاعة وتعاظم بغيهم وفسادهم حتى بلغ ذروته .

ولما كانت الطائفة المذكورة قوما ملاحدة ، خونة لا عهد لهم ولا ميثاق؛ فقد أنكروا شعائر الدين كالصوم والصلاة ، وتهالكوا على المحرمات مثل سفك الدماء والزنا . ويوما بعد يوم سرى شرهم وفسادهم إلى من حولهم ثم كل الأرجاء .

ولما رفعت الظلامات والشكايات مرارا وتكرارا إلى الباب العالي بأنهم كانوا يجمعون إتاوات طائلة سنويا ممن حولهم من سكان الأقضية ، ويذلون أهل السنة بتصرفاتهم الخرقاء سيق عليهم ولاة أرضروم وديار بكر وسيواس غير مرة ، [٤٠-ب] غير أنه لعدم وقوف هؤلاء الوزراء العظام بقدر الكفاية على رحابة جبل (دوجيك) ووعورته ، كانوا إذا ما دخلوا من أى جهة خرج عليهم أولئك الطغاة من الأكراد ، وأحاطوا بهم من جميع الجهات ، وكسروهم وشتتوا شملهم ، حتى إن وزيرا قوى الشكيمة مثل (چته جي عبد الله) كان قد زحف على ذلك الجبل بجيش

كثيف من إيالة أرضروم ، فقمع أولئــك الأشــقياء الفجــرة مــن جهــة (قوربجاى) . وعندما دخل وسط الأدغال أحاط به مجرمو الأكراد وأوقعوا به الهزيمة واستشهد نصف جيشه ونجا النصف الآخر بعد أن كابد ألــوان المشقة وصنوف البلاء .

ولتلك الأسباب فإن الأكراد المذكورين منذ أكثر من سبعين عامــا لا يفترون عن أعمالهم العدوانية ومفاسدهم . وعلى مر الأعــوام اشــتد ظلمهم وعسفهم بعباد الله ؛ ولذا أكمن حضرته ــ فى مســتهل تشــريفه (كبان) ــ لكثير من رؤسائهم من جماعة الشــيخ حســن فــى قصبــة جمشكزك وقتل نحو مائة منهم فبث بذلك هيبــة الحكومــة وصولتــها . [٤١-١]

ومرة أخرى زحف بنفسه على رأس جيش عظيم على جماعــة الشيخ حسن وتناوش معهم القتال أكثر من مرة ، فقتل عددا منهم وأســر عددا آخرا . والحاصل أنه تمكن من إطفاء جذوة تمردهم إلى حــد مــا ، ولأنه لم يكن من الممكن ألا تــتــنبه قبيلة (كلابى) وطائفة (جار قلــو) وأكثر منهم عتوا طائفة (ديسم) وسائر رعاعهم ؛ فقد كان على الــدوام يترصد فرص قمعهم ، والقضاء عليهم ، ويستطلع تلك الجهات ويعاينها ، ويرجئ ذلك إلى حينه المناسب .

وفى تلك السنه المباركة استطاع دفــع كافــة غوائــل نواحــى أرضروم ، وطرابيزون ، وجانكلر وكمشحانه ، وقــره حصــار ، وقــدم المناجم الهمايونية .

ولما لم يعد هناك ما يؤرق خاطره ويشغل باله فى أى جهة رفــع أمر القضاء على الأكراد المرقومين إلى الباب العالى . ولما كــان قمــع

أولئك الأكراد والقضاء عليهم فى أصله عين ما تريده الدولة العلية ؛ فقد صدر فرمان قطعى صريح فى ذلك الشأن .[٤١-ب]

ولما كانت الجهات الأربع للجبل المذكور تحت حكومة حضرته ، فقد أصدر الكتب على الفور إلى ضباط تلك الجهات يخبرهم أنه سوف يخرج لقمع أكراد (ديسم) فى مستهل الربيع ، وطلب إليهم أن يقتلوا الغادى والرائح وكل من يقبض عليه قلة كانوا أو كثرة وإرسال رءوسهم المقطوعة إليه ، وأن يستوفوا وسعهم فى تجهيز فرسانهم ومشاتهم القادرين على الحرب والضرب ، علاوة على أنه استكثر من جند الديوانكان والتوفكجية ، وبعث برجل إلى طاغستان على جناح السرعة إلى ولى باشا متصرف (مجنكر) ـ من الميرميران ـ يطلب إليه جلب ألف من جند اللاز والمجىء إليه فى التو .

وبعد أن سير الرجال لاستقدام مراد باشا متصرف (موش) فى كثير من جنده الأكراد ، باشر عملية قمع الاشقياء ، فساق بطلا مغوارا يدعى (سيمو) من عشيرة (عمركانلو) فى نحو مائة وخمسين من الفرسان فكبس أحد سهول الأكراد المذكورين على غفلة منهم ، [٤٢-١] وعاد بقدر من الهام المقطوعة ؛ فكوفىء بالخلع والنفحات ، وأعاد الكرة من موضع آخر فزلزل أركان الأكراد وبث فى قلوبهم الرعب. وفى هذه الأثناء خرج حضرته بنفسه من (كبان) وعطف عنان عزمه نحو الجهة المقصودة فانتهى إليها فى جيش يتصدره رئيس الأدلاء الحاج على أغا فى ألف وخمسمائة من فرسان الديوانكان، وأغار على الأكراد الموجودين فى نواحى (ترشمك) ، ثم أرسل (علي أغا) لمداهمة القرى المحيطة بها .

وفى هذه الأثناء قدم (ولى باشا) متصرف مجنكر فى ألف من جند(اللاز) ، فساق رئيس توفيكجيته (چتاق حسين) مع الباشا المشار إليه وأرسلهم صوب مضيق (چمشكرك) ، وعندما قدم بكامل العدة والعتاد(خربرت) حضر مراد باشا متصرف (موش) ومعه خمسة آلاف جندى ، ثم وصل تباعا أجناد (آرغنى ، وسيوه رك ، وچيرميك ، وأكيل، وجونكوش ، وأبى طاهر ، وخربرت ، وملاطيا ، وبهسنى ، وحصن منصور) ، وكذلك أجناد نواحى (كركر ، وشير ، وكاخته ، وهردى ، وزيوه وبارجكان ، وآغچه طاغ ، وآرغون ، وآيوه لى) مع صوباشيتهم وزعماء عشائرهم .

وعندما نزلت هذه الحشود معبر (برتك) كان نهر الفرات شديد الفيضان ، فتعذر عليهم العبور بالسفينة الموجودة فى المعبر ، فأحضروا ثلاث سفن وأربعين قاربا مطاطيا وعبروا بها إلى الشاطىء الآخر ، واستغرق عبورهم أسبوعا بتمامه ، واكتظ الوادي بجند لا يقعون تحت حصر. وفى يوم نزول الباشا فى مشارف قرية (ونك) وصلت الأنباء بإغارة رئيس الأدلاء على نواحى ترشمك وبثه الرعب فى قلوب أشقياء الأكراد فى تلك الجهات ، وفى اليوم التالى لمكثه فى صحراء ترشمك التقى بـ (ملاسلي قره صالح) ومعه كافة جند قره حصار وجانيك وأجناد أقضية طرابيزون البالغ عددهم نحو ثمانية آلاف من المشاة ، [٤٢-ب] فبلغت كثرة الجند حدا عظيما ؛ فأرسل الحاج عبد الله أغا محافظ (جار سنجك) فى جم غفير من الفرسان والمشاة مع مراد باشا ، وسيقوا للزحف على رأس الأشقياء المدعو (سور أوغلو) الكافر الفاجر وبعد عدة معارك فى قرية (باغ) غلبوا عليه ، وأوقعوا به هزيمة

نكراء، وأضرموا النار فى داره وقريته وأبقى مراد باشا ومن معـــه فـــى تلك القرية ، وتسابق كل من ولى باشا ورئيس التوفيكجيــــة مـــن جهـــة جمشكزك ، وخاضوا عدة معارك فى مضيق (جمشكزك) ثـــم القـــرى الكردية المجاورة له، وبعناية الله وعونه مضى الاثنان ومعهما الكثير من هام القتلى ، وعبرا المضيق وزفا البشريات بدخولهما سهل (أوه جـــق) ونزولهما به .

كما أسرع لطف الله أغا (محافظ أكين) مع جنده وجند نواحـــى سبطروس وبوشادى ، ومضى من شعب حسن وبوشادى ، ولحق بجيـش ولى باشا عند (أوه جق) .

ومن جهة أخرى قام أمين كمشخانة الحاج أحمـــد أغـــا وكافـــة أغواتها وأعيان اقشهر آباد والحـــاج إبراهيـــم بـــك وچچـــن أوغلـــو ، [٤٣-١] وجند أقضية قره حصـــار ، واقشـــتهر آبـــاد ، وصوشـــهر ، ومحافظ وكماخ ، وكَرجانيس ، و (شهوار أغلو) محافظ قوربجاى عنـوة بفتح واد حصين وعر تحف به المهالك والمعاطب وينطبق عليـــه قـــول الشاعر :

مـــررت عـــلى وادى السباع ولا أرى
كوادى الســـــباع حين يظلم واديـــا

وبسطوا سيطرتهم عليه ، وأعملوا التقتيل فى عدة مئات ممن بداخله مـــن شياطين الأشقياء، وسبوا نساءهم وعيالهم كافة ، وأغاروا على مضيـــق مرجان ، واشتبكوا فى معركة حامية مع أشقياء الأكـــراد ، وتـــأتى لـــهم عبور هذا المضيق عنوة ، وبلغوا سهل (أوه جق) . ولما زفوا بشريات ذلك إلى حضرته ؛ أرسل إليهم مراسيم الثناء والمديح على كـــل أولئـــك

القادة مرفقة بالخلع لكل منهم على قدر درجته ، وأوصاهم ببذل قصارى جهدهم وطاقتهم للقضاء على الأشقياء فى شتى الأرجاء ، وساق محمد بك (حاكم كيغى) ومعه جند (أرضروم وكيغى وبايبود وآسبرو وآرزنجان وترجان) ومعه مدفع ضخم وعتاد حربى عظيم من قوزبجان، فحشد الأكراد قواتهم وداهموهم على الغفلة ليلا فاستبسل الجند المنصورون فى القتال ، وشتتوا شمل أشقياء الأكراد ومزقوهم شر ممزق، ففروا إلى (دوجيك) فلاحقوا فلولهم وقضوا عليها .

ومن جهة أخرى خرج إسحق بك حاكم (بالو) من بولانق على رأس جيش عظيم من المشاة والفرسان واستوفى الوسع والطاقة فى قتال الأشقياء الذين صادفهم ، [٤٣-ب] وأرسل كثيرا من الهام المقطوعة وأسرى لا يحصون عددا مما ألهب حماسة الجيش ، وبث فيه الشجاعة والحمية.

وقد اضطر حضرة الوزير الهمام إلى ترك نصف من معه من لجند فى معسكر الجيش ، وحمل بنفسه بنحو سبعة آلاف من الجند المشاة والفرسان على قريتى (هاويك) و(وان) وخاض معركة طاحنة فى القرية الأولى ، وأعمل التقتيل فى الكثرة المطلقة من أكرادها وسبى نساءهم وذراريهم .

ولما كانت تلك الوقعة عبرة لمن يعتبر من سفهاء الأكراد الموجودين فى تلك الجهات ، فقد عمل من سلم بقوله : " من نجا برأسه فقد ربح " ومر من السردابين الضيقين تحت دور (دوجيك) واعتصم بواد مخوف يبلغ طوله ساعتين تقريبا ، تحيط به القمم الشاهقة وكأنها السور المتين . وضوى سائر من سلم من الأكراد المستأصلين فى جميع

الجهات إلى ذلك الوادى وحوصروا فى معقل الأشقياء هذا هم وأولادهـم ، وساق حضرته الجند كذلك إلى شتى الجهات لتدمير دور الأكراد الواقعـة فى سفوح الجبال المذكورة ورءوسها ، وتسويتها بالتراب هدمـا . ثـم أصدر الأمر بتسخير الوادى المذكور ، [٤٤-١] غير أنه كان موضعـا غاية فى وعورته وصعوبة مسالكه ، وقهر من بداخله من الأكراد باهرى الإلحاد والتنكيل بهم كان منوطا باستمرار الحصار وقد اقترب الخريف ولم يعد لهم قدرة على المكث فى الجبال المذكورة ، فأدرك حضرته بنظرتـه الثاقبة أن دفع تلك الغائلة دفعا تاما يتوقف على حلول ربيع العام الجديد .

وبعد أن فكر مليا وقلب وجوه الرأى رصـد خمسـمائة فـارس وألف من المشاة لحصار طرفى الوادى المذكور حتى حلول الربيع لقطـع مؤنهم ، فلا يجدون شيئا يسدون به رمقهم عند حلول الشتاء ، ويهلكون جوعا ، واختير موضعان مناسبان لبناء ثكنتين عظيمتين لإيواء الجند فى أيام الشتاء ، وخصص لذلك عدد من البنائين والعمال ، وبعد أن أحكمـوا أساسهما وجدرانهما ، وشحنوهما بوافر المؤن والذخيرة سـمح للجنـد بالانصراف شريطة العودة ثانية فى مستهل الربيع ، وقر قرار حضرتـه على المضى إلى كبان بكامل العدة والعتاد .

وبينما كان يبذل جهده بكل الاهتمام والدقة فى تفقد بناء الثكنتين المذكورتين ، [٤٤-ب] ولوازم الفرسان ومشاة الجند كالمؤن والذخيرة وراتب ستة أشهر، ورد ذات يوم وقت السحر خـط همايونى مـبارك مع (أبيش أغا) ــ الباش تبديل ــ بدعوته إلى الحضور إلى مقـر الصـدارة العظمى ؛ فأوصى حضرته محافظ (جار سنجق) الحاج عبد الله ، ونبـه عليه بالمحافظة على البلاد ، والضرب على أيدي المفسدين ، والقضـاء

عليهم وإتمام بناء ثكنتى الجند ، وأذن للجند بالانصراف ومكث بالموضع المذكور ثلاثة أيام .

ولما كنا سوف نصدى بالحديث قريبا عن وقائع قدوم أبيش أغا وخروج حضرته من صحراء (ترشمك) وقدومه (كبان) وسائر الوقائع الأخرى فى سياق حديثنا عن تبوئه منصب الصدارة العظمى ؛ فقد اكتفينا بهذا القدر مما ذكرنا .

بقى لنا أن نقول أن حضرته كان قد قمع أكراد آغچه طاغ مرة بنفسه ومرة أخرى بإنفاذ الجند عليهم ، كما أرسل الجند مرتين لتأديب أكراد (إيزولى) وساق الجند بالمدفعية والعتاد مرتين على بك (أكيل) وأدب بكوات (بالو) ، وأنه جرد عدة حملات على أكراد هردى ، وزيوه، وبارجكان ، وصارى ميشه، [٤٥-١] وقهر أشقياءهم ودمرهم وأطاح مرات ثلاث بأغوات (جار سنجق) ونكل بهم .

ولما ولى أمر إيالة مرعش وسنجق عينتاب ، أنفذ الحاج على أغا رئيس الأدلاء فى كثير من فرسان الديوانكان وسائر صنوف الجند الآخرين إلى تلك الجهات ، فأذاقوا عشائر الأشقياء الخسف والتنكيل ، واستوفوا الأموال الميرية المتراكمة من السنين السابقة فى ذمم عشائر رشوان كاملة وافية .

وحدث من قبل أن طغى المدعو (بكر أوغلو دلى عمر) فى قضاء أكين، ورفع راية العصيان ، فدخل ذات ليلة تلك القصبة فى شرذمة من الأشقياء واجتاحوا ينهبون الدور ويضرمون فيها النيران ، ثم طردوا أبناء محافظها وألجأوهم إلى الفرار ، وبسط ذلك الشقى قبضته على القضاء وباشر الحكم من تلقاء نفسه ولم يزل مقيما فى تلك البلدة حتى

حمله الحاج أغا هو وكثيرا من أعوانه إلى كبان وأعدمهم وأحلـــــهم دار البوار .

أما بالنسبة لأعمال المنـــاجم فقـد ملأهـا حضرتــه بالعمــال المجتهدين، فاستخرجت كميات من الذهب والفضة فاقت ما كان يســتخرج فى عهد أسلافه من الوزراء .

ولما بات من اللازم القضاء على إسحق باشا (متصرف بايزيد) ـ الذى كان قد شايع بعض أشقياء الأكراد وقطاع طرقهم ـ فقد أرســـل حضرته كتخداه من أرضروم فى جيش عظيـــم ، [٤٥-ب] واسـتدعى كذلك مراد باشا متصرف موش وطلب منه الذهاب مع جيش الكتخـــدا ، فكبسوا إيالة إسحق باشا، ووطئوها بسنابك خيولهم واســـتردوا أمــوال الرعاة التى سلبها إياهم الأشقياء دون أن تنقص رسن بعير، ولما كـــانت طائفة (اللاز) يغيرون على نواحى بايبود واسبر منذ أمد بعيد،فقد أرسل حضرته الجند على شيعة (طوزجى أوغلو) لتأديبه وتشتيت شمله.

ولو أردنا الإسهاب فى ذكر ما لحضرته من الأعمـــال الجليلـــة وآثار عدله ورعايته للبلاد والعباد لاحتجنا إلى عدة مجلدات طوال . ومن ثم عملا بالقول المأثور : " القطرة تدل على الغدير والقليـــل يغنـــى عــن الكثير " ، وقوله :

إذا وصفك أهل الفضل أم لم يصفوك ، فليسوا

تلك المشـــــــاطة التى تزين وجهك الكريم

اكتفينا من البحر بقطرة ومن القمر المنير بذرة واختتمنا بوصف أبهتــــه وعظمته وكان ذلك مسك الختام .[٤٦-١]

وتنتهى هنا مقدمة رسالتنا هذه ، وبعد أن شرعنا فى الحديث عن الملحمة التى تشتمل وقائع الحملة على مصر ، نتضرع إلى الله تعالى ملتمسين منه التوفيق والسداد والله الهادى عليه اعتمادي .

بدء قصة استيلاء الفرنسيين على الممالك المصرية المقدسة

يذكر التاريخ فيما يذكر من أخبار الزمان وأهله أنه فى يوم الخميس ٨ محرم سنة ١٢١٣ هـ لاحت عدة سفن فى مياه ثغر الإسكندرية ، وكانت عدتها عشر سفن ما بين كبيرة وصغيرة ، رست كلها خارج ميناء الإسكندرية ، وبعد قليل ودون أن يعلم أهالى الثغر جنسية تلك السفن أهى لصديق أم لعدو ؛ حضرت ثمانى سفن أخرى وألقت مراسيها ، فانتظر أهل الثغر ما يريدون ، فأتى قارب صغير من عندهم على متنه عشرة من الإفرنج فانتهوا إلى البر واجتمعوا بأعيان البلد وناظر جمرك الثغر المدعو (محمد كريم) ،[٤٦-ب] فكلموهم بواسطة ترجمان واستخبروهم عن مرامهم ومقصدهم ؛ فأخبروهم أنهم إنجليز ، أوفى وأخلص أصدقاء الدولة العلية ، وأسبق الجميع إلى الإخلاص لها؛ وتلك السفن هى الأسطول الإنجليزي وقالوا :

" لقد استحكم العداء واضطرمت نار الحرب بين دولتنا والجمهورية الفرنسية منذ طويل الأمد ، ولما كنا لا نفتر عن تحرى دقائق أمورهم وأحوالهم ؛ علمنا أنهم عكفوا منذ زمن على إعداد عمارة ضخمة فى مينائهم الشهير (طولون) ، شحنوها بالأجناد والعتاد ، وخرجوا بها يقصدون جهة من الجهات ، ونظرا لما تشير إليه القرائن الحالية ، فإنهم

إن لم يكونوا ينوون غزو أي دولة أخرى أو أي موضع أو جزيـرة مـن الروملي أوسواحل الشام ، فمن الواضح بديهيا أنهم يقصدون غزو مصـر بالذات . [٤٧-١] فعلاوة على ما بين الدولة العلية وإنجلترا ــ منـذ قديم الزمان ــ من علائق الود والصداقة ، ترسمنا الحكمة القائلـة : " عدو العدو صديق" ، وانتوينا الحفاظ على ممالك الدولة العلية وحراسـتها جهد طاقتنا ، ودخلنا البحر الأبيض من مضيق (سبتة) ، واجتهدنا فـى تعرف جزره وسواحله، ولما لم نعثر لهم على أثر فى أى ناحيـة منـه ؛ قدمنا إلى هنا فى التو والحال ، ظننا منا أنهم قدموا إليكـم ، ولمـا كـان الحال هكذا ، ولم يحضروا إلى هنا، فسوف نرحل لتجسس أخبارهم فـى مياه عكا ويافا وميناء حلب الشهباء والإسكندرونة ، فإن كانوا لم يقدمـوا إلى تلك الجهات ولم يستولوا عليها ؛ فلا بد أنهم سوف ينزلون أثقالـهم وأمتعتهم إما فى ميناء الإسكندرية أو مينـاء دميـاط للإسـتيلاء علـى الممالك المصرية ، وعلى ذلك فسوف تعود إليكم سفننا من جديـد، لكـن إياكم والغفلة ، إذ إنه على ضوء تقديرنا للحالة سوف يقصدون القاهرة ، [٤٧-ب] وقد أوفدنا أمير البحر الإنجليزى (نيلسـون) إليكـم للتنبيـه عليكم وتوصيتكم ببذل السعى الأوفى فى الدفاع والحفاظ على سواحلكم ".

وعادت رسل الإنجليز إلى أسطولهم بعد أن فرغوا مـن إبـلاغ رسالتهم تلك وأقلعوا متجهين إلى مياه عكا وحيفا .

فأرسل محمد كريم ــ أخذا بـالحزم والحيطـة ــ إلـى كاشـف البحيرة ومن حوله من العربان يعلمهم بما حدث ، ويطلب منهم المجـىء إلى الإسكندرية ، كما بعث بالرسل على جناح السـرعة إلـى القـاهرة ، يخبرهم بظهور العمارة الإنجليزية وما جاءت به من أخبـار موحشـة ،

وأنها لم تمكث أكثر من يوم واتجهت إلى مياه عكا وحيفا ، فاشتد القلق بالأمراء المماليك وتحدث الرعاع والغوغاء فيما بينهم فى الأسواق بتلك الأخبار المروعة التى أدلى بها الإنجليز ، غير أنهم لم يكونوا قد شهدوا وقوع أى اعتداء من جهة ما على مصر منذ ما يربو على ثلاثمائة عام وهى فى الظلال السنية للدولة العثمانية ؛ فتناقلوا تلك الأخبار ساخرين مستهزئين بها .

أما الأمراء سقيمو الآراء فقد اجتمعوا للتشاور فى هذا الأمر.[٤٨-١] وبعد أن قرئت المكاتبات الواردة من محمد كريم أظهروا غرورهم واستكبارهم زاعمين أنهم القوة القاهرة والغلبة الباهرة التى طبقت شهرتها الآفاق فى جهات العالم الست ، وأنه ليس لأحد قبل بمنازلهتم وإذا ما جاءت إليهم سائر دول أوربا مجتمعة وليس فرنسا حسب ولم يأت أى مدد من الدولة العلية (أبقاها الله)، فإن ذلك لا وجب إقلاقهم وإزعاجهم بأى حال من الأحوال؛إذ أنهم سوف يسحقون ولئك الإفرنج بسنابك خيولهم ويحصدون رءوسهم ببوارق سيوفهم .

الملحمـــــــــة

فى يوم الاثنين ١٨ من محرم رست سفن وعمارات للفرنسـيين كثيرة ليس لها حد ولا تقع تحت حصر أوعد أمـام ثغـر الإسـكندرية ، وعلى الفور أرسلوا طائفة منهم فى طلب القنصل وبعض أهل البلد مـن أصحاب الحل والعقد يدعونهم إلى أسطولهم ؛ فرد عليهم أهـل الثغـر أنهم غير مأذونين للذهاب إلى أسطول ضخم كهذا أو إدخال شخص غريب إلى بلدهم ما لم يخطروا القاهرة ويستأذنوها ، وأنهوا ما حدث فى التـو إلى القاهرة .

وفى حين كان الدفاع عن البلاد حقا عليهم ، انعدم فيهم وجـود شخص أريب يفطن إلى حقيقة الأمر ، فاصطحب كل واحد من كبار البلـد القنصل الفرنسى الملعون واستبقوا فيما بينـهم المضـى إلـى أسـطول الفرنسيين ، ولما انتهوا إلى بونابرت اللعين (سر عسـكرهم) لاطفـهم واستمال خواطرهم بالمكر والخديعة ونزلوا ضيوفاً عليه فى تلك الليلة بعد أن استوقفوهم فى أسطولهم بحجة التباحث معهم فى بعض الأمور الهامة فى اليوم التالى ،[٤٨-ب] وبالغوا فى رعايتهم والحدب بهم .

ولم يكن بين عامة الناس فى الإسكندرية من يميز بيـن الغـث والسمين ، فكانوا فى مجملهم طائفة من الفلاحين البلهاء عديمى الفـهم محصورى التفكير، ومن ثم لم يسألوا أنفسهم عـن معنـى مثـل هـذه التداركات الحربية العظيمة وعدم عودة من مضـى مـن رجالـهم إلـى الأسطول ونسوا ما أوصاهم به الإنجليز ، ووعوهم إليه .

أما عقلاؤهم فقد تجافى النوم عن أعينهم في تلك الليلة ، [٤٩-أ] وعلى حين كان حقا عليهم الدفاع عن السواحل ، ورد هجوم أجناد المشركين ، تجلت مقولة : " إذا جاء القضاء عمى البصر وإذا نزل القدر بطل الحذر " ، فاستكانوا جميعا قريرى العين في فراش النوم والغفلة ، فسر الأعداء وامتن من غفلتهم وحماقتهم هذه ، ولم يؤجلوا عمل اليوم إلى الغد ، وتحينوا الفرصة ، وأعتقلوا من دعوه من كبار رجال الإسكندرية في تلك الليلة داخل سفنهم وشدوا وثاقه وخرجوا إلى البر ومعهم آلات الحرب والجند على الساحل المسمى (ميناء العجمي) .

ولما علم أهل الثغر بعد طلوع الفجر أن الفرنسيين ضربوا الحصار من جميع الجهات حول قلعة الإسكندرية في تلك الليلة ؛ [٤٩-ب] اشتبكت عدة فصائل من الفلاحين والعربان ــ الذين قدم بهم كاشف البحيرة من الجهات المجاورة ــ مع الفرنسيين ، غير أنهم ما استطاعوا الثبات لحربهم واستشهد نفر منهم وتقهقر الباقون إلى القلعة ، وقد حاروا ولم يعرفوا أى طريق يسلكون ، فتعقبهم الفرنسيون وحاصروا القلعة من كل جانب وضيقوا عليهم الخناق واخترقوا صفوفهم وشتتوا شملهم ، فعوّل كل من في الثغر على المقاومة من أسطح منازلهم ، وأبلوا خير بلاء في القتال بالبنادق والحجارة . غير أنهم كانوا قبيلا من الفلاحين والعربان الذين لا عهد لهم بقذائف المدفعية الهادمة للقلاع ؛ ومن ثم فقد شملهم الفزع والوله .

ولاعتقال رءوس البلد وزعمائه لدى الكفار حار العامة ــ الذين لم يكن لهم من زعيم أو قائد ــ في أمرهم ، إضافة إلى أن صياح الصبية وصراخ النساء وعويلهم قد شل تفكير الأمة المحمدية وكسر يد قدرتها .

أما الأبراج والقلاع فقد كانت خالية من آلات الحرب والبـــارود فعلم الأهالى أن استيلاء الفرنسيين على الثغر بات أمراً واقعا طوعــــاً أو كرهاً ، فكفوا أيديهم عن القتال ، ثم طلبوا الأمان ، [٥٠-١] فـــأمنوهم شريطة أن يحضر إليهم أعيان الثغر لتسليم جميع أسلحتهم لهم وتعليق ما يسمونه (الجوكار) على صدورهم .

وما يسمونه الجوكار كان ثلاث قطع من الجوخ وغير ذلـــك ، مستديرة فى حجم كف اليد سوداً وحمراً وبيضاً ، يوضع بعضـــها فـوق بعض بحيث تكون كل دائرة أقل من التى تحتها ، حتـــى تظـهر الدوائـــر الثلاثة وكأنها محيطة بعضها ببعض.

وخلاصة القول أنهم استولوا علـــى الثغـر المذكـور بســهولة وخسفوا بأهل الإسلام ونكلوا بهم وأنزلوا بهم صنـــوف الـــذل والتحقـــير { وكان أمر الله قدراً مقدوراً } [1].

ورود هذه الرسالة الموحشة إلى مصر القاهرة

على الرغم مما وقع من حوادث لمحمد كريم فيما يتعلق بقـــدوم طائفة الإنجليز وذهابهم فقد تحدث فيه الناس يوم أو يوميـــن ، بعدهـــا اعتبر من قبيل الألفاظ المجردة ، وأصبح نسياً منسياً ، وعكـــف ســكان البلاد على الكسب والعمل غافلين ، وسكرت عقول أمراء المماليك بخمـــر الغفلة والكبر والغرور .

١-الأحزاب : (٣٨)

وفيما كان كل منهم مكباً على ملذاته ، توارت الأنباء الموحشة من جهات دمنهور ورشيد بقدوم الفرنسيين على ذلك النحو بغتة ، [٥٠-ب] واستيلائهم على ثغر الإسكندرية ، وتنكيلهم بأهله ، وفى خلال ساعة أعاذنا الله، حصلت الوحشة والفزع فى مصر القاهرة وكأنه نُفخ فى الصور وقامت الساعة ، وتزلزل الأمراء جميعا وروعوا ، فوافى كبير أمرائهم المدعو إبراهيم بك شيخ البلد إلى موضع يسمى (قصر العيني) ، وأرسل فى طلب أمير آخر يدعى (مراد بك). إذ إن المشار إليه لم يكن مقيماً فى القاهرة نفسها ؛ بل كان منذ أمد مديد مقيما هو وأتباعه فى موضع يسمى (الجيزة) فى الضفة المقابلة لبحر النيل .

والخلاصة ، التقى الأميران المشار إليهما ، وبعد أن تحدثا فيما بينهما فى تلك الواقعة الفاجعة ، اجتمعا بقاضي مصر وباقى الأمراء وشيخ السادات والأعيان ورؤساء الأوجاقات ، وكل أهل الرأى ، وبعد أن تحدثوا فى أمر تلك الداهية الدهياء ، استقر منهم الرأى على أن يرسل الحاج أبو بكر باشا والى مصر مكاتبة بما حدث إلى السلطنة السنية ، [٥١-أ] والتجهز لملاقاة الكفار وحربهم ، وفى التو والحال وفى خلال ساعة أو اثنتين سطروا المكاتبة المذكورة وأكملوها، وأرسلوها براً عبر طريق غزة مع اثنين من السعاة .

وفى اليوم التالى ، أخذ مراد بك فى مصادرة عباد الله ، وإنزال الظلم والضرر بهم بحجة تعبئة الجند وتهيئة اللازم من العتاد والذخائر ، وأقام معسكراً لقواته خارج مصر ، ولبث هناك يومين ، وفى مدة تلبثه تلك ، جلب إليه العساكر، واستكمل الأسباب الحربية من مدافع وعتاد ،

وأركب عدداً من جند المشاة والمغاربة مع عدة من المدافع فى قــوارب صغيرة وأرسلهم فى النيل، وأخذ معه عدداً من المدافع وقدراً من البـارود وسار من الجسر الأسود مع عدد كبير من الأمراء والكشّاف للقاء الكفار.

وعند خروج مراد بك بالعساكر ، عصمنـا الله تعـالى ، عمـت الوحشة والفزع مصر القاهرة وانقطعت الطرق من هجوم أشقياء البـدو ، وانسدت حتى أبواب مصر .[٥١-ب] .

ولقد سادت الوحشة والرهبة القاهرة ، وامتدت هجمات لصوص العربان حتى أبوابها ، فانقطعت طرق الذهاب والإياب ، وأغلقت الأسـواق والحوانيت ، وانعدم الأمن ليلاً وافتقدت الراحة نـهاراً ، فنادى والى مصـر وشيخ البلد والأغا بفتح الأسواق وتعليق القناديل على الدور والدكـاكين ؛ فبثوا بذلك شيئا من الاطمئنان فى قلوب عباد الله المسلمين .

وبعد أن أحكم الفرنسيون قبضتهم على الإسكندرية وتركوا بـها قدراً من الجند والعتاد عمد قائدهم بونابرت إلى مهاجمة رشيد ودمنهور ، ففر بعض أهلها إلى المناطق المجاورة وآثر عدد منهم البقاء فى أماكنـهم طالبين الأمان ؛ فأمنوهم وأحسنوا معاملتهم ، وأخبروهم أنهم مـا أرادوا بهم شراً .

وإضافة إلى هذا فإنهم أعتقوا جميع الأسرى المسلمين الذيـن كانوا قد أسروهم فى مالطة واصطحبوهم معهم إلى مصر ، وأشاعوا ذلـك بين الناس وكأنهم حضروا لفك أسر الأمة المحمدية لا لأسرها .[٥٢-أ]

وحضر هؤلاء الأسرى إلى قصبة بولاق ومعهم نسخ من منشور مطبوع، وكان مضمون ذلك المنشور لا يخلو مـن المكـر والخديعـة ، فاجتهد كبار البلد لكتمه وإخفائه لئلا يحصل اللغط وتكثر القالة . ورغـم

هذا فقد شاع وذاع فى شتى الأنحاء ولم يعد هناك جدوى من كتمه ، وبين عشية وضحاها اشتهر فحوى المنشور وعلم به الناس جميعا .

ولما تحروا عمن حضر بذلك المنشور من الأسرى المسلمين حدسوا أنهم ربما كانوا جماعة من كفار مالطة الذين يعرفون اللغة العربية مندسين فى غمار الأسرى ، وتم توصيل المنشور المذكور بمعرفتهم ؛ وعليه قدموا القاهرة على أنهم من الأسرى المسلمين ، وقاموا بتوزيع ما بحوزتهم من منشورات على شتى الجهات وعادوا أدراجهم إلى معسكرهم ، وقد تعرفوا على أحوال القاهرة ووقفوا على دقائق أمورها بقدر الكفاية .[٥٢-ب]

المنشور اللعين باستثناء البسملة وعبارة التوحيد

بسم الله الرحمن الرحيم

لا اله إلا الله لا ولد له ، ولا شريك فى ملكه ، من طرف الجمهور الفرنساوى المبنى على أساس الحرية والتسوية ، السر عسكر الكبير بونابرته أمير الجيوش الفرنساوية يعرف أهالى مصر جميعهم أن من زمان مديد والسناجق الذين يتسلطنوا فى البلاد المصرية يتعاملون بالذل والاحتقار فى حق الملة الفرنساوية ويظلمون تجارها بأنواع البلص والتعدى ، فحضر الآن ساعة عقوبتهم ، واحسرتا من مدة عصور طويلة هذه الزمرة المماليك المجلوبين من بلاد الآبازا والكرجستان يفسدون فى الإقليم الأحسن الذى لا يوجد فى كرة الأرض كلها ، فأما رب العالمين القادر على كل شيء قد حتم على القضاء دولتهم ، يا أيها المصريون قد

يقولون لكم إننى ما نزلت فى هذا الطرف إلا بقصد إزالة دينكم فذلك كـذب صريح فلا تصدقوه ، وقولوا للمفترين : إننى ما قدمت إليكم إلا لكـــى مـــا أخلص دينكم وحقكم من يد الظالمين.

وإننى اكثر من المماليك أعبد الله سبحانه وتعالى وأحـــترم نبيـــه محمـــدا والقرآن العظيم .[٥٣-١] وقولوا أيضا إن جميع الناس متساوون عند الله وإن الشيء الذى يفرقهم من بعضهم بعضا هو العقل والفضائل والعلوم فقط . وبين المماليك ما العقل والفضائل والمعرفة التى تميزهم عن الآخريـــن ؟ ويستوجب أنهم يتملكون وحدهم كل ما يحلو به الحياة الدنيا حيثمـــا يوجـــد أرض خصبة فهى مختصة للمماليك ، والجوارى الأجمل والخيل الأحســـن والمساكن الأشهى فهذا كله لهم خالصا ، إن كانت الأرض المصرية إلتزام للمماليك فليرونا الحجة التى كتبها لهم رب العالمين، هـــو رءوف وعـــادل على البشر بعونه تعالى ، من اليوم فصاعدا لا يستثنى أحد من أهالى مصر عن الدخول فى المناصب السامية وعن اكتساب المراتب العالية ، فـــالعقلاء والفضلاء والعلماء بينهم سيدبرون الأمور وبذلك يصلح حال الأمة كلـــها ، سابقا فى الأمور المصرية كانت المـــدن العظيمـــة والخليجـــات الواســـعة والمتجر المتكاثر . [٥٣-ب] وما أزال ذلـــك كلـــه إلا الطمـــع وظلـــم المماليك ، أيها القضاة والمشائخ والأئمة ويأيها الشوربجية وأعيان البلـــد قولوا لأمتكم إن الفرنساوية هم أيضا مسلمون خالصون ، وإثباتا لذلك قـــد نزلوا فى رومية الكبرى وخربوا فيها كرسى البابا ، الذى كان يحث دائمـــا النصارى على محاربة السلام ، ثم قصدوا جزيرة مالطا ، وطردوا منـــها الكواللرية ، الذين كانوا يزعمون أن الله تعالى يطلب منهم مقاتلة المســلمين ، ومع ذلك الفرنساوية فى كل وقت من الأوقات صاروا المحبين الأخلصين

لحضرة السلطان العثمنلى وأعداء أعدائه أدام الله ملكه، وبالمقلوب المماليك امتنعوا من إطاعة السلطان غير ممتثلين لأمره فما أطاعوا إلا لطمع أنفسهم . طوبى ثم طوبى لأهالى مصر الذين يتفقون معنا بلا تأخير فيصلح أمرهم ويعلى مراتبهم ، طوبى أيضا للذين يقعدون فى مساكنهم غير مائلين لأحد من الفريقين المحاربين ، فإذا يعرفونا بالأكثر يتسارعون إلينا بكل قلب ، لكن الويل ثم الويل للذين يتحدون مع المماليك ويساعدونهم فى الحرب علينا ، فما يجدون طريق الخلاص ولا يبقى منهم أثر .

المادة الأولى : جميع القرى الواقعة فى دائرة قريبة بثلاث ساعات عن المواضع التى يمر بها العسكر الفرنساوى ، فواجب عليها أن ترسل للسر عسكر وكلاء من عندها لكيما يعرفون المشار إليهم أنهم أطاعوا وأنهم نصبوا السنجاق الفرنساوى الذى هو أبيض وكحلى وأحمر .

المادة الثانية : كل قرية تقوم على العسكر الفرنساوى تحرق بالنار .

المادة الثالثة : كل قرية تطيع للعسكر الفرنساوى ، الواجب عليها نصب السنجاق الفرنساوى، وأيضا نصب سنجاق السلطان العثمنلى ، دام بقاه .

المادة الرابعة : المشايخ فى كل بلد ليختموا حالا جميع الأرزاق والبيوت والأملاك بتاع المماليك وعليهم الاجتهاد الزايد لكى لا يضيع أدنى شئ منها .

المادة الخامسة : الواجب على المشايخ والقضاة والأئمة أنهم يلازمون وظائفهم ، وعلى كل واحد من أهل البلد أن يبقى فى مسكنه

مطمئنا، وكذلك تكون الصلاة قائمة فى الجوامع على العادة والمصريـــون بأجمعهم ليشكروا فضل الله سبحانه وتعالى من انقراض دولـــة الممـــاليك قائلين بصوت عال : [[٥٤-ب] أدام الله إجلال العثمنلى أدام الله إجـــلال العسكر الفرنساوى ، لعن الله المماليك وأصلح حال الأمة المصرية .

تحرير بمعسكر إسكندرية فى ١٣ من شهر مسيدور[1] سنة ١٢١٣ هـــ .

اعتراضى أنا الفقير على منشور الفتنة هذا وتحقيق عقائدهم الباطلة

بدءا عندما نطالع عبارة " لا اله إلا الله لا ولد له ولا شريك فـــى ملكه " التى تصدرت هذا المنشور ، بشىء من الإمعـــان ، نجـــد أنـــهم متفقين مع الأديان الثلاثة : الإسلام والنصرانية واليهودية من جهـــة ، ويخالفونها من جهة أخرى ، وهذا لا يخفى على أهل العلـــم ممـــن لـــهم وقوف على عقائد الملل الثلاثة المذكورة؛ ففى الوقت الذى يزعمون فيه أنهم يحترمون الرســـــــــول (صلى الله عليه وسلم) ويعظمـــون القرآن الكريم ، لا يعملون بأى حكم من أحكام الشريعة الإسلامية الغراء.

١- هو الشهر العاشر من تقويم الثورة الفرنسية ويمتد من ٢٠ يونيو إلـــى ١٩ يوليو . أمل بشور ، مرجع سابق ، حاشية ص ٨١ .

وفى حين أن القرآن الكريم يتضمنه آية : { لا يمسه إلا المطهرون } [1]، نجد أنهم قوم ملوثون بشتى ألوان الدنس والنجاسة ، ويلبسون ثياب الكفر والضلالة ، واتخذوا من كتاب الله العزيز أداة لسخريتهم واستخفوا بسمو منزلة النبوة وأنكروا أحكام الشريعة وما أجدرها بالاحترام ، وهذا واضح وضوح الصبح .

وإذا ما أمعنا النظر في أقوالهم وأطوارهم وأعمالهم الباطلة ، وجدناها لا تنحصر في نبوته (صلى الله عليه وسلم) ، [٥٥-١] فهم ينكرون كافة الكتب المنزلة ويكفرون بالشرائع المحكمة ولا يدينون بأي دين ولا يتمذهبون بأي مذهب وهذا واضح جلي . وفى حين أنهم يزعمون أنهم أخلص وأحب أصدقاء الدولة العلية ، غزوا بلا سبب بلدا وسيع الأرجاء هو مصر التي كانت تنعم بالأمن والسكينة في ظل السلطنة السنية وهذا تناقض غنى عن التدليل .

وقضاؤهم على البابا في رومية واستيلاؤهم على جزيرة مالطة واستخلاص الأسرى المسلمين ودعاوى المساواة بين عباد الله ، كل ذلك كانوا يهدفون من ورائه إلى الإستيلاء على البلاد واستغفال الأجلاف من العباد ، وكل ذلك ما كان لينطلي على أولى المنطق الحصيف الواقفين على دقائق الدهر .

وأن يكن الفرنسيون قد شاعت شهرتهم بأنهم دهريون يذهبون إلى تناسخ الأرواح ،[٥٥-ب] فقد تأتى لي الوقوف على تفاصيل أحوالهم ، وأحطت علما بدقائقها ؛ فعلى ما تحققت من البعض أن هذه

---

١ - الواقعة : (٧٩) .

الطائفة الفرنسية كانت على دين المسيح (عليه السلام) ، وعلـــى مــر الأيام أسرفوا فى التوغل فى الفلسفة ؛ [٥٦-١] فصبأ أكثرهم وأنكـروا نبوة المسيح عليه السلام ، ولأنهم سلكوا مسلك الدهرية ، فقد أصـــاب الخلل مذاهبهم وعقائدهم شيئا فشيئا ، فأنكروا النبوات والرسالات كافـة ، وصدوا عن أحكام الشرائع ، وعطلوا العمـــل بـها ، وأنكـروا الحشـر والحساب ، وقالوا بقدم العالم وتناسخ الأرواح ، واستشـــرت مفاسـدهم وفتنهم ، وفى النهاية أعدموا ملوكهم وذراريهم الذيـــن حكموهــم منـذ سنوات عديدة وقرون طويلة ، وأهلكوا كذلك عددا من الرهبان والبطارقة وبالغوا فى امتهانهم والزراية بهم ، وخربوا كنائسهم وأديرتهم ، وأحرقوا الكتب المتعلقة بالأحكام والشرائع ثم أعلنـــوا الجمهوريـــة ، فتشتـــتت مسالكهم وتبعثرت مذاهبهم ، وسلك كل منهم طريق ضلالة ، فأقام عـــدد منهم على شريعة آبائهم وأجدادهم ، ومالت شرذمة منهم فى الخفاء إلـى الطائفة اليهودية ، وقال ، أكثريتهم ــ على النحو المذكور ــ بقدم العـالم وتناسخ الأرواح . ومنهم فئة كالأنعام لا يفرقون بين السماء والأرض .

وبعد أن أشاعوا الفتن والقلاقل فى كافة ممالك أوروبا ، امتـدت شرر شرورهم ومفاسدهم فى آخر الأمر إلى البلدان الإسلامية وانتشــرت فى أرجاء الكون العريض ولا حول ولا قوة إلا بالله .

ســــــؤال :

كتب المنشور المذكور وطبع باللغة العربية ، ومن ثـــم إذا ارتابنـــا وخامرنا الشك وتساءلنا : متى تعلم أولئك اللغة العربية والخط الإسلامي؟

وفى أى مدة طبعوا تلك المنشورات ؟ وكيف تـــأتى لـــهم بيـــن عشـــية وضحاها ، الوقوف على دقائق مصر وأسرارها ؟

الجـــــــواب :

كان هناك من يدعى (أنطون) وكان رجلاً محتـــالاً فاســـد الخلـــق والضمير ــ من معلمى القبط ــ برع فى المحاسبة والكتابـــة العربيـــة ، وسرعان ما اطلع على إيرادات الممالك المصريـــة ومصروفاتـــها وقـــام بتسجيلها ، ولسبب من الأسباب هرب من مصر . ولما كان بالماهر فـــى الفرنسية فقد مضى إلى فرنسا، وفى ذلك التاريخ لم يكن ملكها ــ الداهيـة الماكر ــ [٥٦-ب] قد انتقل إلى الجحيم بعد ، فوصل أنطـــون أســـبابه بأسباب الملك وشيئا فشيئا بات من بطانتة الخاسرة .

واتفق ذات يوم أن أخذ أنطون يحرض الملك المذكور ويزين لـــه غزو مصر فقال :

" إن مصر بلد وسيع الأرجاء مترامى الأنحاء ، يتوسط ممالك المغـــرب وديار الحجاز والحبشة وبلاد الشام والأناضول ، ويحدها البحر الأبيـــض من جهة ، وبحر السويس من جهة أخرى ؛ ولذا يأتيها ما لا يحصى كثرة من نفائس أمتعة بلاد الهند والسند وإيران ، والكثير والكثير من الســـلع الرخيصة لبلاد اليمن والحجاز والحبشة ، وتمر عليها فى تعـــاقب ودوام سفن التجارة لبلاد المغرب وبلاد الإفرنج والجزيرة العربية فـــى ذهابـــها وإيابها ؛ فتتوفر بها كافة السلع النفيسة وغير النفيسة ؛ ومن ثم بـــاتت محط أنظار وبؤرة اهتمام كافة الشعوب واشتهرت بأم الدنيا ولقد علمـــت ذلك من تجّارك الذين جابوا تلك البلاد ، غير أن تفـــاصيل أســـرار البلـــد

المذكور موضوع آخر ، ولما كان فهم تلك التفاصيل وإدراكها غير ممكن بالسماع أو بطريق التجارة فحسب ؛ فإنه لا يخفى عليك أن ذلك منوط بوجود من تمرس بأمور وأحوال تلك البلاد وسبر أغوارها وعلم خفاياها . مثلى .

والواقع أن فاتح مصر ، وواليها فيما بعد فى العصور المبكرة للإسلام ، [٥٧-أ] كتب إلى خليفة المسلمين آنذاك (عمر الفاروق) يصف له مصر فى الرسالة التى يبشره فيها بالفتح فقال : " بلدة ماؤها عجب وترابها ذهب " هذا مما يتفق مع دعواي المبسوطة .

ويخترق أراضيها من أقصاها إلى أقصاها نهر النيل العظيم ذو الخير الكثير والنفع العميم . وأراضيها شديدة الخصوبة.

ولما كان حساب إجمالى إيراداتها مثل : الجمارك وإيرادات المقاطعات منقوش فى ذاكرتى فإنه إذا ما خطر ببالك يامولاى الاستيلاء على الممالك المذكورة بسهولة فألق نظرة واحدة على هذا السجل . وأعطاه سجلا أعده بنفسه من قبل عن إيرادات مصر .

وبعد أن طالع الملك ذلك السجل اشتعل لهيب طمعه وحرصه ، واستعلم عن إمكانية الاستيلاء على بلد عظيمة كتلك واستمالة قلوب أهلها وإن كانوا على ملة تخالف ملته ؛ فشرح له أنطون فى هذا المجلس شتى الحيل والمكائد الخاصة بالتحرك من ميناء طولون بعمارة عظيمة والاستيلاء على مالطة وتخريبها ثم غزو ثغر الإسكندرية وتسخيره ، [٥٧-ب] ثم الهجوم على القاهرة واحتلالها فى غضون أيام ، وأطلعه على سائر ما ينبغى الأخذ به من الأسباب .

ولما كانت كل هذه الأمور تتفق مع تدابير العقل والمنطق ، فقد تشاور الملك مع كبار قادته وأفراد بطانته ، وقلبوا وجوه الرأى والمشورة ، فقر قرارهم بالإجماع على الشروع فى اتخاذ الأهبة وإعداد العدة من الأسلحة وآلات الحرب، وطبعوا تلك المنشورات العربية ، بعد أن سودها لهم أنطون فى مطابعهم .

ولما أوشكوا على الاتجاه إلى الصوب المقصود بعد أن اتخذوا للأمر أهبتة ، شاءت المقادير أن ينفرط عقد جماعتهم ، ويختل الأمن فى جميع بلادهم، وتسودها الفتن والقلاقل ، ويعدم ملكهم فى آخر الأمر ، وتباد الأسرة الحاكمة ، ويقضى عليها من أساسها ، [٥٨-١] ويحاربوا دول الجوار كبيرها وصغيرها ، وينتصروا عليها جميعا ؛ فظل موضوع غزو مصر نسيا منسيا لعدة سنوات إلى أن هدأت الأحوال وانتظم عقد جماعتهم من جديد .

وفى نهاية المطاف عندما خمدت نيران ما أشعلوه من فتن وقلاقل أعدوا ما أعدوا من العتاد وآلات الحرب وابتدروا إلى ارتكاب تلك الجريمة البشعة ، وأقدموا على غزو مصر وإحتلال اراضيها ؛ غير أن أنطون الملعون لم يجن فائدة من كل ما فعل وهلك فى السجن قبل واقعة غزو مصر ، وهو يعد سببا مستقلا فى تلك الداهية الدهياء وسوف يأخذه الله بالنكال يوم القيامة جزاء له عما فعل ما من شك فى ذلك . ألا لعنة الله عليه وعلى سائر المفسدين .

واقعة مراد بك مع الفرنسيين وانهزامه

يذكر الرواة والمؤرخون أنه بعد أن استولى جيش الفرنسيين على فوه والرحمانية فى٢٨ المحرم سنة ١٢١٣ هـ زحفوا لملاقاة مراد بك ، الذى سبق أن ذكرنا أنه ولى قيادة جند الموحدين مشاة وفرسانا وساقهم فى البر والنهر لصد الفرنسيين ، فوقعت مناوشات بين طلائع الجيش ، انجلت عن مقتل عدد من كلا الجانبين ، فزلزل مراد بك وجنده، واستحوذ عليهم الفزع والهلع ، غير أن من قدم فى النيل من مشاة المغاربة وجند الفرق العسكرية راعوا آثار الحمية الإسلامية وصانوا شرف الدين الإسلامي وهيبته واستماتوا فى القتال وأهلكوا كثيرا من المشركين .[٥٨-ب]

وفى حين كان ذلك سببا فى تثبيت أقدام فرسان مراد بك ، إذا بقضاء الله يجرى بأن علقت النار بمخزن ذخيرة إحدى سفن مراد بك فأذرت من بها فى الهواء ، ومن بينهم رئيس الطوبجية خليل كردلى ؛ فلم يسع الجند المشاة عندئذ إلا التشذر والتفرق ، ولم يعد للفرسان طاقة على الثبات ، فولوا منهزمين فى خوف واضطراب ، ومن عاينهم من الجند المشاة ولى الأدبار وانحاز إلى ساحل النيل تاركا أسلحته ومدافعه فى أرض المعركة .

أما مراد بك فقد تقهقر بالجند المنكسرة إلى (إمبابة) الواقعة فى الجانب الغربى من النيل بمحاذاة قصبة بولاق ، وشرع فى عمل متراس من ساحل النيل إلى قرية (بشتيل) وبادر هو ومن معه من الأمراء إلى حفر خندق .

وما إن انتهى هذا النبأ المفزع إلى مصر ، [٥٩-أ] حتى هاج الأهلون ، وماجوا، وضجوا بالصراخ والعويل ، وتحزبت طوائف العامة ، واحتشدت حشودهم ، وكأنهم فى يوم الحشر ، وحضر والى مصر أبو بكر باشا وشيخ البلد إبراهيم بك وأتباعه من الأمراء والكشاف وسائر العلماء والأعيان وقادة الفرق العسكرية إلى قصبة بولاق الواقعة على الشاطئ الشرقى للنيل للتشاور فى صد الفرنسيين ، فقر قرارهم على أن يتصدوا لهم فى الضفة الشرقية للنيل ، ويتصدى لهم مراد بك وأتباعه فى الضفة الغربية المقابلة .

وبعد أن أخبروا مراد بك بذلك قاموا بعمل متاريس عميقة وعريضة من بولاق إلى شبرا ، ونصبوا المدافع فى أماكن متفرقة منها ، ورسم لعربان الشرقية أن يكونوا فى طليعة معسكر شبرا ، وكذلك عربان الغربية فى طليعة معسكر بشتيل ، ولقن كل منهم بدوره فى المقاومة ، ونادوا بالنفير العام وخروج كل من فى القاهرة من طائفة العسكر ــ فيما عدا الأطفال والنساء والعجائز ــ للمتاريس ، وتحدثوا عن فضائل الجهاد فى سبيل الله ، وحضوا الناس على حرب الكفار ، [٥٩-ب] فاحتشد ما لا يقع تحت حصر من الفلاحين وأهل السوق العزل إلا من عصى فى يد كل واحد منهم .

واجتمع على رءوس المتاريس جم غفير وحشد عظيم بالأعلام والطبول والدفوف ، وكأنه حفل عرس أو احتفال بالمولد على الطريقة المصرية القديمة . واكتظ بري النيل : الغربى والشرقى بالمدافع والعساكر المشاة والفرسان .

وفى حين كانوا مرابطين بهذا الكم من العتاد والأسلحة لرد الكفار ، ثابتين مستقرين كأنهم الجبل ، فإنه من جهة أخرى شرع الأمراء سقيمو الآراء ــ فى الخفاء ــ فى نقل أموالهم وكافة أمتعتهم الثمينة إلى دورهم القصية ، فلما رأى أهل البلاد منهم ذلك داخلهم الخوف والفزع . وبدأت تسوء أحوال العباد ؛ إذ إن كافة الأسواق كانت قد أغلقت ، وتوقف البيع والشراء ، وضاق الحال بالفقراء الذين يحصلون أقواتهم يوما فيوم لتعطل الأسباب ، وغلا سعر كافة ما أمكن جلبه من الجهات المجاورة من المأكولات والمشروبات فتعالت صرخات الفقراء وأناتهم حتى انتهت إلى عنان السماء ، وخاف الأغنياء من عواقب الحال ؛ فكفوا أيديهم عن مساعدة الفقراء والمساكين والعطف عليهم .[٦٠-١]

وعلى نحو ما يروى عدد من الثقاة من الناس فقد بخل الأب على أبنائه، ووجد من الفقراء من تضور جوعا ولم يعرف الطعام سبيلا إلى جوفه إلا بعد ثلاثة أو أربعة أيام .

أما بلاد الأرياف فقد قامت يقتل بعضهم بعضا وينهب بعضهم بعضا ، وبادروا إلى قتل الأنفس وهتك الأعراض .

وأما عربان البادية فقد ترصدوا الفرصة واجتاحوا يقتلون ما استطاعوا إليه سبيلا من عباد الله ، ونهب أموالهم وأمتعتهم ؛ فازداد الكرب وتعاظم البلاء.

وفى تلك الأثناء قبضوا على من فى القاهرة من رعايا الفرنسيين وسجنوهم فى القلعة ، وعمدوا إلى محالهم يفتشون عن الأسلحة وغيرها وكبسوا كذلك بيوت النصارى والشوام والأقباط والأورام وكنائسهم وأديرتهم ومخازنهم للتفتيش عن الأسلحة ، غير أنهم لم

يعثروا على شيء مما شكوا فى وجوده ؛ ولذا لم يتعرضوا بشر لأحد من الطوائف المذكورة .

غير أن بعض المتهورين من العامة هجموا على الرعايا الفرنسيين فى مصر يريدون الفتك بهم جميعا ،[٦٠-ب] فمنعهم والى مصر وبعض عقلاء الأمراء خوفا من عاقبة ذلك ، وحاولوا بشتى الطرق تهدئة الأهالى واحتواء غضبتهم .

وفى تلك الأثناء كثرت الإشاعات والأقاويل فمن الناس من كان يقول :

" أن الكفار المشتركين قادمون من البر الشرقى .. " ، ومنهم من كان يقول: " أنهم واصلون من البر الغربى.. " ، ومنهم من كان يقول : " أن فرقة منهم قادمة من الجانب الشرقى وأخرى قادمة من الجانب الغربى " ، هذا وليس لأحد من أمراء الجند همة أن يعين عينا أو اثنتين لتجسس الأمر.

وفى ٨ صفر الخير ١٢١٣هـ عبرت عساكر الفرنسيين الجسر الأسود، وفى اليوم التالى انتهوا إلى الموضع المسمى (أم دينار) ، فاجتمع عندها حشد هائل من أهل تلك الجهة وما جاورهما من القرى وبعض العربان ؛ غير أنهم كانوا فى المجمل من الفلاحين الضعاف العزل إلا من عصى فى أيديهم ؛ ولذا لما عاينوا كتائب الفرنسيين عن بعد وشاهدوا قذائف مدفعيتهم وقنابلهم ، وسمعوا دويها المهيب ؛ تشذروا وتفرقوا إلى الجوانب والجهات كالجراد المبثوث دون أن يتقدموا خطوة واحدة .

[٦١-١] أما جند الفرنسيين فلم يعبئوا بهم وزحفوا لمهاجمة جيش مراد بك فاشتبكت طلائعهم معه بالقرب من قرية بشتيل ، ولما حملت قوات مراد بك على صفوف الفرنسيين دون تدبير حربى باغتوهم ، وأصلوهم نيران مدفعيتهم وبنادقهم ، فلم يقدر أحد منهم أن يفتح عينيه من وابل القذائف المنهمرة عليهم من السماء واستشهد أيوب بك الصغير وعبد الله (كاشف الجرف) وعدد كثير من كشاف محمد بك الألفى ومماليكه ؛ مما كان سببا فى ارتياع الفرسان وتزلزل أقدامهم فلم يسعهم إلا أن ولوا الأدبار فى سرعة وانزعاج متقهقرين إلى معسكرهم ، فتعقب فلولهم (ديزيه) ـ قائد طلائع جيش الفرنسيين بما يقرب من سبعة آلاف ، إذ إن بونابرت لم يكن حاضرا تلك الواقعة .

ولما حملوا على متاريس مراد بك ، هب الجند المشاة ـ فى المتاريس وكذلك جند القلينجية والمغاربة البحرية ونحو مائتين من المشاة الذين تواردوا من دمياط فى يوم أو يومين ـ لردهم وقتالهم غير مبالين بمدفعية الأعداء وبنادقهم ، ثابتين فى أماكنهم . ودارت رحى حرب طاحنة لا سبيل إلى تصوير ضراوتها ، وامتزجت صيحات الشجعان وزئير الأسود بدوى القذائف ، ووصلت إلى عنان السماء .[٦١-ب]

وفى هذه الأثناء هبت ريح صرصر من جهة الفرنسيين ، فانعقد الغبار ولف الظلام معسكر المسلمين من دخان البارود وغبار الرياح ، فحجبت عنهم الرؤية ، وفيما كان الحال على هذا المنوال لحقت كتائب الفرنسيين بجند طلائعهم بقيادة ديزيه ، وتعضد كل منهم بالآخر ، ولم يتفرقوا ، وشكلوا جناحين على شكل قرنى الشاة ؛ بحيث صاروا محيطين بالعساكر المسلمين من خلفهم ومن أمامهم ، وهجموا عليهم فتعاظم

الضجيج وتعالى الصخب ، وكأن الساعة قد قامت بأصوات الطبول غير المنتظمة ودوى المدفعية وطلقات البنادق المتوالية بلا انقطاع .

أما عسكر الإسلام ، فدون أن يدرى أحدهم بالآخر ، راحوا يطلقون مدافعهم وبنادقهم دون تمييز بين عدو أو صديق ولما شاهد الفرسان إحاطة العدو بهم من الأمام والخلف ، [٦٢-أ] عمد بعضهم إلى إلقاء نفسه فى النيل، وفر الباقون مع مراد بك إلى الجيزة .

ولما رأى الجند المشاة منهم ذلك ، آثر بعضهم الغرق فى النيل والبعض الآخر وقع أسيراً فى أيدى الفرنسيين ، غير أن استشهاد بكباشية مشاة الأرناءوط، المائتين الذين قدموا من دمياط ، أشعل حمية الأرناءوط ؛ فاستبسلوا فى ميدان الوغى ولم يكفوا أيديهم عن القتال حتى استشهدوا عن آخرهم .

وكان من بين من ألقى نفسه فى النيل من الفرسان إبراهيم بك الصغير ، وقد استشهد غريقاً ، ومنهم أيضا سليمان بك رفيق إبراهيم بك الصغير الذى نجا، إذ إن جواده كان من أقوى الجياد المصرية وأجودها ، واستشهد غالبية الفرسان، والقليل منهم نجا بعد أن تكبد شتى صنوف الصعاب والمشاق ، وهكذا غُلبت جند مراد بك ولم يبق فى أرض المعركة أحد من فرسانه ومشاته إلا الأسرى وجثث الشهداء .

وبعد أن غنم الفرنسيون ذلك الكم الضخم من الخيام والمدافع والأسلحة والذخيرة والتى تكفى جندهم لشهر أو أكثر ،[٦٢-ب] صوبوا نيران مدفعيتهم إلى البر الشرقى حيث جيش والى مصر وإبراهيم بك . وقد شاهد هؤلاء ما حل بجند البر الغربى من هزيمة وانكسار ، فدبت فيهم الفرقة والتشذر ، وقامت فيهم ضجة عظيمة مما حدث ولم

يأنس أحد منهم فى نفسه الطاقة على الثبات ، وعليه سار أبو بكر باشا وشيخ البلد وسائر الأمراء إلى جهة العادلية ، أما سائر الأهالى فعادوا إلى القاهرة ودخلوها أفواجا وقد استحوذ عليهم الخوف والفزع ، وكأنهم قد سيقوا والعياذ بالله إلى أرض المحشر ، واستبدت بهم الحيرة ، ولم يعرفوا أى طريق يسلكون وأى فعل يفعلون ، ولم يؤد أحد منهم صلاتى الظهر والعصر ، وما إن هبط المساء حتى أرسل والى مصر وشيخ البلد وسائر الأمراء والكشاف أغلبية من معهم من الرجال إلى المدينة لإحضار حريمهم وجلب أموالهم وأمتعتهم ، مما خف حمله وعظم ثمنه ، إلى جهة العادلية ، فأركبوا كثيراً من الحريم من ربات الصون والعفاف على الدواب الموجودة بغض الطرف عن كونها خيول أو جمال أو حمر أو بغال، [٦٣-١] وأخذوا كذلك كثيراً من الجوارى ماشيات .

وهرع جند القلينجية ممن هزموا فى البر الغربى فزعين إلى السفن الموجودة فى مرسى إمبابة ، ولما لم يكن لديهم القدرة على السير بتلك السفن جنوباً إلى بر السلامة ، فقد عبروا إلى البر الشرقى وأحرقوا تلك السفن جميعها كيلا يغتنمها الفرنسيون ، وكذلك لما بلغ مراد بك الجيزة بجنده المنهزمة أخذ فى تحميل ما خف وزنه من الأمتعة على الدواب ، وكان من قبل قد بنى سفينة عظيمة أدخرها ليوم عصيب كهذا ، شحنها بالأموال الوفيرة ولما مشوا بتلك السفينة قيد خطوات وبحكمة الله، تعثرت بهم فى الطين لقلة الماء ووقفت ، فأمر بها مراد بك فأحرقت وفر إلى جهة الصعيد بمن معه من الأتباع والخدم ، عملاً بقول :"من نجا برأسه فقد ربح" .

ولما تصاعدت ألسنة اللهب من هاتين البقعتين (الجيزة وبولاق) إلى عنان السماء ، [٦٣-ب] تطيّر بعض الأراذل ممن شاهدوا ألسنة اللهب تلك من بعيد وتوقعوا الشر دون أن يتبينوا حقيقة ما حدث .

وبعد أن وصلت حريم شيخ البلد ووالى مصر ، خرجوا من العادلية على هيئاتهم فارين متجهين إلى غزة بطريق الصحراء مروراً بالصالحية ، وأخذ مراد بك زوجته وجنده المنهزمة ومضى إلى جهة الصعيد ، وانحازت سائر الجند كلٌ إلى جهة ، فخلت الساحة للكفرة فاستولوا على الجيزة وبولاق واجتاحوا يدمرون الدور ويحرقون البيوت.

ولما انتشرت الإشاعات والأكاذيب بين الخلائق فى تلك الليلة بأن الفرنسيين بعد أن يستولوا على المدينة ويبيدوا أهلها عن آخرهم ، وينهبوا أموالهم سوف يحرقوها ويدمروها تدميراً؛ هاج الأهلون وماجوا وضج العامة : شيباً وشباباً ونساءاً وأطفالاً بالصياح والعويل ، فنزل شيخ السادات ونقيب الأشراف والعامة أجمعين رجالاً ونساءاً إلى الشوارع والطرقات وعمد كل من له دابة ، أياً كان جنسها ، فأركب عليها زوجته وعياله ، وحملها قدر طاقتها من المتاع . [٦٤-أ]

وغلا سعر الحيوانات بحيث اشتراها القادرون بخمسة عشر أضعاف ثمنها فى سائر الأوقات الأخرى ، فبيع الحمار الأعرج والبغل الضعيف ــ على نحو ما تحققتُ ــ بخمسمائة قرش واستؤجر حتى الصالحية بمائتين وخمسين قرشاً، ومن لم يحصل على دابة حمل أطفاله على كتفيه ، أما النساء فقد أخفين الحلى والجواهر فى أحضانهن ، وعُرضت للخطبة الكثير من الحسان ، ربات الصون والعفة ، واللاتى

يحاكين القمر والشمس جمالا ولم يرهن بشر ولا حدثهن إلا فى الخيــال ، وبنات يشبهن الحور ، كيلا يقعن فى أسر الفرنسيين .
محصلة القول إنها ليلة لا نظير لها فى ويلاتها ، وما أجدرها بأن تنطبــق عليها الآية الكريمة : { يــــوم يفــر المرء مــن أخيــــــه وأمــــه وأبيه وصــاحبته وبنيـــه }[1].
وإلى أن طلع الفجر فر عباد الله المسلمون من داخل القاهرة فمنهم مـــن سار إلى جهة الصعيد ، ومنهم من مضى إلى قرى الشرقية ،[٦٤–ب] ومضت الغالبية إلى (الخانكاه) للحاق بوالى مصر وشيخ البلد .
والخلاصة أنه باستثناء فئة قليلة أقعدهــم العجــز فــى مصــر القاهرة، فقد تفرق أهلها وتشذروا بدداً ، ولحكمـــة لا يعلمـــها إلا عــلام الغيوب واتفاقا لقضاء من لا معارض لقضائه ، ترصد لصوص العربان ـــ وهم أشد ظلما وضراوة من الفرنسيين ـــ الفرصة وخرجوا على جمـــوع المهاجرين حال وصولهم إلى المطرية فى طريقهم إلـــى (الخانكـــاه) ، فأثخنوهم تقتيلاً وهتكاً للأعراض ، وسلبوا أمتعتهم دون أن تأخذهم شفقة بأى شخص منهم ـــ وعلاوة على ذلك فقد ســـرقوا ثيابـــهم وعرّوهـــم ، وسلبوا ثياب النساء وفضحوهن وفسقوا بكثير من المساتير والمخدرات ، فلم يعد لهم وسعاً للفرار إلى بلد آخر ، فرجع كثير منهم إلى مصر حفـــاة عراة فى أسوأ حال وأسرع الباقون إلى الخانكاه كيلا يرون وجهاً واحـــداً من وجوه الكفرة ، [٦٥–أ] وأكثر حلى مصر وجواهرها وذهبها

---

١ – عبس ، الآيات : (٣٤، ٣٥ ، ٣٦).

انتهبه لصوص العربان فى يوم النهبة هذا ، فتحصل لأدناهم مال قارون .

وليلة نزوح الناس من القاهرة متشذرين متفرقيــن بــاتت كــل أبواب دورها مفتوحة على مصراعيها ، وبقيت أموال النـــاس وأمتعتـــهم مهيأة فى الخلاء بلا صاحب ، وكان هذا هو عين ما يتمنــــاه كثــير مــن العاطلين عن العمل والأراذل والأوباش والمقامرون فى مدينــة مزدحمــة مثل القاهرة ، فانتهزوا الفرصة وانتهبوا ما استطاعوا الوصول إليه ســن الأموال والمتاع بحيث لم يسلم منهم دار، وفجروا بمن وجدوهن من نساء المسلمين .

ولما أضحى النهار بشتى صنوف المصائب والبلايا ، سمع مــن قعد عن الحركة من العلماء وبعض الأعيان بما حل بعباد الله المـــهاجرين على أيدى العربان من ظلم وتعد ، وتبينوا أن الفرنسيين لم يعبروا إلـــى البر الشــرقـــى ، [٦٥-ب] فاجتمعوا فى الجامع الأزهر وتشـــاوروا فيما بينهم ، فقر قرارهم على أن يرســـلوا مبعوثـــاً إلــى ســر عســكر الفرنسيين . وعثروا على شخص مغربى يعرف الفرنســـية فأرســلوهما إليهم حاملين رسالتهم ، ولما وصل المبعوثان سريعاً إلــى ســر عســكر الفرنسيين ، لاطفهما وبش فى وجههما وكتب لهما رســـالة فــى طلــب الوجهاء والأشراف وطمأنة الناس وتأمينهم ، وأعاد المبعوثين أدراجهما. وكان نص تلك الرسالة : " من معسكر الجيزة لأهل مصر..

إننا أرسلنا لكم فى السابق كتاباً فيه الكفاية وذكرنا لكم أننا مـــا حضرنا إلا بقصد إزالة المماليك الذيــن يســتعملون الفرنســاوية بــالذل والاحتقار ، وأخذ مال التجار ومال السلطان ، [٦٦-١] ولما حضرنـــا

إلى البر الغربى ، خرجوا إلينا فقابلناهم بما يستحقونه ، وقتلنا بعضهم ، وأسرنا بعضهم . ونحن فى طلبهم حتى لم يبق أحد منهم بالقطر المصرى، وأما المشايخ والعلماء وأصحاب المرتبات والرعية فيكونون مطمئنين ، وفى مسكنهم مرتاحين ولابد أن المشايخ والشوربجية يأتون إلينا لنرتب لهم ديوانا ننتخبه من سبعة أشخاص عقلاء يدبرون الأمور ".

ولما وصل الجواب على هذا النحو اطمأن الناس وزايلتهم وحشتهم شيئاما ، وعلى الفور سار الشيخ مصطفى الصاوى والشيخ سليمان الفيومى وآخرون إلى الجيزة حيث مقر سر عسكر الفرنسيين فتلقاهم حفيا وبش فى وجوههم وقال: " أنتم المشايخ الكبار ؟ ، ولِم لَم تأتوا إلى الآن ؟ " .

فأعلموه أنهم ليسوا المشايخ الكبار وأن المشايخ الكبار خافوا وهربوا فقال : " لأى شىء خافوا ؟ اكتبوا لهم بالحضور الآن ". وأمرهم بتحرير مكاتبات بالحضور والأمان بأسماء الهاربين من العلماء والمشايخ ، ثم أرسلوها مع بعض الأشخاص ، وخرجوا من معسكر الفرنسيين مستأذنين من كبيرهم ، وعادوا إلى مصر بعد العشاء ، فاطمأن الناس برجوعهم وزايلتهم الوحشة .

ولما وصلت كتب الأمان إلى كبار المشايخ والأعيان المذكورين اطمأن شيخ السادات والشيخ الشرقاوى ومعظم الأهالى ، وعادوا إلى مصر ، ودخلوها أفواجا أفواجا . [٦٦-ب] أما عمر أفندى نقيب الأشراف (والروزنامجى) أفندى فلم يطمئنا ولم يحضرا ، ولحقا بشيخ البلد فى بلبيس فى معية كثير من الناس .

وفى اليوم التالى عبر الفرنسيون بأثقالهم وعدتهم من الجيزة إلى البر الشرقى إلى مدينة القاهرة ، ونزل بونابرت اللعين بقصر محمد بك الألفى فى الأوزبكية وهو الذى كان قد بناه الأمير المذكور حديثاً من عرق جبين الرعايا وأنفق عليه أموالا طائلة ، وفرشه بفاخر الأثاث ، وأقام عدد من كبار قادتهم كل فى دار مناسبة . أما غالب جندهم ، فقد مكثوا فى الجيزة ولم يحبذوا العبور إلى القاهرة فى عدة أيام ؛ كيلا يوقعوا الفزع والانزعاج بالأهالى .

وفى اليوم التالى لقدوم بونابرت القاهرة مضى إليه كافة كبار المشايخ والأعيان واجتمعوا به ، فعينوا عشرة من العلماء ، والقاضى ، وكتخدا والى مصر مصطفى أغا ، أعضاءاً للديوان ، وعينوا المدعو محمد أغا(أغاي مستحفظان) وولوا علي أغا شعراوى منصب والى الشرطة وحسن أغا منصب أمين الاحتساب وقلدوا ذا الفقار كتخدا المسكين كتخداوية بونابرت ، وقلدوا نصرانياً يدعى (فرط الرمان) منصب كتخدا مستحفظان ، إمعانا فى إذلال المؤمنين .[٦٧-١]

وهاجموا بعض بيوت الأمراء واستولوا على ما بها متاع ونفائس وتركوها مفتوحة ، فدخلها اللئام والأوباش ، ونهبوا ما تبقى فيها من متاع وباعوه بثمن بخس ، كبيع أشياء تساوى مائة قرش بقرشين ، فامحت كثير من بيوت العائلات وشملها البوار ؛ ولهذا ظلت الأسواق مغلقة ، ولم تزل الوحشة والفزع بالناس عدة أيام ، فنصبوا علم الفرنسيين على بيوت أعيان البلاد وأشاعوا بذلك الأمن والطمأنينة ، ثم علقوا مكاتبة أمان على بيوت بعضهم .

وبعد مرور نحو أربعة أيام على هـذه الحـال ، عـبرت جنـد الفرنسيين شيئاً فشيئاً من الجيزة إلى البر الآخر ودخلوا مصـر أفواجـاً أفواجاً ، وسكنوا البيوت الشاغرة فيها ، وأسروا غلمان بعـض أمـراء المماليك وجواريهم وزوجات بعـض الكشـاف وأتباعـهم ممـن بقـوا بالقاهرة، فحضر كبار المشايخ والأعيان وتشفعوا فى أسـرى المماليك وطلبوا إليهم كف أيديهم عن تلك الأفاعيل المستقبحة ، فقبلوا شـفاعتهم وأعتقوا تلك الجوارى بعد أن جردوهن من ثيابهن .

وإعتاقهم لأولئك الأسرى مراعاة لخاطر كبار المشايخ والأعيان فى وقـت كانوا فيه فى حكم الموتى ، تصرف حفظه الأهالى جميلاً لهم واعتـبروه رمزاً لحسن الوفاق .[٦٧-ب]

وتجمعت النساء المعتقات حاسرات ودخلن الجامع الأزهر عليهن زرق الثياب ، فأقمن فيه يأكلن من صدقات أهل الخير . وهؤلاء النسـوة كن منذ أسبوع يتقلبن فى أعطاف نعيم الأمراء والكشاف ، إذا بهن فـى غضون أيام قلائل صرن يأوين فى الجامع الأزهـر الشـريف ، حافيـات متسولات ، يأكلن من صدقات فاعلى الخير . ولما طالع ذلك أولو الألباب، اعتبروا من تلك الدنيا الغرورة الفانية .

وأثناء تلك الوقائع نادوا فى الناس : " من أخذ شيئا من البيـوت المنهوبة يأت ليحضره إلينا وإن لم يفعل وظهر بعد ذلـك أخذنـاه بأشـد العقاب ". فجمعوا بذلك أموالاً كثيرة ، حتى إنهم قبضـوا علـى شـيوخ الجعيدية وعذبوهم وحصلوا منهم على أموال جزيلة ، ثم أعدموهم .

أما زوجات الأمراء اللاتى لم يتعرض لهن أحـد ، فقـد علقـت بأنفسهم الوساوس ولم يعرفن الطمأنينة والسـكينة ، [٦٨-أ] وخفـن

من عاقبة الحال ، فحضرت السيدة نفيسة زوجة مراد بك وصالحت على نفسها وزوجات أتباع زوجها من نساء الأمراء والكشاف بمبلغ قدره مائة وعشرون ألف ريال فرنسي وسكن بيوتهن سالمات آمنات . وجمعوا كذلك أموالا كثيرة من بقية نساء المماليك تحت اسم غرامة الأمن والسلامة ، كما طالبوا الأهالى بالجياد والجمال والحمر والماشية ، فتحصل لهم حيوانات كثيرة . وفتحوا دكاكين سوق السلاح بحجة التفتيش عن الأسلحة ، ونهبوا منها الكثير ولم يكتفوا بذلك ، فاجتاحوا يهشمون أبواب كثير من بيوت المسلمين ووكالاتهم ودكاكينهم ونهبوا منها أموالا لا حصر لها ، ففزع الأهالى وخافوا خوفا عظيما .

ولم يمض يوم إلا وعاثوا فى البلاد ظلما وفسادا ، فمن قبل طلبوا سلفة مقدارها خمسمائة ألف ريال من تجار المسلمين والنصارى والقبط والشوام والأروام ، وتشددوا فى تحصيلها فعجز الأهالى عن دفع تلك الإتاوة وتشفع كبار المشايخ والأعيان وسألوهم تخفيفا ، فخففوها إلى النصف وأمهلوهم أياما لدفع النصف الباقى .[٦٨-ب]

وصول رسالة حجاج مصر

فى ٢٠ صفر وصلت من العقبة رسائل صالح بك أمير قافلة الحج المصرية وسائر حجاج المسلمين ، فمضى أرباب الديوان إلى بونابرت يطلبون أمانا لأمير الحج ، فامتنع ولم يجبهم إلى طلبهم وقال : " لا أعطيه ذلك إلا شريطة أن يأتى وحده ولا يحضر معه مماليك ولا جند، وإن كنتم تريدون إحضار الحجاج المسلمين إلى مصر فى أمن

وسلامة ، أرسل إليهم ببعض من جند الفرنسيين يوصلونهم إلى القاهرة".
فكتبوا إلى أمير الحج بذلك فلم تبلغه تلك الرسالة حتى أرسل شيخ البلـــد إبراهيم بك إلى صالح بك أمير الحج يخبره باستيلاء الفرنســـيين علـــى مصر ، وينصحه بالقدوم ومن معه من الحجـــاج إلـــى جهـــة بلبيـــس ، [٦٩-١] فاصطحب أمير الحج كافة حجيج مصر وكافة تجار الحجـــاز وساروا نحو بلبيس وبعد أن تلبثوا بها أياماً ، أرسل إبراهيم بك الحريـــم إلى الصالحية وارتحل هو ومن معه إلى المنصورة واكترى بعض الحجاج حيوانات فلاحي قرى الشرقية فأوصلتهم إلى بعض القرى المجاورة .
ولحق التجار الحجازيون في صحبة قليل من الحجاج بإبراهيم بك وتلبثت فئة قليلة منهم ببلبيس يترقبون ما سيكشف عنه ستار الغيب من عجـائب الحوادث .

زحف الفرنسيين على بلبيس

سمع الفرنسيون أن الحجاج والتجار ـ ممن لم يـبرحوا قـرى الشرقية بعد ـ في سبيلهم إلى اللحاق بوالي مصر أبي بكر باشا وشـيخ البلد ، وأن بعض الفارين من الأطراف والنواحي المجاورة في طريقـهم إلى الاتفاق مع بدو الصحراء ومشايعتهم .

وكيلا يجتمع شعث الأمراء المنهزمين ، عبأ الفرنسيون صفـوف فرسانهم بما حصلوا عليه من الجياد الوفيرة وأرسلوا تجريدة بمدافعـــها وأسلحتها لطرد المماليك وإبعادهم عن تلك الجـــهات ، ثـم لحـق بـهم بونابرت ، فمروا بقرى الخانكاه وأبي زعبل وطلبوا من الأهالي المئونـــة

فامتنعوا ، فقاتلوهم ونهبوا أموالهم ، وحرقوا دورهم . وفى اليوم التـالى قصدوا بلبيس واستولوا عليها بلا قتال ولم يتعرضوا مطلقا لمن بقى فيها من الحجيج والتجار ومن فر من القاهرة،[٦٩-ب] وأرسلوهم سـالمين آمنين إلى القاهرة فى خفارة طائفة من فرسان الفرنسيين ؛ وذلك بقصـد التظاهر بالعدل وأجابوهم إلى كل ما طلبوا ، فألقوا بذلك السـكينة فـى قلوبهم .

وأخبر بعض الأشخاص الفرنسيين بأن الأمراء فى المنصـورة ، أما حريمهم وأموالهم وأمتعتهم ففى الصالحية ، فاشـتعل تنـور طمـع بونابرت وجشعه، وزحف فى الصباح على جهات القريـن والصالحيـة ، واتصل ذلك ببعض الأشخاص فأرسلوا إلى شيخ البلد يخبرونه ، فترك من صحبه من الحجيج والتجار فى المنصورة وأسرع برجاله إلى القرين ولـم يطل مكثهم بها لئلا يكون الفرنسيون قد ساروا إلى جهة حريمـهم مـن طريق آخر ، وأسرعوا إلى الصالحية حيث التقوا بزوجاتـهم وأولادهـم فسروا بذلك كثيراً . ومن جهة أخرى حضـر اللصـوص إلـى الحجيـج والتجار الذين قدموا فى رفقة شيخ البلد ووضعهم على الطريق المـؤدى إلى المنصورة ، وغرروا بالمساكين فقالوا : " إن الفرنسيين لم يتعرضـوا مطلقا بالأذى إلى من وجدوه من الحجيج والتجار فى بلبيـس وأوصلـوه بسلام إلى مصر ونحن كذلك سـوف نوصلكـم إلـى القريـن ليرسـلكم الفرنسيون منها إلى القاهرة ". وحملوهم بأجور زهيدة حتى إذا انتصـف بهم الطريق انتهبوهم وسلبوهم ما فى حوزتهم من متـاع . وفـى تلـك النهبة احتوى اللصوص ثلاثمائة ألف ريال نقداً مـن أحمـد المحروقـى

رئيس التجار فحسب ، [٧٠-ا] ومثلها أمتعة ، وانتهبوا كذلك أمـــوال ومتاع سائر التجار والحجاج فجعلوهم فقراء معدمين .

وأقلع الفرنسيون عن بلبيس وانتهوا إلى القريـــن ، ووصلـــها كذلك أهل تلك القافلة المنهوبة ومثلوا بين يدى بونابرت وقصوا عليه مـــا حل بهم ، واشتكوا له من لصوص البدو ، فعنفهم قليـــلا قـــائلا :" ولـــم رافقتم الأمراء للمضى إلى المنصورة ؟ ". ثم طيب خاطرهم وهـــدأ مـــن روعهم وأرسلهم إلى القاهرة صحبة جنده .

ولا يزال الأمراء يقيمون فى الصالحية مع حريمهم وأموالـــهم ، حتى خرج عليهم لصوص بدو تلك الجهات وغرروا بـــهم فقـــالوا : " إذا خرج عليكم الفرنسيون فى هذه الجهة ، فسوف يصعب عليكـــم لقـــاؤهم ومعكم هذا القدر من الأطفال والنساء ، ومن ثم أنسب لكم أن تعجلوا عدة ساعات بلقائهم ونتولى نحن حماية أولادكم وحريمكم وأموالكم فى هـــذه الناحية ، ونضمن لكم ألا يصيبهم أى مكروه ". [٧٠-ب]

فوثق الأمراء بهم ومضوا جميعا للقاء العـــدو . فـــالتقوا بـــأحد فيالق الفرنسيين فى منتصف الطريق وكان قد تأخر مشاتهم بـــالمدافع ، فقاتلوهم بفرسانهم فحسب ، وإن كان فرسانهم فئة كثيرة إلا أنهم لم يكـــن لهم طاقة على مواجهة شجعان الممـــاليك ، فـــهجموا علـــى الفرنســـيين وشتتوا شملهم وسل شجعان فدائيى المماليك سيوفهم الدمشقية ، وأبلـــوا فى القتال فألحقوا الهزيمة والكسرة بالفرنسيين وأخـــذوا فـــى ملاحقـــة فلولهم، [٧١-ا] فإذا برسل الاستغاثة تحضر إلى المماليك وتخـــبرهم بأن البدو الذين تعهدوا بحراسة حريمهم ، قد نكثوا بالعـــهد واســـتباحوا أموالهم ونسائهم ، وتقاتلوا مع عدد من خواص الخدم المكلفين بحراســـة

الحريم ، ولما أخبروا المماليك بهذا أضاعوا من أيديهم قنصاً كان جاهزاً؛ إذ إنه فيما كان من الواضح أنه لا نجاة للفرنسيين من هذه الواقعة الطاحنة ، تسبب البدو المنافقين ، بما قاموا به من أعمال عدوانية فى ضياع أملهم . وعليه تحتم على المماليك العودة . وفيما كان أشقياء البدو يحتاطون بالحريم ويوشكون الانقضاض عليهم ، حضر المماليك وحملوا عليهم وقتلوا عشرة منهم ، فولت فلولهم مدبرة .

ومحصلة القول فإن الفرنسيين من جهة ولصوص البدو من جهة أخرى كانوا أعداءً ألداء للمهاجرين أولى بأس وشدة عليهم ، فافتقدوا الموضع الآمن فى البلاد المصرية وانسدت أمامهم أبواب الأمل من كل الجهات ، فارتحل الحاج أبو بكر باشا وكافة أمراء المماليك وأتباعهم ومن صحبهم من الجم الغفير من الفارين من أهل مصر وأولادهم وزوجاتهم من الصالحية قاصدين غزة بطريق صحراء التيه . [٧١-ب]

موقعة (أبو قير) البحرية بين الأسطول الفرنسى والإنجليزي وانتصار الأميرالّ الإنجليزي على الفرنسيين

يذكر المتبحرون فى أخبار الزمان من المؤرخين أن الأميرال نيلسون ــ أميرال الأسطول الإنجليزى ــ قدم الإسكندرية وأخبر أهلها بأن الأسطول الفرنسى قادم إليهم ونصحهم باليقظة وأخذ الحيطة دوماً ، ثم اتجه بأسطوله إلى سواحل الشام وتجول فى مياه حيفا وعكا واللاذقية والإسكندرونة ، فلم يعثر لأسطول الفرنسيين على أثر ، فقفل راجعاً ،

وعندما بلغ مشارف الإسكندرية أدرك من السفن الفرنسية الكثيرة الراسية على سواحلها أن الأسطول الفرنسى قدم واستولى الفرنسيون على الثغر ، فأخذه كل الأسف على ذهاب ما تكلفه من جهد فى البحث عن أسطول العدو أدراج الرياح .

ومع أن السفن الفرنسية صغيرها وكبيرها كانت راسية داخل ميناء الإسكندرية ، إلا أنه كان يضيق بالسفن ذات الإثنتى عشر عموداً وصارياً يبلغ عنان السماء ، فكان من الحتم أن ترسو تلك السفن فى مياه (أبوقير) . وكان هيكل تلك السفن من الضخامة والجسامة بحيث إذا وضع عدد من السفن والقوارب فى ركن من أركانها ، احتواها وكأنها صحراء وسيعة مترامية الأرجاء .[٧٢-١]

وهكذا كانت مواجهة سفن ضخمة من ذلك القبيل بالأسطول الإنجليزى ، الذى كان قوامه ثمان عشرة سفينة ما بين كبيرة وصغيرة ، يعد أمراً صعباً عسيراً ما لم يكن مستحيلاً ، فشاور نيلسون قادة سفنه فى الأمر ، ثم أسرعوا تواً يهاجمون مؤخرة السفن الفرنسية بغتة ، وهنا رفع الفرنسيون مرساتهم ، وخفوا للقاء سفن الإنجليز ، غير أن دوى المدافع التى أطلقت من كلا الجانبين أحدث ضجة عظيمة ، وحجبت أدخنة البارود الزرقاء الرؤية فوق صفحة البحر، فراحت السفن تشتبك مع بعضها البعض دون تفرقة بين عدو أو صديق .

ولما ارتفعت سحب الدخان وتصاعدت السنة اللهب فجأة من وسط سفن الأسطول الفرنسى وغرقت منها ثلاث سفن ضخمة بمن فيها ، ولما شاهد الفرنسيون السفن الإنجليزية تخترق أسطولهم وتشطره شطرين وتتجهز لتدمير ما على يمنتها ويسرتها من السفن ؛ أدركوا أنهم

هالكون جميعاً لا محالة بقذائف المدفعية إذا ما تشبثوا بالقتال ربع ساعة أخرى ، وسرعان ما نكسوا أعلامهم معلنين استسلامهم .[٧٢-ب]

وعندما شاهد الإنجليز هذا من حال الفرنسيين ، تمادوا في إذلالهم والتنكيل بهم ، ومن عاين هذه الواقعة من ميناء الإسكندرية من الفرنسيين فترت همته ووهنت عزيمته .

ولم يكتف الإنجليز بذلك ، فأرسوا سفنهم في مداخل ميناء الإسكندرية ومخارجه عن اليمين وعن الشمال وبسطوا سطوتهم وسيطرتهم عليه ومنعوا الدخول والخروج ، وحصروا الفرنسيين في ذلك الميناء .

عودة الفرنسيين من بلبيس إلى القاهرة بعدرحيل مراد بك وأتباعه إلى الصعيد ، وإبراهيم بك وأتباعه إلى غزة

ذكرنا من قبل أن بونابرت اللعين سر عسكر الفرنسيين خرج بعدة وفيرة من الجند يريد الشرقية ، فالتقت أحد فيالقه بإبراهيم بك ومضى الأمير المذكور إلى غزة ، بعدها عاد بونابرت أدراجه إلى القاهرة وفى اليوم التالى أرسل فى طلب المشايخ والأعيان ، [٧٣-١] واستفسر عن المولد النبوى ولماذا لم يعلموه كعادتهم ؟ . ولم يكن قصد بونابرت تعظيم النبى (صلى الله عليه وسلم) والاحتفاء بمولده ، وإنما كان يرمى من وراء ذلك إلى خديعتهم والمكر بهم، وجزم كبار المشايخ بذلك ، فتعللوا بتعطل الأمور وضيق الأحوال ، فأعطاهم ثلاثمائة ريال فرنسي وقال : " لا بد من ذلك " . وفى يوم المولد اجتمع الفرنسيون ودقوا طبولهم ودفوفهم وركنوا إلى اللهو واللعب . وفى اليوم التالى أرسلوا عدة عظيمة من الجند بأسلحتهم وعتادهم ومدافعهم تحت إمرة (ديزيه) إلى جهة الصعيد ، وصحبهم قبطي يدعى يعقوب ، عينوه لجمع المال .

وكانت زوجة المدعو رضوان الكاشف ، قد صالحت على نفسها بألف ريال وثلاثمائة وسكنت دارها آمنة مطمئنة فى عدد من جواريها ، وفى هذا الحين كبس حشد من جند الفرنسيين دارها واتهموها بإخفاء أسلحة وفتشوا الدار فعثروا داخل سرداب أو اثنين على أربعة وعشرين سروالاً وغير ذلك من الأمتعة المتعلقة بالعسكر ، وبارود ورصاص وشيئا كثيراً من الأسلحة ، علاوة على أنهم قد عثروا كذلك على صندوق به

دراهم ودنانير جزيلة ، فاحتووا كل ذلك وسبوا عدداً من الجوارى البيض والسمر وحملوا ذلك كله إلى ثكناتهم ، [٧٣-ب] وبعد أن احتجزوا تلك الجوارى لديهم ثلاثة أيام بلياليها سرحوهن وأعادوهن إلى دارهن .

وبتلك الحجة اقتحموا عدداً من الدور ونهبوا منها ما لا يدخل تحت الحصر من الأموال والأمتعة . وقلدوا مصطفى أغا كتخدا أبى بكر باشا ، الذى تلبث بمصر لم يبرحها ، إمارة الحج وخلعوا عليه فى المحكمة . وقسموا ضريبة المؤن على الأقضية المجاورة وحصلوها فى غضون أيام وبذا أنهوا أمر الضرائب .

ولما كان ناظر جمرك ثغر الإسكندرية لدى حضورهم إليها من قبل ، محبوساً لديهم ، فقد أركبوه حماراً وطافوا به وهم ينادون عليه ويقولون : " هذا جزاء كل من يخرج على الفرنسيين". ثم أعدموه رميا بالرصاص وصادروا كافة أملاكه وأمواله .

وفى اليوم التالى استدعى بونابرت كبار المشايخ وأعيان البلاد إلى مجلسه وأحضر عدة أوشحة ملونة بثلاثة ألوان هىالأبيض والأحمر والكحلى وطلب إلى المشايخ أن يلبسوها ، فوضع واحداً منها على كتف الشيخ الشرقاوى، فطرحه على الأرض وامتقع لونه وبدت عليه أمارات الغضب والحدة ،[٧٤-١] فقال الترجمان : "يا مشايخ إنما يقصد قائدنا التعبير عن محبته لكم وتعظيمكم وتشريفكم بين الناس والعسكر ". فقالوا له : "ولكن هذا الأمر يتنافى مع ديننا ومن شأنه إسقاط قدرنا وهيبتنا لدى إخواننا من المسلمين ، وعليه نحن جميعا نؤثر القتل والاستشهاد على أن نفعل ذلك ". وأبوا ارتداء ذلك النوع من الأوشحة ، فاغتاظ بونابرت وثارت ثائرته وقال : " إن الشيخ الشرقاوى هذا ، غير جدير بالرياسة ولا

يصلح لها "، ثم لج فى إلحاحه وقال : " لابد أن تضعوا (الجوكار) على صدوركم" . فقالوا : " أمهلنا حتى نتشاور فى الأمر فيما بيننا"، وخرجوا من مجلسه .

وفى اليوم التالى مضى بونابرت إلى شيخ السادات وغالى فى مجاملته ، فقبل يده تارة وركبته تارة أخرى ، وبعدها نادوا بوضع الشارات المذكورة المعروفة بـ (الجوكار) على صدور العوام كافة : شيبا وشبابا ، وعظماء ووضعاء . وبعد عدة ساعات ولحكمة لا يعلمها أحد نادوا من جديد بإبطال وضع تلك الشارات على صدور العوام وقصرها على الأعيان دون غيرهم .

وأرسلوا عدة من جندهم بمدافعهم وعتادهم على جهات الشرقية وفتكوا بمن صادفوهم من العربان .

وأرسل القائد (ديبوى) فى طلب زوجة عثمان بك الجوقدار ، بتهمة إرسال نقود وأشياء إلى زوجها الهارب مع فرَّاش ، [٧٤-ب] وعندما أخذها بالإرهاب والوعيد ، حضر عدد من العلماء والمشايخ وتشفعوا لها ، فلم تقبل شفاعتهم وأرسلوا فى طلب الفراش لاستجوابه ولما لم يجدوه قال له المشايخ : " خلوا سبيلها ودعوها تذهب إلى دارها وفى غد نأتى بها ونحقق فى القضية "، فرفض ، فوضعوا فى صحبتها بعضا من نساء المسلمين العجائز وباتت عندهم فى ركن الدار حتى الصباح . ولما أضحى النهار ، مضى العلماء ، المشايخ كافة إلى بونابرت وعندما أحضر ديبوى والسيدة والفرَّاش لم يثبت شيء عليها من تلك الدعوة ، فأطلقوا سراحها.

وفى اليوم التالى نادوا فى الناس بتنظيف الأسواق والدكاكين وإضاءة الطرق والسبل بالقناديل ليلا ، وقلدوا المدعو إبراهيم أغا قبطانية السويس ، وصحبه عدد من الفرنسيين ، فخرج عليهم العربان فى الطريق ونهبوهم وقتلوا القبطان المذكور ومن معه من الفرنسيين ، ولم ينج منهم أحد يأتى بنبأ ذلك ، فاستنطقوا عربان تلك الناحية وسألوهم عما حدث كيف حدث .

وأخرجوا كافة سكان القلعة من منازلهم وأنزلوهم إلى المدينة ليسكنوا هم بها وقتلوا رجلين بتهمة التجسس لحساب المماليك [٧٥-١] وطافوا برأسيهما وهم ينادون عليها ويقولون : " هذا جزاء من يأتي برسائل من المماليك " وبذا أرهبوا الأهالى وخوفوهم .

ونادوا على الناس بنشر ثيابهم بالأسطح ثلاثة أيام ، وتطهير البيوت من الداخل والخارج وتبخيرها بالبخور المذهب للعفونة .

شاع أن الفرنسيين شرعوا فى هدم الأضرحة والمزارات الواقعة فى الأوزبكية ، فتحزب الأهلون وتقاطرت جموعهم إلى باب بونابرت ، فنزل إليهم من أبلغهم بأن قائد جندهم لا علم له ولم يأمر به وهدأوا من روعهم وطمأنوهم .

كتب الفرنسيون كتابا على لسان المشايخ والأعيان ، ليرسلوه إلى شريف مكة ذكروا فيه أن الفرنسيين على الدوام من أحباء الدولة العلية ، وأنهم يعظمون الإسلام والقرآن ويجلون النبي (صلى الله عليه وسلم) وأنهم أوصلوا الحجاج المسلمين سالمين وأركبوا الراجل وأطعموا الجائع وتصدقوا على الفقراء والمحتاجين واحتفلوا بالمولد النبوى الشريف ، وأوفوا سائر الحقوق الإسلامية ولم

يصدر منهم ما يتعارض مع الشريعة الإسلامية الغراء .[٧٥-ب] ثـم طبعوا من هذا الكتاب عدة نسخ ونشـروها بعـد أن حملـوا المشـايخ والأعيان على التوقيع عليها .

تره أحد الفضوليين من الرجال بأن قال : إن المرحـوم الشـيخ أحمد البدوى بالشرق والشـيخ إبراهيـم الدسـوقى بـالغرب يقـاتلان النصارى.

واتصل ذلك ببونابرت فأرسل وقبض على ذلك الرجل ، ولما علـم كبـار المشايخ بهذه الحادثة من الناس ، وتشفعوا للرجل والتمسوا لـه العفـو ورجوا له الصفح على أنه مخبول ، فأطلقوه على أن يؤدب فى بيت شيخ السادات بمائة جلدة ، ثم أخلوا سبيله .

وعقد الفرنسيون العزم والنية على إرسال تجريدة علـى مـراد بك، فأرسلوا عدة كثيرة من جندهم تحت إمرة (ديزيه) الذى أنفـذ مـن قبل بمقدار من المدافع والأسلحة ، ولأنهم عدوا القضـاء علـى الأمـير المذكور وشيعته أهم آمالهم، فقد التقوا معه فتقهقر مراد بك برجاله إلـى الخلف فى أول الأمر ، فطمع فيهم الفرنسيون وتعقبوهم حتى إذا وصلـوا إلى سفح جبل (اللاهون) ، كر عليهم شجعان المماليك فجـأة ، وأبلـوا خير بلاء فى قتالهم ، وبهمة وشجاعة استدرج فرسان مـراد بـك جنـد الفرنسيين إلى كمين لم يفطنوا إليه [٧٦-أ] .

وعجز الفرنسيون عن صد هجوم غـزاة المسـلمين ، فجـأروا بطلب الأمان كعادتهم عند الهزيمة ، غير أن ذلك لم يجد أذنا صاغية مـن شجعان المماليك ، فأبادوا ثلاثة أرباعهم بسيوفهم الصارمة ، أمـا مـن

نجوا من القتل وتمكنوا من الهرب فقد خرج عليهم العربان وقتلوا أكثرهم، واستطاع ديزيه الهرب فى فئة قليلة من رجاله .

اندلاع الفتنة فى مصر ومقتل القائد ديبوى وطلب الأهالى الأمان بعد الحرب وانعقاد الصلح

ابتدع الفرنسيون ديواناً جديداً وأعلنوا للناس أنهم بصدد وضع قانون جديد حول أمور البيع والشراء والمعاملات وقسمة المواريث والنكاح وسائر الأمور الشرعية وذلك حسب أفكارهم وتدابيرهم ، [٧٦-ب] واستفسروا عن كيفية إدارة المقاطعات والأراضى والعقارات والبيوت والخانات والدكاكين والطواحين والوكالات والرُبُط ، وطالبوا الناس بإحضار حجج وسندات أملاكهم.

كما سألوا عن أمر المواريث قائلين : " نحن عندنا لا نورث الولد ونورث البنت ، لأن البنت ليست لها القدرة على العمل والتكسب مثل الولد ؛ وعليه عليكم أن تكتبوا لنا كيفية القسمة الشرعية لديكم " .

فحرر العلماء صورة مجملة فى اليوم التالى لكيفية قسمة المواريث وفق مبادئ الشرع الشريف ، وسلموها لبونابرت ، فترجموها له وأطلعوه على مفهومها الشريف ، فاستحسنها وأمر بتقسيم المواريث على نسقها ، ونبه على ضرورة تسجيل سائر عمليات البيع والشراء فى ديوان مصر ، وفرض المقررات على الدور والعقارات والدكاكين والخانات والربط وحتى الأضرحة والمقابر ، بحسب أحوالها وبحد أقصى

أربعين ريالا وحد أدنى ريالين ونبه على أدائها شهريا ، فسكت المشايخ وقد بهتوا وعادوا إلى ديارهم .

ولما أشيع ذلك فى الناس خرجوا خروجا عاما دون أن يتفكروا فى أنهم فى قبضة الفرنسيين الذين بيدهم الأمر بما لديهم من المدافع والعتاد الحربى والذخيرة ، [٧٧-أ] وعزموا على الجهاد والكفاح ، فحضر المدعو (السيد بدر) وبصحبته حشرات الحسينية وثلة عظيمة من المغاربة وهاجموا بيت القاضى وتبعهم خلق كثير من العامة وهم يهتفون : " نصر الله دين الإسلام ولعن الكفرة اللئام " ، فخاف القاضى العاقبة وأغلق أبوابه ، وعندما حاول الرد عليهم رشقوه بالحجارة وبدوا وكأنهم أعلنوا الحرب على الفرنسيين .

واجتمع بالأزهر كذلك العالم الأكبر ، وفى تلك الأثناء اصطحب ديبوى حشدا من جنده ومضى إلى دار الشيخ الشرقاوى للاستعلام عما يجرى ، ولما لم يجده فى داره ،[٧٧-ب] سار إلى بيت القاضى ودخل وسط الزحام فبادروا إليه وقتلوه فى نفر من جنده .

وعلى الفور تسلح الجميع وعمدوا إلى نصب المتاريس ، فخرج عليهم قليل من الفرنسيين ، فبادروا إليهم وقاتلوهم وفتح الجند المصريون نيران بنادقهم على الفرنسيين وقتلوا بعضهم وتعلق الباقون بأذيال الفرار فالتهبت حمية الغوغاء وأخذتهم الحماسة وهاجموا بيوت المغاربة والفحامين والفلاحين والأورام والقبط واعتدوا على العباد وقتلوا وهتكوا الأعراض .

وانقضت تلك الليلة والحال على هذا المنوال واتخذ الفرنسيون للحرب أهبتها فى القلاع والأبراج ، ووقفوا ينتظرون أمر سر عسكرهم ،

فأرسل بونابرت إلى المشايخ يستفسر عما حدث ، فلم يرجعوا جوابا ، علاوة على أن بعض المتهورين من العامة سلوا سيوفهم على جند الفرنسيين ، وهكذا اتسع نطاق القتال وحمى وطيس النزال حتى إذا حل وقت العصر أعطى بونابرت الأمر بالضرب ، فأطلق جند الفرنسيين قذائف مدفعيتهم وبنادقهم من القلعة وأبراجها على البيوت والحارات ، [٧٨-أ] ووالوا الضرب على الجامع الأزهر وسوق الفحامين ، فاستولى الفزع على بسطاء الناس من هذه الحرب التى لا عهد لهم بها ولم يشهدوا مثلها من قبل فى حياتهم ، فتشذروا بددا ، ومضى العلماء والمشايخ إلى بونابرت وطلبوا منه الأمان فانتهرهم وأشبعهم تأنيبا وتعنيفا على تأخرهم واتهمهم بالتقصير ، فاعتذروا له بأنهم لم يجدوا الفرصة من هجوم الناس، فقبل عذرهم ومنحهم الأمان وأمر جنده بكف أيديهم عن الضرب ، غير أن أهالى الحسينية والعطوف الخارجية ثبتوا على القتال حتى نفذت ذخيرتهم وغلب عليهم الفرنسيون وانتهبوا أموالهم ومتاعهم وقتلوا منهم خلقا كثيرا ، ثم دخلت طائفة من الفرنسيين الجامع الأزهر بجيادهم وربطوها فى قبلته منتهكين حرمة هذا الصرح الإسلامي العظيم .

وعلاوة على هذا فقد كسروا دواليب وأرفف الكتب وطرحوا ما بداخلها من نفائس الكتب والمصاحف أرضا وكأنهم بذلك[٧٨-ب] ــ حسب زعمهم الباطل ــ قد نالوا من قدر الإسلام وحقروه . ثم نادوا بعد ذلك بالأمان فى الأسواق وأظهروا تلطفهم بأمر الناس وأبطنوا لهم الحقد والعداء ، واجتاحوا يخربون عددا من الدور ويعذبون كثرا من المسلمين مختلقين الحجج والمعاذير.

وفى هذه الأثناء وردت مكاتبات من الجزار باشا وأمراء المماليك يعلمون فيها أهل مصر بأن الدولة العلية أعلنت أنها سوف تنفذ حملتين أحدهما برية والأخرى بحرية لطرد الفرنسيين من مصر ، وتحتم على المشايخ إخبار بونابرت بأمر تلك المكاتبات ، فلما طالعها عمد إلى مغالطتهم قائلا : " إن ذلك مكيدة من الجزار باشا والمماليك ، فالجزار وزير سفاح عاص للدولة العلية وهو يرمى من وراء ذلك إلى الاستيلاء على مصر ونهب أموال فقرائها وقتل الكثير من أهلها بالاتفاق مع المماليك " .

وبسبب ما اندلع من أحداث أوجس الفرنسيون خيفة ؛ فركزوا قواتهم وجمعوها حول الأزوبكية ؛ وصاروا يخافون الناس حتى إن شخصا منهم لم تكن له الجرأة على التجوال بلا سلاح ، وخافوا كذلك من التجول مثنى وفرادا .

[٧٩-١] عثر الفرنسيون فى أحد البيوت على عدة صناديق كانت لكريمة إبراهيم بك وكان بها كم هائل من الدراهم والدنانير والحلى فاحتووا كل ذلك .

وقاموا كذلك بدس السم لكلاب السكك والأسواق بحجة أنها تزعج الناس بنباحها، وهكذا لم تسلم حتى الحيوانات من شرورهم .

أيضا أقاموا دارا للفلكيين والرياضيين والمهندسين والنقاشين والرسامين والكتاب والمحاسبين والمصورين ، وأقاموا خارج المدينة طاحونا ، وشادوا الكثير والكثير من الأبراج وشحنوها بالجند المشاة والمدافع والأسلحة .

ومن قبل كان أهل السويس قد تركوا ديارهم لما بلغهم نبأ مجيء الفرنسيين ، فمنهم من فر إلى جبل الطور ومنهم من لاذ ببدو البادية . ولما مضى الفرنسيون إلى تلك الجهات ووجدوها خالية، نهبوا بيوتها وهدموا دورها، ولما سأل بونابرت اللعين عن إجمالى الدخل من جمرك ميناء السويس ، أجابوه بأن ذلك منوط بوجود أهل السويس ، وعليه اضطر إلى المسير إلى السويس على رأس حملة من نحو ستمائة من الجند بمدفعيتهم وعتادهم الحربى ، [٧٩-ب] وصحبه أحمد المحروقى وإبراهيم أفندى (كاتب البهار) وذلك من أجل منح أهالى السويس الأمان وإعادتهم إلى ديارهم ، فأرسل إلى الفارين من الأهالى فى جبل الطور لدى البدو وطيب خاطرهم بأن رد عليهم قدرا مما نهبه الفرنسيون من أموالهم من قبل . ثم تفقد الميناء ، ووقف على حالته بقدر الكفاية ثم قفل راجعا بمن معه إلى القاهرة .

ألقى القبض على ثلاثة من الفرنسيين بتهمة السطو على الدور ليلا ، وأحضروا إلى بونابرت فأمر بأخذهم بأشد النكال ، فاستعرضوهم رميا بالرصاص على مرأى ومسمع من الناس ، وفى تلك الأيام أنفذوا كتيبة من الجند الفرنسيين إلى (قطيا) على بعد مراحل ثلاث من الصالحية فى اتجاه الشام ، وهو موضع كثير النخل ، [٨٠-أ] فبنوا هناك قلعة ونصبوا متاريس ، وأسكنوا فيها قدرا وافيا من الجند بمدفعيتهم وعتادهم الحربى .

وفى تلك الغضون سيروا كتائبهم غير مرة على عربان الشوقية فاستاقوا كثيرا من لصوصهم أسرى واستخلصوا منهم ثلث ما انتهبه

أشقياؤهم من قوافل الحج ، ثم قتلوا نحو مائتين منهم ، وقتلـــوا كذلـك قرابة تسعين ممن ظفروا بهم ، وبذا ثأروا لقتلاهم فى واقعة مراد بك .

واتفق أن كان هناك شيخا شجاعا من المغاربة يقال له الشـــيخ الكيلانى وكان مجاورا بالحرمين الشريفين ، ولما جاء إليه نبأ اســـتيلاء الفرنسيين على مصر ، خرج مجاهدا فى سبيل الله، فتحلق حوله بعــض الأتباع من أهل الحجاز، وعبر بهم بحر السويس إلى القصير فالتف حوله ثلة من أهل الصعيد والمغاربة والفارين من المماليك ، ولما وصـــل ذلــك إلى الفرنسيين ، توجهوا إليهم خوفا مـــن أن يســتفحل أمرهـم ويكـثر جمعهم، [٨٠-ب] والتقى الجمعان وقتل كثير من الفرنسيين واستشـــهد كذلك عدد من الغزاة المسلمين ، وتشتت فلول المماليك والمغاربة .

ووقعت الحرب غير مرة بين البقية الباقية مـــن الحجــازيين والمغاربــة والفرنسيين، غير أنها كانت تضع أوزارها دون طائل .

وبنى الفرنسيون (كرنتيلة) فى بولاق ، ونبـــهوا علـــى نقـل المرضى إليها.

وصول خبر استيلاء الفرنسيين على مصر من جهة القاهرة إلى السلطنة السنية وعقد المشاورات فى ذلك الصدد

تأتى للدولة العلية العلم بما حدث مـــن خـــلال جملـــة رســـائل الاستغاثة التى وصلت إلى الباب العالى من والى مصر أبـــى بكـــر باشـــا وكافة أهلها . وقد عرض مجمل تلك الرسائل على السلطان ، ولما تحصل

له الوقوف على مضمونها أمر بعقد مشورة فى مجلسه للتشاور فى هذا الأمر ، وبذل الهمة لتطهير الأراضى المصرية المقدسة من دنس المشركين ولوثهم ،[٨١-١] فدعى الصدر الأعظم وشيخ الإسلام والقبودان باشا وسائر العلماء ورجال الدولة وقادة الجند إلى الحضرة السلطانية ، وأعلم الجميع بالباعث على الاجتماع وسبب المشورة ، فاستنكر جميع الحضور ما حدث واعتبروه تطاولا من أعداء الدين .

ولما كان الجميع يعرف حق المعرفة أن مصر بلد مترامى الأطراف وسيع الأرجاء ويصل البرين ويفصل البحرين ، ويلقب بأم الدنيا ويعد مفتاح الحرمين ومصباح القبلتين ؛ فقد أذن لهم حضرة السلطان بأن يقول كل منهم ما يعرفه وما يراه من تدابير صائبة للاقتصاص من العدو والثأر منه . فأجمل أهل الرأى المشورة ما ينبغى إجماله من اللوائح والمسودات وفصلوا ما ينبغى تفصيله منه وانتهت آراؤهم بالإجماع إلى أن الجمهورية الفرنسية منذ أن استشرت فتنتها وتعاظمت مفاسدها ما حاربت دولة من الدول النصرانية المجاورة لها إلا وقهرتها وأخضعتها لسيادتها ، [٨١-ب] وقد جاهرت الآن بعدائها للدولة العلية وأعلنت الحرب عليها .

ولما كان لا يخفى على أرباب الدقة وأولى المنطق الحصيف أنه من غير الممكن قهر أولئك الجمهوريين الذين ركبهم الغرور واحتواهم الكبر بإرسال قادة العسكر إليهم فحسب ، فالأمر يحتاج إلى تعبئة جيوش جرارة قوية العتاد ، لإرسالها برا وبحرا واستنفاد الوسع والطاقة لكسر غرورهم . بيد أن ذلك لما كان يتطلب تنصيب وزير قوى مقتدر ، سديد التدبير ، يعرف كيف يسوس الجند، وتدبير ما يلزم من المشاة والفرسان

من الروملى والأناضول لإرسالهم صحبته ، وتدارك كافة صنوف الأسلحة وآلات الحرب والذخيرة ، فإنه يتحتم علينا إعداد العدة لذلك واتخاذ الأهبة من الآن .

غير أن تعيين سر عسكر من الأناضول أو الروملى وإرساله إلى مصر لما كان سيستغرق أياما طويلة لبعد مسافة البلد المذكور ، [٨٢-١] فقد استصوبوا توجيه إيالة مصر إلى أحد وزراء الجزيرة العربية وتنصيب سر عسكر لمصر ، وتسيير فرسان دمشق وحلب وسائر البلدان العربية ، مع ذلك القائد ؛ وذلك كيلا تمتد يد العدو بالعدوان إلى بلاد الشام المتاخمة لمصر ريثما يصل السر عسكر المذكور .

ولما كان عبد الله باشا العظم ، الذى عزل من قبل من إيالة دمشق وإمارة الحج وأسندت إليه إيالة مرعش ، لم يبرح الشام بعد ، فإنه كان يجمع بين أسباب الوزارة من الكفاية والجدارة وحسن تدبير الأمور ، إضافة إلى كونه من وزراء الجزيرة العربية وتولى الوزارة منذ زمن بعيد كابرا عن كابر وتقلد إمارة الحج أبا عن جد ونشأ وترعرع فى الشام ، وعليه فقد كان وثيق الصلة بمصر بحكم مجاورته لها ومن ثم رأى الجميع إمكانية الاستفادة به فى أمر التخابر السرى والعلنى مع أهل مصر وطوائف عربانها ؛ ولذا صدر الأمر السلطانى بتوليته على مصر وتكليفه بالاتفاق مع سر عسكر مصر الوزير آتى الذكر .[٨٢-ب]

وقد رأى المؤتمرون كذلك فى اجتماعهم هذا أنه لا يوجد فى الجزيرة العربية وزير همام ، له المقدرة والحنكة العسكرية ، وتتوفر فيه الشروط اللازمة للقيام بمنصب سر عسكر مصر ؛ ومن ثم كان من الواضح أن أحمد باشا الجزار، والى صيدا وعكا منذ زمن بعيد ، كان قائدا محنكا

قديرا ، له الصدارة بين أقرانه وخليق بقيادة الجيوش فى هـذا الخطـب الجسيم .

غير أن الوزير المذكور كان متلونا لا يثبت على رأى ، به شىء من البطء والمطل ، ومن ثم فقد استصوبوا أن يرسلوا إليه فـى السـر لمعرفة رأيه فى إحالة سر عسكرية مصر إليه وإمـداده بـالجند والمـال والعتاد والذخائر ، حتى إذا ما اعتذر عن القيام بتلك المهمة ، عهدوا بـها إلى غيره من أهل الكفاءة والمقدرة،[١٨٣-ا] وبالفعل أرسلوا إليـه سريعا السعاة بالمكاتبات المفصلة على النحو المذكور.

بعدها لم يضيعوا وقتا ، وشرعوا يدبرون الأسـلحة والذخـائر وسائر آلات الحرب ، وابتدروا إلى إخراج المشاة والفرسان من الروملـى والأناضول وإنفاذهم، وصرفوا الهمهم لإشاعة الأوامر السلطانية اللازمـة لإعلام الجميع بإعلان الحرب على الفرنسيين .

ولم يمض وقت طويل حتى عادت السعاة الذين أرسلوا إلى أحمد باشا الجزار، وفى رده على أمر تقليده قيادة جيوش مصر اعتذر مختلقـا أتفه المعاذير وقال إن وجوده فى عكا حتمى وضـرورى؛ إذ إن طائفـة الدروز كانت متأهبة دوما للعصيان ، وعليه التمس إحالة مهمـة قيـادة الجيوش إلى وزير آخر مناسب.

ولما لم يكن فى تلك الجهات وزير شجاع ، حسن التدبير ، لـه القدرة على قيادة الجيوش فى هذا الخطب الجليل ، فقد آنسوا فى إبراهيم أغا ، الذى تولى محصلية حلب الشهباء منذ زمن بعيد وتولى قائمقاميتـها غير مرة ، الكفاية والجدارة ، وحسن تدبير الأمـر وحصافـة العقـل ؛ [٨٣-ب] ومن ثم منح رتبة الوزارة السامية إضافه إلى قيادة الجيوش

الزاحفة لغزو مصر ، ولما ظهر أنه يحتاج إلـى إيالـة الشـام لتسـهيل مهمته، أسندت إليه كذلك أمارة الحج وأدرجت فى مهامـه، هـذا وقـد صدرت الأوامر والتوصيات بإرسال طوائف الجند من الروملى والأناضول بالأسلحة وآلات احروب والذخائر فى البر والبحر إلى إبراهيم أغا لطـرد الفرنسيين من مصر ، وعدم السماح بأى شكل من الأشكال للركون إلـى التقاعس والتهاون فى تهيئة الظروف اللازمة للشد من أزره فى مهمته ، وإسراعه إلى مأموريته وسلك طريق الاتحاد مع عبـد الله باشـا الـذى أسندت إليه إيالة مصر هذه المرة ، وضبط أمور ما يرسل إليه من جنـد ومهمات حربية ، واستفراغ الوسع والجهد فى طرد المشركين من البقـاع المقدسة ، والمبادرة إلى إرسال كافة التقارير لازمة الإرسال إلى البـاب العالى على وجه السرعة .

وما إن اتصل بأحمد باشا الجزار نبأ استقرار قباء الوزارة علـى كتف إبراهيم أغا وتقلده إيالتى دمشق وطرابلس وإمـارة الحـج وقيـادة الجيوش الزاحفة لمهاجمة مصر ، حتى دبت فى نفسه نار الغيرة والحسد وأخذه الندم على عدم قبوله قيادة الجيش من قبل ، [٨٤-٥] فكتب إلى الباب العالى يكاشفه يصارحه بأنه سوف يقبل منصـب القيـادة العامـة للجيوش على ما تنطوى عليه من أعباء ، معتبرا أن إبراهيم باشا وعبـد الله باشا ليسا من رجال الحرب ، وغير جديريـن بتولـى إيالـة مصـر والقيادة العامة لجيوشها ، وأنه يحتـاج إلـى إسـناد كافـه المنـاصب المذكورة إليه لتقوية عضده فى مهمته .

وعليه بات من الواضح أنه سوف يظهر الحقد والعداء للمشـار إليهما إذا لم يسعف بطلبه ويجاب إلى حاجته ، كما أن منافسـة أولئـك

الوزراء لبعضهم البعض فى مقابلة الأعداء من شأنه أن يثلم صفوفهم ويغلب أعدائهم عليهم . وبناء على ذلك ومراعاة لأصول المصلحة العامة، صدر خط همايونى بإلحاق إيالات مصر ودمشق وطرابلس بإيالة صيدا ـ المتصرف عليها فى الأصل ـ وإسنادها إليه وتقليده منصب قيادة الجيوش المتوجهة لغزو مصر وإطلاق يده كل الإطلاق فى كافة الأمور ،[٨٤-ب] وأرسل إليه ما طلبه من الأموال والأسلحة والذخائر والجند بأكثر مما طلب.

قدوم يوسف ضيا باشا مقر الصدارة العظمى

تواترت الأقوال والروايات فى دعوة منصور اللواء ، شيخ الوزارة ، رب السيف والقلم ، معدن الجود والهمم ، فريد العصر ، فاتح مصر دار النصر، الوزير زينة الدنيا يوسف ضيا باشا الغازى ، إلى الباب العالى لتقليده منصب الصدارة العظمى على النحو التالى :

لم تكن هناك توصية من أحد أو تدخل فى دعوة ضيا باشا إلى منصب الصدارة العظمى ، غير أنه لدى مطالعة رجال الدولة لذلك الخطب الجسيم والحادث الجلل وبمقتضى الحكمة القائلة : " أرباب الدولة ملهمون " ، رأى البعض بألمعية أذهانهم أنه حتى ولو أسند إلى إبراهيم باشا وعبدالله باشا ولاية مصر وقيادة جيوشها ، وبذلا الاهتمام فوق المتوقع فى إعداد العدة اللازمة لدفع غائلة الفرنسيين عن أرض مصر ؛ [٨٥-أ] فإن طرد عدو عنيد ذى بأس مثل الفرنسيين بإرسال قادة العساكر ورؤسائهم ، أمر ليس فى الإمكان ، إذ إن دفع هذه العادية

وتسوية هذه الداهية الدهياء سوف يحتاج ــ على أية حال ــ إلى إرسال سردار أكرم بعتاد عظيم.

أما الوزير سعيد الطالع المتعين تنصيبه سردارا أكرم وتسييره إلى مصر، فينبغى أن يكون وزيرا شجاعا من أهل الحصافة والعقل ، قادرا على حل ما قد يستشكل من الأمور بفكره الثاقب وتدبيره الصائب ، قادرا على تدبير أمور المهمات والذخائر على خير وجه ، قادرا على سياسة الجند وربطهم وضبطهم .

ولما كان ذلك أمرا لا يخفى على أولى المنطق الحصيف ، فقد عددوا الوزراء واحدا واحدا ببنان الإنصاف ، ووزنوا كفاية كل منهم وقيموا معدنه لمعرفة أيهم كفيل بالاضطلاع بهذه المهمة وتسوية هذا الخطب العظيم ، فاتفق رأيهم على أن الغازى يوسف ضيا باشا والى أرضروم يفضلهم جميعا مائة ألف مرة فى كفاءته وجدارته بالصدارة العظمى . [٨٥-ب]

وبناء عليه ودون إفشاء هذا السر لأى إنسان ، صديقا كان أو غريبا، أرسلوا المير آخور أول لاسترداد خاتم الملك من عزت محمد باشا الصدر الأعظم ، ونزع الأمانة الكبرى من يده ، ثم صدر خط همايونى مبارك باستدعاء والى أرضروم يوسف ضيا باشا إلى مقر الصدارة العظمى ، أرسل مع الخاصكى أبيش أغا (الباش تيديل) إلى كبان .

[٨٦- ا] وفى ذلك الوقت كان ضيا باشا قد خرج بجيش كثيف إلى الجبال الشامخة المعروفة بجبال (وسيم) و(دوريك) التى يسكنها أشقياء الشيخ حسن والديسميين الأكراد لاستئصال شأفتهم والقضاء عليهم . وبينما كان مرابطا فى الوضع الذى يقال له (ترشمك) وكان

بصدد سوق الجند وإرسالهم على الأشقياء فى جهات شتى ، إذا به يسمع بنزول الخاصكى (أبيش أغا) بقرية على مسافة ساعتين من ترشمك ، ويعلم بجلية الأمر . [٨٦-1] فأرسل على الفور كتخداه فى نحو سبعة آلاف من المشاة والفرسان لاستقباله ، فقدموا به فى موكب حافل ، فخف إليه ضيا باشا مرحبا وتسلم منه الخط الهمايونى المبارك وانحنى له تعظيما ، وبعد أن فتحه ولثمه سلمه إلى كاتب ليقرأه على مرأى ومسمع من كبار رجال دائرته وطوائف جنده ، وعقب إعلان منطوقه الجليل عمت مظاهر البهجة والفرح وأطلقت المدافع والبنادق ، وخلع ضيا باشا على أبيش أغا خلعة فاخرة وأوسعه إطراء وإكراما ، وأرسل السعاة إلى شتى الجهات لاستدعاء الأجناد ، ومكث يومين بترشمك ريثما يستدعون إلى حضرته ، وأرسل محافظ (جارسنجق.) عبد الله أغا وكان رجلا شجاعاً ، على أشقياء الشيخ حسن والديسميين الأكراد ، وبعد أن أملى عليه وصاياه وتعليماته ، وسوى له الأسلحة والذخائر اللازمة غادر ترشمك عائداً بعدته وعتاده إلى كبان ، وعلى هامش تسوية مسائل المناجم الهمايونية وإدارتها لبث يومين آخرين بها ، وبعد أن أطلع على كافة أمورها وسدد كلا منها على النحو المطلوب ، عهد بوكالة المناجم إلى الحاج أحمد أغا ـ من رؤساء بوابى الباب العالى ـ وأملى عليه كافة الوصايا اللازمة والمتعلقة بأعمال المناجم، واستوقف كتخدا عبدى بك ليلحق به بحريمه وخزانته وأكثرية خدمه وقصد هو الباب العالى فى نحو مائة أو مائتين من خاصة خدمه .

ولما كان أهالى كبان كبيرهم وصغيرهم منذ سنوات عديدة وهم ينعمون بالعيش الرغد والأمن والسكينة فى ظل عناية ضيا باشا ، علاوة

على أن أغلبهم قد شمله بجوده وكرمه ، فإنه يوم مغادرتـه (كبـان) ، جزع أهلها وفزعوا وكأنهم قد دهوا بداهية ، فضجوا جميعـا بالصيـاح وجأروا بخير الدعاء له حتى بلغت أصواتهم عنان السماء .

وبعد أن ودعوه بلغ (سراي حق) على مسافة ثلاث سـاعات فأمسى بها، ثم طوى مراحل البطريق ، وحكيمى خان ، وآلآجـه خـان ، وديكلى طاش ، ويوم قدومه قرية (أولاش) ـ على مسيرة ست ساعات من سيواس ـ استقبله والى سيواس فى ثلة مـن رجالـه .[٨٧-أ] وحينما التقيا خف إليه والى سيواس لحظة ترجله عن فرسه يريد تقبيـل ذيل ثوبه ، فجذب ضيا باشا ذيل ثوبه تواضعا ، وبعد أن أجريت مراسـم الاستقبال والترحاب أنعم عليه وبره ، ثم وصل إلى قرية (أولاش)، وفـى اليوم التالى دخل سيواس برفقة واليها ، ونزل ضيفا عليه ، ومكث بـها يوما طلبا للمؤن ، وفى اليوم التالى خلع على الوزير المذكـور ونجلـه علاء الدين بك واستوفى الليل فى قرية (قارخين) .

وفى اليوم التالى نزل (توقاد) فلبث بها يوما . وفى اليوم الذى يليه سار إلى قصبة (تورخال)، ولدى وصوله صحراء (قاز آبـاد) ، استقبله محافظ (ييكى إيل) ومتصرف لواء (بوز أوق) عبد الجبار زاده سليمان بك وابنه عبد الفتاح بك فى نحو خمسمائة فارس ، ولما أسـرع عبد الجبار زاده يريد تقبيل طرف ثوبه السنى ، تلقـاه الصـدر الأعظـم ملاطفا وأخبره أن ذلك أمر لا يجوز لمن هو مثله ، وشرف بمرافقته فـى المرحلة المذكورة وقرية (أوز) ، وفى اليوم التالى خرج منـها قـاصدا مدينة أماسيا .[٨٧-ب]

وفيها أسبغ على عبد الجبار زاده جـوده وإحسـانه . ويـوم قدومه (مرزيفون آباد) قادما من أماسيا ، فإن المير المشار إليـه وإن يكن يعد من رعيل رؤساء بوابى الباب العالى ، فإنه كان وزيـرا عـالى القدر . ولما كان قد تفانى فى خدمة الدولة العلية فى كثير مـن الأمـور والخطوب ، فقد خلع عليه ضيا باشا فروا سموريا أفخم من فروه ذاتـه ، كما خلع على نجله عبد الفتاح بك وأتحفه بخنجر مزدان بالجوهر ، وبعـد أن ودعهما أذن لهما بالعودة إلى ديارهما.

ثم واصل المسير ، فقطع منازل عثمانجق ، وحـاجى حمـزة . ويوم قدومه (طوس) استقبله سيد محمد أفندى ـ من كبـار رجـالات الدولة العلية ـ وكتخدا البوابين فى الباب العالى ، وقد تقلد المشار إليـه منصب كتخدا بوابى الباب العالى منذ أمد مديد ، وذلـك لحسـن سـمته واستقامته فى مباشرته ،[٨٨-- أ] علاوة على إخلاصه وتفانيه فيما نيـط به من مهام ؛ ومن ثم كان لا يقاس بغيره من الأشباه ؛ فـهو متمـرس بخفايا الأمور وسابر لأغوارها ، منقطع الند بين أساطين رجـال الدولـة أولى الحصافة وحسن التدبير ، وعليه فإن احترامـه وتبجيلـه واجـب ولازم على أية حال ، فلم ينس ضيا باشا فى أى لحظة أن يرعى خـاطره ويتلطف معه ويبره .

وأقام يوما كذلك فى طوسيه ، ثم طوى منازل قوجه حصار وقره جه لر و جركش ، وبايندر ، وكره ، وعندما انتهى إلى قصبة (بولـي) ، خرج لاستقباله سلحدار الحضرة الشهريارية بخط همايونى مبارك ، وبعـد أداء الطرفين المراسم اللازمة وفى اليوم التالى خلع ضيا باشا على الأغـا المشار إليه ومن قدم معه من الأغوات على حسب مراتبهم ، ثم أعـادهم

سريعا إلى جهة الباب العالى بعد أن أغدق عليهم المنح والنفحات ، وبعد أن أقام صدر الصدور الوقور يوما فى قصبة (بولـــى) ، طـوى بسـط الإقامة وحول شكيمة مقاصده إلى الصوب المقصـــود ، وفــى الطريــق استقبله متصرف لواء (قوجه إيلى) حسين باشا ، من المــير مــيران ، والخزينة دار باشى عبدى بك ـ من موظفى تشريفات الديوان الـهمايونى فى الباب العالى ـ وشرفا بتقبيل قدمه .

[٨٨-ب] وبناء على القاعدة المرعية التى تنص على أن كافة ما يخلع من خلع وكسى بدءا من خروج الصدور العظام إلــى تشــريفهم مسند الصدارة العظمى ، يكون من خزانة المــيرى ، كــان الخزينــة دار باشى الأغا المشار إليه قد جاء بالكثير من الخلع ، غير أن ضيا باشا لــم يمد يده إليها وعفت نفسه عن قبولها بأى حال من الأحوال ، وكــان مــا بذله من منح وخلع ـ والتي لا تقع تحت حصر ـ مـــن صلــب مالــه ، وصان بذلك خزانة الميرى وأبى الإثقال عليها.

وأثناء الطريق لم يسمح لأى أحد من خدمه بتحصيل (آقچـــه) واحدة من الضرائب والمقررات ، فاستجلب بذلك دعاء الفقراء والرعيـــة له بالخير .

وبعد أن قطع مراحل دوسجه ، وحندك ، وضع أثقال سفره فــى مدينة (أرنكمى) ، وبعد أن لبث بها يوما ، مضى إلى قصبة (ككبوزه)، ثم قرية (مال دبه) حيث خلد فيها للراحة. وفى اليوم التالى الموافق ١٥ جمادى الأول تحرك ليلا بأمر السلطان كى يوافق وصوله ساعة مباركـــة محددة ، وبعد أن أدى صلاة الصبح فــى حديقــة (البســتاني باشــي) ، [٨٩-أ] استقبله القائمقام باشا وشيخ الإسلام أفندى وطائفة من كبــار

رجال الدولة العلية بجوار (عين الفراق)، وبعد أن نزل بخيمة الطعام التى أعدت بجوار العين المذكورة ، وتناول طعامه بها ، شرف المرفأ فى موكب حافل ، وركب السفينة التى هيئت فيه من قبل ، ومضى فى البحر ومعه شيخ الإسلام أفندى وعندما انتهى إلى جوسق السلطان على الساحل، أجريت له مراسم الوصول .

ولما مثل بين يدى الحضرة العلية السلطانية شرف بتقبيل طرف ثوبه المبارك ، فبره وأكرمه ، وجلس بالإشارة السنية ، وبعد أن لقنه السلطان بكافة الوصايا اللازمة ، أنعم عليه بخاتم الصدارة العظمى ، فتسلمه منه ضيا باشا ولثمه ، وقبل الأرض بين يديه ودعا له بدوام عمر دولته ، ثم خرج من مجلسه، [٨٩-ب] وشرف باب الباشا ومعه شيخ الإسلام .

ولما هنأه كافة أركان الدولة العلية وقبلوا ثوبه ـ جريا على القواعد والتقاليد المعتادة ـ خلع عليهم جميعا على حسب مراتبهم ، وعقب إجراء مراسم التهنئة طاف متنكرا ، فعاقب البعض ممن يستحق العقاب ، وكافأ من ظهرت نزاهته واستقامته من الموظفين .

فتح جزيرة قورفو وتوابعها

أعلنت الجمهورية الفرنسية الحرب من قبل على أكثرية الدول الأوربية المجاورة لها وانتصرت عليها جميعا ، واستولت بآلاف الحيل والدسائس على جزيرة (قورفو) وتوابعها التى كانت من قبل خاضعة لحكم البنادقة منذ قرون طويلة ، والواقعة داخل مضيق البندقية، ويقال

لها (الجزر السبع) ، وقد عين عليها الفرنسيون القادة الأكفاء فى عـــدد لا بأس به من الجند، علاوة على أنهم قهروا أهلـــها وخســفوا بـــهم ، ووضعوا عددا من القادة الكبار وعددا عظيما من الجند على كل قلعة مـــن القلاع الأربعة (بيراوزه) ، و (نبجه) ، و (بارغـــه)، و (بوجيـــترين) التى تقع على ساحل البانيا من سواحل الروملى التابعة للجزر المذكورة . [٩٠-١]

وإضافة إلى كون تلك الجزر قريبة جـــدا ومواجهـــة لســـواحل المورة وألبانيا، فإن بسط الفرنسيين نفوذهم على تلك القلاع على ســـاحل الروملى ، كان يعد تهديدا للممالك السلطانية ورغم هـــذا يزعـــم أولئـــك الملاعين دوما الوفاق والإخلاص للدولة العلية ويتظاهرون بأنهم من أكثر الدول ودا وإخلاصا لها .

وقد اجتمع أهل الرأى والمشورة فى الباب العالى لكى يتحاشـــوا وقوع غائلة أخرى بالسلطنة العلية ، وذلك بعد ما وصلتهم الأنبـــاء مـــن سكان الحدود الخاقانية بأن الفرنسيين بعد أن اســـتولوا علـــى مصـــر ، عمدوا إلى كثير من الحيل والدسائس لإحداث الاضطرابات والقلاقل فـــى ساحل الروملى ، وإرسال جواسيسهم سرا إلى نصارى الأرناءوط العصـــاة فى مناطق (سولوز) ، و(خماره) ، و (سيواسيل) القريبة من القـــلاع الأربع التى فى حوزتهم ، وربما أرسلوا كذلك إلـــى الرعايـــا النصـــارى المؤدين للجزية فى مناطق المورة ، ويانيه ، وقارلى إيلى ، وترخالـــه ، ويكى شهر ، وسائر تلك الجهات والنواحى ، يحرضوهـــم علـــى الدولـــة العلية ويحضوهم على الانقياد للجمهورية الفرنسية ، وبعـــد المشـــاورة أوصوا بإرسال (بطرونه) عبد القادر بك ، بسفن الأسطول الهمايونى إلى

مضيق البندقية ، [٩٠-ب] وتقليد (رائف محمـــود أفنــدى) نظـــارة الأسطول ، كما عهدوا إليه بالاهتمام بكافة أمور الجند المرسلين فى الــبر والبحر ، ومراقبة تحركات الجمهورية الفرنسية وســـائر دول أوروبـــا ، والمبادرة بإنهاء كل الأنباء المقتضية لتلك الدول وأمورهـــا إلـــى البـــاب العالى ، ولقنوه شتى الوصايا والتدابير اللازمة فـــى ذلـــك الخصـــوص . ورائف أفندى هذا هو أحد (سادة الديوان الهمايوني) ، والذى أرسل مـــن قبل فى سفارة إلى إنجلترا ومكث فيها أربع سنوات وقف خلالـــها علـــى كافة دقائق أحوال أوروبا ، وأصبح على دراية تامة بدسائس الأوربييـــن وألاعيبهم.

وعلاوة على ذلك فإن استطالة فرنسا على ممتلكات الدولة العلية فى نفس الوقت الذى تزعم فيه أنها صديقة حميمة لها ، أمر شجبته كافة الدول ، وعليه وبمقتضى ما تم من تحالف بين روسيا والدولة العلية فـــى هذا الشأن ، قامت الأولى بتعبئة عدد من القطع البحرية وأرســـلتها مـــع أميرال وعدد من القادة الروس ، وأعلنت أنها ليس لها غرض من ذلـــك سوى إبراز صداقتها للدولة العلية.

وبعد مطالعة هذا الأمر وبحثه من كل الوجوه ، اتفقوا رأيا علـــى إرسال تلك الإمدادات الروسية .[٩١-أ] مع (بطرونــــه بــك) إلـــى الصوب المقصود، وتأمير(تبه دلنلي علي) باشا ــ من المير مـــيران ، متصرف (يانيه) ــ على القوات البرية ، غير أنه فى تلك الأيام كان فى مهمة فى ناحية (ودين) ، فأعفى منها وأمر بالتوجـــه إلـــى الســـواحل الألبانية فى أقرب وقت ممكن .

ومن جهة أخرى وصل الأسطول الهمايونى والأسطول الروســى وضربا الحصار على قلعة (ضانته) ، وبعد عدة أيام من الاشــتباكات ، صبوا قذائف مدفعيتهم عليها وملكوهـــا ، وأســروا مـــن بداخلــها مـــن النصارى، فأصبح أولئك الأسرى عبرة لقلاع جوقه الكــبرى ، وجوقــه الصغرى ، وكفلونيه وايماوره ، فسلموا جميعا مفاتيح قلاعهم واحدة تلو الأخرى ، وعينت السلطنة السنية على كل منها مجموعة مـــن الضبــاط لضبط أمورها ، وبعد ذلك اســـتطاع الأســطول الــهمايونى والأســطول الروسى الرسو قبالة جزيرة (قورفو) أكبر الجزر الســـبع المذكــورة ، ومن جهة أخرى زحف (تبه دلنلى على) باشا من ودين إلـــى البانيــا، [٩١-ب] ولما لمس آثار القلاقل التى أحدثها الفرنسيون بيـــن رعايــا الدولة ، قام بإعدام عدد من رؤسائهم منتحــلا أتفــه المعــاذير ؛ وذلــك لإرهاب الرعايا النصارى وتخويفهم .

ثم أصدر الكتب إلى الأرناءوط يعلمهم أنه بصدد الزحــف علــى الفرنسيين، فتحصل له فى غضون أيام نحو عشــرين ألفــا مـــن مشــاة الأرناءوط ، ولما حمل بمن معه على قلعة (بيراوزه) ، تصدى لهم مـــن بها من الكفرة خارج القلعة وحاربوهم أحر قتال ، إلـــى أن هـــب نســيم النصر المبين من جهة المسلمين ، فقتلوا نحـــو ألـــف مـــن المشــركين واقتحموا القلعة مع من ظفروا بهم من الأسرى وقيدوا وثاقهم ، وغنمــوا أموالهم وأثقالهم ، وعندئذ اعتبر عصاة النصارى فى قلعتـــى (وينجــه ، وبارغه) ، مما لحق بنصارى (بيراوزه) ، فأرسلوا مفاتيح قلاعهم إلـــى على باشا ، وفر كذلك سكان قلعة (بوجترين) إلى ساحل قورفو ، بعد أن دمر قلعتهم البارود .

وهكذا فتحت السلطنة السنية القلاع الأربــع وملكتــها وعينــت عليها ضباطا أكفاء ، وقامت بتشييد كافة الاستحكامات اللازمـــة لتلــك القلاع ، وأرسل نحو ألف وخمسمائة من الرءوس المقطوعة ومثلهم مــن الأسرى مع مفاتيح القلاع المذكورة إلى الباب العالى .[٩٢-أ]

وهكذا دفعت غائلة تلك الجهات وبثت الطمأنينة فى قلوب سـكان المملكة الوجلة .

وفيما بعد جاءت البشريات بمباشرة فتح قلعـــة قورفــو وبــذل اهتمام كبير بحصر المشركين والتضييق عليهم مع تقارير عديـــدة مــن جانب محمود رائف أفندى ناظر الأسطول الهمايوني ، و(بطرونه) عبــد القادر بك وأميرال الأسطول الروسى و(تبه دلنلي علي) باشا .

ولما كان الأخير قد احتجز فى سجنه ثلاثة من كبار قادة الأسرى المذكورين ، وتسعة من الياوران فقد أبلغ ذلك إلى الباب العالى لمعرفـــة أى أمر سنى يصدر بشأنهم ، فأرسلت الخلع السنية إلـــى كافــة القــادة المسلمين ، كما أن التشريفات الجليلة التى أرسلت إلى مختار باشا مـــن المير ميران والذى أبدى بسالة وشجاعة فى بيراوزه ، أرسلت معى أنـــا (عزت حسن) ــ نامق تلك الحروف ــ وعــهد إلــى الصــدر الأعظـم بإحضار القادة الأسرى المذكورين إلى الباب العالى ، فأسرعت بتنفيذ مــا أمرت به.

ولما كان مختار باشا فى يانيه ، فقد خلـــع علـــى ،[٩٢-ب] والتقيت بعلى باشا فى قلعة بوچترين الواقعة فى محازاة قلعة (قورفــو) وخلع على هو الآخر ، وبعد أن حثنى على بذل موفور السعي فى مهمتي،

رجعت أدراجى إلى الباب العالى ومعى القادة الأسرى والياوران المتقـــدم ذكرهم .

بعد ذلك حاصر الأسطول الهمايونى والأسطول الروســـى قلعـــة قورفو من جهة البحر ، وتولى على باشا بمن معه من مشاة الأرنـــاءوط أمر حصارها من جهة البر ،ودام القتال على أشده ليل نهار ، واخـــترقوا صفوف الكفرة وشتتوا جمعهم ، وعلاوة على هذا أنزلت الأساطيل عددا لا بأس به من الجند إلى البر ، فبنوا طابية كبيرة خلف الجانب الأيسر مـــن القلعة ، وشحنوها بالمدافع والذخائر وأسكنوا بـــها عـــدة عظيمـــة مـــن المشاة، وأبلوا فى حصار القلعة والتضييق عليها بلاءا حسنا ، وغير مرة خرج المشركون على الغزاة المسلمين ، غير أنهم كانوا يولون الأدبار فى كل مرة ولا يخرجون من القلعة ثانية ، وامتد الحصـــار واشـــتد، وبنـــى المسلمون طابية أخرى فى الموضع المسمى (سانته لونه) ، فضـــاعفوا بذلك من حصارهم والتضييق عليهم.[٩٣-١]

وعلاوة على انسداد أبواب الأمل أمام المشركين من كل جانب ، فقد فتحت جزيرة (ويدو) المجاورة لقلعتهم والمقابلة لها وعندئذ ظـــهر جليا أن فتح قلعة قورفو وامتلاكها بات أمرا سهلا ، وهنا عبأوا سـبعمائة وخمسين من جند الأسطول الهمايونى ، ومثلهم من الرعوس وشـــحنوهم فى قوارب وساقوهم إلى الجزيـــرة المذكـــورة ، وبســـطت ســـائر قطـــع الأسطول أشرعتها وصبت نيران مدفعيتها من البحر علـــى المشـــركين ، وبعد أن روعوهم بقدر الكفاية ، لم يعـــد لـــهم القـــدرة علـــى المقابلـــة والصمود، وبهجمة صادقة شجاعة فتح الغزاة المسلمون الجزيرة عنوة ، وبعد أن قتلوا منهم الكثير ، ظفروا بمائة وسبعين من الأسرى . وفى ذلك

اليوم هاجم بطروته بك قلعة (صالو ادوره) ـ أحد أجزاء قلعة قورفو والواقعة بمحازاة طابية المير المرقوم ـ واستولوا على خنادقها واستمر القتال حتى أقبل المساء ، وفى الساعة الثانية من نهاية تلك الليلة ألقوا النار على مخازن البارود التى أعدها الكفرة من قبل ، فأهلكت ألسنة اللهب خمسمائة من الفرنسيين وأوردتهم بئس المورد ، [٩٣-ب] وهكذا نفذ الغزاة المسلمون هجومهم برا وبحرا على القلعة المذكورة وملكوها فى طرفة عين .

ولما رفعت أعلام النصر على أبراجها وأسوارها ، تحصن الكفرة المعاندون فى داخل القلعة . وفى النهاية بسط المسلمون سيطرتهم على كل القلعة فى الداخل والخارج ، ونصبوا عليها ضباطا من جهة السلطنة السنية .

وصف قلعة قورفو

كانت قورفو غاية فى منعتها ومتانتها ، والمعبر لسفن البندقية وروما وأنابولتان ، ومن ثم اعتبرت مفتاح أوربا وصارت مطمعا لكافة الدول ، فاستولى عليها البنادقة منذ أكثر من خمسة قرون وأحكموا عليها قبضتهم ، وشحنوها بما لا يدخل تحت عد من المدافع والذخائر وسائر آلات الحرب .

وعلى الرغم من أن سلطان عظيم ، وفاتح جليل مثل السلطان سليمان خان ـ تغمده الله برحمته وغفرانه ـ شحذ همته وشمر عن ساعده ومضى لفتحها بنفسه وشدد الحصار عليها بقدر الكفاية ، فإنه لم

يتيسر له فتحها . ولعدم استطاعة الجمهورية الفرنسية التغلب على تلك القلعة بالقوة ؛ فقد عمدت إلى الدسائس والحيل لبسط سيطرتها عليها ، [٩٤-١] وضاعفت من عدتها الحربية السابقة وزادت من أسباب متانتها ومنعتها ووضعت بداخلها أجناد كثيفة فغدت القلعة، وكأنها أتون ملئ بالنار .

وفيما كان الحال على هذا المنوال إذا بقضاء الله يجرى بأن تفتح القلعة المذكورة عنوة فى عهد سلطان البرين وخاقان البحرين ، مالك مفتاح القبلتين ، وخادم الحرمين الشريفين السلطان سليم خان ــ أدام الله دولته ما دام الزمان ــ وبهذه الغزوة الغراء استحق أن يذكر بلقب غاز على جميع المنابر .

وباعتبار القلاع الأربع والجزر السبع سالفة الذكر إيالة ، فقد أدخلتها الدولة العلية تحت رابطتها ببعض الشروط كجمهورية مستقلة تؤدى الجزية لها مثل (دوبره ونديك) ، غير أنه لعدم وقوفنا على تفاصيل تلك الشروط فقد ضربنا صفحا عن ذلك الباب .[٩٤-ب]

وجاء فى الكتاب المسمى (تقويم البلدان) أن (قورفو) جزيرة تقع فى بحر الروم بالقرب من شرق جبل (شيمر) ، وتبلغ مساحتها مائة وعشرين ميلا.

ولما كانت تعد بمثابة مفتاح خليج البندقية ، فقد جعلوها مستحكمة على الدوام ، ويطلق عليها (بره) ، و (ريتور) ، ويستخرج منها كميات هائلة من الملح ، وتسمى حاضرتها (كورفو) ، بمعنى الخليج ، وهى مدينة كبيرة تتوسط الساحل الشرقى ، وتعداد أهلها

نحو عشرين ألف نسمة ، وتبلغ فى الطول سبعا وثلاثين درجة ، وتبلغ فى العرض ثمانى وثلاثين درجة ونصف الدرجة .

توجيه إيالتى مصر ودمشق إلى
أحمد باشا الجزار

ذكرنا فيما مضى أن الجزار باشا لما اشتم أن النية متجهة فى الباب العالى إلى تقليده القيادة العامة للجند ، اعتذر بواهى الأعذار عن تلك المهمة ، وبناء عليه آل أمر القيادة العامة للجند إلى والى دمشق إبراهيم باشا ، فأخذ يعد العدة اللازمة لتلك المهمة وخرج من حلب الشهباء فى عدد من جند بابه ودخل دمشق ومكث فيها ، ونظرا للمجهود الكبير الذى بذله هو ومن معه من الجند لإعداد العدة والتوجه على جناح السرعة إلى المهمة المكلف بها ، فقد قلد ـ دفعة واحدة ـ [٩٥-أ] إيالة طرابلس ودمشق وإمارة الحج وهى مناصب تتوق إليها نفوس الوزراء ، كما عهد إليه كذلك بقيادة فرق (الجردة) والقيادة العامة لجيوش مصر ، فتوطد أساس مهمته .

وولى عبد الله باشا كذلك ولاية مصر ومضى فى نحو ألفين من صفوة الجند إلى غزة وأقام فيها يترقب قدوم إبراهيم باشا إلى تلك الجهات ، وقد زاد كل ذلك من هم الجزار باشا ، وشيئا فشيئا اتقدت فى نفسه نار الحقد والحسد وندم على عدم قبوله القيادة العامة للجيوش الزاحفة لمهاجمة فكتب إلى الباب العالى يصارحه بأن إبراهيم باشا وعبد الله باشا ليس أهل حرب ولا يصلحان لولاية مصر وقيادة جيوشها،

ويلتمس صرف المناصب المذكورة من عهدتهما وإحالتها إليه ، ويعرب عن استعداده قبول قيادة الجيوش شريطة إمداده بالجند والعتاد . [٩٥-ب]

وكان واضحا أنه فى حالة عدم قبول طلب الجزار باشا فإنه سوف يظهر التنافس للمشار إليهما ، ومنافسة أولئك الوزراء بعضهم البعض فى مقابلة الأعداء من شأنه أن يثلم صفوفهم ويغلب عليهم عدوهم .

وعلاوة على ذلك لما كان الجزار باشا منذ زمن طويل واليا ، مستبدا فى تلك الجهات . فإن كلمته كانت نافذة فيها وحكمه جاريا عليها، فإذا ما ركن إلى العصيان وإثارة القلاقل ، فإن نار الفتنة سوف تسرى إلى جهة مصر وكافة عربان البادية . ولما كان ذلك أمرا واضحا للجميع؛ فإنه رعاية لأصول المصلحة العامة صدر الفرمان بمنح إبراهيم باشا إيالة ديار بكر ، ومنح عبد الله باشا إيالة مرعش وأمرا بالتوجه إلى منصبيهما، وأسعف الجزار باشا إلى طلبه وألحقت إلى عهدته إيالات مصر ودمشق وطرابلس ، إضافة إلى إيالة صيدا التى كانت فى عهدته أصلا ، وقلد كذلك القيادة العامة لجيوش مصر وأرسل إليه المال والذخائر والعتاد والجند ضعفى ما طلب وسيق إليه نحو ألفين من صفوة الجند المشاة ، وإسعاف الجزار باشا بحاجته وإجابته إلى طلبه قد شد من أزره ، وإمداده بالجند الكثيرة عبد له الطريق كى يبلغ غايته .[٩٦-١]

ولصعوبة التغلب على العدو إذا هوجم برا فحسب ، فإنه كان من اللازم أن يهاجم من البحر كذلك ، ولذا أسندت إيالة الأناضول إلى الوزير المكرم (كوسه مصطفى) باشا متصرف (ترخاله) ، وحشد له عشرة

آلاف من مشاة الأناضول والأرناءوط وأرسل مزودا بكم من المدافع والعتاد الحربى والسفن ، وانتشر السعاة للتنبيه على الجند المأمورة بالركوب من ميناء سلانيك وذلك لسرعة توجههم إلى مهمتهم .

وفى هذه الأثناء تشفع الصدر الأعظم لدى الخليفة لمنح رتبة الوزارة السامية لـ (باسبان زاده عثمان باشا) ، و (دبه دلنلي) على باشا ، فأنعم الخليفة عليهما برتبه الوزارة .

ولما كانت رسالتنا المختصرة هذه تهدف إلى بيان الواقعة المصرية فحسب ، وكان الحديث عن مثل هذه النوعية من الوقائع خارج نطاق مهمتنا ، فقد تحاشينا الإسهاب فى تفصيل ذلك .

استيلاء الفرنسيين على سواحل بلاد الشام

بعد أن استولى بونابرت اللعين (سر عسكر) [٩٦-ب] الجمهورية الفرنسية على مصر ، واستوفى كافة الأسباب اللازمة لإحكام قبضته عليها ، عقد العزم والنية على الاستيلاء على بلاد الشام ، فخرج من مصر بعتاد قوى وعدة عظيمة من الفرنسيين وفئة من أسافل القبط والفلاحين والعربان ، وسلك طريق الصحراء يريد غزة ويافا .

ولما وصل خبر ذلك إلى الجزار باشا فإنه بسبب خوفه الدائم من طائفة الدروز ، وربما توجسه كذلك من الصديق والغريب وعدم ثقته حتى فى خاصة رجاله ، اعتقد أن عكا هى دار الأمان لا يحتمل أن يتزحزح عنها قيد أنملة ولذا أرسل خمسمائة من الأرناءوط والمرتزقة الترك من المشاة للدفاع عن قلعة العريش .

ثم أمر (بلوك باشى) مجهول النسب خامل الذكر يدعى (تكه لى قره محمد) على جيش من جند بابه وفرسان الديوانكان ومشاة الأرناءوط والمغاربة ويوسف أغا كتخدا المرحوم صالح باشا والى ديار بكر الأسبق ، وطائفة الأمراء المماليك الفارين من مصر والمقيمين فى العريش ، وعلى باشا عقيق سيد على الجزائرى ــ من الميرميران ــ ومن احتشد من النواحى والجهات المجاورة من الجند والبالغ عددهم فى المجمل سبعة آلاف من الفرسان والمشاة ،[٩٧-١] وقام بتزويدهم بقدر لا بأس به من المدافع والذخائر وآلات الحرب ، وأرسلهم للقاء الفرنسيين .

أما الفرنسيون فبعد أن شحنوا بعض عتادهم فى قوارب مصرية صغيرة أرسلوها إلى جهة سواحل يافا وعكا ؛ ساروا برا وبلغوا قلعة العريش فأحاطوا بها من جميع الجهات وعكفوا على ضربها بقذائف مدفعيتهم ليل نهار ، ولما تنامى ذلك إلى مسامع قائد غزة (تكه لى قره محمد) استبقى فيها ثلث من معه من جند الموحدين ، وبعد أن هدأ من روع أهلها وطمأنهم سار بباقى جنده إلى العريش لنجدتها ورابط بهم على ساحل البحر على مسافة نصف ساعة من قلعة العريش ، وأعلن لجنده أنه سوف يبادر إلى قتال الفرنسيين فى اليوم التالى ، أما الفرنسيون فلم يمهلوهم إلى الغد ، وداهموهم ليلا وقد جعلوا أرض المعركة تضيق عليهم بقذائف المدفعية وأعيرة البنادق .

وفى المقابل كان جند الموحدين قد قدموا من فورهم منذ بضع ساعات ليلا حيث لم تتح لهم فرصة التعرف على أرض المعركة ولم يعرفوا من أى جهة يجب أن يقابلوا الفرنسيين ، [٩٧-ب] علاوة على

افتقادهم القائد الكفء ذى الحنكة ؛ مما أدى إلى تشوش نظامهم واختلاط صفوفهم مشاة وفرسانا ، ولم يعد لهم طاقة على الثبات فى وجه العدو ، وفيما كان حالهم على هذا المنوال إذا ببعض حثالتهم يفرون من الوهلة الأولى ، فتبعهم سائر الجند وولوا مدبرين بلا قتال ، وقطعوا فى تلك الليلة مسافة خمس عشرة ساعة حتى استقر بهم المقام فى غزة .

ولما كانت كافة حريم أمراء المماليك وأثقالهم فى غزة فقد عولوا على نقلهم إلى جهة القدس الشريف لافتقادهم الإحساس بالأمن والطمأنينة فيها ؛ مما كان سببا فى ارتياع أهالى غزة وتزلزلهم ، فأسرعوا رجالا ونساء يأخذون ما يستطيعون حمله من أخف الأمتعة ففر بعضهم إلى خليل الرحمن والبعض الآخر إلى القدس الشريف .

واستمر الجند المحاصرون فى قلعة العريش يحاربون سبعة عشر يوما وتحملوا وطأة الحصار ، فى حين أن من قدم لنجدتهم من الجند قد فر بلا قتال من هول دوى قذائف المدفعية والقنابل ، ولما شاهد أهل القلعة ذلك منهم ضعفت نفوسهم عن المقاومة ولم يعد هناك احتمال لأن ينجدهم أولئك الجند المنهزمون فاضطروا إلى تسليم القلعة للفرنسيين ليلحقوا بالجند المنهزمة فى غزة ، واستولى بونابرت اللعين على قلعة العريش ،[٩٨-أ] وبعد أن أرسل من كان بها من المحاصرين إلى جهة غزة سالمين آمنين ؛ ترك بالقلعة مائة أو مائتين من الفرنسيين للمحافظة عليها ، وأسرع بكافة جنده لمهاجمة خان يونس، فوجدها خالية من سكانها ، فسار قاصدا غزة .

ولما علم جند المسلمين بمهاجمة الكفرة لغزة على هذا النحو أسرعوا لملاقاتهم خارج المدينة على مسافة ساعة من خان يونس

وتناوشوا معهم القتال، فاستشهد عدد من فرسان المسلمين وتقهقرت سائر جندهم ـ الذين افتقدوا التنظيم والقائد الكفء الذى يقودهم ـ إلى غزة ، ألا أنهم لم يتجاسروا على دخولها فاستبقوا الفرار إلى يافا ، ثم وصل الكفرة غزة واستولوا عليها بلا عناء ولا قتال.

وبعد أن احتووا ما وجدوه بها من المدافع والعتاد والذخائر ، زحفوا فى اليوم التالى إلى قرية (مجدل) ومنها إلى قصبة (الرملة) ، [٩٨-ب] ولأن سكانها كانوا قد فروا أجمعين ؛ فقد سقطت تلك القصبة، وسقطت كذلك قصبة (لوط) ، التى تبعد عنها بنحو ساعة ، وفى اليوم التالى شرعوا يحاصرون قلعة يافا ويضيقون عليها ليل نهار ، فاستبسل من بداخلها من الجند المشاة المكلفين بحراستها ، ومعهم من قدم من العريش وغزة بالإضافة إلى من أرسل من جهة السلطنة السنية من رجال المدفعية وبعض من المشاة المغاربة البالغ عددهم جميعا نحو خمسة آلاف من الجند ، وجلهم من المجاهدين الشجعان الأشداء ، استبسل هؤلاء جميعا فى الدفاع عن يافا واستفرغوا فى ذلك وسعهم وطاقتهم ونالوا كثيرا من الفرنسيين .

غير أنه قد وجد بين مشاة المغاربة جماعة من المنافقين تخابروا سرا هم وبعض السفهاء ممن قدم من مصر مع الفرنسيين ، ودلوهم على الطريق من خلال الثغرات التى أحدثتها قذائف مدفعية الفرنسيين فى أسوار القلعة ، وعليه اقتحم الفرنسيون القلعة ، فلما علم غزاة المسلمين بهذا وعاينوه اضطروا إلى تسليم القلعة غير أن الكفرة لم يقدروا تسليمهم هذا ، [٩٩-أ] فاجتاحوا المدينة ينهبون ويدمرون واستاقوا ما يربوا على ثلاثة آلاف من المجاهدين أسرى إلى أرض

حصباء بحجـــة إرســالهم إلــى مصــر ، وطوقــوا أولئــك المؤمنيــن واستعرضوهم بنيران بنادقهم من جميع الجهات فأبادوهم عن آخرهم .

ثم قام بونابرت بتقسيم جيشه إلى فرقتين أنفذ إحداها إلى جهــة القدس الشريف وسار بالأخرى وكانت الأكثر عددا إلى عكــا ، وبعــد أن استولى على حيفا بادر إلى حصار عكا دون توقف وضرب عليه حصــارا وبيلا ، فخرج الشيخ جرار أوغلو يوسف فيعدد من المشاة علــى مــن أرسل من الملاعين إلى ناحية القدس ، وسلبهم بعض مدافعهم وكشــحهم إلى جهة (جنين).

ومن جهة أخرى قدم عدد من جند دمشق مــع أغــا متطوعــى دمشق ، وفيلق ملاطيا وقائده عبد الجبار زاده ، وأخذوا يراقبون من بعيد النصارى فى محافظة (كنعان) ، [٩٩-ب] فانضم أولئــك النصــارى إلى الفرنسيين المحاصرين لعكا ومالئوهم على حصارها فعاد جند دمشــق أدراجهم .

وعلاوة على أن الجزار باشا لم يدخل جيش الفرسان إلى القلعة، فقد قطع عنهم الرزق والميرة وطردهم ، وأرسل إلى كتخدا بابه فى الباب العالى يخبره أنه يقاوم الحصار بألف وخمسمائة من المشاة فقط ولــهذا فهو فى حاجة إلى المدد من السلطنة السنية .

وقفل أمراء المماليك جميعا إلى دمشق مــع الفرســان الذيــن طردهم الجزار باشا ونصبوا تكنتين ليقيموا بهما .

تكليف السردار الأكرم يوسف ضيا باشا بالسفر إلى مصر وتعبئة الجيش الهمايوني

تقاطرت صيحات الاستغاثة من غزة والرملة ويافا من استيلاء الفرنسيين عليها واحدة تلو الأخرى بعد استيلائهم على مصر ، علاوة على هذا فقد استبان من الرسالة التى بعث بها الجزار باشا إلى (كتخدا بابه) فى الباب العالي ، أنهم حاصروا عكا عقب اجتياحهم للممالك المذكورة ، واتضح من فرط استغاثته واسترحامه أنه فى مسيس الحاجة إلى العون والنجدة .

وقد ظهر جلياً أن الفرنسيين سوف يعمدون بعد ذلك إلى غزو القدس والحجاز وبلاد الشام رويدا رويدا حتى يجتاحوا ديار الإسلام كافة ويقوضوا بنيان الدين وقد اجتمع رجال الدولة الأخيار فى دار شيخ الإسلام أفندي للتشاور فى ذلك الخطب ،[١٠٠-١] وبعد أن بحثوه برمته وفى سلخ شوال المكرم دعى الصدر الأعظم والقبودان باشا وكبار رجال الدولة إلى الحضرة العلية السلطانية، وحظوا جميعا بقسط وافر من بر السلطان وعطفه ، وأُخبروا بدواعى الاجتماع، وأطلعوا على تصرفات الفرنسيين الجائرة والمتجاسرة .

ولما أُذن لكل منهم بأن يفصح عما يعرفه فى هذا الشأن ، أورد أساطين أركان الدولة آراءً سديدة وتدابير حسنة منطقية تتفق مع المصلحة العامة وأصولها ، ولكن هناك من أورد تدابير غير منطقية لا يقبلها عقل ، وفى النهاية لما انتهت مداولاتهم ومشاورتهم إلى حيث

بدأت دون أن تسفر عن أى نتيجة ، وجه السلطان خطابه إلـى الصـدر الأعظم فقال :

" إن أساس دولتنا مشيد بخدمة الحرمين الشريفين وصـرح سـلطنتنا مؤيد بالمقصورة الشريفة لرسول الثقلين (صلـى الله عليـه وسـلم) . [١٠٠-ب] وإذا كان استيلاء المشركين على مصر وهى باب الحرميـن الشريفين ، قد آلمنا وأدمى قلوبنا ، فإن اقترابهم من القـدس الشـريف وتفكيرهم كذلك فى غزو الحرمين الشريفين كرب فوق كربنا وبلاء فـوق بلاءنا ، إن هذه السلطنة وهى الملك الفانى والعرض الزائل فداء لحفنـة من تراب الحرمين المباركين ، وسوف أجود بحياتى فى سبيل هذه الغزوة الغراء الجليلة ، وعليه إما أن أحمل بنفسى راية الجهاد أو تذهـب أنـت بالجيش الهمايونى للقاء الأعداء ".

ولما قال السلطان تلك الكلمات الحكيمة ، نهض الصدر الأعظـم من مكانه وخف يقبل الأرض بين يدى السلطان ثم قال والبكـاء يخـالط كلماته :

" مولاى السلطان إنك قادر منقطع النـد بيـن القـادرين ، ليحفـظ الله سلطنتكم من صروف الدهر وليدم ظلكم على العباد والبلاد كافـة ، فكـم من عصابة فاجرة مثل الفرنسيين ظهرت فجأة وشـملت الـدول بفتنـها وقلاقلها، وشتـتـت شمل جموعها وفرطت عقد وحدتـها ، [١٠١-أ] واستولت على الممالیك الإسلامية فى غضون أيام على حين غفلـة مـن أهلها ، وعليه فالحاجة ماسة إلى أن يتفضل مولاي السـلطان ويسـمح لعبده العاجز الذليل يوسف ضيا بأن يبذل جهده وطاقته ويتفانى فى سـبيل

جلالتكم . ولما كان من غير الجائز أن يتحرك مولاى السلطان بـــالجيش بنفسه ، فليأذن لعبده بأن يمضى هو بالجيش الهمايوني " .

ولما قال الصدر الأعظم ذلك معربا عما فى ضمــيره اســتصوب أركان الدولة رأيه ، وبناء عليه صدر الأمر من الخليفة بإنفـــاذ الصـــدر الأعظم بالجيش الهمايوني والبدء فى تسوية أمور السفر واتخاذ أهبته من ذلك اليوم ، فرفع إمام السلطان الأول ـ وكان من بين الحضور ـ أكــف الضراعة وطفق يدعو الله أن ينصر أهل الإسلام ويكسر أعـــداءه ، ثــم انفض المجلس . [١٠١-ب]

استيلاء الأسطول الإنجليزي على السفن الفرنسية أمام ساحل الإسكندرية

سبق أن حطمت السفن التى قدمت مع نيلسون أميرال الأســطول الإنجليزى اثنتى عشرة بارجة من بوارج الأسطول الفرنسى فى مينـــاء (أبو قير) ، وظلت فترة طويلة تسد مخارج ميناء الإسكندرية ومداخلـــه وتقف فى وجه الذاهب والغادى من الفرنسيين الملاعين وتقطـــع عليـــهم سبيلهم ، حتى لم يعد بمقدورهم التحرك قيد خطوة واحدة .

ولم يعد لهم كذلك قبل بالخروج للقاء العدو ، فخرجـــوا لصيـــد سرطان البحر من الساحل ولم يطق الإنجليز صبراً عليـــهم ، فحملـــوا ـ ذات يوم ـ خمسين مركباً من المراكب الموجودة فى أسطولهم ووضعـــوا فى كل مركب منها نحو عشرة رجال وأملوا عليهم الأوامـــر والوصايـــا الحربية اللازمة .

وفضلا عن أنهم شحنوا تلك المراكب بصنوف الأسلحة والقنابل، فقد كدسوا مركبين منها بالنفط والبارود واصطحبوا كل تلك المراكب ودهموا ميناء الإسكندرية خفية تحت جنح الظلام الدامس وأطلقوا مدافعهم على (مراكب النار) الفرنسية ،[١٠٢-أ] فأضرموا فيها النيران ، ولما عم الحريق كل سفن الفرنسيين ، لم يقع فى خلدهم أن ذلك خدعة حربية من العدو ، ولم يفطنوا إلى أنها مكيدة منه ، فارتاعوا وشملتهم الحيرة وفترت هممهم ووهنت عزائمهم ولم يسعهم إلا أن يفروا جميعا إلى بر الإسكندرية ، تاركين ما عكفوا على إعداده ـ منذ أمد بعيد ـ من السفن مختلفة الأحجام ، وما استولوا عليه من سفن المسلمين فى سواحل الإسكندرية ، نهباً للدمار والخراب.

وقد بدأ الحريق بإصابة مركب من مراكب النار المذكورة بجذوة نار ، فسرت فيها النيران واحدة تلو الأخرى وأتت عليها جميعها ، ولما وقعت النار على مخازن البارود ، سمع الرعد وشوهد البرق ، وغرقت جميع سفن الفرنسيين دون أن ينسحبوا إلى أسطولهم الراسى خارج الميناء .

وفى اليوم التالى بعد أن رأى الإنجليز السفن المحترقة عين اليقين ، ولما لم يعد للفرنسيين أية سفينة من شأنها الذهاب برسالة لهم، مضوا صوب المياه القبرصية للصيد .

[١٠٢-ب] ومع أن ما بذلوه من جهد كان لخدمة مصالحهم وأغراضهم الشخصية، فإنهم كذلك قد أسدوا خدمة جليلة للدولة العلية ، وفقهم الله تعالى إلى الهداية بالإسلام ، أو ليخفف عنهم عذابهم يوم القيامة ، آمين .

ورود الخط الهمايونى مع التشريفات السنية إلى السردار الأكرم يوسف ضيا باشا وتأكد خروجه بالجيش الهمايوني

نظرا لتأكد خروج الجيش براً وبحراً ، ولأن بر السردار الأكرم وإتحافه ببعض التشريفات وخط همايونى يتضمن بعض الوصايا ، سنة من سنن السلطنة السنية ؛ فقد انعقد الديوان فى الباب العالي فى ٥ من ذى القعدة ، وفى حضور رجال الدولة والجيش ، ورد خط همايوني من الذات السلطانية ـ زاهرة الشرف ـ فاستقبل الحضور الصدر الأعظم بالتعظيم والاحتفاء ، وخلعوا على كتفه فرو السمّور وعلقوا السيف المرصع بالجوهر فى خصره ، ثم فتحوا الخط الهمايونى وقرعوه على رءوس الأشهاد فشنف ما تضمنه من دراري الحكمة آذان أرباب الحمية، ودعوا بدوام عمر الخليفة ودولته ، ونصرة فرسانه، وشحذوا هممهم لإعداد العدة للمضى إلى القتال .

[١٠٣-١] وكان من بين رجالات الدولة المزمع رحيلهم مع الجيش الهمايونىكتخدا الصدر الأعظم سليمان بناه زاده عثمان أفندي ، ورشيد مصطفى أفندى الدفتردار، ورئيس الكتاب راسخ أفندي ، والمكتوبي سيد صادق أفندي ، وجمركجي حسن أغا أمين النزل ، وطوسون محمد أغا رئيس الجبجية ، وعمر أغا ـ أغا الإنكشارية ـ وصدرت التنبيهات والتوصيات لكل من هؤلاء تحثهم على بذل السعي والجهد للتأهب للسفر .

إخراج (طوغ النصر الآصفي) إلى صحراء حيـــدر باشـــا

لما حان وقت تسيير (طوغ النصر الآصفي) مستعينين بالله تعالى ومستمدين العون من روحانية رسوله (صلى الله عليه وسلم) ، وردت في يوم ٨ ذى القعدة أطواغ فرق الإنكشارية والجبجية على السحر إلى الباب الآصفى ، وعندما حلت الساعة المختارة ، خلع على عثمان أفندى كتخدا الصدر الأعظم ، فسر كذلك وابتهج ، ثم امتطى صهوة جواده وعبر البحر فى موكب عظيم وصحبته سائر أطواغ الفرق العسكرية ، ولما بلغوا صحراء حيدر باشا – التى كانت مخيما للجيش – قرأ الأئمة والمؤذنون الفاتحة ، ونحرت الذبائح ، ووزعت الصدقات على الفقراء والمساكين .[١٠٣–ب]

ثم أقيم فسطاط الصدر الأعظم فى ساحة ينشرح لها الصدر ، وأقيم عن يمينه فسطاط الكتخدا بك ، وعلى يساره فسطاط (رئيس الكتاب أفندي)، وبموجب قانون التشريفات ضربت خيام سائر الكتبة والموظفين وعينت كذلك مواضع مناسبة للفرق العسكرية ، وبين لكل منهم محله .

وبموجب قانون التشريفات كذلك خلع على من جرت العادة أن يخلع عليه ، ثم عادوا إلى الآستانة لاستكمال ما يلزم إعداده من العدة وآلات الحرب .

وفى يوم الخميس ٢١ من ذى القعدة ، مرت الكتائب المرتبة من الفرق العسكرية للباب العالي من تحت جوسق الموكب ، وخُلع على رؤسائهم وأجزل لبعضهم العطاء السلطانى ، ولما قدم أغا الإنكشارية نائباً عن الجميع تحت جوسق الموكب ، شرف بالدخول إلى الحضرة العلية السلطانية بواسطة كبير الشاويشية وكتخدا البوابين ، فخلع عليه ومضى بحراً متجهاً إلى صحراء حيدر باشا بعد أن لقن بالوصايا اللازمة، وعكف على بذل قصارى جهده لإنجاز ما كلف به من مهام .

وفى اليوم التالى وبترتيب بديع مرت فرق الجبجية والطوبجية والعربجية واللغمجية من تحت جوسق الموكب ،[١٠٤-أ] ومضوا إلى المخيم المعد لهم فى (حيدر باشا) بعد أن خلع على رؤسائهم وأنعم على بعضهم بالمال .

خروج السردار الأكرم إلى جهة أسكدار

بتوفيق البارئ ثم توجيهات السلطان أعدت أسباب الرحيل واستكملت المهمات الحربية ، ولما كان خروج السردار الأكرم بجيوش الموحدين للقاء أعداء الدين منوطا بصدور الأمر السلطاني الحكيم ؛ فإنه فى يوم ٥ ذى الحجة صدر الأمر السلطانى بحضور كل من القبودان باشا والقائمقام باشا وشيخ الإسلام أفندى إلى الباب العالى ، لمرافقة الصدر الأعظم فى أسكدار .

ولما وصل إلى الباب العالي نبأ تشريف الحضرة السلطانية لجوسق الموكب ، جاء السردار الأكرم على الفور ، وسر لذلك سرورا لا

نهاية له واستمع لوصاياه السنية فيما يتعلق بخصوصيات الرحيل وأموره، ثم خلع عليه خلعة سمورية ،[١٠٤-ب] وبعد أن خلع كذلك على مفتى الأنام فرو أبيض ، أقيمت مراسم الوداع .

وركب السردار الأكرم البحر مصوباً عنان عزمه نحو ساحل أسكدار ، فبلغها فى الموكب الذى كان قد أعد فى السابق ، وبعد أن شرف أرباب الموكب بتقبيل ذيل ثوب الصدر الأعظم ، بقى المسافرون ، وقفل الآخرون إلى الآستانة، وبادروا إلى أداء ما كلفوا به من مهام .

خروج السردار الأكرم من صحراء حيدرباشا متوجها إلى مصر

أقمنا مع السردار الأكرم عدة أيام فى صحراء حيدر باشا لاستكمال أسباب الارتحال ، وفى أيام إقامتنا تلك زف القبودان باشا والقائمقام باشا وكتخدا الركاب السلطانى ودفترداره وسائر رجال الركاب المستطاب وسائر خدمة الباب المقيمون فى الباب العالى وسفراء جميع الدول الذين يقيمون فى كنف الآستانة ، زفوا التهانى للسردار الأكرم وتمنوا له الظفر والنجاح . ولما أصبحت البعير والبغال، التى أعدت من أجل تشهيل الأمتعة والأثقال على أهبة الاستعداد ، لزم تحرك الركاب إلى الصوب المقصود ، ومن ثم وجريا على القاعدة القديمة ــ ابتدأ جيش الإنكشارية التحرك ،[١٠٥-أ] وردد الجند :

أى أمن للعيش لى فى منزل الحبيب

والجرس يـــدق قائــلا:إحمــــلوا أحـــمالكم

الغنـــاء وصــــوت الطـــبل يزين الدنـــيا

ونحن نمــضى إلـــــى محـــلة الحبيـــب

نحـــن فى رفقة نسيم الصبح نمضى إلى الربيع

نحن لا نذهب إلى مصر بل نذهب إلى منية القلب

وفى يوم ٧ من شهر ذى الحجة غادر السردار الأكرم منصـــور اللـــواء صحراء حيدر باشا ، وودع ضيا باشا وسائر رجال الدولـــة المســافرين معه، شيخ الإسلام مصطفى عاشر أفندى وقبودان دريـــا حسـين باشــا والقائمقام أبا بكر باشا . ولما أرخـــوا عنـــان عزمـــهم صــوب المـــنزل المقصود ، احتشد أهالى استانبول وأسكدار : رجـــالا ونســـاءا شــيوخا وصبيانا على جانبى الطريق الرئيسي وكأنهم البحـــر الخضـــم ورفعـوا أصواتهم بخير الدعاء قائلين : " الله يحرس مجدك العالي فســـر ، فــى حفظه فالله خير حافظ . "

[١٠٥-ب] وقد تابع السلطان (رفيع المقام) مسير الصـــدر الأعظم وسائر عساكر الجيش الهمـــايوني ، مـــن جــوسقه الواقـــع فـــى المكان المسمى (عين الفراق) ، ودعا لغزاة المسلمين بخير . وفى ذلك اليوم حططنا الرحال وأقمنا الفسطاط فى الطـــرف الأعلـــى مـــن قريـــة (مال دبه) على مسافة ساعتين وهى أول مـــنزل للجيـــش الـــهمايونى ، وصرفت لنا الميرة فى القرية المذكورة أيضا ، وفى اليوم التـــالي رفعنـــا الفسطاط من المحل المذكور وقصدنا (ككبوزه) علـــى مســـافة نصــف ساعة، ونزلنا بقرب حدائق الكرز المجاورة للبحر للاستراحة.

وفى اليوم الذى يليه زايلنا ذلك المحل وقطعنا مسافة نصف ساعة وحططنا الرحال بظاهر (ككبوزة) سابقة الذكر ، [١٠٦-أ] وبعد يوم آخر رفعنا لواء النصر وعرجنا على منزل (هركه) على مسافة أربع ساعات ونصف ، وضربنا الفسطاط فى سفح الجبل قبالة المرفأ ، وعلى جانبى الطريق على شاطىء البحر .

ثم خرجنا من هركه ، وفى الطريق خرج لاستقبالنا متصرف (قوجه إيلى) حسين باشا ـ من الميرميران ـ وبعد أن شرف بتقبيل ذيل ثوب الصدر الأعظم ، مضى برفقته من داخل (أزنكميد) فى موكب حافل ، ونزلنا خارج المدينة فى الساحة المطلة على البحر ، ومكثنا بها يومين لاستكمال ما نقص من البعير والدواب ، وأعيد سيد محمد أفندي ـ كتخدا السردار الأكرم فى الباب العالي ـ من هذا المنزل إلى الآستانة .

ولما كانت الأوامر العلية قد بثت فى شتى الجهات بشأن توارد رؤساء الديوانكان والتوفكجية إلى الجيش الهمايوني ، فإنه ما إن توصل بعلمهم فحوى الأوامر السنية حتى تقاطرت إلى الجيش الهمايونى حشود الديوانكان والتوفكجية الموجودة فى الأناضول والروملى من معابر استانبول وغاليبولي ، ووصلوا جميعا إلى الحضرة الآصفية فى ظاهر (أزنكميد) ، فخلع عليهم جميعا وصرفت لهم المرتبات والعطايا والأرزاق. [١٠٦-ب]

وكان من بين مشاهير رءوس الجند المشار إليهم : (سر چشمه) حسين أغا ، وسرت محمود ، وصقر أغلو ، وملاطيا لي أوغلو، وعرب سليم ـ من رؤساء الأدلاء الذين استخدمهم السردار الأكرم فى نواحي أرضروم والمناجم ـ وسيوسلى سليمان ، وأيوب أغا ،

وممش أغا ـ من رؤساء التوفكجية ـ والكثير والكثير من أمثال هـؤلاء من رؤساء الأوجاقات والأوده باشية ، وانضوى كل هؤلاء تحـت لـواء الجيش الهمايوني ، فزادوه سطوة وبسطا.

ومجمل القول أننا بعد أن لبثنا يومين بالمنزل المذكور ، تركنـاه وأقمنا المخيم فى بعض الأماكن المكشوفة داخل الغابة على مسافة سـاعة من (صبانجه) ، حتى إذا كان الغد عبرنا بحيرة صبانجه وسرنا من داخل القصبة متجهين إلى ساحل نهر سقاريا ، فبلغنا جسـر (كيـوه) بعـد مسيرة ست ساعات ، وأقمنا المخيم فى مقدمته .

وفى اليوم التالى نزلنا بمرج أخضر قبالة قصبة (آق حصـار) بنصف ساعة ،[١٠٧-١] وفى هذا المنزل قلد (كوجك راشد) أفندي أمانة الدفتر ، إذ إنه كان قد قدم مع الجيش الهمايونى برغبته الشـخصية دون أن يكلف بذلك ، فطيب ذلك كثيرا من خاطره .

ورود بشرى هزيمة الفرنسيين فى عكا فى حربهم مع الجزار باشا

ذكرنا فيما مضى أن بونابرت سر عسكر الفرنسيين بعد أن استولى على قلاع العريش وغزة والرملة ويافا ، فرض الحصار على قلعة عكا ، ونصب حولها المتاريس والطوابي وحفر الخنادق وعكف على ضربها بالمدافع والقنابل.

ومن قبل أحرق الأسطول الإنجليزي الأسطول الفرنسى بأكمله ودمره فى ميناء الإسكندرية ، وعندما سمع نيلسون أميرال الأسطول الإنجليزى ــ الذى كان قد مضى للصيد فى البحر الأبيض ــ أن الأعداء مضوا لغزو عكا ، وأنهم أرسلوا العتاد الحربى اللازم بالسفن فى البحو ، وجه القائد (سميث) إلى سواحل عكا لنجدتها ، فبلغها على جناح السرعة وأحاط ــ بما يشبه الحلقة ــ بسفن الأسطول الفرنسى الصغيرة التى نجت من مخالب الإنجليز والتى كانت راسية فى ميناءى عكا وحيفا ، [١٠٧-ب] وحمل عليها بلا هوادة فأغرق عددا منها واستولى على الباقى ، واجتث بذلك شوكتهم من رياض الإسلام ، علاوة على هذا فقد أرسى بعض قطع الأسطول الإنجليزى ــ التى تشبة الجبل فى ضخامتها ــ فى ميناءى عكا وحيفا ، وفرض حصاره عليهما .

أما من بداخل عكا فقد أرسل إليهم صنوف العساكر من شتى النواحي إضافة إلى ما عكف أحمد باشا الجزار على تجهيزه وتعبئته من قبل من الذخائر وآلات الحرب وأفراد المدفعية والعربجية ، فبات أمرهم

فى قوة من النجدات التى كانت تأتيهم كـــل يـــوم ، فحـــاربوا بشبـــجاعة واستبسال .

وخلال سبعة وعشرين يوما بلياليها دارت رحى حـــرب عنيفـــة طاحنة ، عمد فيها بونابرت اللعين من آن لآخر إلى حض جنـــده ومـــن صحبه من القبط ومنافقى البدو على اقتحام عكا ، فحملوا علـــى القلعـــة وأبراجها وأسوارها أربعين مرة ووضعوا سلالمهم عليـــها ، غـــير أنـــه بفضل غيرة المجاهدين وحمية الغزاة الموحدين ، أبيد كثير مـــن أولئـــك المشركين فى كل هجمة من هجماتهم .

[١٠٨-١] وفى اليوم الخامس والخمسين من الحصار اغـــتر الكفرة بقوتهم ، فتسللوا ليلا إلى المتاريس والطوابى الموجـــودة خـــارج القلعة ، ونفذوا إلى داخلها ، مهاجمين الأمة المحمدية ، ثم ألقـــوا النـــار على لغم كبير كانوا قد زرعوه تحت البرج المسمى (برج علي) فنسفوه بأسواره وتأتى لعدد من أولئك الكلاب النفاد إلى داخل القلعة .

وفيما كانوا على وشك الاســـتيلاء عليـــها ، تكـــاتف عســـاكر الموحدين بفضل روحانية سيدنا فخر المرسلين (صلى الله عليه وسلم) ، مرددين قول :

كل من يهرب من صفنا ليس رجل حرب
ذلك الذى لـــم يقـــتل ليـــس منـــــا

وأعملوا فيهم سيوفهم وأصلوهم نيران مدفعيتهم وأحلوهم دار البـــوار . وقبل أن تتسبب الهجمات المتعاقبة للفرنسيين فى تشتت أحوالهم ، أضرم المسلمون النار فى لغمين كبيرين كانوا قد أعدوهما ، فـــتزلزلت الأرض وطارت الأبنية بأساسها فى الهواء وحل ألف من الفرنسيين الجحيم .

وقد ثبت أنه في ليلة الاقتحام ــ فحسب ــ قد أطلقت خمســـون ألف حزمة بارود ، ويتضح من هذا الإحصاء مقدار ما أطلقته المدافع من مقذوفات ، ولأن عشر ما أطلقته المدافع لم يخطئ هدفه وأصاب أجســـاد العدو المحتشد ، فإنه عندما نزن الأمر بميزان العقل والمنطق نعلم علـــى وجه اليقين كم هلك من الفرنسيين ، [١٠٨-ب] ولما كان عـــدد مـــن حصدهم المسلمون بسيوفهم لا يقل عن عدد من قتلوهم بشرر نيرانـــهم ، فإننا نجزم بأن من هلك من المشركين فاقت أعدادهم الحصر .

وبعد هذه الكرة أرسل بونابرت اللعين مكاتبة باللغة العربية إلـــى الجزار باشا بعقد الهدنة حتى ترفع جثـــث القتلـــى، ويتبـــادل الطرفـــان الأسرى؛ فما كان من الجزار باشا إلا أن طرد مبعوثى بونابرت وأبـــى إلا الاستمرار فى القتال ، وفى تلك الأثناء حمل الفرنسيون مجددا على القلعة المنكوبة وقد تأتى لبعض فدائييهم التسلل شاهري سيوفهم من الثغـــرات التي فتحت في أسوار القلعة ، فتلقاهم عدد من شجعان الموحدين وأبلـــوا فى صدهم حتى أتوا على آخرهم بسيوف الجـــهاد فـــى طرفـــة عيـــن . [١٠٩-أ]

واتقدت الحمية فى قلب من شـــاهد تلـــك الوقعـــة مـــن ســـائر المجاهدين الموحدين ، وأثناء تمزيقهم للفرنسيين ، ووسط أصداء التكبير المنبعثة من كل مكان ، قدم حسن بك متصرف رودس ومعـــاونو القـــلاع التسع وأجناد أزمير البواسل ، فتحصل للمجاهدين من ذلك قـــوة فتيـــة ، فتعقبوا الأعداء حتى متاريسهم ونالوا من أكثرهم وأوردوهـــم الجحيـــم . وبهذه الخسارة دب التشتت والتضعضع فى صفوف العدو وأيقنوا أنهم إذا ما أمسوا فى أماكنهم فإنهم حتما سيصبحون طعما لسيوف المجاهدين .

وبلغ عدد قتلى الفرنسيين ـ حسب الإحصاءات الرسمية ـ عشرين ألف قتيل ، هذا وقد جزت رأس عدد وافر من قادتهم وضباطهم ، فانحلت عزائم من بقى منهم حيا وضعفت نفوسهم عن القتال ، فأسرعوا تحت جنح الظلام الدامس لتلك الليلة ، يفجرون كافة ذخائرهم ويتخلصون من أمتعتهم ويدفنون آلاتهم صعبة الحمل ، وفروا حتى طلع عليهم النهار فى يافا ، فهدأ روعهم شيئا ما وتنفسوا الصعداء ، وأيقنوا أنه إذا ما تنامى ما حدث إلى مسامع جند الإسلام الأشداء المحتشدين فى دمشق والقادمين لمؤازرة إخوانهم من المجاهدين ، فإنه لن يسعهم التحصن فى قلعة متهدمة كقلعة يافا ،[١٠٩-ب] كما أنه لن يكون لهم قبل بصد الجند الموحدين ، وأدركوا أنهم إذا ما فارقوا يافا وتعقبهم أهل الإسلام ، فسوف تدوسهم سنابك خيل المسلمين وتحصدهم سيوفهم فى هذه الصحراء المترامية حتى مصر ؛ وعليه لم يتوقفوا لحظة ، واستحضروا ما تركوه من حراس فى قصبتى الرملة ولوط وأسرعوا بالفرار إلى غزة ، ولم يتجاسروا كذلك على التوقف بها ، وذهبوا عنها ظنا منهم أنهم مطاردون ، وتركوا من نال منه التعب وأعياه النصب منهم فى الصحراء ، وتخلوا كذلك عن جرحاهم فى الطرق واعتصموا بقلعة العريش ، وبعد أن استبقوا بها نحو خمسمائة من جندهم وما يلزم من الذخائر وآلات الحرب ، نقلوا عتادهم وأثقالهم إلى مصر .

وقد وردت طائفة من رسائل البشرى بذلك مرفقة بأربعة عشر رأس من رءوس كبار قادة الفرنسيين ، وثلاثمائة رأس من رءوس ضباطهم مع (باش جوقدار) الجزار باشا إلى مخيم الجيش الهمايوني فى (آق حصار) ، فأطلقت المدافع والبنادق يوما كاملا ابتهاجا وسرورا ،

ونفح السردار الأكرم (الباش جوقدار) المذكور خمسة آلاف قرش وخلع عليه سمورية فاخرة ، [١١٠-أ] وأنفذه على جناح السرعة إلى الركاب السلطاني ، فسر السلطان سرورا جما بتلك الأخبار ، وقد كان من قبل في ترقب وانتظار لرسائل البشرى بالفوز والنصر ، فخلع على (الباش جوقدار) خلعة سمورية فاخرة وزين رأسه بطرة مزدانة بالجوهر.

ولما كانت شجاعة الجزار باشا ـ التي أسهمت في رفع الروح المعنوية للجيش الهمايوني وتقوية عضده ـ محل تقدير من السلطان ، فقد أرسل إليه خطا همايونيا متضمنا الثناء والإطراء ، وثوبا من فراء السمور وطرة مزدانة بالجوهر وخمسمائة كيس من الآقجه ، وذلك بخلاف ما بعثه إليه من قبل من أموال للإنفاق على الأمور العسكرية .

وأرسل السلطان كذلك إلى (دباغ زاده) قاضي الجيش خلعة فاخرة ، كما أرسل إلى كل من محمد أفندى (دفتردار) الجيش ، وحسن بك (متصرف) رودس ، و(أوخريلى إسماعيل) بك رئيس البوابين فروا وطرة مزدانة بالجوهر ،[١١٠-ب] كما بعث إلى أميرال الأسطول الإنجليزي ثوبا ثمينا من فراء السمور وثرية قيمة على سبيل الهدية .

شجاعة الجزار باشا ودوره البطولي في هذه الحرب

لا يمكن بأى حال من الأحوال إنكار نجدة الدولة العلية للجزار باشا ، ودعمها له بالمال والعتاد والرجال ، وما ظهر من موازرة الأسطول الإنجليزي الإنجليزي له في الدفاع عن السواحل وتدمير أسطول

الفرنسيين، وعدم تهاونه فى قطع كل إمدادات كانت تأتى إليهم ، بيد أنـــه فى أولى أيام الحصار لم تكن النجدات قد وصلت الجزار باشـــا ، وبينمـــا كان محاصرا فى عكا فى فئة قليلة من المشاة ، إذا به يتصـــدى ببســـالة وشجاعة لهجمات أعداء الدين المتعاقبة ، وما أمطروا به عكا من وابـــل قذائف مدفعيتهم وبنادقهم ووطيس الحرب يشتد معهم ليل نهار ويدوخـــهم من جهة القلعة .

وبعد أن طالت أيام الحصار بالمناوشات والاشتباكات عن كثـــب وعن بعد هلك ثلثا الفرنسيين وأدبر الباقى فى ذلة وانكسار تائـــهين فـــى الصحراء . ومع أنه منذ اندلاع نيران فتن الجمهورية الفرنســـية وهـــم يتغلبون فى نهاية الأمر على أية دولة صغيرة كانت أو كبـــيرة تحـــاربوا معها ، [١١١-أ] وبهذا أرهبوا كافة دول الشرق والغرب ، وفى الوقت الذى اتضح فيه أن الجميع يائسون من محاربة الفرنسيين ومصاولتـــهم ، إذا بالجزار باشا بفئة قليلة من جنده وبعد طول محاصرة ، يلطخ وجـــوه أولئك الملاعين بالعار وينال من هيبتهم واعتبارهم.

وإذا ما تأملنا ذلك ووزناه بميزان الإنصاف ، وجدنا أن الجـــزار باشا أنسى اسم (رستم) من الدنيا وأسكت راوى قصـــص (جمشـــيد) و(عنترة) ، واستحق رأسه أن يزين بطرة مرصعة بكثير من الجوهـــر ، وكان خليقا بكل إطراء وثناء لقاء تلك الخدمة التى أسداها للدين والدولة.

غير أن سيرة المذكور لم تكن على وتيرة واحدة ، وكان شخصا غريب الأطوار متلون ، يخشى الصديق خشيته للغريب ؛ ومن ثم صـــدرت عنه بعض الأحوال الخرقاء التى أخذت علية بخصوص غزو الفرنســـيين لبلاد الشام ، مما ألصق شرفة ومجده بالرغام.[١١١-ب]

ومن أبرز تلك الأحوال أنه حقد على إبراهيم باشا وعبد الله باشا وكان سببا مستقلا فى طردهما من الجزيرة العربية وإبعادهمـــا عنـــها ، وكانا وزيرين لكل واحد منهما ما بين ثلاثة إلى خمسة آلاف من صفـــوة الجند ؛ ومن ثم خلت الساحة للفرنسيين ، فداخلهم الطمع فى الاســتيلاء على بلاد الشام .

وثانى تلك الأحوال أنه فى الوقت الذى دبر فيه ذلك القـــدر مـــن الجند الكثيفة ، أرسل بلوكباشيا فى عدة مئات من المشاة إلى قلعة هامـــة مثل العريش كانت تعدّ مفتاحا لسواحل بلاد الشام ، وحينما لزم تنصيـــب قائد على نحو سبعة آلاف من المشاة والفرسان ـ أرسلهم كذلك إلى غزة ـ لم يكن بجانبه شخص كفء يعهد إليه بهذه المهمة بســـبب مـــا هـــو مترسخ فى طباعة من الغدر والعنف ؛ وعليه عين رجلا أبله لا حنكة لـــه فى دروب القتال ، ولا دراية له بتدابير الأمور يقال له (تكـــه لـــى قـــره محمد) ، وأنفذه .

[١١٢-١] وبسبب سوء تدبير ذلـــك القـــادة التافـــه وقعـــت الهزيمة والانكسار على جند المسلمين فى الوهلة الأولى ، وقتـــل كثـــير منهم ، وهذا ما ذكرناه فيما مضى .

مما يؤخذ عليه من سيئات كذلك أنه لما وصل عكا نحو ثمانيـــة آلاف من الفرسان بعد استيلاء الفرنسيين على غزة ويافا ، لم يقدم لـــهم الجزار باشا حبة قمح واحدة ، علاوة على أنه طردهم جميعا ولم يســـمح لهم بالبقاء فى عكا ، وطالبهم بالمضي إلى جهة دمشق ، وآثـــر البقـــاء محاصرا فى نحو ألف من المشاة بينما عاد إلى دمشق ذلـــك القـــدر مـــن الفرسان خزايا مشتتين لا صاحب لهم ولا قائد.

وحينما كان جند إقطاعيات إيالات سيواس ومرعش وديار بكر والرقة وحلب ـ الذين تواردوا إلى دمشق وتعبأت صفوفهم فيها بأمر وتكليف من الدولة العلية ـ وفيلق فرسان سيواس وقائده عبد الجبار زاده وحسين أغا متسلم عينتاب وشريف باشا ، والى حلب ، ومن احتشد من دمشق وحلب وسائر تلك النواحى والجهات من الجند البالغ عددهم فى المجمل نحو عشرين ألفا من المشاة والفرسان ، حينما كان كل هؤلاء فى دمشق على أهبة الانضمام للجزار باشا وممالأته على لقاء الكفار ، إذا به يقطع الميرة والمؤن عمن معه من الجند ويشتهر بين طوائف الجند أنه قال إنه لا حاجة به لجيش من الخارج ، ومن ثم تحير ذلك القدر من الجند وتوقفوا جميعا بدمشق لا يعرفون أى طريق يسلكون، [١١٢-ب] ومن بعد عندما لحقت الهزيمة بالفرنسيين أمام عكا بعناية الله تعالى ، لم يكن هناك من الفرسان من يتعقب فلول العدو ، فرحلوا سالمين ، وكان الجند الفرسان سببا فى اجتياز عساكر الملاعين صحراء يافا ووصولهم إلى مصر .

ولما كان بحوزة الجزار باشا من المؤن والذخائر ما يكفيه لعشر سنوات من الحصار ، فإنه لو منح الفرسان المحاصرين المؤنة والميرة ، وأمرهم وقتها بقطع السبل على فلول الفرنسيين ومداهمتهم من الخلف ليلا فى جهات شتى ، لما كان هناك جرم من أن يأتى كذلك الجند المحتشدون فى دمشق للانضمام إليه، ومهاجمة الفرنسيين ، وبذل طاقاتهم فى أمر تعقبهم ومطاردة فلولهم عند هزيمتهم، ولبات من السهل اليسير إبادة كتائب الفرنسيين (أعداء الدين) والقبض على كبيرهم بونابرت ولدفعت غائلتهم فى الوهلة الأولى .[١١٣-أ]

قدم الآستانة (الباش جوقدار) الـــذى أرسـلـه الجـــزار باشـــا بالبشرى إلى الركاب السلطانى ، ولما وصل إلى الجيش الـــهمايونى مـــن بعد لقته السردار الأكرم بعض الوصايا والنصائح اللازمة ، وأرسل معـــه رسالة ملاطفة وإطراء مع خنجر مرصع بالجوهر .

أخـــبر الســـــردار الأكـــرم مـــن قـــبل بخـــروج والى الأناضـــول (كوسه مصطفى) باشا بنحو عشرة آلاف من المشـــاة بسفينة لإرسالهم من جهة البحر ، فأرسل إليه السردار الأكـــرم رســـالة مطولة يعظه فيها ويوصيه ، ويحذره بألا يغتر بهزيمة الفرنسيين علـــى ذلك النحو؛ فيقوم بمهاجمة السواحل المصرية وينزل جنده إلى برهـا ؛ إذ إن حيل الفرنسيين ومكائدهم غنية عن التدليـــل أو الإتيـــان بـــالبراهين . وإنه برغم هلاك الجم الغفير من جندهم ، فإنهم لا يزالون فئة كثيرة لـــم يفت كثيرا ما حدث فى عضدهم ،[١١٣-ب] ولو حدث والتأم شـــتات العدو وثأر لنفسه ونال من شرف السلطنة وهيبتها ، فإنه ســـوف يبـوء بوخامة الدنيا والآخرة ، وأمره بالمضى بمن فى معيته من الجنـــد إلـــى سواحل عكا والاتصال بالجزار باشا القائد العام للجند ، والانتظار ريثمـــا يصل الجيش الهمايونى إلى تلك الجهات .

وهكذا أعلن السردار الأكرم صراحة اعتزامه الخروج إلى مصـــر بالذات وعلى وجه التخصيص ، بيد أنـه " لا يمنع حذر من قـــدر " وظـــن الوزير المشار إليه (مصطفى باشا) أن الفرنسيين لحق بـــهم الانكســـار الشامل ، فمضى ـــ دون أن يأتيه الجيـــش الـــهمايوني ـــ لفتـــح مصـــر وتطهيرها من لوث المشركين دون تبصر بعاقبة هذا الخطـــب العظيـــم ،

وأسرع بإيعاز من بعض السفهاء ـ من تلقاء نفسه ـ إلى مهاجمة السواحل المصرية وإنزال جنده فى بر (أبو قير).

[١١٤-أ] وسيكون لنا عما قريب إن شاء الله لبثة على ما ألحقه بنفسه من ظلم وخسارة وما جره على مجد السلطنة السنية من خزى وعار ، ولنرجع من جديد إلى ما كنا بصدد الحديث عنه .

فى ٧ من شهر المحرم خرجنا مع السردار الأكرم من آقحصار ، وانتهينا إلى سهل (لفكة) على مسافة أربع ساعات ، فضربنا فيه فسطاطنا ، وفى اليوم التالى خيمنا على ضفة النهر الجارى من القصبة المعروفة بـ (خان الوزير) على مسافة أربع ساعات .

وفى اليوم التالى قطعنا مسافة ست ساعات وخيمنا قبالة قصبة (سكود) ومكثنا فيها يومين حسبما اقتضى الحال . ولما كان (المير آخور) ثان أسعد بك كلف من قبل بحشد الجند من نواحى الأناضول وإيصالهم إلى دمشق ، فقد رجع بعد أداء مهمته فى المرحلة المذكورة وقبل الأرض بين يدى الصدر الأعظم .

قتل عين (سكود) ونفى نائبها

اتفق أن كان هناك عين من أعيان سكود يقال له عبد الحليم ، وكان رجلا خبيثا من أرباب الفساد ، شايع منذ فترة طويلة نائب القضاء المذكور علي أفندى فى الطمع والجشع ،[١١٤-ب] وجارا على الفقراء والرعية وظلماهم، وقد.نهبا منهم أموالا طائلة ، فجأر طلاب العدل والنصفة من الرعايا بالشكاوى ورفعوا تظلماتهم للباب العالي .

علاوة على ذلك ، حينما كان حقى محمد باشا فى طريقه لتولـي منصبه فى حلب قبل سنة ، خرج عليه عبد الحليم عين سكود يمنعه مـن المرور منها ، فتفاهم معه حقي باشا بالحسنى ، غير أن المذكـور جنـح إلى الصرامة والعنف ، وفى نهاية الأمر وقع شجار بين الطرفين انجلـى عن مقتل كثير من الرجال واحتراق الأسواق وتهدمها .

وبات عين سكود المذكور سببا فى قطع طريق القضلء ومن ثـم لزم تأديبة وأخذه بالنكال . وعلاوة على تقصـيره فـى خدمـة الجيـش الهمايونى ، أرسل البارود والرصاص إلى المدعو (جمركجي عبـد الله) من طغاة الأشقياء والذى جاهر بالعصيان فى جزيرة (سـقاريا) ؛ فبـات واجبا استئصال شأفتهم ، فقبض على عين سكود ، ونائبـها ، وبعـد أن صودرت أموالهما قتل الأول ونفى الثانى إلى (مأغوسه) ، وخلع علـى المدعو (منزلجى مصطفى) خلعة الأعيان .

وفى اليوم التالى نهضنا مع السردار الأكـرم مـن (سـكود) وخيمنا فى قرية (كسكين) على مسافة ست ساعات ، [١١٥-١] وفـى اليوم الذى يليه ضربنا الفسـطاط علـى الضفـة الأخـرى مـن مدينـه (أسكى شهر) على مسافة ثلاث ساعات ، وبعد أن رعينا حيواناتنا بـها يوما ، سرنا ثلاث ساعات فبلغنا ظـاهر قصبـة (سـيدى غـازى) ، وعسكرنا بها ولأنه يوجد هنالك أضرحة كل من : سـيد بطـال غـازى ، وجوبان ده ده ، وصقا بابا وهم من الأوليـاء المقربيـن فقـد اغتنمنـا زيارتهم واحدا واحدا .

وفى اليوم الذى يليه سرنا أربع ساعات فبلغنا ظـاهر قصبـة (براداقجى)، فأمسينا بها ، وفى اليوم التالى انتهينا إلى قصبة (بيـات)

على مسافة خمس ساعات ، وفى يوم آخر وصلنا إلى الضفة الأخرى من قصبة (بولاوادين) ، بعدها بيوم بلغنا أعلى قصبة (إســـحقلو) علـــى مسافة ست ساعات ، وفى اليوم الذى يليه أنخنا بعيرنا بظاهر (آقشهر) على مسافة أربع ساعات ، ومكثنا بذلك المنزل لإراحة حيواناتنـــا ، ثـــم زرنا الضريح المفعم بالأنوار لنصر الدين خوجه ـ رحمه الله ـ فى ظاهر قصبة آقشهر ، [١١٥-ب] استمددنا العون من روحه .

بقى أن أقول أننى قد سمعت فى أيام صباى أن ضريـــح نصـــر الدين خوجه كان ذا جدار واحد فى أحد جوانبه ، أما الجوانـــب الثلاثـــة الأخرى فكانت خلو من الجدران ، وكان فى الجدار المبنى فى طرف واحد باب متين ، محكم الصنع ، معلق فيه حديدى ، لكننى فى هذه المـــرة لـــم أجد الضريح المذكور كيفما سمعت عنه ، بل وجدته مزارا مســـورا لـــه أربعة جدران وباب عظيم ، ولما استفسرت عن ذلك من خدمة الضريـــح ، أخبرونى بأنه فيما كان لا علم لأحـــد منـــهم بالحكمـــة مـــن ورائـــها إذا بـــ (سيوه ركلى) علوى باشا يلى قرمان عام ١٢٠٩هـ ويأمر أثنـــاء رحلته ـ قاصدا قونيه ـ بهدم تلك التربة الشريفة وبنائـــها مـــن جديـــد بأربعة جدران ، فمر بخاطرى هذان البيتان :

بنى مسجدا لله من مال محرم ∴ فتم بحمد الله غير موفق
كمطعمة الأيتام من كد فرجها ∴ فياليت لم تزن ولم تتصدق

وعندما خرجنا من آقشهر ، بلغنا ظاهر (خان برقيـــد) علـــى مسافة خمس ساعات ، وفى اليوم التالى وصلنا إلى قصبـــة (إيلغيـــن)

على مسافة ست ساعات، وفى اليوم الذى يليه وبعد مسيرة ست ساعات وصلنا أعلى قرية (قادين خانى) ، وفى اليوم الذى يليه تقدمنا أربع ساعات فبلغنا ظاهر قصبة (لاديق) ، وخيمنا بها .[١١٦-أ]

وفى اليوم الذى يليه طار عبد الله باشا والى قرمان لاستقبال حضرة أمير الجيوش ، فشرف بتقبيل ذيل ثوبه ، ورافقه إلى سهل قونية. وعندما بلغناها خرج أغا الإنكشارية ـ عمر أغا ـ بموكب عظيم لاستقبال السردار الأكرم ، حيث إن جيش الإنكشارية كان قد مكث بسهل قونية عدة أيام طلبا للراحة والتقاط الأنفاس ، ومرت العساكر المنصورة من داخل قونيه فوجا بعد فوج فى ترتيب عجيب ، وخرجنا منها ، فانتهينا إلى ساحة واسعة الأرجاء على ساعة تسمى (مرعى البكوية) ، ونصبنا فيها مخيمنا .

بقى لنا أن ننوه بأننا لم نركن إلى الإسهاب فى وصف المراحل التى قطعناها والمنازل التى نزلنا بها من يوم خروجنا من كنف الآستانة العلية إلى يوم نزولنا بسهل قونية ، ولم نبتدر ـ مثل بعض المؤرخين ـ إلى الحديث عن طقوسها وجبالها وصحاريها ومساحاتها ، إذ إن رسالتنا المختصرة هذه ليست متعهدة ببيان جغرافية تلك الأماكن ، ولما كانت معنية بتسجيل الوقعة المصرية؛ فقد اكتفينا بذكر ساعات كل مرحلة وبعض مزاراتها ،[١١٦-ب] ولم نجنح إلى التفصيل والإسهاب .

ثمة موضع جميل يعرف بمحلة (تكه) فى قونية وهو موضع تهفو إليه القلوب ، يضم المزارات المباركة لمولانا جلال الدين الرومي (قدس سره العزيز) ووالده سلطان العلماء بهاء الدين

وابنه سلطان ولد ، وممن اهتدى بهديهم وترسم خطاهم جلبى حسام الدين وسائر أولاده، والشيخ حيدر الدين القنوى قدس سره .

ولقد زرنا تلك المزارات واحدا بعد واحد والتمسنا العون من روحانياتهم المقدسة ، وبجوار التربة العطرة لمولانا جلال الدين الرومى توجد المدرسة الجديدة التى بناها يوسف أغا كهف الفقراء وملاذ الضعفاء حسبة لله وابتغاء لمرضاته .

ويحلي عقد تلك المدرسة الحديث النبوى الشريف : " اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد ". وبالمدرسة كذلك مكتبة لطيفة ، ينطبق عليها قوله عز من قائل: { فيها كتب قيمة }[1] . [١١٧-٤] وقد انشرحت قلوب النظار من مشاهدة الأبنية المذكورة ، وصفت أرواحهم ، وانبعث فى نفوسهم الشعور بالارتياح .

وببركة روحانيات أهل الحال فإن من يقعد من طلاب العلم فى داخل المدرسة المذكورة أسبوعا ــ مهما بلغت درجة جهله وبلاهته ــ فإنه بشرف وجوده بها يصبح عالما فاضلا منقطع النظير ، وذلك من بركات الأنفاس القدسية للأولياء المشار إليهم ؛ ولا غرابة فى ذلك .

ولما كانت القبة العتيقة التى تعلو التربة التى دفن فيها مولانا جلال الدين الرومى توشك أن تنقض ، شمر (يوسف أغا) عن ساعد الجد وقام بتجديدها ، فكان ذلك منه محل تقدير وإجلال من كبار رجال الدين وأهل الحال.

---

١ - البينة : (٣).

ولما كان المذكور دائم التفكير والانشغال بتحرى أحوال الفقـراء والعجزة فى كل من الجهات والنواحى ، وتطييب خواطرهم وإسـعادهم ؛ فقـد شمـل كثيرا مـن المحتاجين ببره وعطفه ،[١١٧-ب] وامتدت صدقاته إلى كثير من المشايخ والمساكين . ولما كان هذا واضحا وباهرا لدى الجميع ويعرفونه حق المعرفة ، فإن سرد الأدلة فى هذا الباب أمر لا طائل من ورائه.

وقعة الديوانكان فى سهل قونيه

أثناء وجود الجيش الهمايونى خمسة أيام بسهل قونية حـدث أن وقعت مشادة بين جند (سر جشمه) سـرت حسـين ــ مـن رؤسـاء الديوانكان ــ بسبب لعب الميسر ، انتهت بأن مالأ كل واحد منهم رفاقـه وتحزب زعماء الديوانكان إلى حزبين ، تبادلا السباب والشتائم ؛ مما أدى إلى وقوع مشاجرة ، أفضت إلى قتال، وامتطى كل منهم صـهوة جـواده وتأهبوا لقتال بعضهم البعض . وحالما اتصل ذلـك بالسـردار الأكـرم ، أرسل على الفور سلحداره بهرام أغا وعددا من أغوات (الأنـدرون) المقتدرين ، وجتاق حسين رئيس التوفكجية وتمكنوا من إطفاء نار الفتنـة رغم أنه قد قتل بينهم عدة رجال .

ولما كان وقوع مثل هذه الأحوال غـير اللائقـة فـى الجيـش الهمايونى يعد خروجا على الأدب ، فقد حملوا جميعا إلى حضرة السـودار الأكرم ، فاستفسر عمن كان السبب فى اندلاع الفتنة .

[١١٨-أ] ولما تحقق له أن سبب الفتنة هم بنو سقر وعدد من أرباب الفساد من المتعصبين والمغرضين ، أمر بأخذهم بصنيعهم وإنزال العقاب بهم ، غير أنه تشفع لهم بعض من أساطين الرجال واجبي الأجلال ، فصفح عنهم وسامحهم في زلاتهم ، وأصلح ذات بين المتنازعين ، فعانق كل منهم الآخر في فسطاط (التوفكجي باشي) .

تذييل عن أحوال الديوانكَان

وجدت زمرة الديوانكان منذ قدوم الخليفة عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) الشام، ويبدو أن صحابة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) رضوان الله عليهم أجمعين قد عينوا عددا من الفرسان الأدلاء العارفين بالطرق للقيام بمهمة الإرشاد والدلالة ، وهكذا تحدرت الذمرة المذكورة من أولئك الأدلاء، وهذا ما سمعناه من بعض معمرى تلك الفرقة وشيوخها .

وعلاوة على أننا لم نسمع بذلك ولم نره فيما طالعناه من آثار السلف ، وما سمعناه من أخبار الخلف ، فإنه لم يتأت لنا سماع كلام يتعلق بهذا الموضوع من رواة القصص في المقاهى ، ولا حتى حكايات النساء العجائز في مجالس الأطفال .[١١٨-ب]

بيد أنه في عهد السلطنة السنية للمغفور له السلطان عبد الحميد خان ـ عليه الرحمة والغفران ـ كان قد تعاظم طغيان زمرة (اللوندية) واستشرى فسادها ، فقطعوا طريق العباد وعاثوا فسادا في الممالك

والبلاد ، وعليه صدر أمر السلطان بالقضاء عليهم واستئصال شأفتهم ، فقهروا فى أماكنهم ونكل بهم .

وإلى أن انمحت معسكراتهم وثكناتهم وبيدت عن آخرها ، ظلت فئة الديوانكان طائفة من أهل الأدب والشرف ، يدينون بالولاء والطاعة لأولياء نعمهم وسادتهم من الوزراء العظام والميرميران الكرام فى الحل والترحال ، ويعهد إليهم بمهمة حراسة خزائن الوزراء العظام وحريمهم . وبعد القضاء على طائفة (اللوندية) ، انخرط جم غفير من المقامرين وقطاع الطرق والأوباش وفلول اللوندية ، فى صفوف الديوانكان .

ومنذ زمن بعيد وفى الوقت الذى كان يجب أن يضم كل لواء من ألويتهم عشرة من صفوة الفرسان ، فإنه عندما أسندت إيالة صيدا إلى أحمد باشا الجزار وقت وقعة(ضاهر العمر) ، استكثر من عساكره ، [١١٩-أ] فعين نحورئيسين أو ثلاثة رؤساء للأدلاء ، ولقد كان إبراهيم باشا ــ الذى وصل إلى رتبة الوزراء بترقيته من رئاسة الزمرة المذكورة ــ تربية الجزار باشا وغرس يمينه، علاوة على أنه كان قد نشأ فى زمرة الديوانكان ؛ ومن ثم سرى تقليد تعيين أربعة أو خمسة رؤساء للأدلاء ترسما لخطى الجزار باشا على مر الأيام إلى سائر الوزراء والميرميران والمتسلمين ، فصار لكل باب ثلاثة أو خمسة رؤساء الأدلاء. كذا فإن كل من ينضم إلى هذه الزمرة كان يمنح تذكرة اللواء مع رتبة بلوكباش فتلاشت جندهم وانقرضت . والآن يبلغ عدد فرسان رئيس الأدلاء ،الذى له خمسون لواء ، مائة فارس فقط .

لقد أصبحت طائفة فاجرة لا حياء لها ولا إيمان ، احتشدت من الأكراد والتركمان ، ورويدا رويدا زادوا على طائفة (اللوندية)

وسبقوهم آلاف الفراسخ فى درب الطغيان والفساد ، { قاتلهم الله أنى يؤفكون }[1] .

ولنعد من جديد إلى ما كنا بصدد الحديث عنه :

حضر السردار الأكرم مجلس ذكر فى تكية مولانا جلال الدين الرومي وبعد أن التمس النصر والظفر من روحانياته السنية وأنفاسه القدسية ، أنعم على كافة الفقراء والدراويش وبرهم .

وإضافة إلى ذلك رصد مبلغ خمسمائة قرش من مال مقاطعة (صمصاد) ـ التى فى عهدته ـ للإنفاق على طعام التكية المذكورة، وخمسمائة قرش أخرى من جزية قونية ، [١١٩-ب] وبذلك استجلب الدعوات للخليفة الأعظم .

وبعد أن انتهت إقامتنا بالمنزل المذكور ، وجريا على العادة ، تحرك جيش الإنكشارية فى المقدمة ، وبعد أن أمضى الجيش الهمايونى خمسة أيام ، رفع الخيام ونزلنا بـ (شومره) على مسافة ست ساعات ، وفى اليوم التالى نهضنا عنها ، ونزلنا (قارغين) على مسافة خمس ساعات، ولشح الماء فى ذلك المنزل ؛ قمنا بحفر نحو ثلاثين بئرا وسقينا دوابنا ، إلا أنه لم يستطع أحد منا الشرب من مياهها؛ إذ إن أرضها كانت سبخة ذات ملح .

١- المنافقون : (٤) .

ولما كان الحال فى تلك الليلة يبعث على الملل والضجر ؛ فقد خيمنا فى اليوم التالى فى قصبة (أسميل) على مسافة ثلاث ساعات ، ولظهور ملح البارود فى أرض تلك القصبة ، فقد خلت من أى نبات أو عشب ، وتواتر الخبر عن هبوب ريح السموم فى أماكن متفرقة وأرجاء شتى فى الصيف شديد الحرارة، فكأن العلى القدير قد نقلنا وصيرنا إلى تلك البقعة من أرض التيه .

ولما غادرنا ذلك المكان نصبنا المخيم فى الطرف العلوى من قصبة (قره بيكار) على مسافة تسع ساعات ، وفى اليوم التالى سرنا ست ساعات فنزلنا بالقرب من قرية (أولطو) .[١٢٠-١]

ومن المشهور أن المسافة بين استانبول ودمشق تنتصف فى منتصف الطريق بين أولطو ومرحلة قره بيكار ، إن هذه المقولة فى ذلك الخصوص لم نطالعها فى كتب علماء المساحة ، وإنما هى ذائعة فقط على ألسنة العوام .

وعندما تحركنا من مصيف (أولطو) ، قطعنا مسافة ثلاث ساعات ونزلنا قصبة لطيفة تسمى (هرقلى) ، وتشتهر بين العامة بـ (أركلى) ، كما تشتهر تلك القصبة بكثرة مائها الزلال وطيب نسيمها، وبها حدائق وبساتين كثيفة الأشجار ينطبق عليها { جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار}[1] ، وهى نادرة من نوادر الدهر باعتراف أولى الأبصار .

---

١ - الفتح : (٥) .

لقد طالعنا فى التواريخ العلية العتيقة أنه قبـل ظـهور الدولـة الإسلامية كان هناك ملك عظيم يقال له هرقل قيصر الروم ، وهو الـذى كان مهيمنا على الشـام والأناضـول . وهـرقل هـذا هـو قيصـر الـروم الذى أرسل إليه (دحية الكلبى) رضى الله عنه برسـالة فخـر الرسـل (صلى الله عليه وسلم) [١٢٠-ب] أثناء إزاحة نور شـمس النبوة لظلام الشرك المخيم على ديار الكفر والضلال .

ولأن ذلك الموضع الـذى يقـع فـى منتصـف الطريـق بيـن القسطنطينية وبين دمشق ، التى كانت خاضعة لحكم هذا الملك ، موضعـا طيب النسيم ، وفير الماء؛ فقد آثرها أركـان الدولـة لتكـون حـاضرة للسلطنة؛ وعليه بنى هرقل تلك القصبة واشتهرت باسمه إلى اليوم . ولما خرجنا من أركيل ، نزلنا بقرية (جنان) على مسافة أربع ساعات ، وفي اليوم التالي نزلنا بـ (أولو قشلا)على مسيرة ست ساعات .

ولقد توارد فى هذه المرحله ثلاثة آلاف من المشاة والفرسـان مع قائدهم عبد الله أغا وكانوا قد أرسلوا إلى الجيش الهمايوني بمعرفـة عبد الجبار زاده سليمان بك متصرف لواء (بوز أوق) ، وتوارد معـهم كذلك محمد صادق أغا من اغوات الأكفاء ، واصطف هؤلاء الجند لعدهم واحدا واحدا ، فوجدوا تامين غير منقوصين . وتوارد أولئك الصفوة مـن الجند ، زاد الجيش الهمايونى سطوة وبسطا ، فخلع على المشار إليـهما (عبد الله أغا ومحمد صادق أغا) ، وصرف لجميـع جندهمـا الـرزق والعطايا . ولما تحركنا من مرحلة (أولو قشلا)، مررنا من خان (چفته)

على مسافة ست ساعات وأقمنا المخيم على مسافة نصف ساعة جنوب ذلك الخان .

النزاع بين التوفكجية والأرناءوط ، وطرد السردار الأكرم لـ (جتاق حسين) وكيفية قتله بعد عدة أيام عند المناجم الهمايونية

[١٢١-١] وفي هذه المرحلة تجاورت جند التوفكجية وجند الأرناءوط ، فوقع نزاع بين جند الطائفتين على نصب الخيام ، وقبل قدوم السردار الأكرم إلى ارض المخيم تشاجر (كوجك جتاق) ـ اوده باشى رئيس التوفكجية جتاق حسين ـ مع عدد من قادة فرق الأرناءوط. وبينما كانوا يتعاركون ويضرب بعضهم رقاب بعض قدم جتاق حسين ، ومع أنه كان من واجبه ـ بحكم رياسته ـ السعي لفض الاشتباك واحتواء الموقف إلا أنه ـ بإيعاز من جنده ـ ابتدر إلى المحاربة ، ولما قتلوا عددا من مشاة الأرناءوط في هذه الأثناء ، وصل بعض قادة الجند وفصلوا بين المتحاربين ومشوا بينهم بالصلح .

وتحاشيا لتجدد النزاع بين جند الفئتين المذكورتين نظرا لاقترابهما من بعضهما واختلاطهما ؛ أمر الصدر الأعظم بنقل جيش التوفكجية إلى موضع آخر مستقل .

وعلى الرغم من تحقق رجالهم من سوء عاقبتهم إذا ما ركنوا إلى مخالفة هذا الأمر ، إذا بجتاق حسين يعمد إلى العناد والمخالفة ، حتى إن عثمان أفندى كتخدا الصدر العالى ركب إلى فسطاط جتاق حسين ، ونبه عليه بضرورة الانصياع لأمر الصدر الأعظم ومغادرة مكانه في التو

والإقامة فى مكان آخر ، غير أن ذلك لم يجد شيئا ، وعمد جناق حسين إلى الصرامة والشدة مع عثمان أفندي ؛ مما أثار عليه حفيظة السردار الأكرم ، [١٢١-ب] فأمر على الفور بقتله ، وعندئذ ودون أن يعلم الشقى المرقوم عاقبة أمره ، استنجد بجيش الديوانكَان وأخذ يستنفر فرقهم ويطلب معونتهم ، فمالأه البعض .

ولما رأى السردار الأكرم أن نحو ستة آلاف من الديوانكَان ونحو ألفين من التوفكجية لن ينساقوا وراء الشقى المذكور ، صرف النظر عن القضاء عليه واكتفى بوقف راتبه ومؤنه .

ومضى جناق حسين فى حماية جند الديوانكَان حتى حماة ، ولما تأتت الأخبار للسردار الأكرم بأن ذلك الشقى يسعى لإثارة الفتن والقلاقل فى الخفاء بين صفوف الجيش الهمايونى ، عمد إلى المكر والخديعة فتظاهر بتنصيب جناق حسين على المناجم الهمايونية ، وأرسله إلى عبدي بك وكيل المناجم ، وأرسل من ورائه فى التو أمرا له بالقضاء عليه.

ولكثرة أشياع جناق حسين من الفرسان فقد أرسله السردار الأكرم على بعض الأكراد لتأديبهم وبينما هو فى طريقه لتنفيذ تلك المهمة، [١٢٢-أ] إذا به يؤخذ بالنكال بمعرفة متسلمى ملاطيا وحصن منصور وبعض البكوات الأكراد ، وصودرت أمواله وأرسلت رأسه فى عدد من رءوس أعوانه إلى دمشق لدى وصوله الجيش الهمايونى إليها ، فأمسى هؤلاء عبرة لمن يعتبر من المخطئين .

وخرجنا مع السردار الأكرم من المحلة المذكورة وعبرنا الجسر العظيم المسمى (مشهوراق) ، ونصبنا الفسطاط فى الموضع المسمى

(زانتى) ، وكان محلا كثير الأنهار ، وفير المروج والمراعـــى . وفـــى اليوم التالى سرنا ثلاث ساعات ، فنزلنا مصيـــف (رمضـــان أوغلـــو) الشهير . ولم يكن بذلك المصيف ســـكان كالشـــأن فـــى ســـائر القـــرى والقصبات، غير أنه كان قد بنى به عدد من البيوت الخشبية ، يبيع فيـــها سكان النواحى المجاورة ما يجلبونه من مأكولات ومشـــروبات للحجيـــج المسلمين فى ذهابهم وإيابهم ، واشترينا منهم بعض ما أحضـــروه مـــن أطعمة من تلك النواحى .

وفى اليوم الذى يليه خرجنا من المصيف المذكور ومررنا علـــى موضع قوامه عدد من الدكاكين والدور ، كان يعد نقطة للجمـــرك ، ثـــم سرنا فى الشعب الذى يخترق جبلى كنكره ، وكمر وهما أضخم من جبـــل البرز وقمتاهما تتساوى مع قمم جبل (قاف) ، وشاهدنا قلعة (كَولك) فى رأس الجبل ، وما حولها من جبال متصلة ببعضها البعض بصورة تحـــير الألباب .

ثم نزلنا بـــ (جتال أولوق) على مسافة ست ساعات ، وضربنا خيامنا بهذا الموضع ، وفى اليوم التالى مررنا من أمام المنازل العتيقـــة المعروفة بـــ (قيز أولوغى) ، وشربنا من مائها الـــزلال . [١٢٢-ب] وتجولنا بين أبراج الصوفية فى رأس الجبل ، ثم توقفنـــا بضفـــة نـــهر (جاقيد) طلبا للراحة . وفى اليوم التالى نزلنا بخان جاقيد علـــى مســـافة أربع ساعات . وفى اليوم الذى يليه الموافق ٢١ من صفر الخير صوبنـــا عنان العزم إلى بلدة (آدنـــه) ، وهـــى المـــنزل الحـــادى الأربعـــون ، فاخترقناها وخيمنا على ضفتى نهرها (نهر آدنه) .

إبقاء إبراهيم باشا فى الوزارة

من قبل تم عزل إبراهيم باشا والى دمشق السابق من الـــوزارة لسبب معلوم ، غير أنه فيما بعد لاحت حقيقة الأمر لمرآة عقل الســـردار الأكرم واتضح له أن إبراهيم باشا برئ الساحة من كل مـــا نســـبه إليـــه بعض المغرضين من مرضى النفوس كذباً وبهتاناً ، ودون أية شـفاعة أو وساطة من أحد ، أمر السردار الأكرم بإبقاء المشار إليـــه فـــى الـــوزارة وأرسل إليه سراً فى حلب الشهباء يزف إليه البشرى بذلك .

توجيه كتخداوية بوابى السلطان
إلى سروري محمد أفندى

سعد كل من سروري محمد أفندى ــ من رؤساء بوابى البـــاب العالى ــ ومتسلم آدنه حسن باشا زاده أحمد بك أحمد بك ، بنيل خلعـــة من فرو السمور ؛ وذلك لما أبانا عنه من صدق وتفان فى خدمة الجيـــش الهمايوني ، وتضاعف فرح سرورى أفندى بنيـــل رتبـــة كتخـــدا بوابـــى الحضرة السلطانية .[١٢٣-١]

وبعد أن مكثنا مع السردار الأكرم يومين فى آدنه ، خرجنا معـــه منها وعـــبرنا الجســـر الكـــبير الـــذى يعلو نهـــر (جيحـــان) والـــذى يخترق قصبة (مصيصه) القديمة على مسافة ســـت ســـاعات ، فخيمنـــا بالضفة المقابلة للنهر ، والجسر المذكور كان قد بنى بأموال طائلة وهـــو

جسر حديدى غاية فى المتانة والضخامة، بيد أنه مع مرور الأيام تداعـى اثنان من عقوده وأشرفا على الانهدام.

ورغم أنه رُمم بالخشب إلى حد ما إلا أنه كان مسـلكا محفوفـاً بالمهالك والمخاطر ؛ بسبب زحام الأجناد وعليه ، قر السردار الأكرم عدة ساعات على رأس الجسر حتى تناوب الجند المرور من عليـه . وبحمـد الله تعالى لم يصب أى واحد منهم بمكروه .

وخرجنا من مصيصه واجتزنا صحراء (چقور آبـاد) واسـعة الأرجاء والتى كانت منذ أمد مديد موطىء قدم ومشتى لمختلف عشـائر الرحل من التركمان والأكراد ؛ وشاهدنا القلعة المنيعة المعروفـة بقلعـة (شاه ماران) الواقعة فى ذروة الجبل فى طريق الميمنـة .[١٢٣-ب] وعبرنا المضيق المعروف بمضيق (الباب المظلم) وعسكرنا على ضفـة نهر (بورناز) على مسافة عشر ساعات . وفى اليوم التالى سـرنا علـى ساحل البحر وضربنا الخيام فى صدر قلعة (بياس) على مسـافة سـت ساعات .

قدوم كوجك على زاده خليل باشا إلى موطىء قدم السردار الأكرم

بعث السردار الأكرم بمحمد راشد أفندى ــ أمين الدفتر ووكيـل رئاسة المحاسـبة بالجـيش الهمايـونـي ــ إلـى كوجـك عـلـي زاده خليل باشا (متصرف آقشهر) والمقيم فى قصبـة بيـاس ؛ وذلـك لتهيئة وتدبير الميرة اللازمة لمرحلة بياس تلك. ولـدى وصـول محمـد

راشد أفندي إلى خليل باشا أبان الثانى عن اهتمام تام فى تدبير الميرة وتنظيمها وتسليمها وافية إلى أمين نزل الجيش الهمايونى . وعلاوة على هذا أرسل إلى السردار الأكرم وسائر رجال الدولة عدداً من الجياد المطهمة وبعض الهدايا مع ابنه الأصغر ، وراشد أفندى .

بيد أنه بناء على ما سبق إحصاؤه من قبل على خليل باشا من مآخذ ، كان قد صدر بشأنه عدد من الفرمانات للقضاء عليه ؛ ومن ثم سيق عليه عدد من الوزراء والمير ميران . وعندما حاصروه وضيقوا عليه ، استأمن وتاب وندم عما فعل .[١٢٤-أ]

وشاءت المقادير أن يتصادف ذلك مع أكثرية غوائل الحرب الهمايونية ، فصُفح عنه وتجووِز عن زلاته . غير أنه لما كان " الخائن خائف " فقد غلب الوهم عليه وكبر لديه الخوف من سطوة السردار الأكرم وسيفه البتار الذى طبقت شهرته الآفاق فى نواحى أرضروم والمناجم الهمايونية ، وتزلزل من آلاف الملاحم المشهورة للسردار الأكرم مثل إبادته لكثير من الطغاة والعصاة وتخريبه لدورهم ومساكنهم ؛ فلاذ بالحصن المسمى (قار بياض) الواقع فى رءوس الجبال الشاهقة وراء قلعة بياس والذى كان يحتاج عدة وعتاداً قويين لفتحه والسيطرة عليه .

وتشفع خليل باشا لنفسه لدى رجال الدولة العلية ، فمُنح الأمان بشفاعة العظماء وبحسب الوقت كذلك .

وفى اليوم التالى بينما كان رَكْب السردار الأكرم يمر من داخل قلعة (بياس) ، بلغ خليل باشا إربه بتقبيل الركاب الآصفى وعندئذ قال له السردار الأكرم يعرض به : [١٢٤-ب] " يقولون أنك شجاع جسور

يا باشا ، وكما هو واضح أن الخوف على حياة مصيرها الفناء ليس من شيم الرجال وطباع الشجعان " ، فرد عليه خليل باشا ردا كيسا لبقا فقال :

" مولاي إن شجاعة عبدك فاقت شجاعة أقرانه وأمثاله . وجرأتي وجسارتي فى الذهاب إلى الوزراء العظام غير هياب خبرها الجميع وشهدوا بها ؛ غير أن الخوف من سطوة قائد مغوار وأسد همام مثل مولاي ، لا ينال من شرف مماليكه ولا ينتقص من اعتبارهم . وهذا أمر بديهي غنى عن التدليل والإتيان بالبراهين".

ثم أستأذن فى العودة مقبلا القدم الآصفية ورجع أدراجه .

وتحركنا مع الجيش الهمايوني والسردار الأكرم وسرنا مع ساحل البحر وحططنا الأثقال وضربنا الخيام بظاهر ميناء الإسكندرونه الذى يبعد خمس ساعات عن حلب الشهباء والذى كان يقيم فيه قنصل لكل دولة .

وفى اليوم التالى استقبل مصطفى باشا ـ من المير ميران ، ونجل المرحوم بلاكلي عبد الرحمن باشا ـ السردار الأكرم فى موضع الطعام وشرف بتقبيل قدمه الآصفية .

ولوقوع (قصبة بلاك)[١٢٥-١] تلك فى ممر ضيق للغاية فى واد عميق فقد عبرناها فرارا وسرنا بين الحدائق والبساتين علىَ جانبى الوادى المذكور وتوقفنا طلبا للراحة بالتلة الباذخة المعروفة بـ (بقراص بيلي) فى ذروة الجبل .

فى اليوم التالي نصبنا المخيم فى الموضع المسمى (قبة الأشجار) قبالة خان قره موط . وفى موضع الطعام بتلك المرحلة قدم شيخ زاده سيد إبراهيم باشا والي الرقة ومحافظ أنطاكية وشرف

بتقبيل ذيل ثوب السردار الأكرم ، وتحصل له من ذلـــك عظيــم الســرور والحبور . وفى اليوم الذى يليه نزلنا بالساحة الواســعة الواقعــة قبالــة قصبة أنطاكية . وتبينا من أهل المراحل الثلاثة المذكور أن مســافة كــل منها تقدر بخمس ساعات .

ويوم دخولنا أنطاكية استقبل إبراهيم باشا ــ الذى كان قد خلــع من الوزارة ثم أعيد إليها ثانية ــ الجيش الهمايوني وحظى بتقبيل الركاب الآصفي .

وبعد بسط الأسمطة الحافلة وتبادل كلمات الود والملاطفة دخـــل المشار إليهما (والى الرقة شيخ زاده سيد إبراهيم باشا ، وإبراهيم باشا) أنطاكية برفقة الصدر الأعظم وأفرد لكل منهما موضع مناسب فى مخيــم الجيش الهمايوني.

وتعد مدينة أنطاكية من أقدم وأعرق المدن على وجه البسيطة . وسور قلعتها لا مثيل له ولا نظير فى سعته وجسامته ومتانته ومنعتــه . وإن كانت أكثرية مواضعه قد تداعت وأوشكت على الإنقاض ، فإن كثــيراً من مواضعه لا تزال رصينة الأساس ، ركينة البنيـــان ، وبعضــها لــم يتعرض لأى خلل قط وكأنها قد بُنيت لتوها .

ويجرى نهر العاص من أمام سور القلعة وقد صُــنع عليه عــدد من الدواليب غريبة الأشكال ، تدور ليل نهار . ولأن مـــاء ذلــك النــهر يجرى حتى يبلغ الحدائق والبساتين التى لا نهاية لها داخل السور ، فــإن الجميع يروون حقولهم وبساتينهم من مائه العذب كيفما شاءوا طالما جاء دورهم .[١٢٥-ب]

وفى البلدة المرموقة دُفن حبيب النجار ، وشمعون وهمـــا مـــن حواريى سيدنا عيسى عليه الســـلام ، فزارهمـــا أكثريـــة جنـــد الجيـــش الهمايونى والتمسوا الشفاعة من روحانيتهما .

إسناد إيالة ديار بكر إلى شيخ زاده إبراهيم باشا ، وإيالة حلب إلى الحاج إبراهيم باشا

لما كانت أعز أمانى شيخ زاده إبراهيم باشا (والـــي الرقـــة) تنحصر فى التماس الإنعام عليه بإيالة ديار بكر وهى وطنه الأصلى ؛ فقـد أسعفه الصدر الأعظم بملتمسه وعزله من إيالة الرقة ، وأسند إليه إيالـــة ديار بكر ، وخلع عليه، وأذن له بالرحيل إلى منصبه . كما أنعـــم علـــى والى دمشق السابق الحاج إبراهيم باشا بإيالة حلب الشهباء وخلع عليه ، وأذن له بالمضى إلى منصبه.

وقد قدم إلى الجيش الهمايونى جابرى زاده سيد عبد الله أفنـــدي مفتى حلب الشهباء ، ومحصلها محمد بك نجل إبراهيـــم باشـــا وعرضـــا بعضاً مما أعدته حلب من الميرة والمهمات الحربية ، [١٢٦-١] فلمس السردار الأكرم إخلاصهما وتفانيهما؛ فبرهما وخلع عليهما فـــاخر الخلـــع وأذن لهما بالعودة إلى ديارهما .

حبس أبى بكر أغا متسلم أنطاكية
ومصادرة أملاكه

كان الحاج أبو بكر متسلم قضاء أنطاكية منذ مدة مديدة ، وكـان له كرم النسب العريق فى تلك البلدة ، وهو عبد قديم للدولة العلية وكـان أيضا ذا همه عالية وإذعان لما يكلف به من مهام للسلطنة السنية ؛ فـإذا به يظهر فتورا وتقاعسا فى تدبير ميرة (قره موط) . علاوة على أنه لم يسعف واليا حلب وديار بكر المذكورين بمطالبـها ؛ ومـن ثـم ترصـدا الفرصة للكيد له والوشاية به واشتكياه للسردار الأكرم بشأن ما بدر منـه من تخاذل وفتور فى تدبير ميرة قصبة (قره موط) ، وكالا له عددا مـن التهم زورا وبهتانا ، فأثار عليه حفيظة السردار الأكـرم وحنقـه فـأمر بسجنه ومصادرة أملاكه ، وعهد بذلك إلى خفاف زاده أحمد اغا وهو من رؤساء بوابى الباب العالي ، ونفـى الحـاج أبـا بكـر إلـى قـبرص ، [١٢٦-ب] رغم أنه كان برئ الساحة مما نسب إليه.

غير أنه حالما اتصل بالسردار الأكرم استقامته وحسن سـمته ونزاهته صفح عنه سريعا وأخلى سبيله ، وأعاده إلى وطنـه وآواه فـى داره.

وخرجنا من أنطاكية ومكثنا بقرية (زنباقية) على مسافة ثمـانى ساعات. وفى اليوم التالى قطعنا مسافة ثمانى سـاعات أخـرى ونصبنـا مخيمنا على ضفة نهر العاص قبالة قصبة (شغور) .

وعندما علم متسلم (شعور) المدعو (رستم أوغلو) بما حـل بمتسلم أنطاكية ، جزم بأنه سوف يقتل إذا ما اتصل بالسردار الأكرم ظلمه

للفقراء وبغيه عليهم . وذلك قياسا بنفى متسلم أنطاكية ، فأسرع ــ قبل وصول الجيش الهمايونى ــ وفر إلى جبال (نصيرى) ، فختم على بابه، وصودرت أمواله ، ونصب مكانه المدعو (رستم أوغلو أحمد اغا) من بنى عمومته .

وفى اليوم التالى نزلنا قبالة قلعة (مديف) على أربع ساعات ، ثم قطعنا مسافة خمس ساعات فنزلنا قبالة قلعة (شجر) وبعد ذلك غادرناها وحططنا الرحال وضربنا الخيام فى الضفة المقابلة لقصبة حماه على مسافة ست ساعات .

[١٢٧-أ] ولوجود عدد من المراقد المنورة والقبور المعطرة فى حماة فقد شرف خلق كثير من الجيش الهمايونى بزيارتها وشاهدنا الدواليب الكبيرة التى لا مثيل لها ولا نظير فى سائر بلاد الدنيا .

وخاصة أكبر تلك الدواليب والذى يقال له (الدولاب المحمدى). ومكثنا اثنى عشر يوما فى حماه من أجل استكراء الإبل من عرب البادية، لنقل ما تحصل لنا من نواحى حماه وحمص من ميرة ومهمات .

وبعد أن قضينا أشغالنا نقلنا مخيمنا إلى قرية (بسطام) على مسافة أربع ساعات واغتنمنا زيارة تربة (أبو يزيد البسطامى) رحمه الله المدفون فوق رابية مرتفعة فى القرية المذكورة .

وتُعرف تلك القرية بين العوام بقرية (الملحمة) ، حتى أن الجسر العظيم الواقع على نهر العاص الذى يجرى فيها ، اشتهر بجسر (الملحمة). ويلتصق بالجسر المذكور عدد من الطواحين . وبجواره كذلك نُزُل عظيم لاستراحة قوافل الحجيج الغادية والرائحة .

وفى الطرف الآخر من المرحلة المذكورة علـــى مســـافة ثـــلاث ساعات تقع قرية ذات قلعة صغيرة تسمى قرية (تلبيس) وكـــان حرهـــا لافحاً ، فمكثنا فيها ليلة واحدة . وفى اليوم التالى نصبنا الفســـطاط فـــى قصبة حمص على مسافة ثلاث ساعات . وزرنا جميع ما بها من مراقـــد الصحابة العظام والأولياء والتمسنا الشفاعة من أرواحهم .[١٢٧-ب]

ونظرا لما أظهره متسلم آدنه أحمد بك من إخلاص وتفان فيمـــا كُلف به من مهام للدولة العلية ، فقد لاقى تقدير السردار الأكـــرم ورفـــع قدره بمنصب رئيس بوابين فى الباب العالى .

وعندما غادرنا المرحلة المذكورة ، قطعنا مسافة تسع ســـاعات وحططنا الأثقال فى قرية تسمى (بنك) . ويتصدر تلك القرية عـــدد مـــن الطواحين ، ويخترقها نهر لطيف عذب ماؤه صيفاً وشتاءاً على الـــدوام . وهو مشهور بين الناس دون أن يكون لأحد علم بمنبعه ، وهو حقاً مـــاء عذب لذيذ ، يعمر الروح. وربما أنه لم يشاهد نظيره كذلك فى أرضـــروم التى تشتهر بعذوبة أنهارها .

ونهضنا من المنزل المرقوم وقطعنـــا مســـافة ثمـــانى ســـاعات ونصبنا الفسطاط فى الخان المسمى (قطيفة) ،[١٢٨-أ] وفى اليـــوم التالى عبرنا ممراً يسمى (مضيق قطيفة) وسرنا ست ســـاعات فبلغنـــا القرية المسماه (دومه) والمشهورة بقرية (الموكب) ، فانتجعنا فيـــها الكلأ يوماً .

وأسرع كل من والى الرقة شريف باشا ، ووالى سيواس بحـــوى رجب باشا وعظم زاده نصوح باشا المخلوع مـــن الـــوزارة ، لاســـتقبال السردار الأكرم ، فبلغوا جميعا أربهم بتقبيل ذيل ثوبه الآصفي .

وفى اليوم التالى الموافق ٢٧ ربيع الأول جرى ترتيب موكب عظيم حافل ، فجاء واليا الرقة وسيواس لاستقبال من قدم فى معية الجيش الهمايونى من فرسان الديوانكان والتوفكجية وقد احتشدت فرقتى الديوانكان والتوفكجية المشار إليهما وكذلك فرق الأرنساءوط والمغاربة وسائر صنوف العسكر وتراصت فيالقهم فى موكب ؛ وذلك إضافة إلى شجعان البكتاشية الذين توافدوا مع أغا الإنكشارية الذى كان قد قدم من قبل .

وتراصت جموع من قدم من تلك الجهات والنواحى وشكلوا المواكب وتصدرتها إبل الجيش الهمايونى وسائر أمتعته وأثقاله ومن ورائها جميع الجند كل فى محله طبقاً لدفتر التشريفات الهمايونية .

وحينما وصلت مقدمة الجيش فيلق فيلق من قرية (دومه) ـ سالفة الذكر ـ إلى ساحة المخيم التى يقال لها (كوك ميدان) ، إذا بمؤخرة ذلك الجيش لازالت تتحرك فوجاً فوجاً من تلك القرية . [١٢٨-ب] وفى المسافة من القرية المذكورة إلى (كوك ميدان) والتى تقدر بنحو ثلاث ساعات ونصف لم يكن هناك موضع خال ولو بقدر راحة اليد ، وكأن الأمواج المتلاطمة لخضم البشر قد تراكمت بعضها فوق بعض بصنع الخالق البارئ .

وفى هذه الأثناء ركب الأكرم وسار على مهل حتى انتهى إلى موضع المشار إليهم (شريف باشا ، ورجب باشا ، ونصوح باشا) ، واصطف سائر رجال الدولة وخدام السلطنة كل فى محله ، وكانوا يبعثون الهيبة فى نفوس النظار ، واصطف كذلك على اليمين وعلى اليسار ما يربو على أربعمائة من أغوات الأندرون كماة بدروعهم المعدنية .

وشجعان الإنكشارية وكأنهم البنيان المرصوص المحكم ، وتحركوا علـــى تلك الحال . وعندئذ تراص السواد الأعظم من أهل دمشق : رجالاً ونساءً وشيوخاً وأطفالاً على جانبى الطريق لمشاهدة ٤وعساكر الموحدين " .

[١٢٩-١] فى حين كان حراس القلعة يطلقون مدافعهم إطلاقا متوالياً احتفاءاً بقدومه الميمون ، وحيا السردار الأكرم من على يســاره ومن على يمينه وبث الطمأنينة فى قلوبهم ببشاشة وجهه ، وبر الفقــراء وطيب خاطرهم بأن حفن لهم الدنانير والدراهم . ومر داخل دمشق ونــزل بالمخيم الذى نصب فى ساحة (كَوك ميدان) ، وبعد أن استراح هنيهـــة ركب إلى أسواق دمشق وطاف بها كيلا يقع أى اعتداء من أسافل الجنــد على أى فرد بها ، وبذل سعياً مشكوراً فى استحصال أسباب راحة العباد.

وقوع كوسه مصطفى باشا أسيراً فى يد الفرنسيين بعد الاستيلاء على قلعة (أبو قير)

ذكرنا فيما تقدم أنه لما كان لزاماً على الدولة العلية أن تحمـــل براً وبحراً على الفرنسيين أعداء الدين ، فقد تم تعبئة عشرة آلاف مـــن الجند المشاة من نواحى الأناضول والروملي وتولى عليهم والى الأناضول سيد مصطفى باشا .

ولما وردت الأنباء من طرف الجزار باشا بانتصـــارات عكـــا ، أرسل الصدر الأعظم إلى مصطفى باشا هذا يؤكد عليه بعـــدم الاغـــترار باندحار الفرنسيين ، ويحذره من إنزال الجند إلى بر مصر ، ويطلب منـــه الرسو فى مياه عكا ويافا ريثما يصل الجيش الهمايونى إلى تلك المنـــاطق قريبا ،[١٢٩-ب] والتخابر مع الجزار باشا، غير أن المشار إليه أقلـــع هو ومن معه من الجند من ميناء (فنكه) بالأسطول الهمايونى قـــاصداً ثغر الإسكندرية ورسا قبالة قلعة (أبو قير) على مسافة ثـــلاث ســـاعات ونصف من الإسكندرية .

وعلاوة على حصانة قلعة (أبو قير) ومنعتها فقد شـــيد بـــها الفرنسيون الطوابى والأسوار وحفروا الخنادق وشحنوها بالجند والمدافـــع وآلات الحرب ، ولذا تشاور مصطفى باشا مع رءوس جنده وفى النهايـــة وفى يوم ١٣ من الشهر المذكور أنزل على السحر أربعة مدافع وعـــدداً من الجند فى موضع مناسب على مسافة ساعة من تلك القلعـــة ، ولـــى

عليهم خزينه داره وعثمان أغا ، كما وضع المدافع فى السفن الصغيرة والكبيرة وشحنها جميعاً بشجعان الجند ، وبادر إلى حصار القلعة .

ولقد استبسل من بها من الفرنسيين ، وجدوا فى صدهم ، ودارت رحى حرب طاحنة ما يربو على سبع ساعات . وفى النهاية هجم غزاة الموحدين على الطوابى غير آبهين وأعملوا سيوفهم فيمن بها من الفرنسيين ،[١٣٠-أ] ولقى رئيسهم الملعون حتفه أثناء المعركة وظفر الموحدون ببعض الفرنسيين وغنموا كافة أموالهم وأثقالهم . غير أنه قد حدث وقت اقتحام القلعة وأثناء القتال أن استشهد ما بين خمسة إلى عشرة من المجاهدين بنيران ما زرعه الفرنسيون من ألغام ، واستشهد كذلك عدد من شجعان الموحدين فى الاشتباكات التى وقعت خارج القلعة .

وفى اليوم التالى لفتح القلعة دخلها سر عسكر باشا وأقام بها وعكف على زيادة استحكاماتها وتحصيناتها ، وأشاع ما حدث إلى سكان الديار المصرية وعربان البرية . كما أرسل بشريات تحقق ذلك الفتح الجليل على وجه السرعة إلى الباب العالى .

وبرغم أن سفن الأسطول الهمايونى وعدداً من سفن القائد (سميث) قائد الأسطول الإنجليزى وسفينة رودسلى حسن بك ، كانت راسية فى صدر قلعة (أبو قير) لتزيد الغزاة الموحدين قوة وثقة ، فإنه لكثرة جند الفرنسيين وقوتهم المفرطة ،[١٣٠-ب] استجاش مصطفى باشا السلطنه السنية وناشدها العون والمدد .

وعندما بلغت تلك الأخبار الباب العالى احتشد على الفور جمع كثير وجم غفير من جند الإنكشارية والتوفكجية وغير ذلك من صنوف

جند الباب العالى ، وصدرت الأوامر بالإنعام على أحمد باشا ـ من المير ميران ، والموجود بقبرص ـ بلواء (إيج إيلى) مجدداً ، وكان فى السابق متصرفا عليه ، ومضيه سريعاً لنجدة مصطفى باشا بالجند المشاة الذين سيجمعهم محصّل قبرص من تلك الناحية، إضافة إلى من فى معيته من الجند .

وصدرت الأوامر أيضا بمضى أخيه سريعاً إلى إيج إيلى لتعبئة ألف من الجند الآخرين وإرسالهم وراء أحمد باشا ، وإنفاذ قره عثمان زاده ومتصرف (علائية) ومتسلم (تكه) بعساكر كثيرة ؛ وكذلك إرسال المؤن إلى الجند الموحدين ، وإرسال خمسين ألف قرش إلى مصطفى باشا لقضاء حاجات الجند، وخمسين ألف قرش أخرى لأمين النزل وذلك لتغطية نفقات إطعام الجند ، ودفع رواتبهم ،[١٣١-١] وبذل السعى الأوفى للشد من أزرهم فى مهمتهم .

ومن جهة أخرى وبمجرد أن علم الفرنسيون باستيلاء الغزاة المسلمين على القلعة على ذلك النحو وإبادتهم لمعظم من بها من الفرنسيين وأسر بقيتهم ، تعبئوا تعبئة عظيمة واحتشدت حشودهم الموجودة فى القطر المصرى ، وفى غضون نحو خمسة أيام حاصروا قلعة (أبو قير) ، وتجاوزوا السر عسكر المشار إليه (مصطفى باشا) ، وعلى الرغم من أن كثيراً من الفرنسيين قد لقوا حتفهم ، فقد تخاذلت العساكر الإسلامية وفترت هممهم بسبب احتدام القتال ، واستنجدوا بالأسطول الهمايونى ، فما كان منه إلا أن تقاعس واعتذر بأعذار واهية وتعلل بأن إنزال جندى واحد من سفنه مناف لقواعد الأسطول ؛ فكان ذلك سبباً حدا بأعداء الدين إلى مهاجمة جند الموحدين من جميع الجهات .

وهنا ركن بعض الجبناء منهم إلى الفرار إلى الساحل قاصدين سفن الأسطول الهمايونى ، ولما رأى مصطفى باشا ذلك منهم امتطى صهوة جواده ، وأثناء صده للفارين وإعادتهم إلى القلعة تصيد الفرنسيون الفرصة واحتاطوا به من جميع الجهات بما يشبه الحلقة وجرحوه فى موضعين من جسده ، وظفروا به وقيدوه فى وثاق ، وقد استشهد ما يربو على ألفين من أبطال الموحدين .

وتحصن ابن المشار إليه وكتخداه مع من بقى من الجند وكانوا قرابة ثلاث آلاف فى قلعة (أبو قير) ، ولم يفتروا عن الصمود والثبات فى وجه أعداء الدين مترقبين وصول النجدات . [١٣١-ب] غير أنه لعدم وصول إمدادات الدولة العلية إلى (أبو قير) والتقاعس غير المتوقع من الأسطول الراسى فى عرض البحر عن نجدتهم ؛ فقد اعترى الضعف والتضعضع الجند المحاصرين كليةً وبات واضحاً أمامهم أنهم هالكون إذا ما ثبتوا للأعداء وصمدوا فى مواجهتهم يوماً أو يومين ، وعليه سارعوا إلى تسليم القلعة ــ صلحاً ــ إلى الأعداء .

عزل الجزار باشا من ولاية دمشق
وإسنادها إلى عبد الله باشا

كان الجزار باشا متصرفاً على إيالة صيدا منذ دفع غائلة ضاهر العمر ــ ملتزم عكا فى السابق ــ وقد مكث بعكا واستقر بها .

ومن قبل ذلك وفى العهد السعيد للسلطان عبد الحميد خان ــ طيب الله ثراه وجعل الجنة مثواه ــ صدر أمر سلطانى قاطع بالقضاء التام

على فرقة (اللوندية) ، فأبيدوا فى كل الجهات التى كانوا يقيمون فيها ، وفرت فلولهم إلى عكا .

وفى تلك الأثناء كان الجزار باشا متصرفا علـــى إيالـــة صيـــدا فاستمال أولئك الجند الأشداء وكانوا نحو ألف من الجنـــد ، [١٣٢-أ] واستعان بهم على مصاولة أعدائه والخارجين عليه ، فظهر علـــى مـــن جاوره من طائفة الدروز وتغلب عليهم.

أما الطائفة المذكورة فكان أدناهم يمتلك مالا جزيلاً ، وقد جلبـــوا ما فى حوزتهم من أموال وكنزوها مثل قارون ، فى حين أنهم لم يغنـــوا الدولة العلية شيئا ، وكانوا إذا ما كلفوا بأمر يرتضونه ، صدعـــوا بمـــا أمروا ، وأبرزوا الطاعة والانقياد وتوفروا على الاضطلاع به . أمـــا إذا حدث وظهر أمر ليس على هواهم ولا يروقهم ، فقد كانوا يركنـــون إلـــى العناد والتمرد . وإن كانت الدولة العلية قد أدركت كل هذا عنهم إلا أنـــها تجاوزت عن زلاتهم عسى أن يكونوا مع الوقت علاجاً لأحد جراح الدولـــة أبدية الدوام .

وغير مرة أحيلت إيالتى طرابلس ودمشق إلى عهدة الجزار باشا إلحاقاً ، وأسند إليه كذلك لواءى القدس وغزة وجمارك يافا ولوط وكافـــة أوقاف تلك الجهات ومقاطعاتها ، وأغدق عليه الكثير والكثير مـــن النعـــم الشاهانية فى ظل الدولة العلية .

وإضافة إلى كل ذلك عندما طلب فى السابق صرف إيالة مصـــر والقيادة العامة لجيوشها من عهدة إبراهيم باشا وعبد الله باشا وإحالتـــها إلى عهدته ، بذلت الهمم لإسعافه بكل ما طلـــب ، [١٣٢-ب] وأُعيـــن

باللازم من الأموال والعتاد والرجال ، فى حين أنه كان واضحا أنه ينفس بهذه المناصب على المشار إليهما. ولقد ذكرنا كل ذلك وبيناه من قبل .

وحينما كان الحال على هذا المنوال ، علم الجزار باشا باقتراب الجيش الهمايونى من حدود الجزيرة العربية ، فطرد المتسلمين من حماه وحمص ، وفيما كان حق عليه وعلى ذمته تقديم كافة الخدمات والتسهيلات اللازمة للجيش الهمايونى ، إذا به يسعى فى الخفاء ليتسبب فى حدوث عجز فى ميرة الجيش الهمايونى ومؤنه ، ويبث الفرقة بين جند الموحدين ويحرض الطاعنين فى أرض العرب على التمرد والعصيان، وبسبب هذه التصرفات الخرقاء تشوش نظام الجيش الهمايونى ، وعليه أصبح من الواجب معاملة الجزار باشا بالمثل .

ولدى وصول الجيش الهمايونى إلى دمشق بعث الجزار باشا إلى السردار الأكرم يعتذر له عن عدم استطاعته مفارقة عكا لقرب قلعتها من طائفة الدروز ،[١٣٣-أ] ويطلب منه البحث عن سر عسكر آخر لمصر وأمير لحجاج الشام ، وتنحيه عن هذين المنصبين ، وتشاور السردار الأكرم فى ذلك الأمر مع خيرة رجال الدولة ، وأرسل إليه جملة من المكاتبات المفصلة والمشتملة على النصح والمصانعة ، فما كان منه إلا أن ركن مجددا إلى العناد واعتذر بواهى الأعذار، فأرسل إليه السردار الأكرم من جديد رجلا عاقلا يقال له (ممش أفندى) الأرناءوطى ، وكان من أفندية الديوان وخدم فى منصب أغا السلام ، وجد هذا الرجل فى مصانعته واجتهد لاسترضائه واستمالة خاطره . وعلى الرغم من هذا لج الجزار باشا فى عناده على النحو السابق .

ولما اتفقت أراء أصحاب الرأى والمشورة على أن الفرقة واختلاف الكلمة سوف يجعل أعداء الدين يتشبثون بالمقاومة ؛ أسندوا إيالة دمشق إلى عظم زاده عبد الله باشا ،[١٣٣-ب] وإيالة مصر إلى نصوح باشا من أنجال العظم كذلك .

وبمجيء السردار الأكرم إلى الجزيرة العربية فإنه وفقاً للقول المأثور :

" وعند طلوع الشمس يغيب النجم " ، بات تعبير سر عسكر مجرد لفظ ؛ وعليه لم يُهتم بأى شكل من الأشكال بتنصيب سر عسكر .

وصدرت الأوامر تباعاً إلى الجزار باشا بإرسال من فى معيته من الجند وما فى حوزته من عتاد حربى ، وبذل السعى والتوفر على مد الجيش الهمايونى بالمؤن والذخائر ؛ فإذا به يمتنع عن إرسال الترتيبات المذكورة وينفض يده من دعم أسباب الجهاد الذي هو سبب نجاة الدنيا والدين ، وبناء عليه جُرد الجزار باشا مما فى عهدته من مقاطعات وأوصى بالاهتمام بخدمة الدولة العلية .

ولقد طبقت شهره أحمد باشا الجزار وشجاعته فى قلعة عكا الآفاق ، والآن وفيما كان حقاً عليه كسب رضاء السردار الأكرم وبذل العون اللازم للجيش الهمايونى وموازرته وبذل السعى الأوفى فى أمر تطهير مصر من لوث المشركين ، [١٣٤- أ] إذا به يتبجح فى أسلوبه مما طمس ما أبلاه فى قتال الفرنسيين ، وظهر جلياً أن ما بذله من جهد وما أبلاه من بلاء لم يكن خالصاً للمحافظة على الدين ونيل رضاء الدولة، وإنما كان للدفاع فحسب عما اكتنزه من أموال وخزائن ، ومهما قال وزعم السفهاء أن الجزار باشا كان مضطراً إلى ذلك ، فإنه لا يخفى

على أولي الألباب وذوي المنطق الحصيف أنــه أضــاع كـل مســاعيه وجهوده سدى .

قتل أبى حمزة وأشياعه فى دمشق

منذ أمد بعيد والمدعو أبو حمزة فى دمشق يتجبر ويطغى ، وبعد أن طرد والى دمشق السابق إبراهيم باشا ، ملك زمام المملكة وسير دفـة الحكم فيها من تلقاء نفسه ، وأذاق الفقراء والمســاكين صنــوف الظلــم وألوان الاعتداء .

وفى الخفاء تواطأ مع كل من مفتــى دمشــق محاسـنى زاده ، ومفتيها السابق الشيخ مراد زاده ، ثم ســـلك طريــق الظلــم والبغــى . [١٣٤-ب] وعلاوة على ذلك تحالف مع أغا مطوعة دمشـــق المدعــو (خونفساد أوغلو على) ، وكان فى خلقه فسوق وفجور ، فطغى بعشيرته فى البلاد وأكثر فيها الفساد ، وتعاضدوا جميعاً وتعاونوا على قتل الأنفس وسفك الدماء وهتك الأعراض وتعكير صفو حياة العباد إلى غير ذلك مــن حركات البغى والعدوان .

وإن كان ذلك قد وصل إلى أمير الجيوش ، فقــد تغــافل عنــه وسعى بالخدعة للإيقاع به ، ولدى قدوم الجيش الهمايونى دمشق لوح له برتبة (زغرجى باشى) ، غير أن الشقى المرقوم (أبا حمزة) لم يأبــه بذلك وتحصن

بقلعة دمشق ونسى قوله تعالى : أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم

في بروج مشيدة }[1] ، ولم يبرح القلعة قط .

ودُعى وجهاء البلدة للتشاور فى أمر محاربتة لطغيانه وتجبره ، وهنا حملوا المذكور فى عدد من رجاله إلى مجلس السـردار الأكـرم ، وهرب أعوانه وأنصاره خوفاً من بطش الصدر الأعظم ، وقتل أبو حمـزة وخونفساد أوغلو بسيوف الجند المشاة الماضية ، كما أنزل العقاب بسيد عبيد ـ من رؤساء عبيد الباب ـ ونحو خمسة وعشرين مـن أعوانـه الأشرار ، وأصبحت جثثهم الخبيثة عبرة لمن يعتبر ، وختم على دورهم وصودرت أموالهم ، واكتفى بنفى الشيخ مراد زاده إلـى حلـب وأبعـد محاسنى زاده إلى (بئر الفـرات) لمـا أحصـى عليـهم مـن سـيئات . [١٣٥-أ] كما عوقب كاتب محكمة دمشق هو الآخر بالنفى إلـى بـئر الفرات لما صدر عنه من قبيح الكلام عند أداء الحصة المعينة على قريته من الميرة .

وفاة صادق أفندى (مكتوبي) الصدر العالي

مرض سيد أفندى مكتوبى الصدر العالي في المرحلة الثانيـة ، ولما بلغ قضاء (كوميدان) على محفة اضطرمت حمته وتبالـغ به المرض ، فأرسله الصـدر الأعظم إلى دار لطيفة فى دمشق وعين كبير الأطباء (بوزارى) لخدمته والعناية به ، غير أنه لم ينجع فيه دواء وظل طريح الفراش عدة أيام ، ثم سافر بعدها السفرة التى لا يئوب منـها

١- النساء : (٧٨) .

الذاهبون ودفن بجوار تربة بلال الحبشى ـ رضى الله عنه ـ فى موضع يقال له (سوق الشياة) .

شغل الفقيد منصب (باش خليفة) فى صدارة شريف حسن باشا الصدر الأسبق ، ومنصب مكتوبى الصدر الأعظم فى عهد صدارة يوسف باشا الصدر الأسبق ، وكان قد خرج من الآستانة مع الجيش الهمايونى ، [١٣٥-ب] وعندما عاد الجيش إلى الآستانة مع ختام الحملة الهمايونية شاءت الأقدار أن يكدر ويغتم بعزله من المكتوبية ، ثم طُيّب خاطره ببعض المناصب وفى هذه المرة لدى تأكد الخروج إلى مصر ، طُيب خاطره مجدداً بمنصب المكتوبى .

لقد كان شخصا قويم الخلق حميد السجايا ، مجداً فى عمله ، مكباً على مرضاة ولى نعمته ، محباً للفقراء ، ومؤلفاً لقلوب الضعفاء ، سخياً جواداً .

ولما بلغ السردار الأكرم أن ما تراكم عليه من ديون يزيد عما أعقبه من إرث ، وأنه ترك أما عجوزاً فى حاجة إلى العناية ، رصد لها يومية قدرها مائة وعشرون (آقچه) من جمرك استانبول ، فطيب بذلك خاطرها الكسير .

فساد زمرة الديوانكان

بعد جلب أكثرية زمرة الديوانكان الموجودين فى الروملى والأناضول ، أصبحوا كثرة عظيمة فى الجيش الهمايونى ، وتزايدت فضائحهم وتعاونوا على الفساد والطغيان . [١٣٦-أ] وليلة وصول

الجيش الهمايونى إلى المرحلة الثانية هاجم عدد من جند الديوانكان فرقة لـ (سقر أوغلو) رئيس الأدلاء ، فقُبض على عدد منهم لاسترداد ما انتهبه هؤلاء ، وقطعت آذانهم وأنوفهم ، وطردوا من الطائفة المذكورة .

كان لـ (سر چشمه) سرت محمود خادما شابا حدث أن سرق مع قهوجيه مقداراً من متعلقاته وأمواله ، وبينما كان على أهبة الركوب فاراً ، استيقظ القائد المشار إليه من نومه ، ولما أحس خادمه أنه قد فطن لما حدث ابتدره بالهجوم وعاجله برصاصة من بندقيته استقرت في ظهره ، فاستيقظ سائر الجند وقبضوا على الغلام ، وقيدوه في وثاق ، ومات سرت محمود متأثراً بجرحه بعد عدة أيام من دخول دمشق ، فدفنوه وأخذوا قاتله بالقصاص جزاء ما فعل .

قدوم الحاج علي أغا رئيس الأدلاء وتوليه منصب (سر چشمه)

منذ أن ولى السردار الأكرم أمانة المناجم الهمايونية والحاج علي أغا ــ رئيس أدلائه وخادمه القديم ــ يرافقه في مأمورياته في المناجم وأرضروم وجانكلر ووسيم ، ويبدى إخلاصاً وتفانياً وحسن سمت.

وقد دُعى للقدوم إلى الباب العالى من المناجم الهمايونية ، ولدى تشريفه هناك ، اعتذر واستأذن فى الرحيل ؛ [١٣٦-ب] إذ إنه كان شيخاً طاعنا فى السن ، ومضى قاصداً لواء ترجانه حيث لزم داره هناك . وتم استدعاؤه لتكليفه بالذهاب مع السردار الأكرم إلى مصر .

ولما كان المذكور لا يرضى بأى حال من الأحوال أن يكون سيده وولى نعمته القديم يجوب الصحارى المصرية بينما هو مطمئن فى داره ؛ فإنه بعد أن عهد إلى اثنين من رؤساء الأدلاء من تلامذته هما عرب سليم وسيواسلى سليمان باستقبال الجيش الهمايوني في خمسمائة من الفرسان، وملازمته حتى (أزنكميد)، أسرع فى اللحاق بالجيش الهمايوني فى نحو سبعمائة من صفوة تلاميذه الأشداء من فرسان أكراد كردستان وآرزنجان وترجان .

ولما أصبح على مسافة مرحلة من دمشق استقبله كافة رؤساء الديوانكان والتوفكجية ، وفى الوقت الذى كان فيه هؤلاء الرؤساء لا يحترم صغيرهم كبيرهم مثقال ذرة احترام ، ويضرب كل منهم رقبة الآخر، ارتضوه رئيساً لهم وتفاخروا بتقبيل ذيل ثوبه وائتمروا له وجاءوا به فى موكب حافل – وسط مظاهر التعظيم والإجلال – إلى العتبة الآصفية ، فنال شرف تقبيل ذيل ثوب الصدر الأعظم ، وخلع عليه بما لم يخلع على أحد من أقرانه ، وعينه (سرجشمه) لطائفة الديوانكان ، فسر بذلك سروراً عظيماً .

ولما كان الحاج على أغا شيخاً بلغ من الكبر عتياً فقد اضمحلت قوته ونالته شدة عظيمة بسبب الحر اللافح فى الصحارى المصرية ، [١٣٧-أ] ثم لحق بالرفيق الأعلى بعد عدة أيام من وصوله إلى داره .

كان رحمه الله متديناً تقياً ورعاً ، لم يجد الزمان بمثله منذ أن وجدت طائفة الديوانكان ، وكان رحيماً بالفقراء ، رءوفاً بالرعايا والبرايا، له القدرة على ردع رؤساء الأدلاء كثيرى الأتباع . وكان كل من كلف بالزحف عليه يأتيه مستأمنا . ولأن أكثرية مأمورياته انتهت

بالصلح، فقد عدّ بعض البلهاء محصورو التفكير ذلك عيباً فيه ، فسموه (الشيخ المصالح) ، يقصدون مذمته والانتقاص من شأنه . غير أنه مهما قالوا فإنه في النهاية رجل صالح أهل لأن يدعى رئيساً للديواتكان .

وأثناء إقامة الجيش الهمايوني في ساحة (كوك ميدان) في دمشق وبينما كان رشيد مصطفى أفندي الدفتر دار ذاهباً من خيمته بعد المغرب قاصداً خيمة السردار الأكرم ، اتفق أن كان مهرج التوفكجية قابعاً في خيمته ينظف بندقيته ، فانطلقت منها رصاصة اخترقت كم قميص رشيد أفندى . ولما بلغ ذلك الصدر الأعظم أمر بمعاقبة الرجل ، غير أن مصطفى أفندى كان رجلاً لين العريكة ، دمث الخلق ،[١٣٧-ب] أدرك أن ما وقع له كان محض قضاء وقدر ، وليس للمهرج المسكين ذنب فيه ، فتشفع له عند السردار الأكرم فشفع وعفى عن الرجل .

فرار بونابرت من مصر إلى فرنسا

عندما استولى بونابرت على مصر وملك زمام أمورها احتواه الكبر والغرور كفرعون ، وجزم فيما بعد بأنه قادر على انتزاع أية جهة يمضي إليها، وفي الوقت الذى ادعى فيه أنه قائد بغير نظير في دروب الفتح والحرب ، إذا به ينهزم في وقعة عكا على أيدى الغزاة المسلمين ، وعلاوة على ذلك وبرغم انتصاره في النهاية في ملحمة (أبو قير) ، فقد هلك من جنده الجم الغفير ، مما روعه وأفزعه .

لقد لاحظ مشكلات حصار الأسطول الإنجليزى لموانى الإسكندرية، والحروب في قورفو وإيطاليا ، وهلاك قائد أسطوله الذى

أغرقه الإنجليز وحطموه على نحو ما سلف ذكره ، والجند المشاة الذين أسروا من السفن التى استولى عليها الإنجليز ، فأخذه الندم على ما تجاسر عليه من أعمال .

ومن جهة أخرى فإن زحف السردار الأكرم بجيش كالبحر صوب دمشق أمر خوّفه وزلزل كيانه . كما أدرك بونابرت أن صور التحفز والنفير بين المصريين على ــ اختلاف طبقاتهم ــ كلما بلغ مسامعهم اقتراب جحافل الجيش الهمايوني من مصر، قد زلزلت أركان الفرنسيين وفتت فى عضدهم وأضعفت عزائمهم ؛ ولأنه كان لزاماً عليه التوجه بكل قواته للقاء الجيش الهمايونى ، فسوف تخلو جميع الأماكن من الفرنسيين. وعليه سوف تعلنها جموع الشعب المصرى ثورة عاتية فى كل مكان ،[١٣٨-أ] ويبادرون إلى قطع الذخائر والميرة عنهم وينقضون على مواقعهم ، وبذا يصبح من أمامهم سد ومن خلفهم سد ويبادون عن آخرهم ، فأعمل تدبيره للنجاة بجلده ومضى إلى الإسكندرية فى نفر من قادته وبضع مئات من ضباطه ، واحتال على من تركهم من الجند فى القاهرة وسائر الأماكن الأخرى وأوهمهم أنه سوف يعود سريعا بالإمدادات والمهمات .

كما عهد لملحد على شاكلته يدعى (كليبر) اللعين بالكتابة إلى السردار الأكرم يصانعه ويطلب مصالحته وإعادة العلاقات بين الدولة العلية وفرنسا إلى سالف عهدها من الود والصداقة بالجلاء عن مصر ، [١٣٨-ب] والتغاضى عما وقع فى الماضى اتفاقاً لقضاء المقدور ، وبعث بـ (كوسه مصطفى) باشا مع رشدى أفندى من سادة الديوان العالى اللذين كانا قد أسرا من قبل ضمن من أسر فى (أبو قير).

وفى تلك الأيام ولسبب لا يعلمه أحد إلا الله أبحرت، السفن الإنجليزية صوب قبرص ، فترصد بونابرت فرصة خلو الميناء وأسرع بالهرب إلى فرنسا، وكان ذلك فى الساعة الثالثة نهار يوم الجمعة الموافق (٢١) ربيع الأول.

وقعة جزئية

بعد أن كُتبت النجاة لنحو ثلاثمائة من الجند المشاة الذين طرحوا أنفسهم فى البحر وسبحوا إلى السفن الهمايونية يستجيرون بها ، وصلوا ميناء (ليمسون) ــ من سواحل قبرص ــ وكان هناك كذلك عدد غفير من الجند النظاميين فى الميناء المذكور ، لكن حدث أن عبد الفتاح بك علاوة على أنه لم يرسل النجدات إلى قلعة (أبو قير) ، فإنه لم ينتشل كذلك الجند اللذين استجاروا بالسفن من الماء ، مما كان سبباً فى غرق الكثير من زملائه الأبطال ؛ ومن ثم حرضوا الجند ، [١٣٩-أ] فانقضوا على المسكين واغتالوه بسيف الغدر ، حتى إنهم أصابوا القائد إسماعيل بك وأمين النزل زعيم مصطفى أغا بجراح طفيفة ، وقدم الضباط في الحال وجدّوا فى دفع الفتنة وبينوا سوء عاقبة تلك الأحداث غير اللائقة ومغبتها ، وعندئذ أظهر الجند أنهم يطيعون الأوامر بكل وجوهها، وأن عداوتهم تنحصر على عبد الفتاح بك فحسب بسبب إهانته لبنى دينه، وأنه إذا ما نُصب عليهم سيد على (قبوداناً) فسوف ينقادون له ويطيعوه. وهكذا أبرزوا إذعانهم وانقيادهم ، ونُصّب سيد على قبوداناً

عليهم باتفاق الجميع واستصواب قائد الأسطول الإنجليزى (سـميث) ، وقطع بذلك دابر الفتنة.

زيارة بعض المزارات المباركة فى دمشق ونبذة عن أوصافها

من الأماكن المباركة الموجودة فى دمشـق : المرقـد المعطـر والمزار المنور للنبى يحيى (عليه السلام) داخل الجـامع الأمـوى وقـد زرناه مع السردار الأكـرم ، كما زرنـا المرقـد المـبارك للشـيخ ابـن عربى الأندلسى بجوار (سوق الشياة) ، وكذلك المقامات المسـماة (مقامات الأربعين) فى الجهة العلوية من جبل قيسون ، والمزار لامـع الأنوار لفخر سلاطين الأتابكة ومؤسس التربة النبوية المباركة المغفـور له (نور الدين الغازى) ، [١٣٩-ب] وزرنا الكثير والكثير من مزارات ومراقد المشايخ والأولياء واستمددنا بفيض روحانيتهم وآثـار أنفاسـهم المباركة .

وجو دمشق يسر الروح ، وحدائقها وبساتينها تدفع الغم عـن النفوس ، وتخترقها سبعة أنهار جارية ، يسرى ماؤها العذب إلى بيـت الغنى والفقير ، ومن المحال هناك أن تجد منزلاً بلا فسقية أو شادروان . وأسواقها وحوانيتها عامرة مزدهرة ، ورُبَطها ونُزُلـها ملجـأ ومـلاذاً للصوفية وأهل الحال ، ومقاهيها تسر روادها ، وحرارة مياه حماماتـها ولطافتها منقطعة النظير على وجه المعمورة .

وجملة القول أننا مهما استبحرنا وأسهبنا في مدح دمشق والثناء عليها فإنها جديرة بكل مدح وثناء ، علاوة على أنها قد اكتسبت رونقاً وبهاء جديدين بتوارد الجيش الهمايوني إليها .

تعيين رجب باشا محافظاً على يافا وشريف باشا محافظاً على غزة

صُرفت القيادة العامة للجيوش المتوجهة لغزو مصر من عهدة الجزار باشا ولم يعد هناك ضرورة لتعيين سر عسكر ، وبالتالي لم يعد هناك اهتمام بذلك الخصوص. [١٤٠-أ] ولما كان من الحتم تعيين محافظ لكل من يافا وغزة كل على حدة ، فقد عُين رجب باشا ــ والي سيواس ــ محافظاً على يافا، وعُين شريف باشا محافظاً على غزة وخلع عليهما،وأمرا بالمضي إلى منصبيهما.

خروج الجيش الهمايوني من دمشق

فيما بعد ، وعندما لم يعد هناك ما يستدعي مكث الجيش الهمايوني في دمشق ابتدأ جيش الإنكشارية الزحف منها جرياً على القاعدة القديمة . وبعد ثلاثة أيام وفي يوم الأربعاء (٥) من تشرين الأول الموافق(١٨) من جمادى الأول خرج السردار الأكرم بالعدة والعتاد بالجيش الهمايوني بعد أن استوفوا ثمانية وأربعين يوماً بدمشق . وخيمنا بقرية يقال لها (مجزة) على مسافة ساعتين ، وشرَفت الكثرة المطلقة

من الجيش بزيارة (دحية الكلبى) رضى الله عنه المدفـــون فـــى تلـــك القرية.

وبعد أن انتجعنا الكلأ يوماً ، نزلنـــا فىاليـــوم التـــالى بـــالمنزل المسمى (صعصعة) على مسافة ثلاث ساعات ، وفى اليوم الـــذى يليـــه عبرنا طريق (طىء) ونزلنا بخان (قنيطرة) ، وفى اليوم التالى مضينـــا من بين غابات البلوط وجبنا مواضع ومعابر كثـــيرة الصخـــور ، وفـــيرة الشجر حتى أقمنا للمخيم فى طرف الجسر المشهور بـــ (جسر يعقـــوب) على مسافة سبع ساعات .

منح محمد باشا ــ وكيل الخرج ــ رتبة مير ميران

أنعم حضرة السلطان على الحاج محمد أغا ــ الذى استخدمه السردار الأكرم فى منصب وكيل (الخرج) ــ [١٤٠-ب] بلواء القدس الشريف ، وعطف بإحسانه إليه برتبة مير ميران ، وقد خُلع عليه فى المنزل المذكور وكرم بعظيم التكريم .

ومن قبل استخدام الصدر الأعظم الباشا المذكور فى أمانة الشعير ووكالة الخرج والعديد من الأمور المماثلة ، فأبان عن كفاءة وتفان . وعلاوة على هذا فإنه بسبب عزل الجزار باشا من إيالة دمشق وإعفائه من القيادة العامة للجند ، فقد خلت مقاطعات غزة ويافا وجماركهما وأفضت ملكيتها إلى الحكومة ، ولأنه لم يكن هناك طالب آخر غير المشار إليه وهو من أهل غزة ومن وجهائها وأشرافها،فقد أحيلت إلى عهدته ــ بناء على رغبته الشخصية فى تلك المقاطعات ــ أثناء مقام الجيش الهمايونى بدمشق .

وقد أظهر المذكور إخلاصاً وتفانياً فى كافة المهام المتعلقة بإعداد ميرة الجيش وتعبئة اللازم من الجند ، وظهرت منه الكثير والكثير من الأحوال والتصرفات المرضية للسلطان مثل جلبه أمراء الدروز أمثال : مير بشير أوغلو وعربان الأطراف من أجل الوساطة فى الأمور المتعلقة بالتزام المقاطعات التى نُزعت من عهدة الجزار باشا ، وعليه فقد أنعم عليه ــ على النحو المحرر ــ برتبة مير ميران.

ولما غادرنا جسر يعقوب خيمنا فى طبرية على مسافة ست ساعات ، وفى طريقنا إلى ذلك المنزل زرنا (جب يوسف) الذى ابتلى

فيه سيدنا يوسف الصديق عليه السلام . [١٤١-أ] وفى اليوم التالى نزلنا بصدر الخان الشهير بـ (خان التجار) على مسافة ست ساعات، وفى اليوم الذى يليه قطعنا مسافة سبع ساعات وحططنا الرحال على أطراف قصبة (جنين) ، وبعد أن لبثنا بها يومين غادرناها إلى الموضع المسمى (خان المنارة) على مسافة خمس ساعات ، ويطلق على المنطقة من جسر يعقوب حتى هذه المرحلة اسم (ديار كنعان) .

وفى اليوم التالى نزحنا من خان المنارة ونزلنا بظاهر قرية (عين أسادر) ، وفى اليوم الذى يليه الموافق(٧) جمادى الأولى خيمنا فى موضع يقال له (كَول باشى) ، ويعد هذا الموضع المرحلة الواحدة والسبعين من الآستانة . وبعد أن مكثنا فى ذلك الموضع خمسة عشر يوماً ـ حسبما دعت الضرورة ـ سرنا لمدة ساعتين وذلك فى يوم (١٢) جمادى الآخرة ، وأقمنا الفسطاط فى ساحة حصباء مطلة على البحر على مسيرة نصف ساعة من يافا .

حبس توقان زاده أحمد بك

فى الوقت الذى كان فيه الجيش الهمايونى مقيما بدمشق لم يبرحها بعد ، تم استدعاء توقان زاده أحمد بك ـ من عائلات نابلس ـ وجرار زاده الشيخ يوسف وأخذ عليهما تعهد بابتياع البعير والمؤن اللازمة للجيش الهمايونى ونقدا الثمن مقدما .

[١٤١-ب] والحالة هكذا نزل الجيش الهمايونى يافا وأعد جرار زاده ما تعهد بإعداده من المؤن والبعير كاملة غير منقوصة وقام

بتسليمها وبذلك أدى مهمته على خير وجه ؛ فى حين أن توقان زاده لم يفِ بعقال بعيرمما كلف به . علاوة على ذلك أنه كلما شدد عليه دفتردار أول رشيد أفندى وأكد عليه ضرورة إنجاز مهمته ، أغلظ له الرد بإيعاز وتحريض من الجزار باشا . ولما تم التحقق من ذلك الأمر ، بات من اللازم ردع توقان زاده وتأديبه ، فأودع فى السجن إلى أن توفى فيه بعد فتح العريش ، وعهد إلى أخيه خليل بك بنفس المهمة . والحقيقة أن البك المذكور لم يأل جهداً فى أداء الخدمات اللازمة للجيش الهمايوني فحسنت سيرته ؛ ومن ثم كرم بمنصب رئيس بوابين فى الباب العالي .

مجيء حسين باشا ومصطفى باشا إلى الجيش الهمايوني

جاء (دكرمنجى زاده مصطفى باشا) والى مرعش ـ من الوزراء العظام ـ [٢ ١٤-١] وفندق زاده حسين باشا والى أدنه فى جم غفير من الفرسان والمشاة إلى الجيش الهمايونى ، والواقع أنهما كانا موضع تقدير السردار الأكرم ، فخلع على كل منهما فرواً سمورياً ثميناً وأغدق عليهما العطايا وفيض لكل منهما فسطاطاً يقيم به .

قدوم القائد سميث – من القادة الإنجليز – إلى الجيش الهمايوني ، وطلب الفرنسيين التفاوض بشأن الجلاء عن مصر

فى تلك الأيام ركب (سميث) ، قائد الأسطول الإنجليزى فى البحر الأبيض وهو من أساطين القادة الإنجليز ، البحر وحاز شرف تقبيل ذيل ثوب السردار الأكرم فى صحراء يافا .

وبناء على ما كان بين الدولة العلية وإنجلترا من تحالف وعلاقات الصداقة والود بالإضافة للخدمات التى أداها (سميث) بهمة عالية فى نجدة عكا والقضاء على ما استطاع القضاء عليه من السفن الفرنسية ، فقد خلع السردار الأكرم – حاتمى الكرم – عليه خلعة سمورية ثمينة وأهداه جوادا مطهما مزينا وصندوقا من الجوهر وصرة ثقيلة بها أمتعة متنوعة ، إلى غير ذلك من هدايا تليق بذلك القائد ، كما أجابه إلى طلبه بزيارة القدس الشريف ، وقيض له من يقوم على خدمته وإيفاء كل ما يلزمه ، [١٤٢–ب] وأمر بإكرامه غاية الكرم .

وزار القائد (سميث) القدس الشريف ولما عاد أدراجه إلى الجيش الهمايونى تلقى رسالة من (كليبر) سر عسكر الفرنسيين بعد رحيل بونابرت إلى فرنسا ، يعرب له فيها عن رغبته فى التصالح مع الدولة العلية والجلاء عن مصر ، ويطلب منه التوسط معهم فى أمر المصالحة ؛ وعليه استأذن سميث السردار الأكرم فى هذا الباب قائلا :

" إذا ما أذنتم لى بإجابة الفرنسيين إلى رجائهم ، أستدعى منهم الجنرال مينو فى عدد من عقلائهم ورؤسائهم " .

ولما كان من الممكن أن تندلع حرب تراق فيها دماء المسلمين وتزهق فيها أرواح المجاهدين، لم يكن السردار الأكرم يحبذ إشعال نار القتال عبثا ، وعليه تشاور مع رجال الدولة وأولى الرأى والمشورة واضعين فى الاعتبار أنه " لو كانت المشاجرة شجراً فلن تثمر إلا خنجرا"، فاتفق رأيهم على السماح للقائد سميث باستدعاء المذكورين للتفاوض فى عقد الصلح . وأنعم الصدر الأعظم على القائد المذكور — من جديد — بفروسمورى من متعلقاته الشخصية ، فمضى إلى سفينته مطيب الخاطر واتخذ طريقه إلى الإسكندرية للتفاوض فى عقد الصلح.

وبعد أن مكث الجيش الهمايونى ستا وعشرين يوما أخرى فى صحراء يافا ، [١٤٣-١] لم يعد هناك ما يستدعى بقاءه فيها ، فغادرها فى(١١) رجب . وخيمنا فى الموضع المسمى جسر دوبيل على مسافة ست ساعات وزرنا المزار لامع الأنوار لـ (دوبيل) من أخوة سيدنا يوسف الصديق عليه السلام ، واستمددنا ببركاته وآثار فيوضاته .

وفى اليوم التالى وجب علينا المضى إلى غزة على مسافة تسع ساعات ، وفى الطريق زرنا ضريح أبى هريرة رضى الله عنه ، وعندما بلغنا طرف جسر على مسافة ساعتين من غزة تراصت فيالق الإنكشارية على اليمين وعلى الشمال كسد من حديد وأدوا التحية طبقا للمراسم العادية ، ونزل الوزراء العظام وسائر خدمة الباب العالى وقادة الجند كل فى موضعه ، ونصبنا المخيم فى الموضع المسمى (حدائق الزيتون) بظاهرة غزة .

فتح واسترداد قلعة العريش

مكث السردار الأكرم عدة أيام انتظارا لورود خبر من القائد سميث الذى توسط فى أمر الصلح مع الفرنسيين ، ولما طال به الانتظار فى غزة ولم يأت أى خبر ولم يظهر أى أثر ، جدد النية على الجهاد ووطد العزم على استرداد قلعة العريش المجاورة له ، فسيَّر مصطفى باشا والى مرعش ، وحسين باشا والى أدنه ، ونصوح باشا والى مصر لفتح الموضع المسمى (بر المسعودية) على مسافة ساعتين جهة مصر؛ [١٤٣-ب] وذلك لقطع شرايين إمدادات الفرنسيين من جانب مصر عن حراس القلعة المذكورة ، وتم استيفاء اللازم من آلات الحرب والذخائر .

وبعد أن نصب المشار إليهم خيامهم فى المنزل المذكور ، أسندت القيادة إلى رجب باشا والى سيواس ، وسيق كافة الوزراء العظام والمير ميران الكرام وأغا إنكشارية الباب العالى وجنده كافة وسائر الفرق الأخرى من طوبجية وتوفكجية ولغمجية ومعهم كامل أسلحتهم وعتادهم .

وبعد أن أحاطوا بالقلعة من كل جانب دعوا من بها من الفرنسيين وقائدهم إلى التسليم بلا حرب على أن يسمحوا لهم بالانصراف أينما راموّا آمنين سالمين ، وأخبروهم أنهم إذا ما أبوا إلا القتال ، فإنه لن يلتفت إلى استئمانهم فيما بعد ويقتلون عن آخرهم .

وهنا زعم قائد الفرنسيين الموجود فى القلعة أنه لما انتُخب فى مقدار من الجند للمحافظة على تلك القلعة تكفل بالصمود أربعة أشهر على الأقل من الحصار الوبيل ، حتى إذا زحفت عليه دول التحالف

مجتمعة وبأى مقدار من الذخائر وآلات الحـــرب .[١٤٤-أ] واغـتر بمتانة القلعة وحصانتها فأعرب عن عظم قوته فى أمور المؤن والذخـائر وآلات الحرب والجند ، وهنا أشعلوا نار القتال من الجـــهات الأربعـة ، ورفعوا الأمر إلى السردار الأكرم ، فنفذ صبره من تجبر قـــائد العريـش وتطاوله على ذلك النحو ، واستعان بـــالله واســتمد بروحانيـــة رســوله (صلى الله عليه وسلم) ، واستبقى الجيش الهمايوني بأكمله فى غــــزة وخرج بنفسه منها على رأس عدد من جند بابـــه ومشـــاة الأرنـــاءوط ، وصوب عنان فرسه جهة قرية (خان يوسف) على مسافة ست ساعات، وفى اليوم التالى حول شكيمة مقصده نحو منزل الشيخ (زويد) علـــى مسافة أربع ساعات .

وفى اليوم الذى يليه الموافق(٢٧) من رجب قطع مسافة ست ساعات ، فأصبح على مقربة من العريش ، وشــــرف باســتقباله كافــة الوزراء العظام والميرميران الكرام وأغوات الإنكشارية وسائر قادة الجنـد وضباط الفرق ، [١٤٤-ب] ووصلوا به فى موكب حـــافل إلـــى أرض حصباء مطلة على البحر على مسافة ساعة مـــن العريـــش حيـث أقيـم الفسطاط . وبعد أن تشاور السردار الأكرم مع أرباب الحـــرب والضـــرب وبحث ـ بقدر الكفاية ـ كافة الأمور معهم ، انتووا القتال وحملوا علـــى العدو من كل جانب ، وبادروا إلى إقامة المتاريس العريضة والعميقة فـــى شتى أطراف القلعة المذكورة .

ومن ناحية فقد تترس أسود ساحة الوغى وأبطـــال الإنكشـــارية بمتراس دائرى بجوار القلعة ، ومن ناحية أخرى دنا كثير من الجند الذين أبدوا شجاعة فى القتال وحصدوا بسيوفهم الهام ، وحفن السردار الأكـــرم

كذلك لأسود المجاهدين حفنة من الدنانير خالصة العيار فلم يفتروا لحظة عن القتال .

وامتد القتال عدة أيام على ذلك النحو ، وذات يوم رأى السردار الأكرم بألمعية ذهنه وإشراق نفسه أن والى مرعش مصطفى باشا المقيم معه فى مرحلة المسعودية سوف يكون سبباً مستقلاً فى تذليل تلك العقبة وانفراج تلك الأزمة ، لما آنسه فى المشار إليه من صلابة وشجاعة وإقدام، فأمر بمجيء الباشا المذكور فى عدد من جنده والتقدم لمحاصرة العريش ، فصدع بما أمر به ، مرددا " الأمر منك ومنا الإجابة " ، وزحف للحال فى ظلام تلك الليلة الدامس وأصبح على بعد خطوات من قلعة العريش .

ولما ورد ذلك الخبر على السحر إلى السردار الأكرم (منصور اللواء) سجد لله وتضرع للواحد الأحد الذى لا شريك له وسأله النصر ، ثم بذل للجند ما قيمته مائة ألف قرش من الدنانير خالصة العيار، وأخذ يحض غزاة الموحدين على القتال وبذل لهم الدنانير خالصة العيار ، [١٤٥-١] والتى ينطبق عليها قوله عز من قائل { صفراء فاقع لونها تسر الناظرين } [البقرة: ٦٩].

وقصف غزاة المسلمين أبراج القلعة وصبوا عليها قذائف مدفعيتهم ولم يعد للفرنسيين قدرة على الاحتمال ، غير أنهم لجوا فى عنادهم ، وبينما كانوا يقاومون أشد المقاومة شن مصطفى باشا عليهم حرباً شعواء وأعطى علمه إلى علمداره وهجم بالجند مترجلاً ، وشاهد سائر طوائف الجند هذا منه فاشتعلت حميتهم وفى التو والحال اقتحموا القلعة من كل جانب بغتة مع أصداء التكبير ، غير مبالين بما

صبه عليهم الفرنسيون من نيران مدافعهم وبنادقهم وتقدموا وانقضوا على أبواب القلعة كملك الموت وهشموها بمعاولهم .[١٤٥-ب]

وعاين المشركون ذلك وأيقنوا أنه لا قبل لهم بالثبات فى القتال فجأروا بطلب الأمان وهم فى خوف واضطراب وهوان ، غير أن استئمانهم هذا لم يقبله المجاهدون بناء على ما سلف من المفاوضات ، وفى التو تسلق غزاة المسلمين الأبراج والأسوار كالعناكب وفى غضون ساعة من هذا اليوم المبارك الموافق يوم الإثنين (٣) من شعبان ، ركزوا أعلام النصر عليها وأسروا نحو مائة وخمسين من جند الفرنسيين وأعملوا سيوفهم فى البقية .

وفيما بعد قدم مصطفى باشا بمفتاح القلعة إلى السردار الأكرم وزف إليه البشرى بالفتح وقبل ذيل ثوبه ، فأوسعه كرماً وحدباً ، وطيب خاطره بفرو سمورى من متعلقاته الشخصية ، [١٤٦-أ] وعينه محافظاً على القلعة لحراستها وضبطها ، وأعاده أدراجه للإقامة بها . فقدم المذكور إلى القلعة وأقام بأحد أبراجها ودقت الطبول وعم الفرح والاستبشار ، وفى هذه الأثناء فجأة ، ولسبب لا يعلمه أحد حدث ــ اتفاقاً لقضاء المقدور ــ أن وقعت النار على مخزن البارود فى أحد أبراج القلعة، فنُسف البرج الذى كان يقيم فيه مصطفى باشا والبرجان الآخران الملاصقان له وانهدمت من أساسها ، ومات المشار إليه وأغلبية خدمة بابه وكثير من خدمة أندرون الصدر الأعظم . ولما علم السردار الأكرم بذلك تأسف أسفاً شديداً على مصرع وزير غاز مغوار، وتولى أمر تجهيزه بنفسه وبذل الصدقات على روحه ، وخلع على قادة جند

الموحدين وكل من أحضر أوعية الهام من الغزاة المجاهدين وحفن لهم حفنة من الدنانير .

ومن صباح ذلك اليوم إلى رواحه لم يفتر للحظة عن إفاضة سوابغ بره وإنعامه على جنده ، وسيَّر عثمان بك ، [١٤٦-ب] وهو من المشهود لهم بفرط الشجاعة والبسالة فى فتح تلك القلعة ، إلى الباب العالى بمفتاحها و(معروضات) تشتمل على كيفية فتحها ، وعلى هذا النحو زف البشائر إلى حضرة السلطان .

ولقد اشتهرت تلك القلعة فى الآفاق وذهب لها صيت بعيد بمتانتها ومنعتها ، إنها حصن متين مكين ، بنى بما لا يحصى كثرة من الصخور الصماء وزبر الحديد ـ كسد الإسكندر ـ من أجل دفع أيدى يأجوج ومأجوج عربان البادية عن ممالك الشام .

ولكى لا تتشذر دائرة مصطفى باشا رحمه الله ، تشفع كافة الأركان وقادة الجند وعموم الضباط لإعطاء الوزارة إلى كتخداه إسماعيل أغا ، غير أن الصدر الأعظم لم يجز منحه رتبة الوزارة السامية ، ورقاه إلى مير ميران ، فعاود المشار إليهم التشفع مرة ثانية ، فمنحه إيالة مرعش ورتبة الوزارة السامية وخلع عليه خلعة فاخرة.

كما أن ما أبان عنه متصرف لواء القدس الشريف محمد باشا من الميرميران ، من إخلاص وتفان فى خدمة الجيش الهمايونى ، [١٤٧-١] كان موضع تقدير واستحسان السردار الأكرم ورجال الدولة، وعليه أبقى فى منصبه ونال رتبة الوزارة السامية .

تاريخ فتح العريش

كان هناك تواريخ لا نهاية لها لكثير من الشعراء يزيد عددهم عن نجوم السماء حول فتح واسترداد قلعة العريش ، أقتبسُ منها تاريخين لسروری أفندی وهو فی رأيی سلطان المؤرخين وقدوة الشعراء المتأخرين :

قدم الصدر المختار بتراب قدمه . لا تحسبن

العريش هوجمت من قبل قردة يستهان بهم

ظل العداة تحت القدم فقُلتُ تاريخها

وُطِئَ الفرنسيون بالقدم واستردت العريش

تاريخ آخر :

عندما ألقى (سروری) السمع

فإن قائد أول الفتح دبج تاريخين فی دعائه

غلب الوزير على العريش فلينط حسامه

المسلول بالعرش افتح يا يوسف مصر فی ظل العزيز

وبعد فتح قلعة العريش أرسل السردار الأكرم فی طلب كتخداه ودفتر داره ورئيس الأفندية الذين كانوا قد أبقوا فی غزة ، ونصب رئيس وكلاء المحاسبة محمد راشد أفندی ناظرا للجيش الهمايونی . [١٤٧-ب] وفيما بعد قدم سائر خدمة الدولة وأرباب الجيش تباعا وبلغوا جميعا العريش ، ونزل كل فی موضعه .

عقد الصلح مع الفرنسيين

بث مجيء الجيش الهمايوني الرعب في بر مصـــــر ولـــم يعــد للفرنسيين وسع بالصبر والاحتمال ، فأرسلوا في طلب الصلـــح وتخليـــة مصر مرة رشدي أفندي من أفندية الديوان العالي والذي كان قد أســـروه في (أبو قير)، ومرة أخرى أرسلوا بوساطة مصطفى باشـــا ، خزينـــه داره، وجاءت مكاتباتهم تشف عن الود والصدقة ، غير أنه فُطـــن إلـــى بعض المحاذير في حديثهم عن الصلح ، فكتب السردار الأكرم إلى كليـــبر سر عسكر الفرنسيين أن كل ما تفوه به مصطفى باشا ورشدي أفندي إلى الآن حول الصلح كان من تلقاء أنفسهما ، وذكره أنهما لم يُفوضا من قِبَل الدولة العلية قطعاً ، وكتب إلى مصطفى باشا يفيده بنفس الأمر .

وفي الوقت الذي كان فيه الجيش الهمايوني معسكراً في يافا من قبل ، قدم القائد الإنجليزي سميث إلى مخيم الجيش الهمايوني وأوضـــح أنه اتصل بالفرنسيين ، وتباحث معهم من أجل تخلية مصر، [١٤٨-١] وذكر أنهم سوف يوجهون مبعوثين مفوضيـــن مـــن طرفـــهم ، وتبـــادل الرسائل غير مرة مع سر عسكر الفرنسيين ، وأنهم سوف يعينون اثنيـــن من كبار قادتهم للتفاوض .

وتم تعيين موضع مناسب للتفاوض ، وفُوض مصطفى رشيد أفندي الدفتر دار ومصطفى أفندي رئيس الكتاب من جهة الصدر الأعظم ؛ فـــي حيـــن حضر من طرف الفرنسيين القائد (ديزيه) و(بوسليغ) وآخـــرون مـــن رؤسائهم ، وعين الصدر الأعظم مكتوبجيّة مصطفى شجيع أفندي مضيفـــاً للمذكورين ، ووصاه بإكرامهم غاية الكرم والحدب بهم كل الحدب .

ثم كان التفاوض ، وصاغ الفرنسيون ــ خبيثو النيـة فاسدو الضمير ــ كل مادة من مواد الاتفاق صياغة صعبة تخدم أغراضهم ، غير أنه بُدل وألغى الظاهر ضرره منها وأبقى من المواد ما لا خوف منه .

وفى يوم (٢٨)من شعبان المعظم صدر قـــرار تخليـــة مصـــر بشروط معينة، غير أنه لما كانت عاقبة الصلح المذكور مدعـــاة للفتنـــة والشغب واللجة ؛ فقد سُودت شروطه وتفصيلاتها وحجبت عن العامـــــة ، [١٤٨-ب] وأشيعت بعض الشروط المذكورة وكان من أبرزها :

تخلية مدينةَ مصر فى غضون واحد وأربعين يوما اعتباراً مـــن يوم التصديق على ذلك الاتفاق ، وإخلاء قطيا والصالحية فـــى غضـــون ثمانية أيام أو عشرة على حد أقصى ، وذلك أيضـــا اعتبـــاراً مـــن يـــوم التصديق على الاتفاق .

وكذلك إخلاء المنصورة فى موعد أقصاه خمسة عشـــر يومـــا ، ودمياط وبلبيس فى غضون عشرين يوماً ، وإخلاء السويس قبل إخـــلاء مدينة مصر بستة أيام ، وإخلاء المحلات الكائنة فى الضفة الشرقية مـــن النيل تباعاً فى غضون عشرة أيام ، والدلتا ــ [١٤٩-أ] أى الأقـــاليم المحيطة بنهر النيل من جوانبه الثلاثة ــ يكون خلوها فى غضون خمســة عشر يوماً بعد إخلاء مصر ، والجهة الغربية وتوابعها تبقـــى فـــى يـــد الفرنسيين ريثما يتم تخلية مصر .

ولما كانت الفيوم وسائر محلات الغربية سوف تظل فى حـــوزة الفرنسيين لحين انحدار جيوشهم من الصعيد ، فمن الممكـــن ألا يتيســـر إخلاء جهة الغربية وتوابعها إلا بعد انتهاء المهلة المعنية وعليه تُخلـــى أولا بقدر الإمكان . وهكذا تم التصديق على الصلح ، وبعد عشـــرة أيـــام

تبادل طرفا التفاوض وثائق التصديق على الاتفاق في حضـــور الســـردار الأكرم .

وفي يوم الاثنين(٩) رمضان عقد ديوان عال مخصوص ، وفـــي الفسطاط العظيم للسردار الأكرم ، اصطف بانتظام الوزراء العظام ورجـــال الدولة العلية ــ أبدية الدوام ــ وقادة سائر الجيوش المنصورة وضبـــاط الفرق العسكرية وأرباب الدولة عن بكرة أبيهم ، واصطف كذلك أغـــوات الصدر الحظم متقلدين أسلحتهم المرصعة ، وكذلــك ســـائر جنـــد الفـــرق العسكرية، كل في موضعه في سكون وهدوء .

وفي تلك الأثناء قدم مفوضو الطرفين وأجريت المراسم اللائقـــة حسب آداب التشريفات العثمانية وقواعدها المرعيـــة ، وبعـــد احتســـاء القهوة والأشربة ، خلع عليهم خلع السمّور الثمينة ، وألبـــس تراجمـــة الفرنسيين وكبارهم الفرو على حسب مراتبهم ، وخلع كذلك على القـــائد الإنجليزى سميث فرو سمورى ، وأعيد الجميع إلى سرادقاتهم على جيـــاد مطهمة ، وأطلقت المدافع والبنادق ابتهاجاً بذلك، وزفت التهانى إلى جنـــد الغزاة المسلمين ، [١٤٩-ب] ووجهت وثيقة الاتفاق مشفوعة بتحيـــة السردار الأكرم إلى جهة السلطنة السنية لزف بشريات ذلك إلى أهلها .

غير أن الفرنسيين وإن كانوا قد تظاهروا بالإصرار على العـــودة إلى بلادهم بسفن الدولة العلية في موعد لا يتجاوز المهلة المعينة لتخليـــة مصر ، وقاموا بتسليم وثائق الاتفاق المنتظر توقيعها من قبـــل الدولـــة ، فإنه لم يكن من الجائز الاطمئنان إلى مواثيقهم والاغترار بمصالحتهم وهم قوم لايطابق قولهم فعلهم ، لا يتورعون عن ارتكاب الفواحش والمنكرات، علاوة على أن تطهير أرض مصر من غثاء الأجانب كان منوطاً بإرســـال

الدولة مدداً جديداً . وقد كتب السردار الأكرم بذلك إلـــى العتبـــة العليـــة الشاهانية ، ثم أذن لمفوضى الفرنسيين بالانصراف .

خروج الجيش الهمايوني من صحراء العريش ونقض الفرنسيين الاتفاق ، وهزيمة الجيش ورجوعه إلى غزة

لم يعد هناك مجال للشك فى الصلح فى الظاهر ، ولم يعد ثمة ما يستوجب مكث الجيش الهمايوني ، فأرسل السردار الأكرم نصـــوح باشـــا والى مصر فى العدة المتعينة من الجند والعتاد لتسلم قطيـــا والصالحيـــة المقرر إخلائهما من الفرنسيين فى البداية ، [١٥٠-أ] ثم شاور أولى الرأى والمشورة فى توجه الجيش الهمايونى صوب مصر . ولما اتضـــح للسردار الأكرم أن الفرنسيين قومٌ أهل لؤم وخســـة ، لا يطـــابق قولـــهم فعلهم، ولا يوافق يومهم غدهم ؛ أصبح لا يثق ولا يطمئن إلـــى الصلـــح معهم ، فكان كلما أعد العدة واتخذ الأهبة ، تردد بين المكـــث والتحـــرك قائلا : " إن الاستعجال أمر مستجلب الندامة " .

غير أن بعض الرجال من أولى المنطق الحصيف بينوا له أنه لم يسبق أن نقض الاتفاق بعد ميثاقه بين الدول منذ قديم الأزل ، وأن ذلـــك أمر غير مسبوق المثال فى أى تاريخ من التواريخ السالفة . إضافة إلـــى هذا ، فقد صرفوا نظره عما كان يقلقه من طول فترة نقل المدافع وســـائر آلات الحرب وتعويض ما نقص من الجمال فى الجيش الهمايوني .

واضطر إلى التحرك سريعاً بعدد من المدافع الخفيفة وقدر مـــن الأسلحة والعتاد ، وأمَّر محمد صادق أغا ــ بيك باشي ــ عبد الجبار زاده على عدد وفير من فرسانه للحفاظ على قلعة العريـــش ، وبعــد أن زوده بكافة الوصايا اللازمة ، لزم التحرك إلى الصوب المقصود ، [١٥٠-ب] فقام للسير فى المقدمة حسين باشا وإسماعيل باشــــا ــ مـــن الـــوزراء العظام ـــ ، وجيش الإنكشارية وسائر الفرق العسكرية ، ومـــن ورائـــهم خرج السردار الأكرم بالعدة والعتاد من صحراء العريش مصطحباً الجيـش الهمايونى ، وتوقفوا عند (آبار المســـعودية) علـــى مســـافة ســـاعتين ونصف لإفاضة قربهم بالماء .

ولما كان ذلك الموضع أرضاً حصباء على شاطىء البحر ، فإنــه أينما احتفرنا شبراً واحداً ، [١٥١-أ] انبجس منه الماء أعـــذب مـــن كافة مياه الآبار فى تلك الجهات ، فشربنا جميعا وأفضنا القـــرب . وفـــى اليوم التالى انتهينا إلى صحراء وسيعة الأنحاء عديمة البركة يقـــال لـــها (برقت) ، وكانت صحراء جرداء غير ذات زرع ولا ماء .

ولما كانت تلك المفازة منزلاً موحشاً ، فإنه من غير المحتمل أن يكون قد سكنه من قبل كائن حى من وحش أو طير منذ بدء الخليقة إلـــى يومنا هذا . إنها صحراء مهولة سبخة ، والقول بأن صحراء (نصيبين) مقارنة بها ، تعد روضة من رياض الجنة ، قول خال مـــن المبالغـــة أو الإطراء .

وفى اليوم التالى برحنا ذلك المكان وسرنا ست ساعات متواصلة إلى أن بلغنا حصباء تسمى (بئر العبد) ، كانت عبارة عن بضـــع آبـــار

آسن ماؤها ، غير صالحة إطلاقا للشرب ؛ ومن ثم سقينا الدواب وكفى ، حتى إذا كان الغد حططنا الرحال فى قطيا على مسافة خمس ساعات.

وتنتشر بالمرحلة المذكورة الآبار وغابات النخيل ، وعلى مسافة ثلاث ساعات يبدو مرفأ يسمى (طينة) ، وهو مكان آهل بالسكان ؛ ولذا فإن بعض البدو ممن هم كالأنعام ، كانوا يتخذون ذلك الموضع مصيفاً ، فيختلفون إليه وقت نضج التمر ويقيمون به . ولما كان موضعاً كثير الرمال ، فإن ملاعين الفرنسيين كانوا يحتفرون فيه الخنادق لمداهمة عسكر المسلمين وقطع طريقهم ، وكانوا قد شادوا أكثر من ثكنة لإيواء عدد من شياطينهم .

والحالة هذه أخلى الفرنسيون قطيا طبقاً لشروط الاتفاق ، وانكشحوا عنها عائدين إلى مصر . [١٥١-ب]

ولدى مغادرتنا قطيا غاصت سفن الصحراء فى رمال بحرها العميق مسافة ست ساعات إلى أن حططنا الرحال بمرحلة تسمى (بئر دويدار) ، ومياه المرحلة المذكورة مرة كالحنظل أو هى أشد مرارة، أما ينبوعها فهو كينبوع (يحيى باشا) ، ليس به قطرة ماء . لذا سقينا دوابنا بعد طول مشقة وعناء ، وقضينا الليلة هناك ، وفى اليوم التالى نصبنا الفسطاط فى موضع يسمى (قناطير) . وبتلك المرحلة بحيرة متشعبة عن النيل ؛ ولذا تكون مياهها ــ فى بدء الفيضان ــ صالحة للشرب ، ثم تصبح فيما بعد مرة ، كريهة الطعم بسبب ملوحة التربة ، فسقينا الدواب العطشى منذ ثلاثة أيام ، ثم اتجهنا إلى قصبة الصالحية على مسافة ست ساعات ، وخيمنا فى ساحة كثيرة النخيل تقع لصق الصالحية .

ولما كان من اللازم الإبطاء عدة أيام ريثما يحل اليوم المتفق عليه لتخلية مصر والذى كان قد تحدد بيوم (٢٧) من شوال حسبما نص الاتفاق ؛ أرسل السردار الأكرم طوسون محمد أغا رئيس الجبجية إلى جهة مصر ، [١٥٢-١] لابتياع سائر المؤن والكلف والمآكل اللازمة للجيش الهمايونى فى مصر ، وكذلك تسوية بعض الأمور المتعلقة بالجمارك .

كما أصدر أمراً جليل الشأن باستنابة سيد مصطفى باشا عنه لضبط أمور المملكة وإعادة الانضباط اللازم لها ريثما يدخل مصر ، كما عين نائباً على المحكمة وناظراً للضربخانه ، وبذل جهداً مشكوراً فى تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية الغراء .

وبعد عدة أيام من مقام أمير الجيوش فى الصالحية ، غادرها إلى القرين على مسافة ست ساعات وأقام بها عدة أيام ، ثم اتجه إلى قصبة بلبيس على مسافة ست ساعات ، وأقام بها أياماً عدة بنية إتمام أيام المعاهدة ، ثم مضى صوب قرية (الخانكاه) على مسافة خمس ساعات.

وبعد مزايلته بلبيس بساعة جاءه خطاب من سيد مصطفى باشا الموجود فى مصر يخبره فيه أنه تلقى رسالة من القائد (سميث) قائد الأسطول الإنجليزى فى مياه إسكندرية يطلب إليه فيها أن يفتك بالفرنسيين فتكاً ذريعاً بلا هوادة متى خرجوا إلى البحر الأبيض ؛ [١٥٢-ب] ويؤكد له أن القائد المذكور قد تواطأ مع الفرنسيين ، وبذا أفاده أنه لن يمكن تخلية مصر ما لم تدفع هذه المشكلات الصعبة ، وأشار عليه بحتمية بحث التدابير اللائقة ، وبناء عليه ، بعد أن قطع أمير

الجيوش ساعة من بلبيس ، فطن إلى أن عودته إليها ثانية مثـــار للغـــط والأراجيف والوحشة بين الجند ، فآثر أن يتكبد المشاق حتى حط الرحـــال فى الخانكاه .

ولا يزال الحلفاء[1] يبسطون المقدمات ويقيمون الدليل بعد الدليل على أنه لن يظهر من الدولة العلية أى تصرف يخرق ذلك الصلح ، حتـــى ورد إخطار من كليبر يطلب فيه إعادة التفاوض ، ومن أجل تبديد مخاوفه وبث الطمأنينة فى نفسه، تم تعيين مفوضى الدولة العلية كالسابق .
هذا فى حين أنه فى ليلة (٢٤) شوال بعث كليبر ــ سر عسكر الفرنسيين ــ رسالة ممهورة إلى الوزير نصوح باشا الذى كان يقيم علـــى مســـافة ساعة من القاهرة ، لإيصالها إلى الصدر الأعظم وعاد حامل الرسالة فـــى الحال دون أن يلتفت إلى تلقى الرد عليها ، فأرسل نصوح باشـــا بـــدوره الرسالة المذكورة إلى معسكر .
الجيش الهمايونى ، [١٥٣-أ] وعندما أمعن فى ترجمتها ، تبين أنـــها من كليبر وأنه يفسخ فيها المعاهدة من جانبه ، ويتنصل منها ؛ وعليه لم يعد هناك بد من التصرف على هدى وبصيرة قدر الإمكان .

وقد بدا من تحركات أعداء الدين أنهم ينوون الإغارة على غزاة الموحدين ما بين عشية وضحاها ، فبات لزاماً إخطار الـــوزراء العظـــام وأغا الإنكشارية وسائر قادة الجند فى شتى الجهات بما حدث ، وأرســـل السعاة على جناح السرعة إلى نصوح باشا المقيم على مقربة من القاهرة

١- يقصد المؤلف بالحلفاء هنا الدولة العثمانية وإنجلترا .

وأغا الإنكشارية والوزير حسين باشا وإسماعيل باشا القريبين من جيش الإنكشارية ولم يتراخ فى إحاطة الجند بما حدث .

غير أنه إلى أن وصلت رسالة كليبر الملعون إلى نصوح باشا ومنه إلى الصدر الأعظم على مسافة ست ساعات أخرى ، وتُرجمت واطلع على فحواها كان قد تضحى النهار ، فتزامن وقت وصول هذا النبأ المريع مع هجوم الفرنسيين على المسلمين .

وبينما كان المسلمون لا علم لهم بنقض الفرنسيين المعاهدة ، مطمئني البال إلى الصلح ، [١٥٣-ب] دهم الفرنسيون جيش الإنكشارية المرابط فى المطرية على حين غفلة ، فتترسوا بالمتاريس وناوشوهم القتال وأرسلوا على الفور إلى أمير الجيوش يعرفونه بالحال ، فهب بمن معه من الجند وساروا مبادرين بنجدتهم . غير أنه قبل أن يصل المدد إلى جيش الإنكشارية كانوا قد استبد بهم التشتت والتضعضع، وجرح حسين باشا الذى كان قد هب لنجدتهم واستبسل فى قتال الفرنسيين ، وجرح كذلك جم غفير من جند إسماعيل باشا وحسين باشا .

ولما عاين السردار الأكرم هذا وأدرك أن جميع الجند قد تشذروا ولحقت بهم الهزيمة ، سعى فى حضهم على القتال والثبات فى وجه الأعداء ، وأقسم لهم بغليظ الأيمان أنه لا قدرة للفرنسيين على مصاولة الإسلام ، وأنهم ليس بوسعهم الصمود فى مواجهة غزاة الموحدين ، وأن النصرة للجند المسلمين على المشركين إذا ما تحلوا بالجرأة والثبات . غير أن الجند كانوا قد تشذروا وانفرط عقدهم وتركوا مدافعهم وسائر عتادهم الحربى نهباً للعدو [١٥٤-أ] هذا من جهة ، ومن جهة

أخرى فر بعض الجند الجبناء معدومو الحمية قاصدين الخانكاه ، فلحق بهم الفرنسيون وقاتلوهم ثمان ساعات .

وفيما كان السردار الأكرم رابط الجأش وفى معيته القليل من خاصة خدمه أقبل عليه ممش أفندى الأرناءوطى ـ بلوك باشى البوابين ـ يستغيث به ويخبره بأن أعداء الدين قد تحلقوا حولهم من كل جانب ، [١٥٤-ب] وأطلقوا عليهم المدافع إطلاقاً مروعاً . ولما أصر الأفندى المشار إليه على التضحية بنفسه قائلا :" لم يعد لى من أرب سوى نعمة الاستشهاد فى سبيل الله ! " ، واتفق مع سائر خدمه على الخروج إلى العدو واستقر منهم العزم على ذلك ، حملوه على جواد قسراً قائلين له : " أترضى أن تكون أنت السبب فى هلاك هذه الوفرة من خلق الله " وأرجعوه أدراجه ، وولاه السردار الأكرم طليعة الجيش ، واهتم بنفسه بشحذ عزائم الجند والشد من أزرهم . وبقيت فئة قليلة من جند المؤخرة ريثما يصل السردار الأكرم إلى بلبيس ، وبعد أن استرحنا مع السردار الأكرم والجيش الهمايونى فى المرحلة المذكورة ، مضينا إلى القرين . ولعدم قدرتنا على التلبث بها ، فإنه لم يسعنا إلا مواصلة السير إلى الصالحية .

ولما كان من قصد الصحراء فاراً قبل وصول السردار الأكرم إلى الموضع المذكور ، يبلغ ثلث مقدار الجيش الهمايونى ، فقد أخذ الثلثان الباقيان بالوعد تارة ، وبالوعيد تارة أخرى ، ونُصب رجب باشا ـ من الوزراء ـ قائداً على نحو أربعة آلاف من الفرسان وجند المشاة ، لملاقاة الفرنسيين ، وأمر بالمضى إلى القرين ، فاشتبك ومن صحبه من المير ميران والجند بكتيبة فرنسية على مقربة من القرين .

ولما التقى الجمعان ظهر المسلمون على الفرنسيين بعون خير الناصرين وسلبوهم مائة طلقة مدفع ، وثلاثة مدافع ، وأوشك الكفار على الفرار ونكسوا أعلامهم ورفعوا بيض الرايات خدعة . ولما لم يكن لقائد الجند المسلمين رجب باشا الحنكة فى دروب الحرب والقتال ، ولم يكن على دراية بمكائد العدو الماكر ودسائسه ، فقد انطلت عليه تلك الخدعة ، ولم يفطن إلى حقيقة الأمر، فكف يده عن القتال ، وعندئذ لم أعداء الدين شعث جندهم ونظموا صفوفهم ، ودهموا المسلمين بغتة ، وأطلقوا عليهم نيران مدفعيتهم إطلاقاً ذريعاً ، فوهنت عزائمهم وثبطت هممهم ولم يسعهم إلا الفرار والارتداد إلى الصالحية ، وذلك مصداقاً لقول القائل :

إن ربط الجأش فى وقت الحيرة أمر عسير

وليس فى الإمكان السيطرة على الجيش المتقهقر

اجتمع السردار الأكرم برجاله لتدراس الموقف وتبادل الرأى والمشورة ، وفيما كانوا يتشاورون ويأتمرون ، برز عمر أغا ــ أغا الكشارية الباب العالي ــ [١٥٥-١] وقال : " سيدى لا ينبغي الاشتباك مع العدو فى حرب بهذه العساكر المقهورة ، أما تدبير المضى إلى مصر عن طريق الجبل ، فتدبير عقيم ، لا طائل تحته فى وقت نجهل فيه أحوال مصر وسكانها ، ولا نملك فيه ما يفى بالحاجة من الزاد والمؤن ، وبقطع النظر عن أن لقاء العدو بجند منهزمين لن يجدى فتيلاً ، فسوف يلحق العار والشنار مجدداً بالدولة العلية ويسقط هيبتها ؛ وعليه لابد لنا من القفول إلى غزة ، لأن هذا أنسب لنا وأفضل الآن ، هذا هو

رأى كافة العساكر ومطلبهم ". ولم يكن ثمة مناص من ذلك ، فأمر الصدر الأعظم بالرجوع إلى غزة .

ولما لم يكن فى الوسع تدبير أى نوع من الزاد والمؤنة فى الصالحية ، فقد اقتات كل منا بما تبقى فى قعر خرجه من فتات الخبز وقصدنا الصحراء فى تشتت وانكسار ، وطويناها متجهين صوب غزة ولم نكن نحفل بتعيين المنازل والمراحل ، وأسرعنا فى السير ولم نكن نتوقف إلا قليلاً للصلاة وقضاء بعض الحاجات . وفى اليوم الثانى من شهر ذى القعدة ، وافينا غزة ولبثنا بها . وما تكبدناه من مشاق وصعاب فى عودتنا هذه إلى غزة ، وشدة حرارة الصحراء يعد أمراً لا سابقة له فى التاريخ ، [١٥٥-ب] وكان رغيف من الشعير فى حجم الكف غاية ما ترومه الروح ، كما كان قدح ماء مكدر بالطين ، آثر عند الجند من ماء الفردوس .

حتى إن السردار الأكرم كذلك كان يسد رمقه بكسرة خبز طيلة يومين ، وكأنه يصوم صوم الوصال واغترف غرفة ماء من ماء الآبار الآسن فى صحراء التيه سالفة الذكر ، ليطفىء نار ظمأه ، وخلق كثير من الجند فاضت روحهم فى تلك الصحراء المهولة المهلكة .

قطعنا طريق الصحراء بعد أن قاسينا شتى صنوف العناء والشدة ، ولما اقتربنا من غزة أرسل السردار الأكرم يستعجل محمد باشا متصرف لواء القدس ــ والذى كان أحد خاصة خدمه القدامى ــ ليأتى لاستقباله ، فصدع بالأمر ، وبلغ أربه بتقبيل ركاب الصدر الأعظم ، ولا يزال يجتهد ويتفانى فى تدبير اللازم من الكلف والمآكل والجياد للجيش الهمايوني ،

وإهداء الهدايا المناسبة إلى سائر رجال الدولة ، وخدمة الدائرة السنية ، حتى أدى مهمته كأحسن ما يكون أداء المهمات .

ولما توارد الجيش إلى غزة ، فإن اشتداد الحال بالجند وشعورهم بشدة الضيق لتأخر رواتبهم وتراكمها ، وتضرعهم إلى السردار الأكرم ليسمح لهم بالعودة إلى ديارهم ، [١٥٦-أ] قد ألان عريكته لهم وحرك شفقته عليهم . ولما أدرك السردار الأكرم أنه من غير المأمول أن يظهر من أولئك الجند المقهورين المكدوديين أية أمارة للشجاعة ، أذن لكافة قادة الألوية وجند الإقطاعيات وفرسانهم وبيكباشيتهم بالانصراف ، وسيرهم إلى ديارهم محققاً آمالهم في لقاء زوجاتهم وذراريهم .

ومع أن الحاج محمد باشا قد تفانى في تدبير المؤن وسائر الأمور الأخرى ، غير أنه لوحظ أن جلب المون لن يكون سهلاً وذلك بسبب بعد محمد باشا عن مرفأ غزة ، وعلى الرغم من أنه لم يأل جهداً ولم يتقاعس مطلقاً لدى صدور الأمر الآصفي له ، فقد خرجنا مع السردار الأكرم من غزة بعد أن لبثنا بها اثنى عشر يوماً ، وقصدنا يافا ، وفي(٥) ذي القعدة نصبنا الفسطاط في الطرف العلوي منها في أرض حصباء مطلة على البحر .

أحوال وزراء الجيش الهمايوني

تبين جلياً أن رجب باشا وحسين باشا وإسماعيل باشا وشـريف باشا ، من الوزراء العظام الموجودين فى الجيش الـهمايوني سـاقطي الهمة عديمى النفع ، لن يغنوا عن الجيش الهمايونى فتيلاً ، هذا فى حين أنهم كانوا يمثلون عبئا ثقيـلاً بمؤنـهم ومآكلـهم ومرتبـات جندهـم . [١٥٦-ب]

وكان فى كل يوم يصدر منهم فعل السوء والنقائص ، وبسـبب ذلك أذن لهم السردار الأكرم فى الرحيل جميعاً إلى مناصبهم . ولدى توجه كل منهم إلى منصبه ، أقدمـوا علـى ارتكـاب الكثـير مـن الأفـاعيل المستقبحات التى تتنافى مع رضاء الدولة العلية ، كما اسـتطالوا علـى عباد الله وأرهقوهم ظلماً وعسفاً ؛ ولذا استصدر الصدر الأعظم فرمانـاً بعزل رجب باشا من الوزراء بتهمة انخداعه بتنكيس الفرنسـيين أعـلام مكيدتهم ، حينما اشتبك معهم على مشارف القرين وأوشـك الفرنسـيين على الانحدار والفرار ، مما بث روح التراخى والفتور فى نفوس الجنـد وأدى إلى تفرقهم وتشذرهم بعد أن كانوا فى بداية المعركة ظاهرين علـى عدوهم . وتم تحديد إقامته فى حلب الشهباء .

وعندما وصل إسماعيل باشا إلى منصبه فـى مرعـش ، كـان السردار الأكرم قد بعث برجاله سراً إليها حاملين أوامره إلـى متسـلمها بايزيد زاده ووجهاء المملكة وزعماء عشائر التركمان والأكراد الرحـل ؛ وعليه ما إن انتهى إسماعيل باشا إلى الموضع المسمى (قبـو جـام) بالقرب من مرعش ، حتى احتاطوا به من كل جانب وهاجموه ، فلم يقـدر

على ردهم ، هذا فى حين أنه كان بجواره ما يربو على ألفين من جند بابه ، [١٥٧-١] غير أنهم لم يجدوا متنفساً للنجاة من حصار الأرناءوط الثمانمائة الذين وفدوا من جهة الروملى مع المرحوم دكرمنجى زاده مصطفى باشا ، فأعمل السيف فى رقابهم جميعاً وفر شعثهم إلى النواحى والأطراف حفاة عراة .

غير أن نحو خمسة من فرسانهم تأتى لهم تبديل بزتهم والانسلال من بين الجند والفرار معتصمين بالمدعو (عينتابى على حسين) ، وتمسحوا به وأظهروا له ذلهم وضعفهم ، فبعث بهم إلى شقى طالح آخر يسمى (فتاح أغلو) من أكراد جبل (كاوير) ، فى خفارة عدد من رجاله ، وبعد أن لبثوا عنده زمناً تسللوا إلى سفينة فى سواحل (بياس) ، حملتهم إلى الجزار باشا يستجيرون به فأجارهم .

ولما وافى حسين باشا كذلك ضواحى حلب اتفق أن شايع إسماعيل باشا على الإثم والعدوان ، ونهضا لإثارة الفتن والقلاقل . غير أنه فى نهاية المطاف حبطت مساعيهما ولم يسفر ما دبراه عن أية نتيجة، ومضى إسماعيل باشا إلى جهة مرعش ، ومضى حسين باشا إلى منصبه فى إيالة الرقة .

وإن كانت تصرفات حسين باشا وأحواله تستوجب القضاء عليه واستئصال شأفته ، فإن الظروف لم تكن مواتية ؛ [١٥٧-ب] ولذلك غُض الطرف عن مساوئه لفترة وأسندت إليه إيالة ديار بكر ، ولا يزال يتحايل وينصب له الفخاخ بزخرف القول ، حتى أسند إليه منصب والى سيواس ، فقدم إليها . وكان قد أرسل من قبل أمر القضاء عليه إلى طيار

محمود باشا والى طرابيزون ، وكوسه مصطفى باشا والـــى ســيواس ، وعبد الجبار زاده ، فزحفوا عليه من كل حدب وحاصروه وضيقوا عليــه الخناق فى قرية (يكى خان) ومعه عدة آلاف من فرســـانه ومشــاته ، وبعد بضعة أيام من القتال هرب فى نحو عشرين من فرســانه ، فتعقبــه فرسان عبد الجبار زاده ، وظفروا به وقطعوا رأسه وأرسلوها إلى البــاب العالى .

وعلى الرغم من أنه لم تكن هناك نية سوء بشأن شريف باشا ، فإنه عندما كان ذاهباً إلى منصبه فى إيالة آدنه ، ذهبت بـــه الــهواجس مذاهبها ، فانصرف عن الذهاب إلى منصبه وعطف عنان عزمـــه نحــو مسقط رأسه (آخسخه) ، مخالفاً بذلك أمر الصدر الأعظم ؛ ولذا خُلع من الوزارة ، ثم أعيد إليها ، ثم خلع ثانية . وفى آخر الأمر عندمـــا أســندت إيالة (جلدر) إلى (آجارلى وزير سليم) باشا ، لم يطمئن المشار إليــه فى تلك الجهات ، ففر إلى إيران ، ولطخ شرفه بعار اللجوء إلى الخوانين الخاسرين حرصاً منه على عرض الدنيا الفانية واستقر به المقام بجهـــة (روان) .

وحيث أن تفصيلات تلك الأحداث مدونه ومسجلة فـــى ســجلات وقائع الدولة العلية ، [١٥٨ - أ] اكتفينا بهذا القدر الموجز .

ذهاب رشيد مصطفى أفندى إلى الآستانة

أرسل السردار الأكرم الدفتردار الأول (رشيد مصطفى أفندى) ـ الذى عُرف باستقامته وتفانيه فى خدمة الدولة العلية ـ إلى الباب العالى لإخبار السلطان بعودة الجيش الهمايونى إلى يافا منكسراً ، وإطلاعه على كافة الوقائع والأحداث جملةً وتفصيلاً . وقد أرسل الأفندى المذكور إلى العتبة العلية السلطانية شريطة أن يذهب ويئوب فى غضون شهرين ، وتولى راشد أفندى الدفتر دارية بالوكالة.

وسير السردار الأكرم حشداً من الجند فى معية على باشا شقيق سيد على القبودان ـ من المير ميران الذين مع الجيش الهمايونى ـ إلى جهة مصر القاهرة لنجدة الكتخدا عثمان أفندى . واقترب المشار إليه من أبواب القاهرة غير أنه لم يتأت له إتمام مهمته ؛ إذ إن الفرنسيين كانوا فى ذلك الحين يحكمون قبضتهم على أبواب القاهرة ويبسطون سيطرتهم عليها ، وعليه اضطر إلى الارتداد على عقبه ، بيد أنه قد نالته شدة بسبب كثرة ترحاله فى الصحراء ، فأذن له الصدر الأعظم بالسفر إلى الآستانة .

دخول كتخدا عثمان أفندى ونصوح باشا القاهرة وخروجهما منها بعد معارك تعاقبت مع الفرنسيين

على نحو ما تقدم ذكره ، نقض الفرنسيون العهد ،[١٥٨-ب] ودهموا جيش الإنكشارية وبعد أن تصدى لهم الإنكشارية زمنا يسيراً ولوا الأدبار إلى الخانكاه ، وعندئذ اقتتل عدد من مشاتهم الشجعان ، وتنحوا عن جهة الفرنسيين وانحازوا إلى المطرية ، وأخبروا السردار الأكرم أن أهل مصر يترقبون قدوم المجاهدين لدرجة أنهم فتكوا بمن وجدوه داخل البلدة من الفرنسيين وأعلنوا الجهاد فى سبيل الله ، وأن خلقاً كثيراً من مشاة الإنكشارية على أهبة الاستعداد ، فشرح السردار الأكرم ذلك الأمر لكتخداه عثمان أفندى واجتمع بنصوح باشا وأمراء مصر وقال لهم : " حينما تُشغل فيالق الفرنسيين بملاقاتنا ، أسرعوا أنتم من طريق الجبل واستعينوا بمشاة الإنكشارية التى قيل إنهم رابطوا بالمطرية ، ولو بذلتم الطاقة فى دخول مصر القاهرة واستبسلتم للاستيلاء عليها ففى يقينى أن دخولها أمر جد يسير " .

وأمرهم بالسير إلى القاهرة ، فاصطحب عثمان كتخدا كذلك نصوح باشا وأمراء مصر وتعاونوا على المضى صوب مهمتهم ، فعظم جمعهم وقوى عضدهم بانضمام سائر الشجعان إليهم وانضم إلى تلك الجماعة كذلك مشاة الجند الذين انبعثت فيهم الروح من جديد برؤية كتخدا عثمان أفندى ، ودخلوا القاهرة من باب النصر .[١٥٩-أ]

ولما نزلوا الجمالية وذا الفقار نادى المنادون فى أماكن متفرقة من قبل نصوح باشا ، بقتال النصارى ومجاهدتهم ، فهاج الأهلون وماجوا وقاموا كلهم على قدم وساق وفتكوا بكل من صادفوه من الفرنسيين ، وكبسوا كذلك دور النصارى والقبط وقتلوا منهم مقتلة عظيمة ، وأقاموا المتاريس فى شتى الجهات ، ولم يتقاعسوا قط عن قتال الفرنسيين المرابطين بقصر الألفى بك وما حوله من القلاع والأبراج .

غير أن تلك القلاع والأبراج بما فيها من مدافع وعتاد عظيم كانت فى أيدى الفرنسيين ، فى حين أن أهل الإسلام كانوا يفتقرون إلى كل ذلك ، وأمرهم فى ضعف ، فقد أعوزتهم الميرة والمدد ؛ إذ إن الطرق والسبل كانت قد سُدت أمام جلب المؤن والذخائر من جميع النواحى والجهات ، فأيقن جند المسلمين عدم جدوى القتال واجتمع رأى رءوس العسكر على الخروج من البلد ، وشاع ذلك بين العسكر ، فاجتمع جمع غفير من أهل خان الخليلى ممن يطلق عليهم (اليولداشات) ، وإنكشارية مصر وبعض الفحامين والمغاربة ، وأكثروا التشنيع على من يريد الخروج قائلين : " إن فرسان العسكر سوف يتركونا فى يد الفرنسيين ، ويذهبون " . وأيدهم الإنكشارية الذين قدموا من الجيش ، وأغلقوا الأبواب المسيطرين عليها وعمدوا إلى خيول الأمراء والفرسان فحبسوها، وحالوا بينهم وبين الخروج ؛ [١٥٩-ب] وبذا تعين عليهم الثبات فى وجه الأعداء ، وزادوا اهتماماً بإقامة المتاريس فى شتى الجهات واجتهدوا فى القتال. وعندما أضحى النهار أرسلوا إلى المطرية وأحضروا منها عدة مدافع ، فوجدوها مسدودة الفاليه، فعالجوها حتى

فتحوها ، وجمعوا كذلك عدداً من المدافع من مواضع أخرى ونصبوها فى أماكن متفرقة ، وشرعوا يقاتلون عدو الدين .

والحق أن عثمان كتخدا كان له جهد مشكور فى ذلك ، وأحضر مصلحى البنادق ، والحدادين والنجارين وسائر أرباب الحرف المتعلقة بآلات الحرب والقتال وعمل عربات للمدافع ، واستحضر مهرة الصناع ممن لهم مهارة خاصة بصناعة البارود ، وابتاع كميات هائلة من الفحم وملح البارود ، وحفن لكل من جاء بقذائف المدافع حفنة من دراهم ودنانير ، وبر بغزاة الموحدين وأغدق عليهم العطاء بلا حساب ، وسير عساكر المسلمين إلى جهات شتى .

ولقد قُبض على كتخدا مستحفظان مصطفى أغا بتهمة التستر على جماعة من الفرنسيين ، [١٦٠-ا] فحمل فى عدد من الكفار ودُقت أعناقهم جميعاً . كما أعملوا السيف فى رقاب الكثير والكثير ممن ظفروا به فيما دار من معارك . وتلطف عثمان بغزاة الموحدين وألان لهم جانبه وعين الجراحين للجرحى واهتم بما يأكلون وما يشربون وأجزل العطاء لكل من أظهر ضروباً من البسالة ، ولم يفتر لحظة عن الاهتمام بأمر من تلك الأمور ، وامتد القتال على هذه الحال ثمانية أيام بلياليها وشيئاً فشيئاً حمى القتال واشتد النزال ، وعاين القبط والأروام قوة شكيمة أهل الإسلام وبسالتهم فى القتال ، فلم يأنسوا فى أنفسهم القدرة على الصمود ، فولوا الأدبار ، ومنهم من قصد الجيزة ومنهم من لاذ بجموع الفرنسيين التى تعقبت الجيش الهمايونى خارج القاهرة .

وثبت من فى القلاع والأبراج وبيت الألفى بك من الفرنسيين على القتال. غير أنهم أدركوا أنه لا قبل لهم بالصمود فى وجه المجاهدين

وحدهم ، ولا يزالون يحاربون مترقبين عودة جيشهم ، حتى كر راجعاً فى ثامن أيام القتال ، فأحاطوا بالقاهرة من كل جـــانب ، ومنعـوا الدخـول والخروج وقطعوا الإمدادات والنجدات عن المحاصرين ، وأطلقوا مدافعهم على القاهرة ووالوا الضرب من الأبراج والقلاع وأنفذوا جندهم لمهاجمـة المتاريس فى شتى الجهات ، [١٦٠-ب] وأرسلوا الرسل خفية فى طلب الصلح على أن يضمنوا خروج العساكر العثمانية من مصر ومنحهم مـا يحتاجون إليه من المؤن والميرة ، ويمنحوا الأمـــان كذلـك إلـى أهـل القاهرة.

ولما اتصل ذلك بنصوح باشا وعثمان أفندى وســائر الأمـراء وقادة الجند ، اجتمعوا يتشاورون ويأتمرون فيما بينهم وأصبحـوا علـى وشك الركون إلى الصلح والمسالمة ، غير أنهم خافوا من وقوع الفتنـة بين الجند إذا ما شاع ذلك بينهم ، فثبتوا على القتال آناء الليل وأطـراف النهار وخاب الفرنسيون فى دعوتهم للصلح ولم يظفروا بطائل .

وبعد مرور عدة أيام أرسل سر عسكر الفرنسيين سراً ومجـدداً إلى نصوح باشا وعثمان أفندى فى الصلح ، فأرسل الباشا والكتخدا إليـه يقولان : " أنهما يرضيان على أمر الصلح ، غير أن العساكر لا يرضون بذلك وليس فى مقدورهما حملهم على قبول الصلح " . فأرسل سر عسكر الفرنسيين الرد يقول فيه : " كيف يكون القادة قـادة علـى عسـاكر لا ينقادون لهم ولا ينفذون أمرهم فيهم ؟! وكيف لمثل أولئك العساكر الذيـن لا يطيعون قادتهم أن يثبتوا فى وجه خصم شديد البأس مثلنا ؟! ".

وأخذ الفرنسيون للحرب أهبتها ولم يألوا جهداً كذلك فـى أمـر المصالحة ؛ هذا فى حين فترت همم عساكر الإسلام ووهن العزم منهم .

وبينما كان مراد بك يستجيش الدولة العلية ويسألها العون ، إذا به فى الوقت ذاته يصالح الفرنسيين سرا على أن يولوه علـــى الصعيـد، [١٦١-أ] وأصبح واضحا أنه هو وأتباعه أصبحوا كمن يشاهدون مـا يقع ولكن من بعيد . وما إن بلغ السردار الأكرم يافا ، حتى ســير نحـو ألفين من الأرناءوط والديوانكان وسائر طوائف الجند لنجدة عثمان أفندى ونصوح باشا ، فبلغ هؤلاء الجند (بركة الحج)، غير أنهم ما اسـتطاعوا إلى مصر دخولا على أية حال ، وما وجدوا ثغرة ينفذون منها إليها فمـا وسعهم إلا العودة أدراجهم ، ونما نبأ ذلك إلى نصـــوح باشـا وعثمـان أفندى، وفيما كانا محصورين وليس لديهما مـــن زاد منـذ بدايـة أيـام الحصار، هلك كثير ممن معهما من الفقراء والمساكين جوعـا ، فاشـتد الكرب وعظم البلاء .

وبدا التخاذل والفتور رويدا رويدا على أغلبيـــة أهـل القـاهرة وقهروا على السلم والمصالحة ، كما أنه بسبب ما نزل بهم مـــن أهـوال وشدائد ، لانت شكيمتهم وضعفت عزائمهم ؛ وعليه وبعد واحد وثلاثيـن يوما من القتال والنزال وببعض الشروط المسبقة خـــرج مـن القـاهرة نصوح باشا وعثمان أفندى وحسن أغا ــ أمين النزل ــ وطوسون أغا ــ رئيس الجبجيةــ والأمراء المصريين وكافة فرسان المسلمين ومشـاتهم ، ونقيب الأشراف عمر أفندى ، وأحمد المحروقى والكثير مـــن الموحديـن المصريين وذلك فى غرة ذى الحجة بعد أن زودهـــم الفرنسـيون بمـا يحتاجون إليه من الميرة ، ورافق أحد قادتهم ، فى عدد وافر من جندهـم وعتادهم ، [١٦١-ب] العساكر المسلمين حتى الصالحية ، حيث افـترق عنهم نصوح باشا وعثمان أفندى بمن صحبهما من المسلمين ، وطـــووا

المراحل ، إلى أن التقوا بالجيش الهمايونى فى صحراء يافا فى ٥ من ذى الحجة .

عزل عمر أغا من أغوية الإنكشارية
ووفاته بعد ترقيته إلى (مير ميران)

عندما استشار السردار الأكرم رجاله في الصالحية في أمر العودة إلى القاهرة أو المضى إلى غزة ، تجرأ عمر أغا ــ أغا الإنكشارية ــ وتجاسر فى كلامه إذ قال : " لا بد لنا من القفول إلى غزة . هذا رأى كافة العساكر ومطلبهم" . وأثار اللغط والقلاقل بين الجند ، مما استوجب عزله وعقابه ، فعزل من أغوية الإنكشارية ونفى إلى قلعة العريش ، وبعدها صدرت الأوامر بمنحه رتبة (مير ميران) ، وتعيينه محافظا على العريش .

ومنح كذلك المدعو طاهر بك ــ من بكباشية الأرناءوط ــ فى عدة شجعان من جنده ــ رتبة (طورناجى باشى) ، ثم (زغرجى باشى)، ثم (قول كتخدا)، وكذلك قاسم أغا من رؤساء الطورنجية .

وسير فى معية الباشا سابق الذكر عدة كتائب من الجند ونصب نعمان أفندى ــ من كديكليان الباب العالى ــ أمينا للنزل ، واستكمل اللازم من العتاد الحربى والمؤن والذخائر وأحكم الثغر المذكور بقدر الكفاية .

غير أنه لم يمض طويل زمن حتى حل الأجل الموعود لعمر باشا وانتقل إلى رحمة الله تعالى ، فأسندت محافظة العريش إلى إسماعيل باشا

الجزايرلى الذى كان قد عزل من الوزارة من قبل حينما كـــان المرحـــوم حسن باشا الجزايرلى واليا على المورة . [١٦٢-١]

وسير المأمورون سالفو الذكر فى معيته ، وأحيل كذلك منصـــب أغا الإنكشارية ــ الذى خلا بوفاة عمر باشا ــ إلى قول كتخـــدا أحمـــد أغا.

حركة عزل ونصب جزئية

علاوة على ما قد بدر من نصوح باشا العظم من جبن وتخـاذل ، فقد أبدى تقاعسا وفتورا عندما تم تكليفه ببعض المـــهام ، فجـرد مـــن الوزارة وخلع من إيالة مصر ، دون التعرض مطلقا لأمواله ، وأرسل إلى حلب الشهباء ، وتحددت أقامته بها ، وظفر إسماعيل باشا محافظ العريش بإيالة مصر .

ولما كان طاهر بك ــ من بكباشية الأرناءوط الذي عين منذ سنة على العريش ــ يتفانى ويخلص فى أداء كل ما يكلف بـه ، ويظهر ضروبا من البسالة فيما يخوض من حروب ، وجب أن ترفع منزلتـــه ويرقـــى ، فجادت عليه العواطف العلية الشاهانية برتبة (مير ميران) مـــع لـــواء (آقشهر) . وأبقيت محافظة العريش فى عهدة إسماعيل باشا المذكور .

وفيما كان محمد راشد أفندى يؤدى مهمته وكيلا لدفـــتردار أول ــ على أكمل وجه ــ بحكمة الله تعالى نالته شدة واعتلت صحته ، فـــأذن لـــه الســـردار الأكـــرم بالســـفر إلـــى الآســـتانة ، ووكـــــل مكانـــــه (كيسه دار الدفتر دار) تحسين أفندى.

تقلد سعد الله أفندي منصب دفتر دار أول
وتقلد رائف محمود أفندي رياسة الكتّاب

من قبل سافر رشيد مصطفى أفندي إلى السلطنة السنية بإذن من أمير الجيوش ،[١٦٢–ب] شريطة العودة ثانية . ولقد أدى المشار إليه المهمة المكلف بها ، وفيما كان على أهبة الرجوع إلى الجيش الهمايوني ، إذا به تُسند إليه رئاسة كتاب الركاب الهمايوني ويستبقى بالآستانة .

ولما اغتمّ راسخ مصطفى أفندي واضطربت أحواله ، استأذن السردار الأكرم العتبة العلية السلطانية فى عودته إلى الآستانة ، فسمح للأفندى المذكور بالمضى إليها ؛ وبذلك بات منصب دفتردار أول ورئاسة الكتاب شاغرين فى الجيش الهمايونى ولما أصبح من اللازم إرسال رجلين قديرَين جديرين بالمنصبين المذكورين ، كان فرمان تعيين سعد الله أفندى ـ الذى كان مكتوبى دفتردار أول ، ثم ناظرا للعربجية ـ دفتردار أول ، وتعيين محمود رائف أفندى ـ بكلكجى الديوان الهمايونى فى العتبة العلية الهمايونية ـ رئيساً للكتاب منوطاً بعلم الصدر الأعظم . وعليه عندما وصلا فى غرة ربيع الأول إلى ميناء يافا ، استقبلا استقبالاً حافلاً وأنزلا فى فسيطاطين أعدا لهما خصيصاً ، حتى إذ ارتفع النهار ، دُعيا للمثول بين يدى حضرة السردار الأكرم ، وشرفا بتقديم فروض الطاعة والولاء له ، [١٦٣–ا] وأسند إليهما المنصبين المذكورين وخلع عليهما.

وقد سمح السردار الأكرم كذلك لحسن تحسين أفنــدى ــ وكيــل الدفتر دار ــ بالرحيل إلــى الآســتانة ، وبســفر عبــد الشــكور أفنــدى التشريفاتى مستأذناً إلى الآستانة ، ظفر سيد سالم أفنــدى (تذكــره جــى المالية) بمنصب تشريفاتى ، وأسند منصب (تذكره جى المالية) و(باش خليفة المكتوبي) إلى ماهر أفندى ، وتقلد ديوركلى أحمـــــد أفنــدى زاده تحسين أفندى ــ الذى أرسل إلى الجيش الهمايونى من دائرة المكتوبى ــ منصب كاتب الجبجية.

ورود خط الاستقلال الهمايوني والتشريفات إلى السردار الأكرم

شاعت المقادير أن يعود الجيش الهمايونى مـــن مصــر خائبــا خاسرا ، فرأى الخليفة الأعظم بألمعية ذهنه وإشراق نفسه أنه قد تشــيع بعض الأراجيف ويكثر القيل والقال بشأن السردار الأكرم ، ولذا ومن أجل نفى تلك الإشاعات وإنكارها ، ومن أجل تطييب خاطر السردار الأكرم ورد خط همايونى ينص على استقلاله وإطلاق يده فى شتى أمور الحل والعقد، كما ورد خنجر مرصع بالجوهر وذلك مع أحد خواص حضرة الســلطان ، فاستقبل بموكب حافل ، وفتح الخط الهمايونى الشريف وقرأ على مــرأى ومسمع من الجميع ، ولما شاعت مضامينه السنية ، [١٦٣-ب] امتثــل كل أهل الجيش لأوامر الخليفة وأذعنوا لها .

قدوم القبودان حسين باشا إلى الجيش الهمايونى وعودته إلى الآستانة

بناء على الاتفاق المبرم مع الفرنسيين من قبل ، أبحر الوزير حسين باشا من الآستانة بأسطول عظيم وذلك لنقل جيوش الفرنسيين من مصر إلى بلادهم ، وعندما بلغ المياه القبرصية ، سمع بنقض الفرنسيين للمعاهدة ، وعودة الجيش الهمايونى منكسراً إلى يافا ، فحول شراع عزمه إلى جهة يافا ، وعندما انتهى إلى الميناء المذكور ، دعاه السردار الأكرم للمجىء إليه عجلاً ، فمضى إليه سريعاً فى مركب وسر بلقائه ، ولبث معه يوماً للاستراحة ووعده ببذل كل جهده لإرسال اللازم من المدافع وآلات الحرب والمؤن والعساكر والعودة بأسطول همايونى ضخم. ثم رفع مرساته وأسدل شراعه متجها صوب الآستانة .

رحيل أمين النزل حسن أغا إلى الآستانة وتعيين مصطفى بك ــ كتخدا باب عبد الجبار زاده ــ بدلا منه

منذ سنوات وحسن أغا ــ أمين النزل ــ يتفانى فى إنجاز كل ما يعهد إليه من مهام ، غير أنه بسبب طول السفر تغير حاله ، [١٦٤-١] وكان قد شهد ما وقع من معارك وملاحم داخل مصر إلى جانب كتخدا عثمان أفندى ، وبسبب دوام القتال آناء الليل وأطراف النهار وفى الغدو والآصال ، نالته شدة واعترى جسمه الضعف والهزال ولم تعد له قدرة على المكث بأى حال من الأحوال ، فاستأذن السردار الأكرم فى الرحيل

إلى الآستانة ، فترفق به وسمح له بالسفر وأرسل إلى الباب العالى فى طلب مصطفى بك كتخدا عبد الجبار زاده ــ من رؤساء بوابى الباب العالى سابقا ــ لتولى منصب أمين النزل الشاغر ، فقدم المير المشار إليه يافا وبعد أن عفر جبينه فى تراب موطىء قدم السردار الأكرم ، بذل كل جهده فى أداء مهمته أمينا للنزل وفاقت همته همة أسلافه فى ذلك المنصب .

مقتل القائد الملعون كليبر فى القاهرة على يد سليمان الحلبى

اتفق ذات يوم أن كان كليبر سر عسكر الفرنسيين مع كبير المهندسين يسيران فى البستان الكبير بقصر الألفى بك ، فأراد رجل دين فى زى أزهرى الدخول عليه فى البستان المذكور فمنعه الحراس وحالوا بينه وبين الدخول ، فأوهمهم أنه صاحب حاجة وهو ملهوف واستطاع بطريقة ما الافلات منهم ، وقصد كليبر ، ولما دنا منه سأله عما يريد ، [١٦٤-ب] فمد إليه يده بمظلمة ، فمد إليه الآخر يده ، فقبض عليها وبقر بطنه بثلاث طعنات ماضية بخنجر كان قد أعده فى يمينه ، فخر على الأرض صريعا ورآه رفيقه كبير المهندسين ، فذهب إليه وطعنه أيضا عدة طعنات وهرب ، فسمع الحرس صرخة المهندس الملعون ، فدخلوا مسرعين ووقفوا على ما حدث لكبيرهم وكبير مهندسيهم ، وحملوهما إلى القصر وظنوا أن ما حدث من فعل أهل مصر ، فأحضروا كبار مشايخها ووجهاءها وشددوا عليهم قائلين :

" لا بد من قتل أهل مصر عن آخرهم " ، ولا يزالون يفتشون عن الجانى حتى وجدوه منزويا فى البستان المجاور لبيت السر العسكر ، فقبضوا عليه وأحضروه أمام عامة الناس وسألوه عن اسمه ودينه وبلده، ومنذ كم هو فى مصر ؟ ومن بعث به وحرضه على ارتكاب فعلته؟ وعمن أسر إليهم من أهل مصر وأخبرهم بحقيقة حاله وكاشفهم بسره ؟ وهل يعرف الصدر الأعظم ؟ فأخبرهم أنه غريب عن مصر ، وأنه مسلم واسمه سليمان ومن حلب الشهباء ، وصنعته طلب العلم والكتابة ، [١٦٥-أ] وأنه حضر إلى مصر فى السابق ، وله فيها هذه المرة خمسة أشهر ، وأن أحدا لم يبعثه ولا حرضه ولم يكاشف أحدا من أهل مصر بسره ويخبره بحقيقة أمره .

وما زالوا يستجوبونه ويسألونه نفس الأسئلة ويدققون معه وهو يغالطهم ، فلما علموا منه المغالطة ، ضربوه وعذبوه حتى أقر لهم أنه حضر من غزة من نحو ثلاثين يوما وحضر على جمل فى ستة أيام بقصد قتل سر عسكرهم وأن الذى أرسله هو أغا الإنكشارية .

وأخبرهم كذلك أنه أسر بنيته تلك إلى ثلاثة من أهل مصر وأخبر عن أسمائهم وأوصافهم ، فجاءوا بهم وحملوهم مرارا وتكرارا على الاعتراف على المشار إليه ، ثم شكلوا هيئة محاكمة من رؤسائهم ومديريهم ، وعملوا صورة دعوى وشهود ، وبعد إقامة الدعوى والفحص، حكموا بإعدام الأبرياء الثلاثة المذكورين وخوذقوا سليمان الحلبى ، ووضعوا جثة كليبر فى صندوق نحاسى .

والحق أن سليمان الحلبى هذا جاهد خير جهاد فى سبيل الدين ، وبذل روحه فى سبيل الإسلام ، [١٦٥-ب] فنال الشهادة وذهب له بعيد

صيت في الآفاق . ومن واجب الإخوان المؤمنين أن يسترحموا عليه ويدعوا الله له ويقرأوا الفاتحة على روحه .

ورود المدد وقدوم الحاج قدسي أفندي

عندما علم الخليفة بعودة الجيش الهمايوني من مصر خائبا منكسرا ، أراد أن يشد من أزر الصدر الأعظم ، فبذل مزيدا من الهمة بشأن إمداده بجيشين عظيمين أحدهما بري والآخر بحري ، وذلك بمعرفة من لهم علم بتجييش الجيوش .

وبناء عليه صدر الأمر السلطاني بتعبئة ثلاثة آلاف مقاتل من بواسل حلب الشهباء ، فتم تهيئة هؤلاء الجند ، غير أنهم عجزوا عن العثور على قائد كفء شجاع له المقدرة على ضبط أولئك الجند وسياستهم . فأنفق رب السيف والقلم ، قدوة العلماء وأشهر الشعراء ، الحاج قدسي أفندي ، معلم دار الحديث في المدرسة الصلاحية الموجودة في حلب الشهباء ، ومفتيها السابق ، وقائمقام نقيب الأشراف الآن ، كل ما يملك ابتغاء إعلاء كلمة الله والجهاد في سبيله ، واشترى أعدادا وفيرة من الخيام والدواب واصطحب العساكر المذكورة في نفر من أعوانه وأنصاره وبسط عليهم رعايته وحمايته وخرج بهم من حلب الشهباء متوكلا على الله الوهاب ولم يزل أربعون من الحفظة ونحو مائة من الطلاب والمشايخ يتلون القرآن الكريم والأوراد المنيفة آناء الليل وأطراف النهار ، وطووا المراحل على هذا الحال حتى وصلوا إلى الجيش الهمايوني ، فابتهج أهله ابتهاجا عظيما بقدومهم ، [١٦٦-أ] وحظي

الحاج قدسي أفندي بعطف وإحسان الصدر الأعظم ، الذي خلع عليه فروا ثمينا لطيفا ، ورصد له ولجنده أرزاقهم اليومية ، وأفرد لهم مخيما .

وقد أسند الصدر الأعظم مجيء الأفندي المشار إليه في صفوة من الجند إلى صحراء يافا ، فأرسل إلى العتبة العلية السلطانية يلتمس توجيه قضاء أرضروم إليه ، فكان له ما أراد وأسند القضاء المذكور إلى المشار إليه ، على أن يتولى ضبطه اعتبارا من غرة ربيع الآخر لعام ١٢١٦هـ .

ورود رشوان زاده وبايزيد زاده وأبي بلطه وأمير كماخ صاغر زاده إلى الجيش الهمايوني

إن تفاني رشوان زاده سيد عبد الرحمن باشا منذ زمن طويل فيما خاضه من حروب السلطنة السنية وحملاتها ، [١٦٦-ب] كان أمرا توارثه عن آبائه وعائلته ؛ علاوة على أنه كان غرس يمين السردار الأكرم وقائمقام قصبة (بهسني) من مشتملات السناجم الهمايونية ، وقد كلف بالسفر إلى مصر يصحبه ألف من صفوة الجند المشاة والفرسان ، فخلع عليه ورصد له ولجنده وفير العطايا والمؤن، وأرسلوا إلى مخيم أفرد لهم .

كما استدعي بأمر عال بايزيد زاده سيد قلندر بك - من أعيان مرعش وأعرق عائلاتها - إلى الجيش الهمايوني ، ولما كان المذكور من المنتسبين للدائرة الآصفية للصدر الأعظم ، فقد قدم في نحو سبعمائة من صفوة جند التركمان ، وبعد أن أحصى جنده في فسطاط الصدر

الأعظم ، خُلع عليه ومنح العطايا والرزق ، وأنزل هو وجنده بمخيم أُعد لهم .

وعندما كُلف أبو بلطه إبراهيم أغا ـ ملتزم اللاذقية ومن رؤساء بوابي الباب العالي ـ بالاشتراك فى الحملة الهمايونية ، قدم فى نحو ألف من الفرسان والمشاة ، وبعد أن قام بعرض جنده على السردار الأكرم ، [١٦٧-أ] خلع عليه فى فسطاط الصدر الأعظم ومنح الرزق وأنزل بمخيم أفراد له ولجنده .

كما كلف صاغر زاده تيمور بك محافظ قضاءى كماخ وكرجانيس ـ من أقلام المناجم الهمايونية ـ بالالتحاق بالجيش الهمايونى ، حيث إن البك المذكور كان أحد خواص خدمة السردار الأكرم وقت توليه أمانة المناجم الهمايونية ؛ ولذا فقد وصل الجيش الهمايوني فى نحو خمسمائة من صفوة فرسان الأكراد ، وقدم فروض الولاء والإذعان للصدر الأعظم، فحظى بخلعة فاخرة ومنح الرزق وأنزل بمخيمه.

قدوم الحاج إبراهيم أغا ـ عين خربرت ـ ومعه جند خربرت وملاطيا

كان الحاج إبراهيم أغا من أغوات خربرت الذين استخدمهم السردار الأكرم فى نواحى المناجم وأرضروم وما يليها ، فى منصب الكتخداوية وسائر المناصب الأخرى ، وكذلك من خاصة أتباعه إسحق أغا شقيق جوته لى زاده محمد أغا . وقد كلفا بالانضمام إلى الجيش

الهمايوني ، فقدما فى نحو ألف من خيرة جند إنكشارية خربـرت ، إلـى الجيش الهمايوني ، ولما عاينهم الصدر الأعظم تقبلهم بقبول حسن وسـر بهم ، فخلع على إسحق أغا والحاج إبراهيم أغا ورزقا ، وأرسلت جنـد الإنكشارية إلى موضعهم فى جيش الإنكشارية ونزل المشار إليـهما فـى دائرة الصدر الأعظم .

ولما استعدت ألوية سردنكجديان ملاطيـا المكلفيـن بالالتحـاق بالجيش الهمايونى وتعبأت ، اصطحبهم الحاج عبدى زاده ممش أغـا ـ من أشرف أغوات ملاطيا والذى كان نعم مربى وخـير عـائل للسـردار الأكرم ـ ووصل بهم سريعا إلى الجيش الهمايونى ، [١٦٧-ب] فخلـع عليه وأنزل بدائرة السردار الأكرم .

ومن رؤساء الديوانكَان الذين استخدمهم السردار الأكـرم فـى مقاطعات المناجم الهمايونية صويطارى موسى ، ودلى فتـاح ، وعـرب سليم ، فقدم هؤلاء كذلك فى ستمائة مـن فرسـان الديوانكـان والتقـوا بسادتهم فى يافا ، فسعدوا بذلك وسر فؤادهم وخلع عليهم ووزعت عليهم العطايا والرزق ، ونال كل منهم مرامه وبلغ أربه .

قدوم بكْباشى جبار زاده ، وسائر جند المتفرقة

لما كان إرسال ألف من خيرة الفرسان من قبل متصرف لـواء (بوزأوق) عبد الجبار زاده سليمان بك مع أحد بكباشيته ، أمرا سلطانيا، فقد أرسل دميرجى زاده عمر أغا ـ من خدمه القدامى ـ فى ألـف مـن صفوة الفرسان . وعندما وصل الأغا المشار إليه بمن معه من الجند إلـى

الجيش الهمايوني ، خلع عليه ومنح الرزق والعطايا ، وأفرد له ولجنده موضع مناسب بمخيم الجيش الهمايوني .

وتواردت كذلك ألوية سرندنجديان توقـاد وأماسيه وطوسيه ومرزيفون وقيصريه وأزمير وسائر الجهات والنواحي ، وخلع على ضباطهم ووزعت عليهم المؤن والرزق . [١٦٨-أ] هذا في حين أنه قد صدرت أوامر علية متعاقبة بشأن تعبئة ألوية السرندنجديان من نواحي ديار بكر والرقة ، وإرسالهم إلى الجيش الهمايوني . وكان أهالي تلك البلدتين يمثلان كثافة سكانية عالية ، وعلاوة على أنهم — على اختلاف منازلهم من الغنى والفقر وتفاوت أعمارهم — كانوا على حد زعم الإنكشارية يتشيعون لفرقهم ، وفيما كان من المأمول أن يتوارد حشد عظيم من جند انكشاريتهم ، توارد منهم سبعة وعشرون جنديا من ديار بكر ، وسبعون من الرقة ؛ فأثار ذلك حنق السردار الأكرم وأغضبه غضبا شديدا ، فلم يخلع على ضباطهم ، كما أمر باعتقالهم ، ثم عاد يطلق سراحهم بعد عدة أيام بعد أن تشفع لهم الشفعاء .

قدوم شيخ زاده إبراهيم باشا إلى الجيش الهمايوني

خرج والي ديار بكر شيخ زاده إبراهيم باشا في حشد عظيم من خيرة جند دائرته وبينما كان في طريقه للحاق بالجيش الهمايوني ، [١٦٨-ب] توفي الصدر الأسبق يوسف باشا والي جدة ومحافظ المدينة المنورة . ولما بات من اللازم إرسال من يخلفه في منصبه الجليل

هذا ، صدرت الأوامر السلطانية بإسناد إيالة جدة والحبشة إلى إبراهيم باشا المشار إليه . وما إن وصلته الأوامر الجليلة بذلك وهو فى طريقه إلى الجيش الهمايونى ، حتى سمع بها خاصة أشياعه . فانفضوا من حوله فى الوقت الذى كان لزاماً عليهم المضى معه صوب المهمة التى كلف بها ، وأيقن إبراهيم باشا أنه سوف يصبح كالواعظ الذى انفضت من حوله جماعته وظل يكلم نفسه ، فاضطر إلى أن يصرف النظر عن المضى إلى تلك الأماكن المباركة بعدما امتنع أتباعه عن الخروج معه فى رحلة مباركة كهذه تخلع على القائم بها شرف الدنيا والآخرة ، وأسرع إلى الجيش الهمايونى مختلقا آلاف الحجج والمعاذير للاعتذار عن القيام بتلك المهمة ، وشرف بتقبيل ذيل ثوب أمير الجيوش، وشكا له من صدور بعض الأحوال غير اللائقة من جنده ، وبسط إليه الرجاء بشأن إبداله ذلك المنصب بمنصب آخر ، فأسعفه الصدر الأعظم برجائه وخلع عليه ، ومنحه العطايا والرزق، وأرسل إلى الركاب السلطانى ملتمساً إبداله منصب جدة بمنصب آخر .

قدوم إبراهيم باشا والى حلب إلى الجيش الهمايوني

لما كُلف والى حلب الوزير المكرم الحاج إبراهيم باشا بالالتحاق بالجيش الهمايوني ، [١٦٩-أ] قدم فى صفوة من جند دائرته وعمل موكباً حافلاً أمام أمير الجيوش وشرف بجلسة يسيرة معه فى خيمته الآصفية ، فبلغت به السعادة منتهاها . وبعد أن خُلع عليه فرو سموري

ثمين ، منح الرزق والعطايا وافية ، وأفرد له ولجنده موضع مناسب في مخيم الجيش الهمايوني .

عزل أمين المناجم وتنصيب آخر

اقتضى الأمر عزل عبدى بك ـ من رؤساء بوابى الباب العالى ووكيل السردار الأكرم على المناجم الهمايونية ، والذى سعد بمصاهرة ذاته الآصفية ـ من الوكالة المذكورة وعين مكانه خلوصى أحمد أغا ، من رؤساء بوابى الباب العالى المعروفين بعلو الهمة وكان له منصب (خزينة دار) ، واستدعى عبدى بك إلى الجيش الهمايونى ، وأسندت (الخزينة دارية) الشاغرة إلى خربرتلى إبراهيم أغا الكتخدا السابق للسردار الأكرم والموجود معه الآن .

ولما كانت الأوامر السلطانية قد صدرت بإرسال عدد وافر من الجند من جهة بلاد الأرناءوط ، فقد قدم هؤلاء الجند الذين أرسلوا بمعرفة تبه دلنلي على باشا ، وإبراهيم باشا . وعلاوة على هذا قدم الجيش الهمايونى نحو أربعة آلاف من الجند المشاة من نواحى القدس ونابلس وخليل الرحمن وجنين وغزة والرملة وذلك بمعرفة متصرف لواء القدس الشريف الحاج محمد باشا ، فزود الجيش الهمايوني بشتى صنوف العساكر المنصورة .[١٦٩-ب]

وعلى نحو ما بيناه وبسطنا فيه القول آنفا ، اكتسب الجيش الهمايوني قوة إلى قوته بفضل توارد الوزراء العظام والميرميران الكرام

ورؤساء فرق عساكر الاسلام وجند الإنكشارية والارناءوط الذين تواردوا برا وبحراً ، وبات لزاماً النهوض والزحف على الأعداء .

غير أنه لم يكن السلطان الهمام ليغفل عن أنه فى حالة مهاجمة أعداء الدين من جهة البر وكفى ، فإنهم سوف يكتلون قواتهم ويوجهونها فى صوب واحد ويشغلون بذلك عساكر المسلمين ؛ فسير القبودان دريا الوزير الغازى حسين باشا بأسطول بحري عظيم ، إضافة إلى أنه استدعى الأسطول الإنجليزى بقصد الإعانة ، فقدم ـ رعايةً لشروط التحالف المعلن بين الدولة العلية وإنجلترا ـ بحشود عظيمة من الجند ، ورسا بميناءى (مكرى ومارماريس) .ولأن الموسم لم يكن موسم البحر؛ فقد مكث هنالك عدة أيام وأصدر السلطان فرماناً ـ موافقاً للرأى الصائب ـ بالتقاء الأسطول الإنجليزى بالأسطول الهمايوني فى أوائل الربيع ، والتنسيق كذلك مع الجيش الهمايوني لشن هجوم مشترك على الأعداء من البر والبحر ؛ [١٧٠-١] ومن ثم اضطر الجيش الهمايونى إلى المكث بصحراء يافا لشهر أو شهرين ترقباً لذلك الموعد .

فى بيان المصائب المختلفة والنوازل المتنوعة التى نزلت بالجيش الهمايوني أثناء مقامه بصحراء يافا

أثناء إقامة الجيش الهمايوني ـ مضطراً ـ حيناً بصحراء يافا ، بحكمة الله تعالى وبسبب تعفن الجيف والقاذورات والروائح الكريهة المنبعثة من جثث الحيوانات ، تفشت عديد من الأمراض فى الجيش

الهمايوني ، من بينها طاعون غير مسبوق المثال ، أعاذنا الله ، فتك فتكاً ذريعاً بالشيخ والشاب والقوى والضعيف ، فتساقطوا كـأوراق الخريـف الذابلة .

ولقد ظهر الوباء أول ما ظهر فى جيش الأرناءوط ، وكان يودى بحياة نحو مائة من الجند يومياً ، وشيئاً فشيئاً سرى من طائفة الأرناءوط إلى سائر أهل الجيش ، وأصاب الغنى والفقير على السواء ، ولـم تنـج خيمة من سهمه الفتاك ، [١٧٠-ب] ولم يخل موضع فى مخيم الجيـش فى ليلة من الصراخ والعويل ، ولم تمر ساعة دون سماع صيحات وأنات يذوب لها الفؤاد تأثراً وكمداً . حتى أنه كان للسردار الأكرم أربعون غلاما يقومون على خدمته ، تحرروا واحداً تلو الآخر من قيد العبودية وارتحلوا إلى الفردوس ، ولم تُكتب النجاة من سهم الوباء الفتاك إلا لسبعة .

ولقد ذكرنا آنفا أنه قد جاء من قضاء خربرت نحو ألـف مـن الجند ، عصمنا الله تعالى ، فتك الطاعون بثمانمائة منهم فـى غضـون شهرين ونجا المائتان الباقون ، كما كان يهلك يومياً نحـو مـائتين مـن الرجال فى الأيام لافحة الحر . وهذا مسجل فى صحيح الصحائف .

ولقد أوقع هذا البلاء الإلهى الأمة المحمدية فى شدة الحـيرة ، هذا فى حين أنه لم يكن ليافا ميناء يصلح لجلب السفن بمحـاذاة برهـا ؛ وعليه كانت سفن الغلال ترسو فى عرض البحر وتجلـب حمولتـها فـى القوارب الصغيرة . ولأنه لم يكن من الممكن إخراج غلال يومين برغم ما كان يبذل من فرط جهد وسعى ، لم يكن بالمخازن مخزون من الغـلال . وبحكمة الله تعالى بسبب كثرة العواصف وشدة تلاطم أمواج البحـر لـم تحتمل السفن الثبات فى عرض البحر لتفريغ حمولتها ، وفرت كل منـها

بحمولتها إلى جهة من الجهات ، [١٧١-أ] وذهبت بطوفان من الدواهي والكوارث ، ورست كل منها في ميناء متكبدة كل الصعاب ، فظهر نقص شديد في الغلال .

وعلاوة على أنه لم تكن الغلال متوفرة في بلاد الشام منذ سنتين، فقد منع الجزار باشا حكومته لدى مجيء الجيش الهمايوني إليها من بيع الغلال له ، إمعاناً في إهانته ، مما سد أبواب الأمل من كل جانب، وعم القحط وغلا السعر في شتى أصناف المآكل والمشارب ، وكانت كل سلعة تُباع وتشترى بثمانية أمثال سعرها ، وفاقت أزمة الأقوات طاقة المجاهدين . هذا علاوة على أن الكوارث توالت وانهمرت السماء على غزاة الموحدين مدراراً فما عادوا يحتملون.

ولما كانت أرض يافا حصباء ؛ لم يكن من الممكن إحكام أوتاد الخيام ، وبسبب العواصف التي تهب على الدوام ، كانت تنهدم الخيام عدة مرات في كل يوم وليلة .[١٧١-ب]

وهكذا بسبب النوازل التي نزلت بالجيش الهمايوني وهو مقيم في الخيام تحت الأمطار المنهمرة ليل نهار ، ساءت حال الجند كافة ، ولم يكن ثمة من أحد يلوذون به في تلك الصحراء الموحشة التي تكتنفها المهالك والمعاطب ، ولقد شاطرهم حضرة السردار الأكرم كل هذه المحن، وقاست الأمة المحمدية كل المشاق وتمثلت بقول الشاعر الذي يصعد شكواه قائلاً :

صُبَّت عليَّ مصائب لو أنها
صُبَّت على الأيام صرن لياليا

وقول الراجز :

ما مضت بنا لحظة دون أن نغرق فى الدماء

ألم نغص بســــــــام المحنة فى كل لحظة ؟

[١٧٢-أ] وقول الشاعر :

سواى يلقــى السمع فى المقاهى للطنبور والربابة

وأنا بين مطر ينهمر، وريح تعصف، وطريق ينسد

ها أنــا ذا أرى المــــــوت بأم عينى

فهل هـــــذا مـــن عجـــب ؟

ولم تعد لنا طاقة على المكث من تتابع المحن والكوارث التــى لا تنتهى ، وانبعاث الروائح النتنة والكريهة من جثث الحيوانات فـــى أرض المخيم الذى كنا نقيم فيه ، فنزحنا من ذلك المكان ونصبنا المخيــم فــى الجانب القبلى من يافا فى أرض حصباء على شــاطىء البحــر . وهــذا الموضع هو الذى أعدم فيه الفرنسيون ـ على نحو ما أسلفنا ذكــره ـ ثلاثة آلاف من المجاهدين رميا بالرصاص .

بيد أنه مصداقا لقوله تعالى : { لا عاصم اليوم من أمر الله }[1]، استفحل الوباء واشتد الشتاء وتعاظم البلاء ، وفى حين تجلى معنى شطر البيت القائل : (لا طاقة لبشر على احتماله حتى ولو كان جبلا شامخا) ، مر بخاطرنا هذا البيت :

لا أقــنط ولا أيــأس من رحــــــــمة الله

إذ أن رحمته وسعت كل شىء وفاقت مأمولى

١- هود : (٤٣) .

وفيما كنا نردده ، انجلت الغمرة بحمد الله تعالى ، وعلم أرباب البصيرة أن بعد العسر يسراً ،

[١٧٢-ب] وسوف نبسط القول فى ذلك فى حينه .

منح تيمور باشا زاده أسعد باشا رتبة المير ميرانية

لشدة تعلق تيمور باشا زاده أسعد باشا ـ محافظ (وان) ـ بالسردار الأكرم ، وفرط محبته له ، خرج من بلدته تلك وفى معيته مائتين من الفرسان على نفقته الخاصة ، وقدم الجيش الهمايونى ، وشرف بالمثول بين يدى الصدر الأعظم ، فكان من الحتم إكرامه لقاء قدومه على نفقته الخاصة تطوعاً دون أن يطلب ذلك منه أحد ؛ ولذا أنعمت عليه العواطف العلية السلطانية بلواء (قره حصار) ، ومنحته رتبة المير ميرانية ، وهكذا تألق نجم عائلته الذى كان قد أفل.

وبسبب تدهور صحة سيد محمد سامى أفندى التشريفاتى فى الجيش الهمايونى ، سُمح له بالسفر إلى الآستانة وأسندت خدمة التشريفاتية إلى عبدى بك كاتب الكتخدا .

رحيل كتخدا عثمان أفندى إلى الآستانة وبيان بالمناصب التى أسندت لبعض رجال الجيش

إن تفانى عثمان أفندى، كتخدا الصدر الأعظم ، وبذله همته فى الاضطلاع بالمهام التى كلف بها فى الجيش الهمايونى فيما يزيد عن عامين ، وعلى الأخص ما شهده من معارك فى الفترة بين دخوله مصر وخروجه منها ، وما كابده من مشاق فيما حضره من المفاوضات ، كان ذلك كله سبباً فيما نزل به من مرض أقعده ، فصرح من بعد بأنه لا يستطيع على ذلك صبراً واحتمالاً بعد أن وهى جلده ، وبسط رجاءه إلى أمير الجيوش بأن يسمح له بالعودة إلى الباب العالى ، فرفع الأمر إلى العتبة العلية السلطانية ، فسُمح للأفندي المذكور بالنزول إلى الباب العالى بناء على رغبته ، [١٧٣-أ] وخول الصدر الأعظم أمر إسناد منصب الكتخداوية الشاغر إلى شخص آخر .

وركب عثمان أفندى البحر إلى الاستانة ، وتقلد سعد الله أفندى الدفتر دار بمنصب الكتخداوية، واستقال كذلك رجائى خليل أفندى ـ مكتوبى الصدر الأعظم ـ من منصبه ، فتبوأ حميد أفندى ذلك المنصب الذى تتوق إليه نفوس الكتاب وتتعلق به آمالهم ، كما رقى تحسين أفندي ـ كاتب الجبجية ـ إلى باش خليفة .

تــدمير قلــعة يافــــا

تُعد قلعة يافا معبراً ومرفأ هاماً لبلاد الشام والقــدس الشـريف على الأخص، لا ينقطع عنها وفود التجار فى صيـف ولا شـتاء ، هــذا إضافة إلى كون القدس الشريف قبلة أهل الكتـاب وقـرة عيـن الشــيخ والشاب . [١٧٣-ب] فكان من الحتم بذل الوسع فى تحصيـن المينـــاء المذكور . وقد صدرت الأوامر السـلطانية بـترميم قلعـة يافـا وزيـادة استحكاماتها طبقا لأصول فن الهندسة والمعمار ، فكلف بالقيـــام عليــها نظار بمعرفة كبير المهندسين الإنجليز الذين فى معية الجيش الهمايونى ، وفى زمن يسير وسعت مساحتها ورممت جدرانها وأسسها ، وشحنت من الداخل بالمدافع وآلات الحرب .

وقــعة جــزئية للبكتــاشية

بسبب ما مُنى به الجيش الهمايوني فى صحراء يافا من اشـتداد الحال وضيق المجال ، أراد السردار الأكـــرم أن يطيـب خـاطر زمـرة الإنكشارية ، فاستدعى نحو ألف من مشاتهم المعروفيــن بمشـاة البـاب وأسكنهم بجوار فسطاطه للخدمة فى بابه وأجزل لهم العطاء .

والحق أن هؤلاء الجند ظلوا يقومون على خدمته ليـل نـهار ، حتى حضرت ألوية السردنكجدية من كل صوب ، ولما عظم جمــع هــذه الطائفة فى جيش الإنكشارية وكثر عددها ، حرض الحاسدون منهم الجنـد وأوغروا صدورهم بقولهم :

" أمن العدل أن نسد رمقنا فى الجيش الانكشارى بكسرة من خبز ، فى حين أن شرذمة من المشاة فى باب الصـــدر الأعظـــم ينعمـــون بـــرزق كاملة؟! " ، فاحتشد جند الإنكشارية ودهموا من فى باب الصدر الأعظـــم من الجند وحملوهـــم إلـــى جيـــش الإنكشـــارية ، [١٧٤-أ] فتعلـــق رؤساؤهم بأذيال الفرار وغابوا عن الأنظار ، ثم ألجأت الإنكشارية أغاهـــا إلى الفرار .

ولما ارتفع النهار علم السردار الأكرم بما وقع وأدرك أنهم قـــد يركنون إلى العنف ، فقام بتسليح جند بابه ومن اصطحبهم علـــى نفقتـــه الخاصة من الديوانكان والتوفكجية والأرناءوط وعبأهم أمام فســـطاطه . فضلا عن أن رشوان زاده وبايزيد زاده وأغوات خربرت وملاطيا ومحافظ كماخ وكرجانيس صاغر زاده ، وسيوركلى فتاح زاده وسائر من خدمـــوا فى باب الصدر الأعظم من قبل ، تسلحوا دون أن يطلـــب إليـــهم ذلـــك ، وتحلق أكثر من ستة آلاف رجل حول أمير الجيوش وفـــاءً لحـــق نعمـــه عليهم طيلة سنوات عشر مضت ، [١٧٤-ب] ولما رأى البكتاشية ذلك منهم ، أرسلوا عدداً من ضباطهم للاعتذار بأن دعواهم كانت مـــع أفـــراد طائفتهم وزملائهم ، وأنه لا دعوة لهم على أحد سواهم . ولما التمســـوا إرسال أغا الإنكشارية إلى جيشهم ، أرسل إليهم للتـــأليف بيـــن قلوبـــهم والمشى بينهم بالصلح ، وكان تفريق جموعهم أمراً يسيراً .

وعلاوة على ما وقع فقد تحزبوا غير مرة مـــن بعـــد بأســـباب واهية، وجدُّوا فى إشعال الفتن وإثارة القلاقل ، غير أنهم فى كـــل مـــرة كانوا يتفرقون دون تحقيق أى طائل ، وذلك بفضل كثرة أعوان الســـردار الأكرم وأنصاره .

خروج الجيش الهمايونى من صحراء يافا
إلى جهة مصر للمـــرة الثـــانيــــة

ما إن حضرت أساطيل إنجلترا ـ التى عقدت حلفاً مـع الدولـة العلية ـ مشحونة بنحو خمسة وعشرين ألفاً من القوات البريـة للقـاء الفرنسيين ، حتى بذلت الدولة العليـة اهتمامـاً فائقـاً بـإعداد المـآكل والمشارب اللازمة لأولئك الجند المذكورين بأقل الأثمـان مـن الأقضيـة المجاورة وتجهيز موانى مكرى وقبرص ومارماريس لهم ، [١٧٥- أ] وعُهد بالفعل بمهمة إكرامهم والحدب بهم إلى سيد مصطفى أفندى ـ مـن أركان الديوان المعلى ـ فسهر علـى رعايتـهم وخدمتـهم فـى ميـناء مارماريس .

ولقد لبث السردار الأكرم بصحراء يافا أكثر من شـهر انتظـاراً لحلول موسم البحر . وعندما هلت نسمات الربيع عقد النية على الزحـف إلى غزة والعريش . ولشدة البرد القارص نفق نحو ثلاثة أربـاع جيـاد فرق الطوبجية والعربجية ، ولم يبق بحوزة (أغا الكراء) شـىء مـن الجياد المشتراة ، فأمر السردار الأكرم بأن تجر الـبراذين ـ التـى تـم شرائها سريعاً من نواحى دمشق ـ العربات والمدافع ، وإرسـال سـائر المهمات الحربية بحراً بالمراكب إلى العريش ، وتحميل خزانـة المـيرى وباقى أمتعة الجيش الهمايونى على بعير العربان التى تم استكرّاؤها منهم بمعرفة محمد باشا متصرف لواء القدس الشريف .

وتشاور فى شأن التحرك من الغد ، فأظهر لـه بعـض أربـاب الرأى والمشورة أن التحرك سوف يجر عليهم صنوف الشدائد والمتاعب،

ما لم يكن هناك القدر الكافى من الدواب ، فرد عليهم بأنـــه مـــن الـــلازم وصول الجيش الهمايونى على أية حال إلى العريش قبل تحرك الأســـطول الإنجليزى صوب مياه الإسكندرية ، [١٧٥-ب] فأبقينا الخيـــام وثقيـــل المتاع بيافا وخرجنا مع السردار الأكرم مستعينين بالله تعالى من مشـــتانا فى يافا تحت الأمطار المنهمرة ، وسرنا فى الوحول وقطعنا مسافة ثـــلاث ساعات فحسب من الصباح إلى المساء ، وتكبدنا ما تكبدنا مـــن شـــدائد حتى أقمنا المخيم فى منزل (جسر روبيل) .

وعقب نزولنا بالمرحلة المذكورة ، تـــوارد الخـــبر مـــع ســـفير مخصوص بإقلاع الأسطول الإنجليزى من ميناء مارماريس فى طريقه إلى الإسكندرية ، فلم يعد لنا طاقة على الصبر على التوقف ولـــو لســـاعة ، ووضع غزاة الموحدين صوب أعينهم التعجيل من أجل مجابهة العدو .

غير أنه علاوة على العجز الذى ظهر فى الحيوانات ، وما ترتب على ذلك من الفت فى عضد الجند ، فإنه بحكمة الله تعالى ، هبت ريـــح صرصر وهطل المطر مدراراً ، [١٧٦-أ] فتكونت بحـــيرات أحـــاطت بخيام العساكر وأغرقتهم فى بحر من الاضطراب والحيرة واستحال عليهم السير عدة أيام فى المرحلة المذكورة .

ولم يزل الحال على هذا المنوال أحد عشر يوماً لم ينقطع فيـــها هطول الأمطار ، فخرجنا من تلك المرحلة وحصل لنـــا غايـــة المشـــقة ، وقطعنا مرحلتين حتى أقمنا المخيم بصدر غزة .

وفى تلك الأثناء وبأمر الله وقعت الجفوة بين الجزار باشا ومـــن فى خدمته من فرسان الديوانكَان ومشاة الأرناءوط والمرتزقـــة الـــترك ،

فانفضوا من حوله ومضوا إلى السردار فرقـــة فرقـــة يعرضـــون عليـــه خضوعهم وعبوديتهم له . ولأن الوقت كان وقت الحاجة إلى مثل هـــؤلاء الجند ، فقد خُلع على رؤسائهم ومنحوا ما يلزمهم من الأرزاق .

ومن جهة أخرى جدّ الحاج محمد باشا متصـــرف القـــدس فـــى اكتراء الدواب من العربان بالقدر الذى يفى بحاجـــة الجيـــش الـــهمايوني ويعينه على مهمته، وعبأ ما كلف بتعبئته من مشـــــاة القـــدس ونـــابلس وخليل الرحمن ، فتوارد منهم ثلاثة آلاف من جند المشاة ، علاوة علـــى تقاطر جند الأناضول من الفرسان والمشاة وبعض أتباع السردار الأكـــرم من نواحى المناجم الهمايونية وما يليها ، براً وبحراً، فتحصـــل للجيـــش الهمايونى من ذلك قوة فتية ، [١٧٦-ب] وأصبح بعدد نجوم السماء، وتعطش جميع العساكر لدماء العدو ، فعجّل السردار الأكرم المضى صوب مصر .

غير أن أزمة الخزانة كانت قد تفاقمت وبلغت ذروتها ، وتراكمت مرتبات الجند أربعة اشهر ، وعليـــه طـــالب الفرســـان والمشـــاة كافـــة برواتبهم، فأجيبوا بالرفق والملاينة ، لكن ذلك لم يفد بأية حـــال فقـــالوا للصدر الأعظم :

" إنه من الحماقة أن نطالبكم برواتبنا فى الوقت الذى تعانى فيه خزانـــة الميرى الأزمة ، لكن ما لم تتكرموا بمنحنا نصيباً مما تراكـــم لنـــا مـــن رواتب نتقوت به ، لن يصبح فى مقدورنا التحرك ولن نســـتطيع ادخـــار ميرة تسد رمقنا فى هذه الصحارى القاحلة " .

عندئذ لم يجد ما يقوله لهم ، ولأنه لم يكن يتوافر فـــى خزانـــة الميرى ولا فى خزانة السردار الأكرم ولا مبلغ خمســـة آلاف قـــرش ،

ولأنه لم يكن فى الإمكان الاستدانة المحلية فقد ظلت تلك المشكلة مثاراً للجدل والنزاع ، ولم يزل الحال هكذا حتى انضم الجند الذين انفضوا من حول الجزار باشا ، وسائر الجند المتحزبين إلى الجند المذكورين ، [١٧٧-أ] وتناصروا جميعاً وتعضد كل بالآخر ، وأخبروه أنهم مالم يمنحوا نصيباً من رواتبهم المتراكمة ، فلن يسعهم إلا أن ينفضوا من حوله جميعاً ، فلم يطق أمير الجيوش صبراً ، وترتب على ذلك أن اجتمع رجال الدولة وكافة خدمهم وأتباعهم وأخذوا ما تبقى فى قعر الخزانة من مال وما فى المخازن من غلال ، وبلغ إجمالي ما أخذوه مائة ألف قرش ، ولما علم الجند بذلك هدأت ثائرتهم وتراضوا .

وبعد أن لبثنا سبعة أيام بغزة خرجنا منها قاصدين مرحلة (خان يونس) على مسافة ست ساعات ، وفى اليوم التالى نزلنا بالشيخ زويد على مسافة سبع ساعات ، وفى اليوم الذى يليه الموافق (١٥) من ذى القعدة ، حططنا الرحال بصحراء العريش .

ولما كانت سفن المهمات والمؤن المرسلة من جانب يافا ، قد وصلت إلى سواحل العريش ، سعى الجند إلى تفريغها ، وفيما كانوا منهمكين فى ذلك العمل تلك الليلة ، فاجأتهم ريح صرصر ، شتت السفن الراسية فى البحر وألجأت كل منها إلى ميناء فأسف أربعون ألفاً من العساكر الموحدين لذلك أسفاً شديداً ، وسادتهم الحيرة والوله فى تلك الصحراء القاحلة ، واستحال عليهم الحصول على حبة قمح واحدة زيادة على ما ادخر خفية فى قلعة العريش من قمح وفول يكفى لثلاثة أيام فحسب ، [١٧٧-ب] وجاعت حيواناتهم ونال منها الظمأ .

وفيما كانت الحيرة مستبدة بنفوس كل من شاهد تلك الحالة من الأصدقاء، لم تكن أوتاد الخيام محكمة فى رمال صحراء العريش الناعمة، وكانت تنهدم رأساً على عقب بين الساعة والأخرى وتتفرق فى الصحراء، حتى أن السردار الأكرم قد تعثرت قدماه وسقط عليها غير مرة بسبب اهتزاز فسطاطه واضطرابه.

ولم يزل الحال على هذا المنوال أربعة أيام والجند على اختلاف منازلهم ورتبهم يتضورون جوعا ، والحال ذاتها بالنسبة لحيواناتهم ، فتحزب كافة الوزراء العظام والمير ميران الكرام ورجال الدولة وضباط الفرق وسائر الموظفين ونحو ألف من رءوس الجند واجتمعوا فى فسطاط الصدر الأعظم يأتمرون ويتشاورون ، غير أن مداولاتهم لم تسفر عن نتيجة وانتهت مشاوراتهم إلى ما بدأت به ؛ مما حدا بالسردار الأكرم إلى أن يقف ويخطب فيهم قائلا :

" وضح للعيان استفحال أمر أعداء المسلمين وقوة شوكتهم ، [١٧٨-أ] وما لحق بنا من انكسار وعار فى العام الماضى بقضاء الله، وما قاسيناه من أهوال وشدائد فى صحراء يافا ، والدواهى التى دهينا بها من عجز مصروفات الدولة العلية أبدية الدوام ، وبات كل ذلك فى غنى عن البيان والتعريف . هذا فى حين أن أسطول الإنجليز حلفاؤنا قدم سواحل الإسكندرية وسوف ينزلون الجند إلى البر بين عشية وضحاها ، ولا شك أنهم سوف ينتظرون منا أن نعينهم ونعضدهم ، وها نحن الآن ليس لدينا حبة قمح واحدة ، وتشتتت سفننا التى قدمت تحمل الغلال والأقوات من شدة العواصف . حتى ولو سكنت الرياح فسوف يستغرق تفريغ تلك الغلال عدة أيام ، وبعد ما تكبدناه من مشاق طيلة

الأيام الأربعة الماضية ، لم يعد لنا طاقة على التحمل أكثر من ذلك ، وهناك سبع مراحل متعين علينا قطعها، وهى صحارى قاحلة موحشة ، وجند أعداء الدين فى قلعة الصالحية المتاخمة لصحراء العريش بمدافعهم وعتادهم متأهبين لملاقاة جند الموحدين المكدودين المتضعضعين .

لم يعد لى الآن كلمة أقولها لأخواتى من المجاهدين ، فكل ما قلته قد شل تفكيرى ، وها أنا ذا أبيح لكم دمى واستحلفكم بالله أن تطلقوا علىَّ رصاص بنادقكم .. بعدها أياً كان رأى كبيركم نفذوه ". [١٧٨-ب]

وما إن فاه السردار الأكرم بكلامه هذا وقد علا نحيبه ، حتى قام الأرناءوط والأدلاء وصغار الجند المشاة جميعاً على قدم وساق وقد نجع فيهم الكلام ، فدبت فيهم الحمية والغيرة وبدت عليهم آثار الحماسة وصح منهم جميعاً العزم على الزحف على الأعداء وقالوا : " لنسرع فى المضى الى الجهاد فى سبيل الله ولنمت فى الصحراء حتى يحسن لنا الله تعالى مثوبة يوم الجزاء ، ولنُجد بالنفس فى سبيل دينه الحق حتى نحقق لنا مجداً فى دنيانا له الخلود إلى أبد الأبدين " .

وعُقد مجلس للشورى ، نُصب فيه طاهر باشا ــ من المير ميران ــ أميراً على طليعة الجيش ، وصحبته جند الديوانكان ، وعمر أغا بيكباشى عبد الجبار زاده ، وجند الحوارى بحيث وصل إجمالى من معه خمسة آلاف من خيرة الجند، وأمليت عليهم الوصايا اللازمة ، ومنح الباشا المشار إليه خمسة مدافع خفيفة الحركة وسائر ما يلزمه من عتاد ومؤن تكفيه يومين مما ادخره الجند فى داخل قلعة العريش ، [١٧٩-أ] وسير إلى جهة مهمته .

زحف سر عسكر محمد باشا
صوب مصر

وفيما كان تعيين أغوات الإنكشارية فى معية سر عسكر أمراً غير مسبوق المثال ، صحب المشار إليه جيش الإنكشارية ، وذلك نزولاً على رغبتهم، وصحبه كذلك كافة جيوش الأناءوط . وفضلاً عن هذا فقد نودى بالسماح بالذهاب لكل من أراد الذهاب من أمراء المماليك وأهل الجيش ، ومُنح محمد باشا عشرة مدافع ، ومنح جيش الإنكشارية مثلها، وتمم على المهمات اللازمة ، وحمل المشار إليه ما تبقى فى قلعة العريش من شعير يكفيه يوماً واحداً فحسب ، وتصوب إلى صوب مهمته بعد يوم واحد من خروج طاهر باشا .

حتى أننى أنا الفقير أمرت بالمضى مع السر عسكر المشار إليه، فخرجت معه ، ورافقنا الحاج قدسي أفندى ــ من أشراف حلب ــ بعد استئذانه من السردار الأكرم .[١٧٩-ب]

وخرجنا من صحراء العريش ونصبنا المخيم عند آبار المسعودية على مسافة ساعة ونصف ، للتزود بالماء وتعبئة القرب ، ونهض طاهر باشا أمير طليعة الجيش ، وطوى مراحل بئر العبد وقطيا وأم العراس وأبى العروق . وعندما سمع جواسيس الفرنسيين بنزوله برأس الوادى على مسافة ست ساعات من الصالحية ، وسمعوا كذلك بنزول سر عسكر باشا من قبل بمرحلة أبى العروق ، تجلى فضل كلمة : " جاء الحق وزهق الباطل " ، وارتاع الكفرة المشركون ، وقاموا بنسف قلعة الصالحية التى كانوا متحصنين فيها تلك الليلة ، وهربوا فى هلع إلى

قصبة القرين ، حيث انضموا إلى من بها من بنى جلدتهم ، ووافوا قلعة بلبيس ونسفوها وسووها بالتراب ، وواصلوا هروبهم صوب مصر .

وليلة هروبهم على هذا النحو ، [١٨٠-١] أخبر المشايخ هذا الخبر طاهر باشا أمير طليعة الجند فى مرحلة رأس الوادى المتقدم ذكرها وقت السحر ، وسرعان ما أعلم السر عسكر المتأخر بذلك ، ثم خف إلى الصالحية وبذل الوسع فى إخراج الغلال التى خزنها الفرنسيون بالقلعة المذكورة وإطفاء المشتعل منها وإخراج ما وقاه منها من ألسنة النار ، وجد فى ذلك حتى هبط المساء .

وفى اليوم التالى وصل سر عسكر باشا بدوره إلى الصالحية وأرسل الهجانة إلى الجيش الهمايونى حاملين (المعروضات) متضمنة زف البشرى بالنزول بقلعة الصالحية مجاورين جيش طاهر باشا .

وبعد أن مكث جيش طاهر باشا وجيش محمد باشا وكافة من صحبهم من عساكر الموحدين ثلاثة أيام بالصالحية ، نفد مخزونهم من الغلال وأدركوا أنهم سوف يعانون فى جلب الميرة ، فنهضوا عن الصالحية وساروا إلى قصبة القرين، ثم إلى صحراء بلبيس حيث نصبوا مخيمهم وحفروا حوله الخنادق ونصبوا مدافعهم فى شتى الاتجاهات، وأقلم الإنكشارية متاريسهم وجدوا فى استطلاع تلك النواحى واستخبارها .

محاربة الإنجليز الفرنسيين ثانية بالقرب من (أبو قير)، وانتصار الإنجليز على الفرنسيين

عندما أخبر جواسيس الفرنسيين سر عسكرهم (مينو) ببدء زحف الجيش الهمايونى عهد للقائد (رينيه) بالقيادة فى الشرقية وأمره بالمضى سريعاً إلى الصالحية فى وفرة من العدة والعتاد لمجابهة المجاهدين .[١٨٠-ب]

وبينما كان ذلك الجيش فى طريقه إلى الصالحية ، إذا بالأساطيل الإنجليزية الضخمة تبلغ ميناء (أبو قير) فى (١٠) من ذى القعدة قادمة من ميناء (مارماريس) ، وتدفع الجند إلى البر ، فتحلقوا حول القلعة وضيقوا الخناق على من تحصن بها من الملاعين ، غير أنهم لم يلقوا بالاً لحصار قلعة صغيرة كتلك ،فعينوا عدداً من الجند يكفى لضرب الحصار عليها ، وصح منهم العزم على استخلاص الإسكندرية .

ولما أخبر (مينو) بما وقع من قِبل محافظ الإسكندرية ، أيقن سقوط قلاع الإسكندرية و(أبو قير)سريعاً فى يد الإنجليز ، ما لم يهب لنجدتها ، فحشد من تبقى فى مصر من جنوده ، والقبط والشوام والفلاحين والأروام وخرج بهم براً ونهراً لنجدة الإسكندرية . ولما كان يجبن عن المضى بمفرده لمجابهة الإنجليز ،أرسل الهجانة إلى قائده (رينيه) ـــ الذى سيره من قبل إلى جهة الصالحية لمجابهة الجيش الهمايونى ـــ يطلب إليه العودة على جناح السرعة من هناك ، [١٨١-١] ما لم يكن الجيش الهمايونى بلغها بعد .

ولم يزل (مينو) يتقاعس ويتثاقل في سيره حتى عادت الجواسيس التي بثها رينيه لاستطلاع أمر الجيش الهمايوني ، وأخبروه بدخوله العريش منذ يومين، غير أنه بسبب عدم تعبئة الجياد والجمال التي اكتروها من البدو لحمل أثقالهم وأمتعتهم ، فإنه من المؤكد أن يمكثوا بالعريش من ثلاثة إلى خمسة أيام . وإذا ما خرجوا منها ، فإن بلوغهم الصالحية منوط بقطعهم خمس مراحل في الصحراء ، وعليه فإنهم سوف يبلغونها في عشرة أيام على التقريب .

أدرك رينيه أن لديه متسعاً من الوقت ، فرجع عن الصالحية في التو والحال وأسرع ميمماً شطر (مينو) ، وشحذا الهمة لنجدة الإسكندرية ، وتخابرا مع الفرنسيين المحاصرين فيها ، واحتشدوا جميعا في موضع يسمى (بركة القيطاس) ، وحملوا بكل ما لديهم من عتاد على القوات الإنجليزية التي كانت هي الأخرى متأهبة للقتال ، [١٨١-ب] ودار القتال بين الفريقين ، فهرب من ساند الفرنسيين من القبط والفلاحين والأروام والشوام ، وأصبح جيش الفرنسيين وجهاً لوجه مع جيش الإنجليز ، وفي النهاية دارت الدائرة على الفرنسيين وقتل أربعة من كبار قادتهم في جم غفير من جندهم ، وفر الباقون واعتصموا بقلعة الإسكندرية . وما إن نما نبأ ذلك إلى الفرنسيين المحصورين بقلعة (أبو قير)، حتى بادروا إلى تسليم القلعة سلماً، فأمنوا على أرواحهم .

وفي الوقت الذي كان فيه الجيش الهمايوني لا يزال في صحراء العريش، وجيشا طاهر باشا أمير جند الطليعة ومحمد باشا السر عسكر في بلبيس، إذ بلغهم هذا النبأ ، فأطلقت المدافع والبنادق ابتهاجاً ودقت الطبول وامتلأت قلوب الأمة المحمدية فرحاً .

وفي تلك الأثناء رسا الوزير سمير المكارم قبودان دريا حسين باشا بأسطول همايوني ضخم في ميناء (أبو قير)، وأنزل ستة آلاف من خيرة الجند إلى الشاطئ وأمَّر عليهم كتخداه خسرو أغا ، وصحبه مثل ذلك القدر من جند الإنجليز ، [١٨٢-أ] وشحن جزءاً من ذلك الأسطول بالأسلحة والعتاد وسيّره على بركة الله لاستخلاص رشيد من الفرنسيين .

خروج السردار الأكرم من العريش

وصل نبأ استخلاص (أبو قير) من الفرنسيين ودحرهم إلى الجيش الهمايوني وهو لا يزال بالعريش ، كما وردت الأخبار بنسف الفرنسيين لقلاعهم وحصونهم في الصالحية والقرين وبلبيس ، وفرارهم إلى مصر وتعقب سر عسكر وجيشه لهم ومرابطته بصحراء بلبيس ، فظن السردار الأكرم أن نسف الفرنسيين لقلاعهم وفرارهم إلى مصر ضرب من ضروب خدعهم ومكائدهم ، فأرسل إلى سر عسكر باشا يشدد عليه بعدم التحرك قيد خطوة واحدة ما لم يصل إليه بنفسه ، وخرج من العريش سريعاً تاركاً وراءه إبراهيم باشا ـ والي حلب ـ وشيخ زاده إبراهيم باشا والدفتر دار أفندي وسائر كتّاب الأقلام ، على أن يلحقوا به ؛ وقطع مرحلتين وخيم بالصالحية ولبث بها يوماً أو اثنين للتزود بالميرة ، حتى لحق به بقية الجيش ، فعين إبراهيم باشا والي حلب قائداً على جهة دمياط ، وأرسل معه حشداً عظيماً من الأرناءوط ، كما ساق معه ممش

أغا ــ أغا السلام ــ [١٨٢-ب] إذ إنه فى الأصل كـــان مـــن طائفـــة الأرناءوط وذا جدارة وكفاية فى ضبط جند الأرناءوط وربط أمورهم .

وبعد أن أنفذ السردار الأكرم إبراهيم باشا بعد أن زوده بـــاللازم من الوصايا ، خرج بالجيش الهمايونى من الصالحيـــة ، وعندمـــا نـــزل بقصبة القرين فى ٤ من ذى الحجة ، أخبره سر عسكر باشـــا بانتشـــار اللغط والأراجيف بين صفوف جنده فى بلبيس ، فـــترك الصـــدر الأعظـــم الجيش الهمايونى ووافى سريعا بلبيس لاحتواء الموقف ، فـــبر بـــالجند واستمال خواطرهم ، ثم أمرهم بتعميق ما حفروه من خنادق ، وإرســـال الجواسيس لاستطلاع قوات العدو ، وأدى مهمته كقـــائد أعلـــى للجيـــش الهمايونى على أتم وجه .

فتنة جزئية بين طائفة الأرناءوط

على نحو ما تقدم بيانه ، حدث أن تراكمـــت مرتبـــات الجنـــود وعطاياهم عدة أشهر . ولما لم تكف أكياس الأقجة الألفين التى أرســـلتها السلطنة السنية منذ بضعة أيام سداد ما تأخر للجند من مرتبات ، منحـــوا نصف مستحقاتهم ، وأرجىء صرف النصف الآخر ، وعندئـــذ احتشـــد الأرناءوط عن آخرهم ، وبإيعاز من اثنين من بيكباشيهم مـــن مثـــيرى الفتن ، تتابعوا إلى خيمة السردار الأكرم مطالبين بمستحقاتهم ، فتصـــدى لهم خدمه وسائر من استخدمهم من الأغوات والأمراء فى مناطق المناجم الهمايونى وما يليها وقدموا معه ؛ إضافة إلى ما يربو على خمســـة آلاف من أعوانه وأنصاره من جند الديوانكان والتوفكجية والمرتزقة الـــترك ،

[١٨٣-١] غير أن السردار الأكرم أغلظ اللائمة علـــى كافــة أتباعــه وأمرهم بالعودة إلى خيامهم . واتفق أن كان على وشك تناول طعام، فدعا عددا من بيكباشية الأرناءوط إلى مجلسه دون أن يكـــترث بتجمـــهرهم ، وعاتبهم عتابا رقيقا ، واحتوى غضبتهم ، وهدأ من ثائرتهم وفى النهايــة صالحهم على منحهم شهرين من متأخر مستحقاتهم .

والحق أن عدم اكتراث السردار الأكرم بهجوم ســـتة أو ســبعة آلاف من الأرناءوط علـــى خيمتــه واعتبــاره ذلــك كأنـــه لــم يكــن ، [١٨٣-ب] وإخماده تلك الفتنة بسهولة ببضع كلمـــات رقيقــة دون أن يصد عن تناول طعامه ، لأمر يستحق كل ثناء وإطراء .

خروج الفرنسيين لملاقاة الجيش الهمايوني ونشوب القتال بالقرب من قرية (منير) واندحار الفرنسيين

وقف من بالقاهرة من الفرنسيين الملاعين على كافــــة دقــائق أحوال الجيش الهمايونى ، وذلك بفضل من بثوه من جواســـيس غاديــة ورائحة ، فعبئوا قواتهم العائدة من الصالحية والقرين وبلبيس والســويس ومصر العليا وسائر الجهات ، ومن كلف منهم بالحراسة فى مصر ، ومن والاهم من أسافل الشوام والأروام والقبط بعدة وعتاد قويين .

ولما بلغ نبأ ذلك أمير الجيوش استدعى على الفــور الــوزراء والميرميران ورجال الدولة ورؤساء الفرق العسكرية حافة إلى فســطاطه

وأخبرهم بزحف الأعداء عليهم ، ولما شعر كل منهم بأنه مـــأذون بـأن يقول كل ما يعرفه فى هذا الصدد ، ابتدأ كتخدا العبيد الكلام فقال :

" من غير الجائز أن نخرج لمجابهة الفيالق الفرنسية ، ولله الحمـد أن الجهات الأربع لمخيم الجيش الهمايوني محصنة بالخنادق والمتـــاريس ، وعتادنا ومدافعنا فى أتم وأكمل حال ، وجيوشنا معبئة خير تعبئة ولــذا لا ينبغى لنا التزحزح عن مخيمنا قيد خطوة واحدة ، ولو خرجت علينا فيالق المشركين ، [١٨٤-أ] من المناسب لنا والأفضل أن نحاربهم من وراء المتاريس"

وعندما قال كتخدا العبيد هذا ، وافقه بعـــض البلـهاء وأقــروا تدبيره ، غير أن السردار الأكرم سفه ذلك التدبير وقال :

" بئس الرأى ما قال ، فلو تحلق الكفرة حول مخيمنا والعيــــاذ بـالله ، وركنا إلى حرب المتاريس ، فإن الجياد المربوطة بأرض مخيمنا ، بمجرد أن تسمع دوى المدافع والبنادق التى سيطلقها الطرفان ، ســـوف تجفـل وتجمح يمينا ويسارا وتعيث بخيامنا تمزيقا وتهشيما ، فيضطر كل أحــــد منا إلى أن يعمد إلى حيواناته وأمتعته لحراستها والحفاظ عليها ، فيترتب على ذلك حتما هزيمتنا شر هزيمة ؛ وعليه أرى من الأصوب أن يتقـــدم طاهر باشا بطليعة الجيش ويعقبه سر عسكر باشا بجنده وعتاده القويين، فيلاقون فيالق الفرنسيين على مسافة خمس أو ست ساعات ونكون نحـن متأهبين لنجدتهم إذا ما دعا الأمر وبذلك نفوت على الفرنســـيين فرصـــة مباغتتنا ".

ولما قال السردار الأكرم هذا وقد أحسن الختــــام ، أقــر كافــة الوزراء العظام ورجال الدولة ذوى الاحترام تدبيره هذا وأثنـــوا عليــه .

[١٨٤-ب] وفى الحال منح طاهر باشا ـ أمير طليعة الجيش ـ خمسة مدافع وبعد أن تمم على اللازم من الأسلحة ، قدم وفى معيته نحو خمسة آلاف من مشاة الأرناءوط وفرسانهم وكافة جند الديوانكان وأمراء المماليك ، ومن خلفه السر عسكر محمد باشا كذلك ومعه عشرة مدافع كانت فى حوزته أصلا ، وصحبه نحو سبعة آلاف من صنوف الجند وبيكباشية جبار زاده وسائر البكباشية ، وبعد قراءة فاتحة النصر ، خلع على المشار وأسرع كل منهما إلى الاتجاه صوب مهمته ، ومعه من أمر بالسير معه .

أطعم طاهر باشا جياده بالقرب من قرية (منير) ، وكذلك فعل سرعسكر محمد باشا خلفه بمسيرة ساعتين ، وجعلوا يستطلعون الأرجاء حتى ارتفع النهار . ومن جهة أخرى كان الفرنسيون قد اجتازوا قرية الخانكاه بحشودهم ـ المتقدم ذكرها ـ وخيموا على مقربة من قرية (أبو زعبل) على مسافة ساعة ونصف فقط من طاهر باشا .

[١٨٥-أ] وعلى السحر خرج الأعداء من الموضع الذى خيموا به ، وفى الوقت ذاته نهض طاهر باشا أمير طليعة الجيش بعد صلاة الصبح ، وسار سيرا بطيئا وأرسل الهجانة سريعا إلى السر عسكر باشا والسردار الأكرم يخبرهما بقدوم جيش الفرنسيين ، وقام هو بتعبئة جنده وجعل يناوشهم ، فدارت رحى حرب طاحنة دامت أكثر من ساعة ، وقتل من الفرنسيين الكثير ورغم هذا لم يأنس جند المسلمون فى أنفسهم القدرة على الصمود فى وجه الفرنسيين الذين كانوا عصبة مفرطة الكثرة، فتركوا مدافعهم وولوا مدبرين ، فغنمها الفرنسيون وسدوا فالية اثنين منها ، فهز ذلك حمية طاهر باشا وأشعل حماسته ، وأعاد الكرة

بمن معه على أعداء الدين مباغتا، واستمات فرسان الديواتكان وأبلوا فى القتال بلاءا حسنا واستعادوا مدافعهم من يد العدو وفى النهاية أخذ جنـد الإسلام يتقهقرون شيئا فشيئا، [١٨٥-ب] وفى الوقـت الـذى كـانت الهزيمة فيه على وشك اللحاق بهم ، إذا بالسر عسكر محمد باشا يـأتى سريعا لنجدة طاهر باشا وجنده ويبذلون جهدهم ويقاتلون بهمة وبسـالة . إلا أن الفرنسيين كانوا يفوقونهم فى العدد بكثير ولذا حـالوا بيـن جنـد الموحدين وبغيتهم ، وصبوا عليهم قذائف مدفعيتهم مـن اليميـن ومـن اليسار .

وفيما كان الغزاة على وشـك الـتزلزل والتضعضـع ، إذ بلـغ السردار الأكرم نبأ ما حدث لطاهر باشا بواسطة هجان ، فسارع بنصـب شيخ زاده إبراهيم محافظا للجيش ، ويعين فى معيتـه كتخـدا الصـدارة العظمى سعد الله أفندى ورئيس الكتـاب رائـف محمـود أفنـدى وأغـا الإنكشارية.

واستبقى مشاة الإنكشارية خلف المتاريس ، وخرج بنفسه بعتـاد حربى عظيم وصحبه كافة من فى المخيم من جند دائرته وجند الأرنـاءوط وقادتهم ، ونودى بالنفير العام فى شتى الجـهات ، [١٨٦-أ] وأنشـد غزاة المجدين :

نحن البواسل يجود منا بالروح كل أحد فالله واحد أحد
إنما نحن مهـتدون لنـا صـفة حيدر والله واحد أحد
حياتـنا والـروح مـنا فـداء لله الواحـد الأحد
نحـن مـع الغـزاة والله واحـد أحـد

نحـــن جمـــيعا رجـــــــال الهـــــــيجاء
المـــوت أمامــــنا ، لا تراجـــع عــــنه عندنا
نطلب المـــــدد مـــن جود معبودنا فى تلك الهيجاء
نحن الأبطـــــال عـلى جيادنا الشهب والله واحد أحد
دقـــــت صـــــنوج الحــــرب للعســـكر
إنـــها لحــظة سـعادة لغــزاة المســـلمين
إطـلاق المدافع والبنادق من بعيد هـــو العار والشنار
فاليـــوم سيـــف الهمــــة مقـــترن بـيد الشجاعة
مهـما يكن مـــن بـأس الـــعدو وبطـــشه
لـــن ينـــجو بنفـــسه مـــن أنيـــابنـــا
لسنـــا نبـالي بما للكافر مـــن بنـــادق ومـــدافع
ليضـــرم العـدو نـــاره مــــثل النمـــرود
فنحـــن ثابتون كالخليل في روضة الفيض والله واحد أحد
نســـل سيوفنــــا البتـــــارة على عدونـــــا
ونركض خيـــــــولنا عـــلى الكـــــفار
لنبـــذل أرواحنـــا لسلطـــان الســلاطـــــين

وكبر الســـردار الأكـــرم بنفســـه أســـوة بصحابـــة رســـول الله (صلى الله عليه وسلم) ورفع رايات الجهاد فى يـــوم الســبت (٣) مــن المحرم الحرام .

وبينما اعترى طاهر باشا وسر عسكر باشا شـــىء مــن فتـــور الهمة ووهن العزيمة ، إذ نجدهما السردار الأكرم وأحمى وطيس القتـــال

بين الطرفين ، فتنفس المجاهدون الصعداء ودبت فى قلوبهم الحمية ، [١٨٧-أ] فحملوا على العداة من كل جانب وقتلوا منهم مقتلة عظيمة، كما نصبوا عددا من المدافع الخفيفة وصبوا قذائفها على الملاعين وشتتوا شملهم .

ومن جهة أخرى فإنه مع دوى المدافع التى أطلقها الطرفان لم يكن ممكنا ضبط الإنكشارية المتترسين بالمتاريس فتتابعوا من بلبيس إلى ميدان المعركة وكأنهم أسود أفلتت من إسارها .

ولما رأى الفرنسيون ذلك عين اليقين ، أدركوا أنهم إذا ما بقوا نصف ساعة أخرى بساحة الوغى ، فسوف تلحق بهم شر هزيمة وانكسار ويحصدون بسيوف المجاهدين ويداسون بسنابك خيلهم ، فعمدوا إلى نقل أكثرية قتلاهم ، وتركوا من لم يتأت لهم حمله ولاذوا بجبال (الرمالة) خلف شعب (الجوشى) ، ولم يزل المجاهدون يجدون فى مطاردتهم ، حتى ضربوا أعناق جرحاهم ومن أقعده العجز منهم ، ولم يفتروا عن تعقبهم حتى فى ظلام الليل الدامس ، وفى نهاية المطاف رجع جيش الموحدين أدراجه لما اقترب الفرنسيون من القاهرة ، وكانت ملاحقتهم لا جدوى لها .[١٨٧-ب]

وأمسى طاهر باشا وأمراء المماليك وفرسان الديوانكان ومن رغب من الجند فى قريتى منير وأبى زعبل ، وأرسل السردار الأكرم سبعين من شهداء الموحدين ونحو مائة وخمسين من جرحاهم إلى مخيم الجيش ، وأجزل العطاء لكل من جاء برأس من رؤوس الأعداء . ولما سأل عن عدد ما نفق من جياد الجند ، قيل له إنها تبلغ أربعمائة وخمسين رأسا ، فمنحهم خمسين عينا ، ونقدهم ثمن الجياد الأربعمائة

الباقية ، وعاد باليمن والظفر بالجيش الهمايوني إلى مخيمه. كما عين عدداً من الجراحين المهرة فى معية كبير جراحى الجيش الهمايوني ، وأحسن إليهم بكافة نفقاتهم ، وأنعم على نائب المخيم رامز عبد الله أفندى ـ الذى أبان عن شجاعة فائقة فى ميدان الوغى حتى أصابه طلق نارى ـ براتب كامل ، فطيب بذلك خاطره المخزون .

وكان المدعو (كاوير أمام) ـ من بكباشية الأرناءوط وهو الذى حرض طائفته من قبل بحجة تأخير رواتبهم ، وكان السبب المباشر فى وقوع الفتنة السابقة ـ قد عاد جريحاً من تلك المعركة ، [١٨٨- ا] وتفانى مهرة الجراحين فى علاجه ، غير أن طبهم لم ينجع فيه ومات بعد أن ذاق وبال أمره ورأى عاقبة كفران نعمة ولى نعمته .

تنفيذ أوامر العزل والتعيين بالجيش الهمايوني

ما نُفّذ من أوامر الديوان السلطانى فيما يتعلق بحركة العزل والتعيين بالجيش الهمايوني ، لم يتعد خلع عبدى بك من وظيفة تشريفاتى ، وإسنادها إلىّ أنا الذليل (عزت حسن) دون أن أكون مستحقاً لها . وما حدث من تغيير سوى ذلك ، وثبت كافة رجال الجيش كلٌ فى منصبه .

وكان دفتر أوامر العزل والتعيين قد جاء وما زال الجيش الهمايوني بالعريش ، بيد أنه بسبب ما نزل بالجيش من أزمات وشدائد ، لم يظفر أحد بقباء التثبيت ولا قباء التعيين . وعقب هذا النصر المبين ،

نُفذت أوامر التعيين والعزل، ولبس كل واحد قباءه وانشـــرحت صـــدور الجميع بحسن الأوامر السلطانية.

ورود رسالة البشرى من عند إبراهيم باشا قائد سواحل دمياط

عندما بث والى حلب إبراهيم باشا ــ قائد الجيش الذى أُنفذ إلـى جهة دمياط ــ وممش أغا ــ أغا الســـلام ــ الرهبـــة بنواحـــى دميـــاط ووطآها بالرعب ، [١٨٨-ب] لم يأنس من بها من قـــوات الفرنســـيين فى أنفسهم المقدرة على المقاومة والمقاتلة ، فلاذوا بالفرار إلـــى قلعـــة (ايزبه) التى شادوها من قبل على ضفة نهر النيل عند خليـــج دميـــاط ، فدخل إبراهيم باشا المدينة بلا مقاومة ، وساق جنـــوده علـــى (ايزبـــه) وبادروا إلى حصرها والتضييق عليها . ولما دنوا منها ركن من بها إلـــى الفرار ، فركب بعضهم الزوارق الصغيرة والبعض الآخر فر براً . غير أنه لما كانت الطرق المؤدية إلى القاهرة موصدة كلها فى وجوهـــــهم ، فقـــد اتجهوا إلى الإسكندرية ، فوقع من فر منهم بالقوارب فى أســـــر الســـفن الهمايونية والإنجليزية ، وكذلك وقع أكثر من فر بـــــراً فـــى يـــد غـــزاة الموحدين ، ففتكوا ببعضهم وقيدوا البعض الآخر فى وثاق ، وفئة ضئيلـــة جداً منهم تأتّى لها بلوغ الإسكندرية .

وبعد فرارهم على هذا النحو من قلعة (ايزبه) ، دبر والى حلب المشار إليه فرقة من رجاله للمحافظة علـــى القلعـــة وضبطـــه . وقـــام بتحصين هذا المعبر الهام وزاد من استحكاماته ووفر له عدداً وافراً مـــن

الجنود ، وصادر ما اغتنم من مدافع عتاد حربى لصالح الميرى وأمر بتسجيله فى دفاتر .

واتفق أن صادف قدوم السعاة برسالة البشرى وخريطة قلعة (ايزبه) يوم الفتح المبين فى بلبيس ، فأطلقت المدافع والبنادق ودقت الطبول ابتهاجاً بهذين الفتحين الجليلين ، [١٨٩-١] وأرسلت خلع التشريفات إلى والى حلب إبراهيم باشا وممش أغا (أغا السلام) .

فتح قلعة رشيد على يد قبودان دريا حسين باشا والإنجليز

عندما قدم قبودان دريا الغازى حسين باشا (أبو قير) تشاور مع القائد الإنجليزى (آنشف) ، فأدركا أن شغل الجند بحصار قلعة لها منعة قلعة الاسكندرية وحصانتها لن يغن فتيلاً ما لم يطل حصارهم لها . ولما ظهر لهما أن جند الفرنسيين المحاصرين داخل قلعة الاسكندرية لن يجسروا فيما بعد على الخروج منها ، ترك حسين باشا قدراً وافراً من الجنود لحصار الإسكندرية ومضى بنفسه لاستخلاص الثغور والقلاع الواقعة على ضفتى نهر النيل واحدة تلو الأخرى ، فسَيّر فى طليعة جيشه القوات البرية التى أُنزلت من الأسطول الهمايونى ومعهم عدة آلاف من مشاة الإنجليز ، إضافة إلى كتخداه خسرو أغا ، ومضى هو فى أثرهم.

ولما كانت رشيد ــ الواقعة على مسافة ساعة ونصف ــ تعد قفلاً حديداً لنهر النيل وحصناً حصيناً ببروجها الأربعة ، فإن فتحها ــ على أية حال ــ كان يعد فى مقدمة الأهداف المرجوة ، فأرسل عبد الله

أغا (صول أغا) فرقة اللوندية وعدداً من الإنجليز إلـــى تلـك الجـهات ومعهم مدافعهم وأدخل فى بوغـــاز رشـيد كذلـك عشـرة مـن سـفن (الشالوبه)، وتم استيفاء كافة أسباب الحرب والحصـــار ، [١٨٩-ب] وأرسلت الرسل إلى الفرنسيين تدعوهم إلـــى التسـليم وتأمينـهم علـى أنفسهم، غير أنهم احتواهم الغرور وركنوا إلى المكابرة والمعاندة فأخبروا الرسل أن تسليمهم القلعة ضرب من ضروب المستحيل حتى يفنـوا عـن آخرهم ، فأشعل ردهم على هذا النحو الحمية فى قلوب الغزاة الموحدين ، وأثار شجاعتهم ، فأطلقوا عليهم مدافعهم ووالوا الضـــرب أربعـة أيـام بلياليها من البر ومن النهر ، فسُلب الفرنسـيون القـدرة علـى الثبـات والمقاومة ، وانخفض علمهم إلى الرغام ، ولم يعد لهم قبل بالصمود ولو ليوم آخر ، فاستأمنوا على بعض الشروط ، وبذلك أنقذوا أنفســهم مـن بطش كماة الإسلام . وقد مُنحوا الأمان شريطة أن يسلموا جميعا ــ فيمـا عدا ضباطهم ــ ما فى حوزتهم من مدافع وآلات حرب باعتبارهم أسـرى حرب ، ونُقلوا جميعاً إلى سفن الأسطول الإنجليزي .

وفيما بعد بات من اللازم بذل الجــهد وصـرف الهمـة لفتـح الرحمانية ، إذ إنه لم يعد هنالك ما يعوق سفن الشالوبه وحُلـت مشـكلة قِـفْـل النهر وتحصل المراد من رب العباد . فوافى قبودان دريا حسـين باشا والقوات الإنجليزية بقيادة آنشف قرية (قوغة) على مسافة سـاعة من الرحمانية وذلك فى يـوم ٢٥ مـن ذى الحجـة، فـالتقوا بجمـوع الفرنسيين واقتتل الفريقان وأبدى الفرنسيون شجاعة وبسالة عظيمتيـن فى ميدان النزال ، [١٩٠-أ] بيد أن جند الموحدين وشجعان عسـاكر المجاهدين المتعطشين إلى دماء الكفار تجلدوا فى القتال وأخذوا الكفـرة

أخذاً ووبيلاً واستشهد نحو خمسمائة ، كما جرح خلق كثير من الإنجليز وهلك منهم كذلك الجم الغفير ، غير أن عدد القتلى من الفرنسيين كان يربو على نصف عددهم ومضوا إلى بئس القرار ، ووقع كثير منهم في الأسر وفرت فلولهم تحت جنح الظلام إلى القاهرة ، واستأمن من تبقى متحصناً بحصن الرحمانية ، فأُمّنوا على أن ينقلوا إلى بلادهم آمنين سالمين بشرط أن يسلموا جميعاً ـ فيما عدا ضباطهم ـ أسلحتهم وعتادهم ويكفوا أيديهم عن القتال .

وفُتحت الرحمانية وغنم المسلمون مدافع الفرنسيين وعتادهم ، وعم نور الإسلام البلدة المذكورة ، وزحف جند الإسلام من هذا المنزل كذلك ورفعوا لواء نصرهم إلى جهة قصبة (نبكى) الواقعة على مسافة ثمان عشرة ساعة من القاهرة ، [١٩٠-ب] وفي يوم الخميس (غرة) محرم الحرام عقدوا العزم على التوجه صوب القاهرة ، فأرسل الفرنسيون ـ دون أن يكون لديهم علم باستيلاء المسلمين على الرحمانية ـ حشداً من جنودهم لنجدة الاسكندرية والرحمانية ، فصادفوا قوات القبودان باشا فتناوشوا معهم في الحال وجرى بين الفريقين قتال شديد ، واتصل ذلك بعلم القبودان المشار إليه ، فقام بإرسال المدافع بالقوارب إلى طليعة جنده وأرسل في أثرها عدة قطع من الأسطول النهرى ، ثم خرج بنفسه إلى الشاطىء وخف إلى ميدان المعركة وعندما بلغها أحمى وطيس القتال وأخذ يحض غزاة الموحدين ويحثهم عليه إذ قال لهم : " اليوم يوم الاستبسال والفداء في سبيل الله والوطن .. اليوم يوم تحقيق المجد والشهرة في الدنيا " . فكان ذلك منه باعثاً على اتقاد حماسة المسلمين ، فحملوا بغتة على الفرنسيين حملة صادقة بكل شجاعة

وبسالة ، فما كان منهم إلا أن نكسوا أعلامهم بعد أن خارت قواهم ولم يعد لهم طاقة على الصمود ، فهلك منهم من هلك ، علاوة على أسر مائتين منهم، حُملوا إلى الأسطول الإنجليزى ، وغنم المسلمون كثيراً من عتاد العدو .

ولقد استشهد فى هذه المعركة ثلاثون من المسلمين وجرح (أندرون جوقدار) قبودان باشا جرحاً طفيفاً ، ومن بعد نهض حسين باشا عن الرحمانية . وفى الوقت الذى كانت قواته فى طريقها إلى القاهرة ، نزل بضعة آلاف من الفرنسيين والقبط والفلاحين بموضع على مسافة خمس ساعات من جيش المشار إليه ، [١٩١-١] ولما أخبرت بعض الجواسيس القبودان باشا بأن أولئك يتأهبون للمضى لنجدة الاسكندرية ، نزل إلى الساحل وأنزل اللازم من المدافع وآلات الحرب وعبأ جنده ونظم صفوفهم .

ولما كان خسرو أغا قد علم بذلك مسبقاً ، فقد أرسل إلى الجيش الهمايونى أيام تحرك قبودان باشا من الاسكندرية بمن معه من جند الغزاة الموحدين والإنجليز ، أنه وإن يكن لديه عدد وافر من الجند المشاة ، فإن الأمر يحتم إرسال مقدار من جند الفرسان إليه ؛ لذا أرسل إليه محمد أغا رئيس حواريى السردار الأكرم ــ من القادة الموجودين فى معية سر عسكر الحاج محمد باشا ــ فى ألف من صفوة الفرسان .

وفى تلك الأيام تعقب خسرو أغا ومن حضر إليه من الفرسان أولئك الملاعين المذكورين وناوشوهم القتال ، حتى دنوا من جيش القبودان باشا ، وما إن انبرى غزاة الموحدين يهاجمونهم من هذه

الجهة، حتى شعر الفرنسيون بعدم جدوى المقاومة ، [١٩١-ب] فسارعوا إلى إلقاء أسلحتهم على الأرض مطالبين بالأمان ، فأمنوا .

ولدى التحرى عن أمرهم اتضح أنهم نحو خمسمائة من الفرنسيين والباقى ألف وخمسمائة من الفلاحين والقبط ، كانوا قد قدموا معهم كرهاً لنقل الغلال والأقوات إلى المحصورين ونجدتهم ، فحُمل الفرنسيون إلى الأسطول الإنجليزى ، وأفرج عن باقى الفلاحين والقبط بعد أن غنم الغزاة الموحدون جمالهم وجيادهم .

التقاء الجيش الهمايوني بجيش قبودان باشا والقوات الإنجليزية بمنزل (شلقان)

لم يكن من المُستصوب زحف الجيش الهمايوني من طريق الخانكاه ؛ ومن ثم شد السردار الأكرم الرحال وخرج من صحراء بلبيس وأقام المخيم بقرية (مشتهر) على مسافة أربع ساعات وذلك فى اليوم السابع من شهر المحرم ، وفى اليوم التالى سار مع شاطىء النيل حتى حط الرحال بقرية شهيرة يقال لها (بنها العسل) على مسافة أربع ساعات .

وفى يوم قدوم الجيش الهمايوني بنها ، اتفق أن اشتعلت النار ـ لسبب لا يعلمه أحد ـ وسط بيادر القمح فى فناء القرية واندلعت فيها الحرائق ، وعندما نما نبأ ذلك إلى السردار الأكرم رُكب لفوره مصطحباً كافة رجال الدولة وبذلوا جُهدهم فى إطفاء النيران التى لم تسر فى أكثر من بيدر ، فاستجلبوا بذلك دعوات الفقراء .

وفى اليوم الذى يليه انتهى قبودان باشا إلى الجيش الـهمايوني وشرف بتقبيل ذيل ثوب أمير الجيوش ، [١٩٢-أ] وأبـان السـردار الأكرم عن روح الأب وتبادل التهانى بالنصر مع القبودان باشـا . ولمـا كان القائد الإنجليزى (آنشف) حاضراً معهم ، فقد لـزم الاحتفـاء بـه وإكرام وفادته . فأفردا له فسطاطاً عظيما وجدًا فى إكرامه ومن معه مـن القادة ثلاثة أيام متوالية بالأطعمة الشهية والأشربة البهية .

وبعد أن أداروا كئوس التدبير والمشـورة فيمـا بينـهم حـول حصارهم القاهرة ، قر قرارهم على أن يزحف السردار الأكـرم بـالجيش الهمايوني من الضفة الشرقية للنيل ، ويزحف القبودان باشـا والقـوات الإنجليزية كذلك من الضفة الغربية له ، فيضـرب الأول الحصـار علـى القاهرة من بولاق حتى جبل الجوشى ، ويشدد الثانى الحصار عليها مـن إمبابة والجيزة .

وبما أن قوات القبودان باشا لم تزل تخوض القتال ، فقد رجـع أدراجه لنقلها تلقاء الجيش الهمايوني فى (شلقان) .

وتحرك السردار الأكرم بالجيش من بنها العسل وأقاموا المخيـم بشلقان حيث خلدوا إلى الراحة ريثما يصـل جيـش القبـودان باشـا . [١٩٢-ب] وحضرت قوات القبودان باشا والقوات الإنجليزية وخيمـوا فى الضفة المقابلة للجيش الهمايوني ، وخرج الجيش الـهمايوني مـن شلقان ، فاكتظ الموضع من قرية دمنهور – على مسافة ثـلاث سـاعات من القاهرة – حتى ساعة منها بخلق كثير من الوزراء العظـام والمـير ميران الكرام ورجال الدولة وخدمة السلطنة وقادة جيـوش المجـاهدين

وشاويشية الغزاة الموحدين وطوائف الإنكشارية والأرناءوط والديوانكان وكافة المشاة والفرسان .

وفى البر الآخر كذلك أقامت القوات البرية للقبودان باشا والقوات الإنجليزية جسراً محكماً ومتيناً على نهر النيل ، نصبوه من عدة مئات من سفن الشالوبه وزوارقهم الخفيفة التى كادت تسد جريان النيل ، وذلك بهدف تسهيل نجدة كل من الجيشين للآخر .

واستراح العساكر عدة أيام يترقبون وصول المدافع الكبيرة التى لها القدرة على تدمير القلاع ودك الحصون والتى كان من المتعين جلبها من الأسطول بالزوارق عبر النيل .

وبتوارد المدفعية وسائر آلات الحرب أصبح العساكر على أهبة الاستعداد ، فتحرك الصدر الأعظم بالجيش الهمايوني من المكان المذكور، وحضروا إلى شبرا وابتدروا إلى حصار القاهرة من كل الجهات من بولاق حتى جبل الجوشى ، وباشروا حفر المتاريس بقصد هدم واستئصال كافة ما أقامه الكفرة حول البلاد من حصون واستحكامات وخنادق عميقة وعريضة لإمداد بعضهم البعض ، [١٩٣-١] وتترس شجعان الإنكشارية بها ، وثبتوا مدافعهم على نقاط مناسبة منها واستفرغوا فى ذلك وسعهم وطاقتهم وزحف القبودان باشا هو الآخر بقواته والقوات الإنجليزية من البر المقابل وخيموا تلقاء الجيش الهمايونى .

زحف العساكر على حى الحسينية
دون إذن أو تصريح

فُطن إلى أن الاستيلاء على الجيزة ـ وهى موضع حصين على ملتقى طرق الإسكندرية والصعيد ويقع غرب القاهرة وبمحاذاتها ـ سوف يسهل من مهمة القضاء على الكفرة واستئصال شأفتهم ، فابتدأ القبودان باشا والقوات الإنجليزية حصارها ، وبينما كانوا يجدّون ويجتهدون فى التضييق عليها وحصرها بمدفعيتهم ومهماتهم الحربية القوية ، حدث أن اتفق عددٌ من شجعان الإنكشارية المتترسين تلقاء حى الحسينية ـ الذى يقع فى قلب القاهرة ولصق أحيائها الأخرى ويضم ما يربو على ألف بيت ـ على مداهمة الأعداء .

وعلى الرغم من وجود حشود عظيمة من مشاة العدو بمدافعهم وأسلحتهم بالحصنين العظيمين اللذين أقاموهما على جانبى الحى من الخارج بهدف المحافظة عليه ، أبان ثلة من الإنكشارية عن شجاعتهم وفدائيتهم بقولهم :

" لو اقتحمنا هذا الحى واستشهد منا من وافاه أجله ، وغلب الباقون على الحى، وبسطوا سيطرتهم عليه ، نكون بذلك قد أسدينا خدمة جليلة فى سبيل الدين والدولة ، وحققنا لفرقتنا المجد العسكرى " .[١٩٣-ب]

وعندما قالوا هذا من كلامهم شايعهم (دلي محمد) و (چالق أحمد) وآخرون ، واحتشد كذلك نحو ألفين من الشجعان من سائر الفرق ومن طائفة الأرناءوط والمرتزقة الترك ، واتفقوا معهم على الزحف على حى الحسينية مهللين مكبرين ، وعندئذ فتح من فى

الحصنين الواقعين على جناحى الحى المذكور من الكفرة المعاندين نيران مدافعهم وبنادقهم عليهم ، غير أن المولى سبحانه وتعالى أعان المسلمين وحفظهم ، فلم يستشهد منهم سوى قرابة خمسة أبطال ودخل الباقون الحى آمنين سالمين ، فخرج لاستقبالهم أهالى الحسينية رجالاً ونساءً وقد ملأ الفرح قلوبهم بمقدم الغزاة الموحدين ، فرفعوا أصواتهم قائلين : " الله ينصر السلطان " ، وبالغوا فى إكرامهم والحدب بهم ، وأطعموهم وسقوهم .

ولما بلغ ما حدث ضباط الإنكشارية أدركوا أن وقوع مثل هذه التصرفات دون إذن من أمير الجيوش ، [١٩٤-١] سوف يتسبب فى تعنيفه وتوبيخه لهم فذهبوا إلى الحى المذكور خفية فى جوف الليل لإعادة العساكر المذكورة ، وبذلوا لهم النصح والإرشاد ، فما كان منهم إلا أن ثاروا عليهم وكادوا يفتكون بهم ، فاضطروا إلى تركهم والتسليم بالأمر الواقع ، ووالوا إمدادهم بالمؤن والذخيرة سرا واستحصلو الأسباب اللازمة لتقوية عضدهم ومؤازرتهم .

وبات الفرنسيون الموجودين فى حصنى الجناحين محصورين بين المسلمين ، وعلاوة على ذلك دنا غزاة الموحدين من أبواب القاهرة وحاولوا اختراق أسوارها ، فرأى ذلك منهم الملاعين وعلموا أن قبودان باشا قد ضرب حصاراً وبيلاً على الجيزة ، فلم يسعهم إلا أن أسرعوا فى إرسال مبعوثيهم سراً إلى القائد الإنجليزى (آنشف) ، يعرضون عليه تسليم القاهرة لقاء تأمينهم على أرواحهم ، ويلتمسون تعيين مفوضين عن السلطنة السنية للتفاوض فى الجلاء عن مصر ، فأخبر القائد آنشف

القبودان باشا بذلك ونقل له رغبة الفرنسيين جميعاً فى تخليـــة مصــر ، فأنهى القبودان باشا بدوره الخبر إلى السردار الأكرم .

اجتمع السردار الأكرم بأرباب الرأى والمشورة وبحثـــوا الأمــر برمته فعين كتخدا البوابين مفوضاً عنه ، [١٩٤-ب] كما عين القبودان باشا والإنجليز مفوضيهم ، وتحدد مكان مناسب للتفـــاوض ، ثـم كـانت المفاوضات .

ومع أنه كان من الواضح وضوح الصبح سقوط أمر الفرنســيين وأفول نجمهم فإنهم قد طالبوا بثلاثة آلاف كيس (آقجــه) ، لتعويضـــهم عما سوف يتركوه فى مصر من مال الجمهورية ، فرفض مفوضو الدولـة العلية إجابة هذا الطلب بقولهم :

" حمداً لله تعالى ، فقد أحاط عساكر المجاهدين بالقاهرة من كل جانب ، وبفتحهم لها بين عشية وضحاها ، سوف يصبح فى أيديهم الحل والعقـــد فى كل أمورها ، ومـــن الواضـــح أن مـــا ســتتركونه وتســمونه مـــال الجمهورية، وكل ما فى حوزتكم ، ورقاب كافة رجالكم ونســـائكم ســوف تتمه غزاة الموحدين طوعاً أو كرهاً . وعليه فإن مطلباً كـــهذا عـــلاوة على أنه يعد من قبيل المطل وإضاعة الوقت ، لن يغنيكم فتيلاً ".

ولما قالوا هذا من كلامهم ، أخذ الفرنسيون بالحجـــة وشـــحب لونهم ، وانطبق عليهم قوله تعالى { فبـــُهت الـــذى كفـــر }[1] ولانـــت شكيمتهم وزايلهم تشددهم . وكتبت أسطر الاتفاق بما يتفق مع المصلحة، [١٩٥-أ] وصدق الطرفان على وثائقه وتبادلوها .

١- البقرة : (٢٥٨) .

ونصت شروط الاتفاق على أن يخلى الفرنسيون مدينة مصـــر ، على أن يتم انسحاب الجند بأسلحتهم وعتادهم ومدفعيتهم وذخائرهم إلـــى رشيد عن طريق البر بحذاء شاطىء النيل الغربى ، حتى إذا انتهوا إلـــى رشيد حملتهم سفن الدولتين المتحالفتين إلى الموانى الفرنسية على البحر الأبيض .

ونصت المواد التالية على أن يكف الطرفان عن الحرب بدءاً من تاريخ التصديق على الاتفاق ، ويتم تسليم قلعة (سولفوســـكى) قبالـــة أهرام الفراعنة فى الجيزة إلى جيوش الحلفاء بمجـــرد التصديـــق علـــى الاتفاق ، وتنسحب قوات الطرفين حتى الحدود الأمامية من متاريســـهم ، وألا يتجاوزون الحدود المذكورة ، ويتم التنبيه على عساكر الطرفين بعدم التعرض لبعضهم البعض ، وإذا ما حصل نزاع ، يحل بـــالطرق الوديـــة بمعرفة مفوضى الطرفين ، وأن يتم إخلاء مصر والقلعة وحصون بولاق من الفرنسيين بعد اثني عشر يوماً من تاريخ التصديق علـــى الاتفـــاق ، وبعد أن يعبروا إلى ناحية الجيزة ويلبثوا بها خمسة أيام ، يركبوا السـفن تحت الحراسة حتى يبلغوا ميناء رشيد.

ولما كان تحرير تلك الشروط كافياً ، فقد ضربنا صفحـــاً عـــن تحرير بقية الشروط والمواد ، [١٩٥-ب] إذ إنها تعد من قبيل غـــير اللازم معرفته .

وحتى انقضاء المهلة المتفق عليها للتخابة والتى تحددت بـــاثنى عشر يوماً، ترك السردار الأكرم راحة النوم ليل نهار ، وأكد علـــى قـــادة جيشه وضباطه ونبه عليهم بعدم اتخاذ أى إجراء يتنـــافى مـــع شـــروط الاتفاق ويكون سبباً فى إحداث أى نوع من أنـــواع الـــنزاع والشـــجار ،

ووصاهم بعدم تجاوز الحدود المعينة أمام المتاريس حتى ولـــو لخطـوة واحدة . وكان كل يوم على السحر يمتطى صهوة جواده ويصطحب معـه سر عسكر محمد باشا والى مصر وإبراهيم باشا وثلة من جنـد بابـه ، فينزلون بقرية قريبة من الحدود الفاصلة ، ويُنفذ المشار إليهم كـل إلـى جهة لضمان عدم حدوث أى تصرف موحش مـن الجنـد ، كما عيـن دوريتين من أغوات الأندرون تصحبهم قوات الشرطة لضبط وربط الجنـد كل ليلة من أولها حتى مطلع فجرها .

وبما أنه قد أرسل فى استدعاء قائد أو اثنين مـن كبـار قـادة الفرنسيين للمثول بين يدى الحضرة الآصفية ، فإنه لكـى لا ينالـهم أى سوء على أيدى الجند، تم تعيين المدعو (لك أوغلو إسماعيل أغـا) ــ [١٩٦-أ] من أغوات أندرون السردار الأكرم ــ مضيفاً لـهم ، فلمـا قدموا فى معية المذكور إلى مخيم الجيش الهمايونى ، شربوا القهوة فى الفسطاط العالى لأمير الجيوش ، وخلع على كل منهم فراء سمورى ولدى عودتهم التمسوا من السردار الأكرم أن يسمح لهم بإطلاق مدافعـهم ــ على ما جرت عاداتهم ــ اليوم التالى وذلك لنقل جثة كليبر ، وألا يحمـل ذلك معنى آخر بين الجند . فأجابهم الصدر الأعظم إلى ذلـك المطلـب ، وأعادهم أدراجهم إلى القاهرة برفقة الأغا المذكور .

وفى اليوم التالى أرسلوا علماء مصر وأشرافها إلـى الجيـش الهمايونى لتقبيل بساط أمير الجيوش ، وأثناء إطلاقهم المدافـع بحجـة إخراج رمة اللعين كليبر ، اتفق أن شرّف السردار الأكرم جيش القبـودان باشا ، فأطلقت مدافع القبودان باشا ومدافع الإنجليز كافة تحية لقدومـه ، [١٩٦-ب] وطعم السردار الأكرم فى فسطاط القبـودان باشـا وعنـد

عودته خلع على كل مشايخ مصر ومن قدم فى عقبهم من معلمى القبط والأروام كل على حسب منزلته ودرجته ، وأعادهم كذلك إلى داخل القاهرة .

وفى اليوم التالى الموافق (٢٩) من شهر صفر الخير انتهت مهلة رحيل الفرنسيين وانسحابهم من القاهرة مصر وهى حصن الأولياء ومجمع الأتقياء ، وفى منتصف ليلة ذلك اليوم خرجوا أجمعين منها ولم يتخلف بها أحد منهم ، ومضوا إلى الموضع المعين لمخيمهم فى جهة الجيزة وأخبروا الإنجليز ليلاً بذلك ، فنقلوا الخبر إلى قبودان باشا ، فأبلغه بدوره إلى السردار الأكرم ، فاصطحب عدداً من جند دائرته وأغا الإنكشارية ، ودخلوا القاهرة من باب النصر ، ولما كان القبودان باشا والقائد الإنجليزى آنشف قد جاءوا من الباب المفتوح على جهة الجيزة ، فقد تلاقى الجميع بقلعة مصر ونزلوا بمنزل واحد .

وعهد إلى أغا الإنكشارية بمهمة حراسة القلعة المذكورة ، وأنشىء نحو سبعين مخفراً للمحافظة على المدينة والأمن بها ، وأرسل كتبة أقلام الجبجية لتسجيل ما خلفه الفرنسيون فى قلاع القاهرة وحصونها من مدافع وعتاد وذخائر، وازدانت كافة الحصون والقلاع والأسوار بالأعلام والرايات العثمانية ، وانقشع ما نزل بالمسلمين من أهل مصر منذ سنوات ثلاث من صنوف البلاء ، [١٩٧-أ] وكُشف عنهم ما لاقوه على أيدى أناس يخالفونهم فى الملة من ضروب التحقير والإذلال، وتحقق لهم ما كانوا يتشوقون إليه ليل نهار ، وقام الناس رجالاً ونساءً فى جلبة وضجيج ورفعوا أصواتهم بقولهم :" الله ينصر السلطان"،

وتجمع الشيوخ والصبيان وجأروا بالدعاء قـــائلين :" الله يقــهر العــدو اللئيم".

وبعد أن أوصى الصدر الأعظم بالأخذ بالأسباب اللازمة لضبـــط البلاد وربطها ، صلى الجمعة بالجامع الأزهر ، وزار المشـــهد الحســينى المبارك ، وأنعم على العلماء والصلحاء وكافة المشايخ والفقراء وغطــف بإحسانه إليهم ، حتى إذا حل وقت العصر عاد أدراجه إلى فسطاطه .

ولما بات من اللازم إرسال بشير إلى السلطنة السنية بمفـــاتيح قلاع مصر وبشرى رحيل الفرنسيين وكشحهم ، طلب قبودان دريا حســين باشا إلى السردار الأكرم أن ترسل المفاتيح مع مــهر داره ، [١٩٧-ب] فأجابه صاحب الصدر فسيح الصدر إلى طلبه هذا رعاية لخاطره وتقديــرا لسمو قدره ، وأرسل مفاتيح القلاع وبشريات الفتح مع مهر دار قبــودان باشا خير الدين أغا إلى جهة حضرة السلطان ، ليملأ قلبه وقلوب كافــــة المسلمين فرحا بتلك الأخبار السارة .

ولما فطن إلى أن فرار من خالط الفرنسيين من القبــط والأروام عند غزوهم للديار المصرية واحتلالهم لها ، تاركين ديارهم قاصدين بــلاد الأعداء ، سوف يتمخض عنه الضرر ، تم اســـتدعاء المعلــم جرجــس الجوهرى كبير القبط ، وسائر رءوس طوائفهم ، ومنحوا جميعا الأمـــان هم وكافة الرعايا الذميين الذين لعبــت بـــهم الوســاوس والـــهواجس ، وأسكنوا فى ديارهم كما كانوا فى السابق .

وبعد أن أقام الفرنسيون بالجيزة عدة أيـــام لقضـــاء أشـــغالهم وتسوية أمورهم، تحركت جحافلهم فى (٤) من شهر ربيع الأول . ولمـــا كان واضحا للجميع أنه ليس من المستبعد ــ بحكم ما جلبوا عليــه ــ أن

يعمدوا إلى الخيانة والغدر إذا ما سنحت لهم الفرصة لذلك ، إذ إنهم كانوا يبلغون عشرة آلاف بأقوى مدفعيتهم وأسلحتهم ، فقد مشى فى خفارتهم ، علاوة على قبودان باشا ومن معه من جند المسلمين ، صنديد يقـال لـه (الحاج بهرام) بك وعدة آلاف مـن مشـاة الأرنـاءوط وفرسـانهم .
[١٩٨-أ]

وسار كافة فرسان المسلمين فى الميمنة ، وفرسان الإنجليز فـى الميسرة ، ومن الوراء سار القبودان باشا والقائد الإنجليزى وكافة الجنـد المشاة ، وكانوا يتحرون أحوال جيش الفرنسيين من حين لآخـر حتـى انتهوا إلى رشيد نهراً ولله الحمد دون أن ينالهم أى مكـروه ، فحملتـهم السفن المهيأة لذلك الغرض إلى ميناء طولون بالبحر الأبيض فى خفـارة أساطيل الحلفاء .

دخول الجيش الهمايوني القاهرة

بعد أن حملت جيـوش قبـودان باشـا والإنجلـيز الفرنسـيين ورحلتهم، صدر فرمان عال بدخول والى مصر وسـر عسـكرها الحـاج محمد باشا القاهرة والإقامة بقصر الغورى الخاص بالولاة بداخل القلعـة ، وبذل السعى والهمة لإعداد الثكنات اللازمة للجيش الهمايوني ، [١٩٨- ب] فدخل المشار إليه القاهرة فى موكب حافل ونزل بداخل القلعة . غـير أن قصر الغورى هذا كان قد لحق بـه الدمـار والخـراب أثنـاء غـزو الفرنسيين واحتلالهم البلاد ؛ ولهذا عين كتخداه محافظا على القلعة فـى عدد وافر من الجند ، وسكن هو بالقرب من المشـهد الحنفـى وأرسـل

(القوناقجى) حافظ باشا ــ من المير ميران ــ إلى المشـــايخ والأشـــراف يطلب إليهم التعريف عن البيوت الخالية وكافة المواضع .

[١٩٩-١] وبعد يومين أى فى يوم الجمعة ٥ من ربيــع الأول المبارك ، اصطف موكب حافل تصدره أمراء الممـــاليك بكافــة خدمــهم وحشمهم ومن خلفهم نائب مصر وعلماؤها ومشايخها وسائر وجهائـــها وأشرافها ، ثم بيكباشى عبد الجبـــار زاده ومـــن بعـــده محـــافظ كمـــاخ وكرجانيس ، ثم سيد قلندر بك متســـلم مرعـــش ، ثـــم كافـــة فرســـان الديوانكان، ثم فرسان الأرناءوط ، ثم جند أمير الطليعة طاهر باشا ومـــن خلفهم جند رشوان زاده عبد الرحمـــن باشـــا وأحمـــد باشـــا متصـــرف (ايج ايلى) ، ومن خلفهم واليا مصر وحلب كل بصحبـــة كتخـــداه ، ثـــم خدمة الباب وأرباب المناصب وضباط الفرق العسكرية . كل ذلك بموجـــب دفتر التشريفات .

وعلاوة على كل هؤلاء ، فقد اصطف مشاة الأرناءوط والمرتزقة الترك بدءاً من مخيم الجيش الهمايوني وحتى باب النصر علـــى جـــانبى الطريق كسدين من الحديد ، وتراصت كذلك صفوف الإنكشارية على يمين الصدر الأعظم ويساره من باب النصر حتى القصر الذى ســـوف يشـــرف بنزوله به ، وزينت الجياد والجنائب ، وشق الحاج إبراهيم باشا المدينـــة ومعه محمد باشا ــ من الوزراء ــ وطاهر باشا وعبـــد الحمـــن باشـــا وأحمد باشا ــ من المير ميران ــ ورجال الدولة وكافة أهل المنـــاصب ورؤساء البوابين وأغوات الجنائب مثنى مثنـــى فـــى موكـــب ذى أبهـــة وعظمة . ولم يبق مكان بقدر كف اليد خالياً على جـــانبى الطريـــق فـــى

الصحارى الخالية والمقابر والمزارات من بولاق إلـــى قصـــر الســـردار الأكرم.

ولما دنا الموكب العظيم من باب النصر ، توالى إطلاق المدافـــع من القلاع والحصون تحية وترحيبا حتى أنه قد تهدمت عدة مواضع مـــن تلال الأهرام من صدمات البارود ، [١٩٩-ب] وكل مـــن شـــاهد هـــذه الأمور وقف مشدوها واحتواه الذهول. ولما انتهى الصدر الأعظم إلى باب النصر ، حياه أغا الإنكشارية ، وتقدمه صف مـــن شـــجعان البكتاشـــية والجوخدارية ، وعند مرور الصدر العالى من باب النصر إلى القـــاهرة ، رفع المتفرجون من أهلها أصواتهم بخير الدعاء بنصرة السلطان وقـــهر أعداء الله اللئام ، كما تعالت أصوات النساء بالزغاريد مهنئين بـــالقدوم ، فعمت المسرات قلوب الموحدين واقشعرت أبدانـــهم وانبجســـت ينـــابيع الدموع من أعينهم فرحا وطربا . وسار الموكب فى بطء وتؤدة ولم يـــزل فى السير من الضحى حتى وقت العصر ، [٢٠٠-ا] والسردار الأكـــرم يحفن الدنانير والدراهم عن يمينه وعن يساره إلى أن وصل إلى قصـــره على البركة والذى كان ملكا لأحد البكوات يسمى (رشوان بك) ، ونـــزل كل واحد فى الموكب فى الدار التى خصصت له بموجب الدفتر ، وحطـت السهام وارتخت الأقواس ، وحصل المراد من رب العباد ، { فقطع دابـــر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين }[1] ،

وحمد الله الجميع أن أذهب عنهم الكرب ، ورفعوا أكفهم بالدعاء للصـــدر الأعظم منصور اللواء .

١- الأنعام : (٤٥) .

وحمد الله الجميع أن أذهب عنهم الكرب ، ورفعوا أكفهم بالدعاء للصدر الأعظم منصور اللواء .

وقد وقع الاختيار على القصر العظيم لكتخدا الشاويشية الواقع قبالة القصر الذى نزل به السردار الأكرم ليسكنه رجال بابه وبعض كتبة الأقلام ، وعُين لكل شخص مسكن بحسب الدائرة التابع لها .[٢٠٠-ب]

ومع أن الحديث عن جسامة القصر المذكور وضخامته يعد من الأمور الغريبة ، فقد توفرنا على الاستفاضة فى وصفه فيما يلى :

كان هذا القصر للمدعو على أغا كتخدا الشاويشية الراحل ، وقد اقتسموا حرمه ، فنزل كافة معاونى خازن الصدر العالى وأغا المفتاح ومعهم كافة جنائب السردار الأكرم وجياده بجهة ، وبالجهة الأخرى من ذلك الحرم كان هناك باب يفضى إلى سلاملك (بهو استقبال) يضم أكثر من دائرة ، فنزل كتخدا الصدر الأعظم بأتباعه وخدمه وحشمه بإحدى جهاته ، وفى جهة أخرى نزل رئيس الكتاب أفندى وكيسه داره وأتباعه والمكتوبى أفندى والتشريفاتى وكاتب الكتخدا وموظفى قلم الديوان والدفتر خانه وترجمان الديوان ومير آخور الصدر العالى والبكلكجى أفندى والآمدجى أفندى . كل واحد من هؤلاء نزل بحجرة مستقلة به، وبعد كل ذلك تبقت خمس عشرة حجرة شاغرة .

[٢٠١-ا] وإذا ما لاحظنا أن لكل دائرة من دوائر (الأندرون) والحرم ، حديقة كبيرة خاصة بها ، اتضح لنا وضوح الصبح إلى أى مدى بلغ إسراف أولئك الأمراء الذى كان كتخدا شاويشيتهم يمتلك قصراً ضخما كهذا.

نصب ناظر للضربخانه

مع أن الفرنسيين لم يمسوا سكة ضربخانه مصر ، وضربوهـــا باسم الخليفة ، فقد ظهر غش تام فى عيارها ؛ ولهذا سعى الصدر الأعظم سعياً مشكوراً فى تصحيح نظام السكة ، فأمر بالاهتمام بجودة طغرائـــها الغراء وصفاء عيارها من الذهب والفضـــة ، وعيــن كــاتب دفــترداره مصطفى شجيع أفندى ناظراً على الضربخانه ، وأوصاه بتحرى النزاهـــة والاستقامة .

كما عين أمناء أكفاء على الجزية والجمارك وذلك بمعرفة دفــتر دار شق أول خليل رجائى أفندى ، وبمعرفة معلمى القبط ممن كان لـــهم خبرة كبيرة ودراية بـــأمور الأراضـــى والمزروعـــات وضبـــط شـــئون الإقطاعيات ، بذل السعى والهمة لتنظيم أعمال روزنامجة مصر .

وبذل السردار الأكرم ودفترداره على حد سواء قصارى جـهدهما فى تحصيل الأموال والتحرى عن أحوال الملتزمين والعمال .

تعيين حافظ باشا محافظاً على الرحمانية ، ومحمد جاووش أغا محافظاً على البرلس

لما صار من اللازم تعيين محافظ على حصن الرحمانية ، وآخــر على بوغاز البرلس بعد استخلاصهما من أيادى الكفرة ، تم تعيين حـــافظ باشا ــ من المير ميران ومتصرف آقشهر وقوناقجى الجيش الـــهمايوني ــ محافظاً على الرحمانية ، [٢٠١-ب] ومحمد جاوش ــ كتخدا علـوى

باشا ، من رؤساء بوابى الباب العالى ـ محافظا على البرلس ، وخلع عليهما فى قسطاط أمير الجيوش وأخذا اللازم من الوصايا . وسارا إلى منصبيهما بعدة وعتاد قويين .

منح رتبة الوزارة إلى كتخدا القبودان باشا

اتصل بحضرة السلطان ما أبداه خسرو أغا كتخدا القبودان باشا فيما دار من معارك فى رشيد والرحمانية والمواضع الأخرى من شجاعة وبسالة ، فأنعم عليه بلواء (قوجه ايلى) ، ومنحه رتبة الوزارة السامية وخلع على كتخداه فى العتبة العلية السلطانية . ونما نبأ ذلك أيضا إلى الجيش الهمايونى .

فتح قلعة الإسكندرية

ذكرنا فيما سبق خروج الجيش الفرنسى من الجيزة متوجها إلى رشيد فى خفارة قوات القبودان باشا والقوات الإنجليزية ، وقد طووا المراحل حتى بلغوا رشيد ، وعندما انتهوا إلى ميناء (أبو قير) منها ، [٢٠٢-أ] تم إرسالهم جميعا ـ بمقتضى بنود الاتفاق ـ إلى ميناء طولون فى سفن ضخمة أعدتها الدولتان الحليفتان من قبل لذلك الغرض ، ثم توجه القبودان باشا والقوات الإنجليزية إلى الإسكندرية وشمروا عن سواعدهم لحصار العدو .

وقبل المعركة عرضوا عليهم التخلية لقـــاء الأمـــان ، غـــير أن الكفرة المعاندين ، أبوا إلا القتال اغترارا بمتانة القلعة وحصانتها وأمـــلا فى وصول نجدات وفيرة وسريعة إليهم من جهة فرنســـا ؛ ممـــا أشـــعل الحمية فى قلوب غزاة الموحدين .

وانقسمت قوات المسلمين والإنجليز إلـــى فرقتيـــن ، وابتدرتـــا الحصار ، وأبلى الأسطولان فى القتال من جهـــة البحـــر . [٢٠٢-ب] إضافة إلى أنه تم إدخال عدد من سفن الشالوبة داخل بحيرة (مريـــوط) ــ التى فتحت لتوها ــ وأعمل ما تم تعبئته فيها من المدافع والقذائـــف ، وحمل المسلمون على السفن الفرنسية الموجودة فى البحر والبر وســـائر المواضع الأخرى ، فأغرقوا أكثرها ، وغنموا البـــاقى . وبعـــد معـــارك عظيمة استولوا على الطوابى الواقعة على ضفتـــى البحـــيرة المذكـــورة والطابية العظيمة المعروفة بـــ (طابية العجمى) ، وأعملوا التقتيل فيمن داخلها من شياطين المشركين .

ودام القتال عشرة أيام وعشر ليال وقهر المشـــركون وذلـــوا ، وجزموا بأنه لو استمرت الحـــرب ليـــوم آخـــر فســـوف تســـقط قلعـــة الاسكندرية حربا وهنا لا ينجو منهم أحد لا محالة فى ذلـــك ، ممـــا حـــدا بقائدهم مينو إلى أن يرسل فى ١٢ ربيع الآخر اثنين من ياورانه يطلـــب هدنة لمدة ثلاثة أيام يستعد فى أثنائها للتفاوض فى تســـليم الاســـكندرية والجلاء عنها ، فأجيب إلى هذا الطلب وأعلنت الهدنة لمدة ثلاثة أيـــام ، وتم تعيين مفوضين من كلا الطرفين وبحثـــت الشـــروط التـــى أرســـلها الفرنسيون ، فرفض بعضـــها وأدخـــل تعديـــل علـــى البعـــض الآخـــر ، [٢٠٣-أ] وأخبروا أن استئمانهم ثانية لن يعتد بـــه إذا مـــا زادوا أيـــة

فقرات أخرى فيما بعد ، وصادق الطرفان على اتفاق تخلية الاسكندرية فى فترة لا تتعدى عشرة أيام .

وطلب الفرنسيون أن يعالج جرحاهم فى مكان مناسب ريثما يشفون من مرضهم ويستردون عافيتهم ويلحقون بهم ، فأجيبوا إلى ذلك الطلب ، وتم إيواء ما يربوا على ألف من مرضاهم وجرحاهم فى موضع مناسب يعالجون فيه .

وقد نصت شروط الاتفاق على تسليم حصنى (ترك) و (بويير) بكامل ذخائرهما ومدافعهما إلى الدولتين الحليفتين بعد ثمان وأربعين ساعة من تاريخ التوقيع على اتفاق الجلاء ، وتسليم مدينة الاسكندرية وسائر قلاعها وحصونها وكافة مواضعها ومشتملاتها فى ظرف عشرة أيام من التوقيع على الاتفاق . وعلاوة على هاتين المادتين كان هناك ست عشرة مادة أخرى من شروط الاتفاق، غير أنها لما كانت من قبيل ما لن يتأتى لنا فهمه ، فقد سكتنا عنها ولم نوردها .

ولما انقضت المهلة المتفق عليها ركب الفرنسيون السفن التى أعدت لترحيلهم وأبحرت بهم إلى فرنسا .[٢٠٣-ب]

ذكر ضم لفظ (غازى) إلى ألقاب السلطان

بناء على وقوع مصر فى قبضة دولة ذات بأس مثل فرنسا ، ووضوح أمر تغلب هذه الدولة على جميع دول العالم ، فإن تحرير القطر المذكور وفتحه عندما نقارنه بفتحه أول مرة على يد عمرو بن العاص ، وفتحه مراراً وتكراراً من قبل دول شتى ، وفتحه على يد السلطان الغازى سليم خان الأول (ساكن الجنان) ، يتضح لنا جليا رجحان كفة ذلك الفتح الجليل على كافة أسلافه من الفتوحات .

وإذا ما نظرنا نظرة انصاف ـ على وجه الخصوص ـ إلى فقدان الفرنسيين لجزيرة (قورفو) وتوابعها والتى كانت تسمى الجزر السبع ، اتضحت لنا مظاهر التفوق المتعددة لتلك الغزوة الغراء عن أسلافها من الغزوات .

وعليه وبناء على الرأى الصائب للسلطنة السنية بوجوب إضافة لقب (غازى) إلى الألقاب المباركة لحضرة السلطان فى الخطب والأدعية المقروءة على منابر الجوامع والمساجد فى الممالك الإسلامية المحروسة وإشاعة ذلك للجميع ؛ [٤٠٢-١] صدرت فتوى من شيخ الإسلام بذلك، وعليه وبناء على الأمر الصادر فى يوم الجمعة ١٦ من جمادى الأول بشأن توشيح الاسم الملكى السامى بلفظ (غازى) على منابر الجوامع والمساجد الواقعة فى الآستانة العلية وغلطه واسكدار وحضرة خالد وسائر الأحياء الأخرى ، فقد صدرت الأوامر الجليلة إلى كل الجهات فى سائر الممالك الإسلامية بأنه لدى ذكر الخطباء الكرام للاسم الملكى السامى والدعاء له يذكرونه على أنه (السلطان ابن السلطان غازى سليم

خان بن مصطفى خان ابن المرحوم غازى أحمد خان) خلد الله خلافتـــه إلى انقضاء الزمان وانقراض الدوران .

كما أدرك حضرة السلطان أن السردار الأكرم والقبـودان باشــا كان ضلعين عظيمين فى هذه الفتوحات بما كان لهما من سعى مشـــكور وجهد موفور فيها ، فخلع على حضرة الصدر الأعظم منصور اللواء فــى الخط الهمايوني الشريف الذى بعثه إليه لقب غازى كذلــك ، إذ خاطبــه بقوله :

" ياوزيرى الغازى يوسف ضيا باشا " .[٢٠٤-ب]

كما خلع على القبودان باشا نفس اللقــب فــى عنـوان الخـط الهمايوني الشريف الذى أرسله إليه إذ خاطبه قائلا : " ياوزيرى الغــازى حسين باشا القبودان " . والحق أن هذين الوزيرين استقاما على طريـــق الإخلاص له ، فكان لا بد من مكافأتهما .

ورود عثمان أفندى كتخدا الصدر الأعــظم وشريف أفندى دفتر دار مصر إلى القاهرة

ذكرنا فيما مضى أنه بسبب ما أسداه عثمان أفندى كتخدا الصدر الأعظم من خدمات فى الجيش الهمايونى ، وطول مدة السفر وما خاضــه من معارك طاحنة مع الفرنسيين لدى دخول القاهرة ، أصابته شدة ألزمته الفراش ، وبيَّنا كذلك ذهابه مستأذناً إلى الآستانة وتعيين سعد الله أفنــدى خلفاً له .

وبسبب شدة تعلق الأفندى المشار إليه بالصدر الأعظم ، وعظم ارتباطه بالقبودان باشا ، فقد كان همزة الوصل بينهما فيما وقع من اتصالات وتعاملات ، وظهر تفرده وإخلاصه على الدوام ، كما كان وثيق الصلة بالمصريين ، له علاقات وثيقة بهم . ولما كان حضرة السلطان يعلم ذلك فقد أصدر فرماناً بتوجه الأفندى المشار إليه إلى مصر .
[٢٠٥-١]

وفى (٢٢) من ربيع الأول خُلع عليه فى حضور القائمقام ، وطُلب للمثول بين يدى الحضرة العلية السلطانية ، ولقن بالوصايا اللازمة ووضع على الطريق إلى جهة مصر .

وقد صح العزم من العقلاء وأولى المنطق الحصيف واتفقت آرائهم على سن نظام جديد لمصر ، وحتمية تعيين دفتر دار كفء وإرساله إليها ، وعليه فى ٤ من الشهر المذكور خلعوا على شريف محمد أفندى ـ أمين الترسانة السابق ـ قباء دفترداريه مصر ، وأوصوه بالعمل وفقاً لورقة التعليمات التى منحوه إياها . وقد شغل المشار إليه من قبل مهام خطيرة مثل كتخدا الدولة ودفتردار أول ، وكان رجلاً معروفاً بالصدق والاستقامة والنزاهة والكفاءة ورجاحة العقل ،يشهد له الجميع بذلك .

وركب الأفنديان المشار إليهما البحر متجهين إلى مصر ، وحدث أن ساعدت الرياح سفينتهما ، فرست على ساحل الاسكندرية بعد أربعة أيام من مغادرتها الآستانة . ولما كان القبودان باشا حاضرا بالثغر آنذاك، فقد خف لاستقبالهما وأصاخ السمع لما حمله كل منهما على حدة من وصايا حضرة السلطان ، [٢٠٥-ب] وفى اليوم التالى توجه المشار

إليهما إلى القاهرة عن طريق النيل ، فبلغا بولاق فى أواخر ربيع الآخـر .
ولما علم السردار الأكرم بذلك فرح فرحا شديدا بمقـدم رجليـن كـهذين خبرهما وجربهما من قبل . وعلى الفور أمر بتهيئـة المسـكن لـهما ، وأرسل التشريفاتى بجواد مرصع السرج ، وكافة رؤساء الجند إلى بولاق لاستقبال المشار إليهما . ولدى وصولهما قابلهما السردار الأكرم بتـهلل واستبشار وإكرام مثواهما ، وخلع على عثمان أفندى خلعـة كتخداويـة مصر ، وخلع على شريف أفندى خلعة دفترداريتها .

واضطلع عثمان أفندى بخدمة الكتخداوية على أكمل وجه ، وبذل قصارى جهده فى أداء مهام منصبه كافة كبيرهـا وصغيرهـا ، وراعـى خاطر الكبير وبسط عطفه ورعايته على الصغير ، فاستجلب بذلك دعوات الفقراء للسلطنة السنية .

وباشر خليل رجائى أفندى دفتردار أول الجيش الهمايونى مهمـة تصحيح وتمييز الأوقاف والمقاطعـات الموجـودة بالديـار المصريـة ، وتحصيل إيراداتها ، وإسناد محلولاتها لمن يرغب بشروط مناسبة .

وقد أفردت فى مقره الخاص حجرات مستقلة للأقلام ،كالشأن فى إدارة الدفتردار فى الآستانة العلية ، كما أفرد كذلك أماكن لروزنامه مصر وموظفى القبط ، وبذل الأفندى المشار إليه السعى الأوفى فى عمل دفـاتر مستقلة ، وذلك بالاستعانة بمهرة الكتاب الذين برعـوا فـى المحاسـبة.
[٢٠٦-١]

ومع أنه كان يسبغ اهتمامه على تمييـز الأراضـى وتحصيـل إيراداتها ، ويتحرى الدقة فى صيانة الأموال الأميرية ، صدر أمر سلطانى بإحالة الإيرادات والمصروفات المصرية إلى عهدة شريف أفندى . ولـهذا

كان يسلم إلى شريف أفندى صورة من الدفاتر الجديدة للأقلام والروزنامجة ورئاسة المحاسبة ، وفيما بعد صدر فرمان عال بإعفاء رجائى أفندى من مهمة الإيرادات التى كانت قد أسندت إليه ، وإحالتها إلى خلفه (شريف أفندى) . ولقد شغل رجائى أفندى بمناجزة الجند الأراذل ومناوئتهم ، وانتقلت المعاملات المصرية إلى مقر دفتردار مصر المشار إليه .

حضور شقيق شريف مكة إلى مصر

اشتهر استرداد مصر من أيدى الكفرة وطار صيت عدل السردار الأكرم فى القطر المذكور وتلطفه بالعلماء والصلحاء والفقراء وحدبه بهم غاية الحدب إلى شتى الجهات والأنحاء ، فحضر شقيق شريف مكة ، ومفتيها ، ونقيبها ، وكذلك مفتى المدينة المنورة شرفها الله إلى يوم القيامة ونقيبها وكتخدا شيخ الحرم إلى ميناء السويس ومنه قدموا القاهرة لزف التهانى لغزاة المجاهدين والدعاء برفعة السلطنة وعزها . [٢٠٦-ب] وقد بلغت السعادة منتهاها بكل منهم بتقبيل ذيل ثوب أمير الجيوش الذى أسبغ عليهم من كرمه وجوده وأجلّ قدرهم بما يليق بحرمة البقاع المقدسة التى يقيمون بها .

وبعد أن أقاموا عدة أيام بالقاهرة خلع عليهم وعطف بالإحسان إليهم فدعوا بدوام عمر الدولة وقوة شوكتها ، وأرسلوا إلى جهة الحرمين الشريفين شرفهما الله تعالى إلى يوم الساعة عبر السويس

ومعهم مكاتبات مفعمة بالود والمحبة إلى حضرة شريف مكة وحضرة شيخ الحرم .

ورود التشريفات الهمايونية من جهة الخليفة الأعظم

عندما تواردت أنباء تلك الفتوحات الجليلة إلى عتبة السلطنة السنية ، أرسل حضرة السلطان إلى السردار الأكرم ثوبا ثمينا من فرو السمور وطرة مزدانة بالماس ، وسيفا مرصعا ، إضافة إلى ثمانية عشر ثوبا سموريا أخرى وثمانى طرر ذهبية مرصعة وخمس عشرة طرة ذهبية لتوزيعها على من معه فى الجيش الهمايوني من الوزراء العظام والميرميران الكرام وأغوات الفرق ورجال الدولة العلية . [٢٠٧-١] وقد أرسل حضرة السلطان هذه التشريفات مع (ميرآخورأول) شمس الدين بك ، مصحوبة بخط شريف مبارك يتضمن المديح والإطراء .

وقد أرسل كذلك إلى الوزير قبودان دريا حسين باشا ثوبا ثمينا من فرو السمور وطرة ذهبية مرصعة بالجوهر وسيف ، وإلى خسرو باشا ثوبا مخيطا بتمامه من فرو السمور وطرة مزدانة بالجوهر ، وكذلك عشرة ثياب سمورية وعشر طرر بكل منها ماسة وخمسين طرة فضية ذات نقوش وزخارف لتوزيعها على قادة جيش القبودان باشا وضباط بحارته .

وأرسل كذلك ثوبا فضفاضا من فرو وطرة مرصعة بالماس وثرية مزدانة بالجوهر على شكل الشمس ، بداخلها نقوش ورسم هلال ،

وأسورة لليد مصنوعة من الذهب وتحمل طغراء السلطان وذلك إلى كـــل من أمير البحر الإنجليزى (كيث) وأمير لواء بحارته (ديجار بقرطون) ، وقائد القوات الإنجليزية البرية (آنشف) . إضافة إلى ثـــوب ســـمورى وثرية مزدانة بالماس وأسورة من الذهب تحمل طغراء السلطان لإهدائـــها للقائد (قوط) الذى أبان عن شجاعة وبطولة فى القتال . وثوبا فضفاض الكم وقطعة ذهبية مزدانة بنقوش لكل واحد من خمســـة قـــادة إنجلـــيز ، وثوبا سموريا وصندوقا مرصعا بالجوهر والماس لمن يدعى الكولونيـــل (لندا ننال) ، [٢٠٧-ب] ومثل ذلك للكولونيـــل (مـــدره) ، وفـــروا سموريا ووساما ذهبيا لكل من ثلاثة من قبادنة الشالوبة فـــى الأســـطول الإنجليزى ، ونجمتان من ماس ووساما على شكل هلال لإهدائها لمن يلى أولئك السالف ذكرهم فى الرتبة . وكذلك ألف وأربعمائة لوحـــة نقشـــت عليها طغراء السلطان وذلك لكل من قبادنة الأسطول الإنجليزى وملازميه و (دمايور) كولونيل القوات البرية الإنجليزية وسائر ياورانـــه . عـــلاوة على ثوب سمورى ووسام مرصع بالماس لكل من يلـــى الســـابقين فـــى الرتبة وعددهم ستة جنرالات ، وفرو سمورى وأربعة عشر وساما ذهبيـــا لثلاثين من قبادنة القليونات . وفرو سمورى ووسام لكل من خمسة عشر ياورانا .

وقد أُرسلت تلك التشريفات مع ميرآخور ثانى أسعد بـــك وقـــد أخطر الصدر الأعظم بإرسال التشريفات إلى الجيش الهمايونى لتوزيعـــها فى مواضعها ، فبعث التشريفاتى أفندى وخزينة داره وعددا من أغـــوات الأندرون والبيرون الجنائب ومعهم جواد مرصـــع الســـرج ، لاســـتقبال الميرآخور ثان البك المشـــار إليـــه لـــدى بلوغـــه بـــولاق بالتشـــريفات

الهمايونية. وتراصت صفوف جميع الجند من المشاة والفرسان ، وجاءوا به فى موكب حافل مشهود وتسلم السردار الأكرم الخط الشـــريف فلثمـــه ورفعه إلى جبينه معظما ، ثم أمر بفتحه وقراءته على رءوس الأشـــهاد . وكان يتضمن المديح والثناء على السردار الأكرم وسائر الوزراء والمـــير ميران وضباط الفرق ورجال الدولة وكل من تفانى فى خدمـــة الســـلطنة السنية أدامها الله تعالى .

وزين السردار الأكرم رأسه بالطرة المزدانة بالجوهر ولبس قباء السمور الثمين وعلق السيف المرصع فى خصره ، [٢٠٨-ب] ثم قـام بنفسه بتزيين رءوس كل الوزراء ورجال الدولة بالطرر وخلع على كـــل منهم رافعا من قدرهم معليا من منزلتهم .

ذكر أحوال الأمراء من البداية إلى النهاية

عندما تم للسلطان سليم خان (رحمه الله) الاستيلاء على مصر من الجراكسة ، وبناء على ما فطن إليه من أمور لم يسلم أزمة حكومتها إلى واليها وحسب ، كالشأن فى سائر الممالك ، بل وضع نظـــام أمـــراء الألوية والأوجاقات السبعة ليسيطر على الحكومة بواسطتهم وأمـــر بـــأن ترسل غلال الحرمين الشريفين والكسوة الشريفة والصرة ونفقات أمـــير الحج ومرتبات والى مصر والأمراء والأوجاقات السبعة وصدقات العلمـــاء والفقراء ورواتب قبائل البدو المعينين لخفارة أطراف الأقضية وحمايتـــها من هجمات اللصوص ، من إيرادات مصر ، على أن يرسل القدر المتبقـــى

إلى الباب العالى على هيئة (إرسالية سنوية) ، كما نظم السلطان سليم أمور الأوجاقات بقدر الكفاية ثم عاد إلى دار السلطنة العلية .

وقد خلف السلطان سليم الأول سلاطين ترسموا خطاه ، ومع وقوع حوادث من حين إلى حين تخل بالنظام والأمن ، فإنه بإعمال اللازم من التدابير الصائبة ، وردع المخلين بالنظام ، كانت الأمور سرعان ما تعود إلى سابق حالها، [٢٠٩-١] ويستتب الأمن والنظام فى نصابهما. وترسل (الإرسالية المصرية) إلى الخزانة العامرة فى كل عام .

وفى النهاية دار الزمان وتبدل الحال وظهر فى الأوجاقات قادة أسافل أراذل ، منهم من تعين كتخدا أوجاق ، ومنهم من صار (باش اختيار أوجاق) ، وتنافسوا فيما بينهم ، وكان كل واحد منهم يستكثر من غلمانه وخدامه للتغلب على نظرائه ومنافسيه . وعلى مر الأيام صار لكل واحد منهم عدة مئات من المماليك وبادروا إلى قتال بعضهم البعض ، وفى نهاية المطاف غلب البعض على البعض الآخر وقويت شوكته واستفحل أمره وأقدم على الخروج على الولاة الكرام وتركزت أزمة الأمور المصرية والحل والعقد فى أيدى كتخداوات الأوجاقات .

وكان من أبرز أولئك الكتخداوات عبد الرحمن كتخدا ، ومصطفى كتخدا وإبراهيم كتخدا على التوالى ، وقد استبد هؤلاء وطغوا فى بلد وسيع رحيب الأرجاء مثل مصر وأحكموا قبضتهم عليه وسيروا دفة الحكم فيه وفقا لأهوائهم .

ولم تكن الدولة العلية فى تلك الأونة تبالى كثيرا بالأنظمة فى مصر لانشغالها بغوائل الحملات والحروب الهمايونية ؛ ومن ثم تحصل

لكل كتخدا من الكتخداوات المشار إليهم مال قـــارون ، ورويــداً رويــداً عمدوا إلى الاستقلال وصار كل منهم قائداً على عدة مئات من الممـــاليك ، [٢٠٩-ب] وتأتى لهؤلاء المماليك الخروج على كتخداواتهم وهم فـــى الأصل أولياء نعمهم .

وعلى مر الأيام استحوذوا على بكويات الألوية طوعا وكرهـــا ، وصاروا يعطون كتخداويات الأوجاقات إلى غلمانهم عندما يموت أغواتها، فأصبحت كل الأوجاقات يحكمها طائفة الممـــاليك ، حتـــى ازداد نفوذهـــم وبسطوا سيطرتهم على الحكم فى مصر وصار لكل بك من البكـــوات مـــا يربو على ثمانمائة من المماليك واقتسم عدد من الأمراء كافـــة الممـــالك المصرية فيما بينهم وتألبوا على الولاة والأوجاقات .

غير أن الأمراء المذكورين ظلوا قائمين علـــى إرســال غـــلال الحرمين ودفع نفقات أمير الحـــج وصدقـــات العلمـــاء والفقـــراء ودفـــع الإرسالية المصرية ، كل عام بلا قصور إلى الخزانة العامرة ، حتى ظـــهر لعين يقال له (على بك بولوت قبان) من الأمراء ، غلـــب علـــى كافـــة منافسيه من الأمراء وأعلن العصيان على السلطنة السنية وامتنـــع عـــن دفع الإرسالية المصرية . ولم يزل يتجاسر على عدة تصرفـــات خرقـــاء كتجريد حملة على الشام لفتحها ، وسك عملة باسمه ، حتـــى ذاق وبـــال أمره ونال جزاءه بسيف محمد بك أبى الذهب .

ورغم أن محمد بك أبا الذهب هذا لم يحـــاول الاســـتقلال عـــن الدولة، فقد غلب على كافة الأمراء ولم ينازعه أحد ضبط أمور المملكـــة وإدارة دفة الحكم فيها .[٢١٠-١]

ولما تُوفى المشار إليه تعاضد إبراهيم بك ومـــراد بـك ، مـن عتقائه ، وتقلد الأول مشيخة البلد ، والثانى إمارة الحج ، وعمــلا علـى التغلب على سائر الأمراء. ولما لم يكن لأولئك الأمراء قِبَل بمناوئتـــهم ، فقد رفعوا الأمر إلى الباب العالى وأشاروا إلى أنه إذا ما عين وزير قـوى حازم من قبل السلطنة السنية ، فإنهم سوف يسـاعدونه ويتفـانون فـى خدمته ويسعون* كل السعى فى كسر شوكة المشار إليهما وإيقافهما عنـد حدهما ، فسيرت السلطنة السنية جيشاً بقيادة القبودان دريـا جزائرلـى حسن باشا ، وأسندت إيالة مصر إلى عبدى باشا . وعندما وصل المشـار إليهما براً وبحراً إلى مصر فى جيش ضخم تصدى لهما مراد بك وإبراهيم بك بما لديهما من قوات ، غير أنهما لم يأنسا فى أنفسهما المقدرة علـى المقاومة ، فهربا مع أتباعهما من الأمراء والكشاف مـن القـاهرة إلـى نواحى الصعيد وأسوان ، ودخل القبودان حسن باشا وعبدى باشا القاهرة وأنفقا النفقات المصرية المعينة فى وجوهها المشروعة ، واسـتوفيا مـا تراكم من الإرسالية المصرية المعتاد إرسالها إلى الخزانة العامرة .

وبعد أن احتوى حسن باشا ما شاء احتواءه من أمتعـة أمـراء المماليك وأموالهم ، وأوصى والى مصر عبدى باشا بالتخلص من الأمراء الفارين والقضاء عليهم ، غادر القاهرة عائداً إلى الآستانة بعد أن عيـن (إسماعيل بك) ـ الذى كان من خصوم مراد بك وإبراهيم بك ـ شـيخاً للبلد ، [٢١٠-ب] وبوأ كل واحد من الأمـراء التـابعين لـه منصبـاً لمعاونته وشد أزره .

وتولى عبدى باشا ومن معه من البكوات تصريف الأمـور فـى مصر نحو ثلاث سنوات وتناوشوا غير مرة مع الأمراء الفارين ، ومـع

مرور الوقت تشتتت جنده وأصيب هو أثناء القتال . وفى تلـــك الآونـــة ويسبب غوائل حروب الدولة العلية لم يكن هناك وقت لنجدة المشار إليـــه فاضطر إلى مصالحتهم ووقع صلحاً معهم أوهى من بيت العنكبوت .

ولما عزل المشار إليه كذلك ، دخل الأمراء الفـــارون القـــاهرة عنوة وغلبوا على خصومهم وفتكوا ببعضهم وفرضــــوا نفوذهـــم علـــى الولاية بتمامها ، وقبضوا على أزمة الأحكام فيها واقتسموا كافة إيـــرادات ألويتها وجماركها فيما بينهم ، وأسندت الألوية إلى عتقائهم من الغلمان ، واستقل كل منهم بأموره ، إضافـــة إلـــى أنـــهم إمتنعـــوا عـــن إرســـال (الإرسالية المصرية) المعتاد إرسالها كل عام إلى الخزانة الســـلطانية ، وقطعوا غلال فقراء الحرمين ورواتب الأوجاقات ورزقهم المقـــررة لـــهم وابتلعوا كل ذلك هم وعتقاؤهم اللصوص . [٢١١-١]

ولم يكتفوا بذلك ، بل كانوا إذا مات أحد من الأثرياء ، أنكـــروا تماماً أحكام المواريث الثابتة بالآيات القرآنية والأحـــاديث النبويـــة ولـــم يعطوا شيئاً إلى ورثة الميت واعتبروا أنفسهم الوارث الكبـــير والأوحـــد للمسلمين والنصارى وصادروا أملاكهم وعقاراتهم وأمتعتهم ، وأكلـــوا أموال اليتامى وبخلوا عليهم ومضوا فى طريق الغـــى إلـــى أبعـــد مـــدى فأنكروا الآيات القرآنية والأحاديث النبوية واتخذوها هـــزوا ، فســـلط الله عليهم قوما دهريى المذهب ، كفرة معاندون هـــم الفرنســـيون ، وذلـــك مصداقا للحديث القدسى الذى جاء فيه :" إذا عصانى من يعرفنى أسلط

عليه من لا يعرفني".[1]

ولقد استفضنا من قبل في تفصيل كيفية قدومهم مصـــر وتــرك الأمراء المذكورين زوجاتهم وذراريهم في يد الفرنســـيين القــذرة بعــد مناوشتهم ، ووقفنا على فرار إبراهيم بك وأعوانه إلى غـــزة والشــام ، ومراد بك كذلك مع أعوانه إلى أرجاء الصعيد وأسوان .

ولما قدم الجيش الهمايوني مصر في المرة الأولى ، قدم معـــه أعوان إبراهيم بك ، ورغم قدوم أتباع مراد بك أيضاً ، إلا أنه أرسل إلـــى الفرنسيين سراً يتودد إليهم ويلتمس مصالحتهم ، [٢١١-ب] شـــريطة أن يولوه على الصعيد ويطلقوا يده فيه هو وأتباعه ؛ ولذا عندمـــا عـــاد الجيش الهمايوني منهزماً بأمر الله ، دخل أعوان إبراهيم بـــك القـــاهرة وشهدوا إلى جانب نصوح باشا وكتخدا عثمان أفندي ما دار من معـــارك ضد الفرنسيين ــ على نحو ما أسلفنا بيانه ــ وعندما لحقـــوا بـــالجيش الهمايوني بعد ما قاسوا من الأهوال والشدائد ، أرسلوا إلـــى مـــراد بـــك يحضونه على الجهاد ، فما كان منه إلا أن وقف مكتوف اليدين يتفرج من بعيد ، وفي النهاية باع دينه بدنياه الدنيئة واستأمن الفرنسيين ولاذ بهم .

ولما كانت مسايرة الفرنسيين له ــ تبعا للوقت والحال آنـــذاك ــ من لوازم دسائسهم ، صالحوه على تأميره علـــى إقليـــم الصعيـــد هـــو وأعوانه، فوثق بمواثيق من لا عهد لهم ولا ميثاق ، ومضى بحماقته إلى الصعيد ومكث به زمنا مسروراً بحكم تلك الجهات ، ولمشايعته الفرنسيين ناصب الدولة العلية وهي ولي نعمته العداء والخصومة .

---

١ -هذا الأثر أورده الإمام ابن كثير في البداية والنهاية ج ١٣، ص ٨١.

غير أنه إبان زحف الجيش الهمايوني على مصر للمرة الثانية أزهق الطاعون المبارك روح اللعين المذكور الخبيثة وأحله دار البوار ، فاحتوى عتقاؤه الخبثاء تركته وفقا لشريعة المماليك .[٢١٢-أ]

هذا في حين أن أعوان مراد بك فطنوا إلى أن غزاة المسلمين على وعد بالنصر والظفر في هذا العام المبارك ، على اعتبار أن بعد كل ضيق فرجاً ، فتظاهروا بالعبودية للدولة العلية وزعموا أن ما أبرمه مراد بك مع الفرنسيين من صلح لم يكن برضاهم ، وإلى أن دنوا من القاهرة رويداً رويداً مترقبين ما ستتمخض عنه الأحداث ، كان الجيش الهمايونى قد وطىء صحراء بلبيس وتقاتل مع الكفرة وألحق بهم الهزيمة وألجأهم إلى العودة إلى مصر منكسرين ، وانعقد كذلك لواء النصر للقبودان باشا والإنجليز فيما خاضوه من معارك ضد الفرنسيين، وكفوا أيديهم عن قتال الكفرة .

ومع أن كلاً من حزبى إبراهيم بك ومراد بك كانا قد قويت شوكتهما وتسلطوا على كافة إدارات مصر ، فقد ظهر بينهما تنافس شديد. ولوجود حزب إبراهيم باشا في الجيش الهمايونى ، [٢١٢-ب] لم يحبذ الحزب الآخر وهو حزب مراد بك الذهاب إلى هذه الجهة ، ومضوا يحتمون بالقبودان باشا .

وان كان في الظاهر ان حزب إبراهيم باشا يقف إلى جوار الجيش الهمايونى وحزب مراد بك يوالى القبودان باشا ، فان هؤلاء الأمراء كانوا يدركون أن ما اقترفوه من سيئات قبل وقوع الغزو الفرنسى للبلاد ليس من قبيل ما يغتفر ، وشاع بينهم أن الدولة العلية تتحين الفرصة للقضاء عليهم والفتك بهم، ففكروا في سبل النجاة .

ولما كانوا من قبل قد تقربوا إلى الأميرال الإنجليزى (سميث) وتوددوا إليه ببعض الهدايا ، فقد خابروا الإنجليز سرا ووعدوهم بأنهم سوف يسدون إليهم العديد من الخدمات ، إذا ما حموهم وضمنوا لهم السكنى فى مصر والبقاء فيها ، فما كان من (سميث) إلا أن كتب إلى ملكه وقت التجاء الأمراء إليه واحتمائهم به ، أنه لما كان الأمراء المصرية يخشون الدولة العلية العثمانية ، فقد عمدوا إلى الاتكاء على الفرنسيين والاحتماء بهم ، ولئلا يصبحوا عوناً جديداً للأعداء ، لا بد من التشفع لهم لدى الدولة العلية لتصفح عنهم وتتجاوز عن سيئاتهم ، [٢١٣-١] ولا تقدم على الفتك بهم والقضاء عليهم ، وأنه لا بد من احتواء الأمراء المذكورين وحمايتهم . فأذن له بمرافقتهم والذود عنهم . ولما كان سميث ــ لدى عودته ــ قد أظهر الجنرال (آنشف) على الأمر، أبان الثانى عن تعاطفه وانحيازه التام إلى جانب الأمراء .

وعندما تم إجلاء الفرنسيين عن مصر ، ورد خط سلطانى قطعى المفاد جاء فيه : " لما لم يكن فى الإمكان تطهير مصر بطرد الفرنسيين منها وحسب ، فلا بد من إبعاد الأمراء المصرية عن تلك البلاد وإحضارهم إلى الآستانة لإعطاء كل منهم رتبة ومنحه راتباً على قدر اعتباره وحاله ، فأتوا بهم من مصر وأرسلوهم إلينا " .

ولما ورد الأمر السلطانى على هذا النحو ، أدرك الجنرال (آنشف) المسألة خفية . ولما لم يكن فى الإمكان إلزام المذكور على أية حال والضغط عليه فقد عاند وأصر على تعاطفه مع المماليك ، فرُفع الأمر مجدداً إلى الركاب السلطانى .

ولدى التباحث مع السفير الإنجليزى بالباب العالى ، تعهد بارغام الجنرال (آنشف) على كف يده عن حماية الأمراء والتعاطف معهم ، وصدرت خطوط همايونية قاطعة إلى السردار الأكرم والقبودان باشا بحمل أولئك المماليك إلى الآستانة . فكتب السردار الأكرم إلى القبودان باشا ينبؤه بذلك ، وصدع الاثنان بما أمرا .[٢١٣-ب]

ووجّه أمير الجيوش من الليلة محمد باشا متصرف القدس إلى الإمام الشافعى ، وأنفذ إبراهيم باشا والى حلب إلى جهة الشرقية ، وبث فرسان الأرناءوط والديوانكان حول البلاد ، وشحن قصره الآصفى كذلك بعدة آلاف من مشاة الأرناءوط ، وأرسل يستدعى إلى حضرته إبراهيم بك شيخ البلد ورجال حزبه مثل صاجلى عثمان بك ، وأمير الحج الأسبق أبو يوسف قاسم بك ومحمد بك وصالح بك ومرزوق بك ومن صناديد الكشّاف مقرمجى سليم الكاشف وشاهين الكاشف ، ولبى هؤلاء الدعوة طمعاً فى أن يكون لهم نصيب مما جاء من السلطنة السنية من خلع .

وبرغم أن عدد من قدم من أمراء المماليك وخدمهم كان يناهز الألف ، فقد نفذ فيهم الأمر السلطانى على خير وجه إذ قال السردار الأكرم لرجاله :

" خذوا الأمراء إلى حجرة الخزانة " ، فتفرق المماليك كافة وخدمهم كالجراد المبثوث ، وفى التو تم اعتقالهم فى حجرة الخزانة ، غير أنه لما كان صاجلى عثمان بك رجلا تقياً ورعاً ، وليس على شاكلة أولئك الأمراء فقد حل ضيفاً هو وخدمه على طيفور أغا .

وكان قد تم التنبيه على أغا الإنكشارية من قبل بكبس بيوت الأمراء والكشّاف والمماليك واحتواء أموالهم ، ولذا فإنه ساعة احتجازهم

نودى بالأمان لكل الأهالى وعدم التعـرض لأى شـخص سـوى أولئـك المحتجزين .[٢١٤-أ]

ولما كان ألفى بك متواجداً بداخل الصعيد فـى مهمـة تحصيـل المؤن بناء على طلب الجنرال (آنشف) ، لم يقبض عليـه فـى هـذه الحادثة . هذا فى حين أنه كان ثمة من يقال له دياب سليم بـك ، وكـان يقيم فى قرية المنيل على الضفة الأخرى من نهر النيـل علـى مسـافة ساعتين فى مائة من أتباعه ، ورغم أنـه قـد وجـهت إليـه الدعـوة بالحضور، فقد دخله الخوف ولم يطمئن له بال لتلك الدعوة ، فعمد إلـى التمارض واختلاق المعاذير لكيلا يلبيها .

ولما كان إحضاره بالقوة من شأنه أن يوقع الوحشة فى نفـوس سائر الأمراء الآخرين ، فإنه لئلا يفلت ذلك القدر من الأمراء مـن أجـل واحد ، سَير عليه طاهر باشا من المـير مـيران فـى خمسـمائة مـن الأرناءوط عندما انتصفت ليلة احتجاز المماليك .

ولم يأل المذكور ومن معه جهدا لتنفيذ المهمة المكلفين بها غير أن الوقت كان وقت فيضان النيل ، فأحاطت الغدران بالقرية المذكـورة ، ولم يتأت للجند العبور إليها ، وفيما كانوا يفتـشون عـن معـبر مـن الغدران المذكورة ، شاهد المير المذكور ذلك منهم فأمر رجاله الذين كانوا فى الأغلب من الفرسان ، باجتياز الغدران المذكورة بجيادهم من موضـع يعرف أنه ضحل المياه . ولما شاع الخبر بفـراره ، [٢١٤-ب] انبـث الرجال إلى النواحى والأطراف للبحث عنه .

غير أنه لقرب القرية المذكورة من الجيزة ، اتجه إليها ملتجئاً إلى القوات الإنجليزية المخيمة بها ، فترك الأمر على حاله ترقباً لما ستتمخض عنه الأمور .

وإن يكن بعض أعوان مراد بك دخلوا القاهرة ، فإنه لما كانوا يرهبون بطش السردار الأكرم ويضمرون الحقد لأعوان إبراهيم بك ، فقد كان من المؤكد عدم اتفاقهم وتأييد بعضهم بعضاً ، ولذا أرسلوا إلى جهة القبودان باشا بعلّة إحضار والى مصر خسرو باشا إلى القاهرة فى جو من العظمة والأبهة ، والقضاء على بعض لصوص البدو أثناء الرحلة ، [٢١٥-ا] وأظهروا المشار إليه على الأمر برسالة مفصلة أرسلت إليه.

وبناء على ذلك دُعيت الأمراء المذكورون كافة فى يوم الخميس (١٤) من جمادى الآخر بعلة السير إلى الإسكندرية ، وبعد أن ركب الجميع الزوارق ، وفيما كانوا ينوون ركوب الغليون الراسى فى عرض البحر للذهاب إلى الاسكندرية من غدير (مريوط) ولحظة وصولهم إلى الغليون ، لحق بهم رجل يحمل بعض المكاتبات من الآستانة ــ على نحو ما هيئوا له من قبل ــ فاستأذن القبودان باشا البكوات على أن يعود سريعا إليهم ، وركب الأمراء المذكورون الغليون وما زالوا فى طريقهم إلى الاسكندرية ، حتى اعترضهم الأسطول الهمايونى ، وأحاط بهم ففطن عثمان بك الجرجاوى إلى حقيقة الأمر وأحس بالشر ، فأطلق الرصاص فى الحال على أحد بحارة الغليون فأرداه قتيلا ، وجرح آخر ، وسل سائر البكوات سيوفهم ، فما وسع بحارة الغليون إلا أن قاتلوهم ، فقتل عثمان بك الجرجاوى ومللوانى محمود بك ومراد بك الصغير وإبراهيم كتخدا ،

وحمل محمد بك الشرقاوى ، وكيلارى أحمد بك ، ومن الكشاف عثمان وعلى وسليمان سالمين إلى الغليون الكبير المسمى (أوج أنبارلى) .

ولما اتصل ذلك النبأ بعلم الجنرال الإنجليزى (آنشف) استشاط غضباً ، فاعتذر له القبودان باشا وأعلمه أن الدولة العلية لا تريد بأولئك البكوات سوءاً ، وأنه قد صدرت أوامر سنية من حضرة السلطان بإقامتهم بالآستانة ومنحهم رتب ومرتبات جميعاً .

ورغم هذا لم تهدأ ثائرة الجنرال المذكور ، بل ازدادت اضطراماً فأقدم على طرد عساكر الدولة العلية من الإسكندرية ، علاوة على أنه أعلن أنه مكلف من قبل ملك الإنجليز بحماية الأمراء ، وجعل يبسط لسانه فيهم بقبيح الكلام إذ قال : " إن قتل الأمراء وحبسهم يوجب علينا حربكم "، ثم أردف قائلا :

" ولقد أرسلتُ إلى رجالى فى رشيد كذلك لتخليص من قبض عليه من الأمراء فى مصر لدى بلوغه رشيد ، ولن أدع الصدر الأعظم يمر فى البحر ، وليمض إذن من حيث أتى ، ومن الآن فصاعدا لا شأن لكم بنا ، وإذا ما قدمتم إلينا فسوف تتوبون وقد لطخ العار وجوهكم . "

فرد حضرة قبودان باشا على القائد الإنجليزى المذكور بأنه سوف يسلمه الأمراء السجناء على الصباح ، [٢١٥-ب] إذ إن الوقت لم يكن يتسع لذهاب رجل إلى الأسطول وعودته فى نفس الليلة ، وعاد أدراجه بعد أن أرضاه إلى حد ما . ورغم هذا فقد أحاط الإنجليز بالجيش الإسلامى . فتهيأ عساكره لقتالهم ، فمنعهم القبودان باشا وأطلق سراح الأمراء ، فسكتت الفتنة بين الفريقين . ولما أنهى هذا الأمر لحضرة

السردار الأكرم استنكره وأعظمه جداً ، وأرسل إلى (آنشف) يذكّره بشروط التحالف ، محاولاً تهدئة ثائرته .

ورغم أن مسألة هؤلاء الأمراء كان منْ شأنها إلحاق العار بإنجلترا والنيل من سمعتها بين دول أوروبا كافة ، فقد ألح الإنجليز في إرسال الأمراء المذكورين إليهم في الجيزة لمخاطبتهم ومعرفة ما يضمرون وحقيقة حالهم ، وما إذا كان ذهابهم إلى جهة الدولة العلية طوعاً أم كرهاً ، [٢١٦-أ] وعليه ، أحضر السردار الأكرم أولئك الأمراء ووعدهم خيراً بأنهم سوف يحصلون على مرتبات أعلى مما كانوا يطمحون إليه ، وأنهم سوف يكونون موضعاً لرعاية حضرة السلطان ، ثم أرسلهم إلى بر الجيزة برفقة الحاج يوسف أغا بلوكباشي البوابين وعندئذ تناسوا تلك الوعود الجليلة وجحدوا النعمة ، وأقاموا هناك في حماية الإنجليز ، ورفضوا العودة قائلين : " إننا لم نعد نأمن الدولة العلية " . فما كان من الإنجليز إلا أن أعادوا بلوكباشي البوابين المذكور بعد أن قالوا له : " إن الأمراء مصرون على موقفهم ، إن استطعت نصحهم وثنيهم عن موقفهم ، فافعل ، نرجعهم معك " .

ولما أنهيت كل هذه الوقائع بتفاصيلها إلى الباب العالي ، أرسل إلى ملك إنجلترا يخبره أنه لم يعد من الجائز أن يبقى أولئك الأمراء في مصر لما سبق أن أبانوا عنه من الاستبداد والطغيان ، وأن الدولة العلية لا تريد بهم سوءاً ، وسوف توفر لهم كل أسباب العيش الرغد في الآستانة أو في أي ولاية أخرى من الولايات الشاهانية يرغبون في الإقامة بها .

وفيما كان ذلك كل ما تريده الدولة العلية ، [٢١٦-ب] كفر الأمراء المذكورون بنعمة السلطنة وفضلها عليهم ولاذوا بالكفار يحتمون بهم . وأظهر الباب العالى أن تجاسر الأميرال الإنجليزى على حماية البكوات والتصرف بما يتنافى مع التحالف بين الدولتين إنما كان طمعاً منه فى تحقيق غاية يسعى لتحقيقها .

ولقد أعرب السفير الإنجليزى لدى الآستانة عن عدم رضا حكومته عن تصرفات الأميرال ، وعزمه المضى إلى الاسكندرية لتسوية هذه المسألة ، غير أنه أحجم عن الذهاب بنفسه ، وأرسل رئيس كتابه ، وحضر المذكور إلى مصر لشرح الأمر للصدر الأعظم وإخبار القادة الإنجليز بذلك ، وأثناء تفاوضه فى المسألة ، حضرت فلول البكوات من الإسكندرية ولحقوا بنظرائهم فى الجيزة ، وفروا جميعا ليلاً قاصدين الصعيد .

وفى اليوم التالى أشاع الإنجليز نبأ فرار الأمراء على هذا النحو، فأرسل الصدر الأعظم جنده للحاق بهم ، غير أن هؤلاء الجند أخفقوا فى مهمتهم تلك ، وهكذا تأتّى للأمراء بلوغ الصعيد ، وبات فى حكم المؤكد أنهم سوف يفرون إلى نواحى أسوان والسودان إذا ما سُيِّرت الجند لمطاردتهم ، فتُرك الأمر على حاله.

ذهاب سعد الله أفندى الكتخدا المعزول إلى الآستانة

لما كان سعد الله أفندى المعزول من الكتخداوية ، شخصاً عليلاً، فقد ترفق به السردار الأكرم وأذن له بالعودة إلى الآستانة ، فركب البحر وبلغها حيث خلد للراحة فى داره السعيد .[٢١٧-ا]

عزل رجائى أفندى دفتردار أول

كان المشار إليه فى الأصل أحد مكتوبى الصدر الأعظم ، واضطلع بخدمات كتابة الديوان فى المناصب الخارجية للسردار الأكرم ، وعندما تبوأ الصدارة العظمى وخرج بالجيش الهمايونى ، صحبه المشار إليه ، وبناء على طلب (المكتوبى) المتوفى صادق أفندى ، أصبح (باش خليفة) ، ولما توفى صادق أفندى بدمشق ، أحرز رتبة المكتوبى الجليلة .

وفيما بعد حينما كان الجيش الهمايونى معسكراً بيافا ، عاد عثمان أفندى كتخدا الصدر الأعظم إلى الآستانة العلية مأذوناً ، فقلد سعد الله أفندى ــ دفتر دار شق أول ــ منصب الكتخداوية ، ولما لم يكن هناك أجدر ولا أليق من الأفندى المذكور بشغل منصب (الاستيفاء) الذى شغر، فقد أعرب كل من عثمان أفندى، وخلفه سعد الله أفندى ، ورئيس الكتاب رائف محمود أفندى للسردار الأكرم عن أن رجائى أفندى هو الأجدر والأولى من الجميع من كافة الوجوه ، فقلده منصب دفتردار أول .

ورغم صغر سن المشار إليه وافتقاره إلى الخبرة فـــى مســـائل الاستيفاء ، فإنه بفضل ما كان يتمتع به من ذكاء متقد أحسن التدبير زمن الأزمة التى مر بها الجيش الهمايونى .[٢١٧-ب]

وما أسداه من خدمات علـــى الأخـص إبـان زحـف الجيـش الهمايونى من العريش ، فاق خدمات أقرانه ونظرائه .

وبعد دخول مصر استفرغ الوسع فى صيانة الميرى ، غـير أن استشاطته فى تحصيل بقايا ما فرضه الفرنسيون على الأهالى من ضرائب ومكوس باهظة ظالمة ، إبان تخليـص مصـر القـاهرة مـن ظلمـهم ، ومماطلته فى دفع الرواتب المستحقة للموظفيـن والجنـد ، واسـتخدامه الشدة والعنف فى جباية الضرائب فى وقت كان يستلزم أن يكـون رفيقـاً ورحيماً بالأهالى الذين تخلصوا من الاحتلال لتوهم ، كل ذلك لم يكن يتفق مع سماحة السردار الأكرم ورفقه ، فبادر إلى إنكاره ومحو آثاره ، وعزل رجائى أفندى وعين مكانه تحسين حسن أفندى ، وركب الأفندى المعـزول البحر مستأذناً وعاد إلى الآستانة ليستقر به المقام بداره.

منح سيد قلندر باشا بايزيد زاده رتبة " ميرميران "

منذ زمن بعيد وبايزيد زاده سيد قلندر بك ـ مـن أشـرف أعيـان مرعش وأعرق بيوتها ـ متعلق بالسردار الأكرم . وعلاوة على هذا فإنه بمقتضى تكليفه بأمر السلطان بالاشتراك فى الحملـة الهمايونيـة أثبـت وجوده فى الجيش الهمايونى بمن حضر فى معيته من صفـوة فرسـان العساكر والبالغ عددهم نحو سبعمائة فارس . ولما فتك الطاعون بثلثـى

رجاله فى كارثة يافا ، بذل هو ومن تبقى من رجاله مـــا فـــى حوزتـــهم وأنفقوا أموالهم ، فكان ذلك منه محل تقدير السردار الأكرم.[٢١٨-أ]

وعندما تجبر إسماعيل باشا وأعلن عصيانه ، تصرف الســـردار الأكرم بناء على تقرير المشار إليه (سيد قلندر بك) ، وبمعرفـــة أخيـــه يوسف بك متسلم مرعش والقبائل والعشائر الموالية له ، أعمل الســـيف فى عساكر إسماعيل باشا وألجأه إلى الفرار وحيداً إلى جبل (كاوير) .

ولما كانت خدمات سيد بك فى هذا الباب ماثلـــة لعيـــن الـــذات الآصفية ، فقد أنعم عليه الصدر الأعظم بالميرميرانية ، وخلع عليه ليكون ذلك حافزاً له ولغيره على المدوامة على الاستقامة ، كما أحيلت قائمقامية مرعش إلى المشار إليه بأمر عال ؛ حينما صـــدرت الأوامـــر الســـلطانية بتوجيه إيالة مرعش لشخص آخر .

توجيه إيالة مصر إلى الوزير خسرو باشا

سبق أن منح خسرو باشا رتبة الوزارة السامية وأسند إليه لواء (قوجه ايلى) ، كما وجهت إيالة مصر والقيادة العليا لجيشها إلى ســـيد محمد باشا متصرف لواء القدس . [٢١٨-ب] غير أن المشار إليه لـــم يقتدر على إيالة مصر . ولما أنهى إلى الآستانة أنه لا بد مـــن تعييـــن وزير مستنير البصيرة له القدرة على القبض على زمام الأمور فى الإيالة المذكورة ، تواردت الأنباء بصدور أوامر سلطانية بصرف ذلك المنصـــب من عهدة محمد باشا وتوجيهه إلى خسرو باشا ، وألبس كـــاتب كتخـــداه القباء .

وقد أمر المدعو حسن أغا ـ الذى كان أغا طابية ومن مستحفظان قلعة (أغريبوز) ـ بمرافقة الأسطول الهمايونى ، فشهد المعارك التى وقعت إلى جانب القبودان باشا ، ونال إعجاب القادة بما كان يأتيه من ضروب الشجاعة وشدة البأس .

ولما لزم إرسال باشا جسور من المير ميران إلى نواحى جرجل أعلى قدر المشار إليه برتبة (ميرميران) وسيق إلى نواحى الصعيد بعدة وعتاد قويين للقضاء على المماليك الفارين إلى هناك.

رحيل القبودان دريا حسين باشا إلى الآستانة

بحلول الخريف انقضى موسم البحر ، ولم يعد بإمكان سفن الأسطول الهمايونى الرسو ، علاوة على هذا لم يعد هناك ما يستدعى مكثه ، فأقلع قبودان دريا من ثغر الإسكندرية ، واتجه إلى الآستانة . [٢١٩-١]

ولما كانت الريح معه ، فقد بلغ الصوب المقصود فى زمن يسير وكسب الافتخار بتمريغ جبهته فى تراب موطئ قدم الحضرة العلية السلطانية ، ورست سفن الأسطول الهمايونى كذلك فى ساحة الترسانة العامرة .

توجيه إيالة (آدنه) إلى شيخ زاده إبراهيم باشا

بينا فيما تقدم إسناد إيالة (جدة) إلى شيخ زاده إبراهيم باشا وعدم استطاعته المضى إلى مأموريتة بسبب الخلاف الذى شجر بينه وبين جنده ، وانفضاضهم من حوله ، وقدومه الجيش الهمايونى .

وكان السردار الأكرم قد وعده بمبادلته المنصب المذكور بمنصب آخر ، ولازم المشار إليه الصدر الأعظم فى السراء والضراء وبذل قصارى جهده فيما كلف به مهام ، ولما بات من اللازم تكريمه على أية حال ، دعاه إلى بابه وقلده إيالة (آدنه) وخلع عليه .

وفى غضون أيام أعد المشار إليه العدة وعزم على المضي نحو منصبه براً عبر الصحراء من جهات غزة ودمشق . [٢١٩-ب] غير أنه فى الوقت الذى كان فى طريقه صدر أمر سلطانى بخلعه من الوزارة ، فانصرف عن التفكير فى المنصب المذكور ومكث بحلب ، ثم طلب الإقامة بديار بكر وطنه الأصلى ومسقط رأسه ، فأسعف بطلبه ومضى إليها حيث ركن إلى الراحة فى داره السعيد .

توجيه رتبة الوزارة إلى طوسون باشا

من قبل لما توفى الصدر الأسبق يوسف باشا وانتقل إلى جنة المأوى ، وجه منصب والى إيالة (جدة) الذى شغر إلى شيخ زاده إبراهيم باشا ، شريطة المحافظة على المدينة المنورة ، وما إن اتصل نبأ ذلك بالمشار إليه وهو فى طريقه ، حتى انصرف عنه جند بابه ، ولم يعد

بمقدوره المضى إلى مأموريته ، فلم يسعه إلا المضى إلى الجيش الهمايونى ، ومثل بين يدى السردار الأكرم فى صحراء يافا ، وبناء على إحجامه عن المضى إلى منصبه المذكور بسبب رجاله المشئومين ، وعده الصدر الأعظم بأن يبدله ذلك بمنصب آخر ، وظل مع الجيش الهمايونى على نحو ما أسلفنا بيانه.

وبعد أن دخل الجيش الهمايونى مصر ظافرا منتصراً ، لم يكن بإمكان إبراهيم باشا المضى إلى إيالة (جدة) و (المدينة المنورة) ، فأنهى أمير الجيوش الأمر إلى العتبة العلية السلطانية والتمس الإنعام برتبة الوزارة السامية [٢٢٠-أ] على طوسون محمد أغا الذى كان من أخلص عبيد الدولة العلية منذ زمن ،وكان قد أظهر استقامة ونزاهة فى الاضطلاع برئاسة (الجبجية) فى الجيش الهمايونى، وتوجيه إيالتى (جدة) و (الحبشة) إليه شريطة المحافظة على المدينة المنورة ، فوصل خط شريف بتوجيه إيالة (جدة) ورتبة الوزارة السامية إلى طوسون محمد أغا وفقاً لما أنهى أمير الجيوش إلى العتبة العلية السلطانية .

وأرسل السردار الأكرم يطلبه إلى مجلسه ، ولما مثل بين يدى حضرته وجه إليه إيالتى جدة والحبشة مع رتبة الوزارة السامية شريطة محافظته على المدينة المنورة شرفها الله تعالى إلى يوم القيامة ، وأمر له براتب ستة أشهر لخمسمائة من الجند من خزانة الميرى ، [٢٢٠-ب] ومنحه من المال ما يمكنّه من القيام بحاجة إدارته ، ثم أنفذه صوب مأموريته ببحر السويس .

وكان المشار إليه شخصاً تقياً ديِّناً مستقيماً ، لم يؤخذ عليـه أى مأخذ سوى تشوقه إلى حمل وزر الوزارة الذى كان بلاء عظيماً فى أيامنا تلك . وبحكمة الله تعالى تمت له أمانيه بمقتضى الحكمة القائلة : " من طلب شيئا وجدّ وجد " ولأنه كان فى ذات الوقت من حاملى رتبة وزير ، كان من المأمول أن يقوم بأعمال لها حسن وقع فى القلوب ، غير أنه مصداقاً لقول :

ما كل ما يتمنى المرء يدركه

تجرى الرياح بما لا تشتهى السفن

حينما وصل المشار إليه إلى منصبه وافته المنية فجأة بعد أن قام بزيارة بيت الله الحرام . وكان رحمه الله وزيراً بشوش الوجه حلو الفكاهة شهى الأحاديث عالى الهمة .

وعند نيله الوزارة مثلت معه بين يدى الحضرة العلية الآصفية بحكم كونى تشريفاتى الديوان الهمايونى آنذاك ، واتفق أن وجه السردارالأكرم خطابه إلىَّ فقال :" اذهب إلى الكتخدا وقل له لينظم الدفتر دار أفندى حلوان سكبانية محمد باشا والى جدة " . [٢٢١-١] وهنا قبّل المشار إليه ذيل ثوب الصدر الأعظم فى خشوع وتفكه قائلا : "وعليه ألا ينسى يا سيدى أهو محمد باشا وحسب ؟ أم أن هناك لفظة طوسون أخرى ؟ " ؛ فأحسن السردار الأكرم جوابه قائلا : " نسميك من الآن فصاعداً أرسلان محمد باشا " . وكان ذلك منه مزحة مقبوله . وأخيراً كان رحمه الله رجلاً دمث الخلق حليماً.

حضور خسرو باشا إلى مصر

حينما كان قبودان دريا غازى حسين باشا باسطاً ظلال حمايته علـــى السواحل المصرية ، لازمه والى مصر خسرو باشا كذلك لقضاء الـــلازم قضاؤه من الأشغال . وبما أن موسم البحر كان قد انقضي ، أقلع قبــودان باشا ، وعزم على المضي صوب الآستانة العلية بالعز والإقبال وعندئـــذ مضى خسرو باشا قاصداً القاهرة ولما بلغ قصبة (بولاق) فى أواســـط شعبان المعظم ، أرسل السردار الأكرم رجاله لاستقباله ، فجاءوا به فـــى موكب حافل وأنزلوه بقصر الألفى بك فى حى (الأوزبكية) ، وفى اليـــوم التالى سعد خسرو باشا بتقبيل ذيل ثوب الصدر الأعظم ، فعهد إليه بكل ما يتعلق بإيالة مصر وواليها من أمور جزئية وكلية ، وأسند إليه كذلك أمور دفتر دارية مصر ، وخلع عليه فرواً جميلا، فـــأعلى مـــن قـــدره ورفـــع منزلته. وصُرفت ضربخانه مصر من عهدة مصطفى شجيع أفندى ، بـــاش خليفة مكتوبى الدفتر دار ، وأحيلت إلى كتخدا خسرو باشا يوسف أغا من رؤساء بوابى الباب العالى .[٢٢١-ب]

ولما سُمح لمكتوبى الدفتر دار يوسف أفندى بالرحيل بحراً إلـــى الآستانة عين (الباش خليفة) المذكور (شجيع أفندى) وكيلاً للمكتوبـــى - ريثما يصل إلى الآستانة .

خروج الجيش الهمايونى من مصرقاصداً الآستانة العلية

لما لم يعد ثمة ما يستدعى مكث الجيش الهمايونى ، أحيلت كافة الأمور المتعلقة بالأنظمة المصرية إلى خسرو باشا بناء على التعليمات الواردة من جهة الباب العالى ، كما أحيلت كذلك كافة الأمور المتعلقة بدفتر دار مصر إلى الأفندى المشار إليه ، [٢٢٢-أ] وبعد أن زودا باللازم من الوصايا ، جاء خط همايونى مبارك من السلطان إلى أمير جيوشه يدعوه فيه إلى العودة بالجيش إلى الآستانة .

وعلاوة على أن أمراء المماليك كانوا بالفعل مشتتين فى صحراء التيه يهيمون على وجوههم فيها تارة بنواحى أسوان وتارة أخرى بأرجاء السودان ، وُجه حسن باشا ــ الذى أنعم عليه بالمير ميرانية من قبل فيما كان كتخدا باب خسرو باشا ــ بعدة وعتاد قويين إلى الصعيد لمطاردتهم واستئصال شأفتهم وذلك نزولاً على رغبة خسرو باشا .

وانخرط كل من فى صفوف الجيش الهمايونى من مشاة وفرسان فرق الديوانكان والتوفكجية والأرناءوط ومرتزقة الترك فى خدمة خسرو باشا فعضدوه وشدوا من أزره ، وبُثت الأوامر الجليلة إلى شتى الجهات والأرجاء تستوجب القضاء على الأمراء الكفرة وإبادتهم وذلك بموجب الفتاوى المتعددة التى أصدرها مفتيو المذاهب الأربعة .

ونزولا على رغبة حضرة السلطان توقف بمصر كتخدا عثمان أفندى لتسيير الأنظمة المصرية ووضعها حيز التنفيذ .

ولما استقر العزم من السردار الأكرم على مغادرة الديار المصرية لم يكن هناك من السفن ما يستوعب الجيش الهمايونى بأكمله ، [٢٢٢-ب] وحتى ولو كان هناك عدد كافٍ من السفن ، فإن شدة تلاطم الأمواج كان يحول دون الرحيل. ولما كان هذا واضحاً وجلياً ، استعد كتخدا الجبجية وضباطها وضباط الطوبجية والعربجية المقرر مصاحبتهم للجيش الهمايونى ، وتعبأت المدافع والمهمات الحربية اللازمة، وأخذ الجميع فى أهبة الرحيل براً.

وركب (أحمد اغا) أغا انكشارية الباب العالى ومن بقى من رجاله وسائر فرقه ، و (عثمان بك) رئيس الجبجيةوجميع فرقه كذلك ، وأغوات فرق الطوبجية والعربجية واللغمجية وسائر عساكرهم وضباطهم، النيل من بولاق ومعهم ما سوف يرسل بحراً من المهمات الحربية ، فبلغوا دمياط ، حيث صعدوا إلى السفن التى هيأت لهم فيها وأقلعوا متجهين صوب السلطنة السنية .

أرسل السردار الأكرم سيد محمد باشا متصرف لواء القدس الشريف من القاهرة فى (٨) من شهر رمضان المعظم وذلك لاستحصال ما يلزم الجيش الهمايونى من الميرة من حدود العريش حتى دمشق ، وأوصى المشار إليه بعدم الإثقال على كاهل من تحت يده من الرعايا الذين هم وديعة الله فى أرضه وتهيئته الشعير والخبز بالقدر الذى يسد رمق العساكر فحسب .[٢٢٣- أ]

وبعد عدة أيام من ذلك زار المشهد الحسينى ومحمد بن إدريس الشافعى والشيخ عمرو بن الفارض ومحمد الحنفى والإمام الشعرانى والسيدة نفيسة والسيدة زينب رضى الله عنهم أجمعين وسائر المزارات المباركة والأماكن الميمونة ، واستمد العون من روحانياتهم حتى إذا كان يوم الاثنين(٥) من شهر شوال برح القاهرة بعد أن خلع على كافة علمائها وصلحائها وأئمتها وأعيانها ، وأسبغ إحسانه وعطفه على فقرائها ومساكينها ، ثم أقيمت مراسم الوداع وتحرك الركب فى موكب عظيم حافل ، فقام فى أهالى القاهرة شيباً وشباباً جلبة وصياح ورفعوا أصواتهم بقولهم : " الفراق الفراق يا شيخ الوزراء ، الوداع الوداع يا صدر الأعلاء " ، وردد الغنى والفقير : " أحرق يوم الفراق قلبى ، أحرق الله قلب يوم الفراق " .

ونزل الصدر الأعظم بسرادق نُصب له خارج القاهرة فى موضع يقال له (قبة العذاب) ، ولبثنا معه خمسة أيام فى ذلك المكان لاستكراء البعير من عربان البادية من أجل نقل أمتعة الجيش الهمايونى وأثقاله ، وتدبير الميرة اللازمة للصحارى الجرداء الواقعة من القرين حتى العريش.

وقبل استئناف الـ ير بيوم قدم إلى مخيم الجيش الهمايونى (خسرو باشا) والى مصر ودفتردارها (شريف أفندى) والكتخدا (عثمان أفندى) وسائر من بقى فى القاهرة ، ولثموا طرف ثوب السردار الأكرم ، فخلع على كل منهم خلعة فاخرة ، وأعادهم أدراجهم .

وفى يوم (١٠) من الشهر المذكور أقلعنا مع السردار الأكرم وخيمنا بالخانكاه على مسافة ست ساعات . ولاستقالة الكتخدا عثمان

أفندى ـ على النحو المتقدم ذكره ـ نُصّب بالفعل رئيس الكتاب رائف محمود أفندى وكيلاً للكتخدا وخُلع عليه . وبعد أن لبثنا يوماً بالخانكاه للاستراحة ، سرنا قاصدين بلبيس على مسافة خمس ساعات ، وأقمنا يومين آخرين بها لاستكمال أسباب الارتحال .

وفى (١٧) من شوال قطعنا مسافة ست ساعات ، فانتهينا إلى قصبة (القرين) ، فنصبنا بها مخيمنا ولبثنا بها يوما حسبما دعت الضرورة .

وعند متابعة المسير من القرين أخبرنا (الشيخ صقر) محافظ العريش ـ وهو رجل ثقة يؤخذ بكلامه ، وكان قد أبان عن إخلاص وتفان فى خدمة الجيش الهمايونى ـ أننا إذا سلكنا الطريق التقليدى المعهود عبر منازل الصالحية والقناطر وبئر دويدار ، [٢٢٤-أ] فسوف يحصل لنا مشقة وعناء عظيمين بسبب ندرة الماء فى مرحلتى القناطر وبئر دويدار ؛ فتحتم علينا الانحراف عن الطريق الرئيسى المعهود والنزول بـ (رأس الوادى) على مسافة سبع ساعات ونصف .

وقد ألفينا ذلك الموضع عبارة عن بحيرة مستطيلة تكونت من جريان وتراكم الترع والشعب وقت فيضان النيل ، على جانبيها يسكن عربان البادية فى خيامهم ، إضافة إلى بعض ما أقاموه من أبنية ، وبما أنه لم يكن فى الإمكان العثور على ماء عذب زلال فيما وراء (رأس الوادى) ، أى عندما سندخل إلى صحارى التيه الجرداء ، فقد أقضنا قربنا ، ونهضنا عن المرحلة المذكورة ، وتابعنا المسير إلى أن نزلنا بموضع يقال له (أبو العروق) على مسافة ست ساعات ، وقمنا باحتفار العديد من الآبار فى المحل المذكور ، وسقى الجميع حيواناته ،

حتى إذا ارتفع نهار اليوم التالي ، سرنا ست ساعات وحططنـــا الرحـال بالمنزل المسمى (أم العراس) ، وحفرنا كذلك به عددا من الآبار وفـيرة المياه .

ولما كانت مياه تلك الآبار صالحة للشرب بالقياس بميـاه آبـار (أبو العروق) ، فقد سقى كل واحد حيواناته بلا مشقة أو عناء .

وفى اليوم التالى نزلنا بـ(قطيا) على مسافة خمس سـاعات بعد أن لقينا الأمرين فى اجتياز بحر الرمال .[٢٢٤-ب]

ولكثرة آبار المياه فى المرحلة المذكورة ، سقينا حيواناتنا بـلا عناء ، وأقمنا الليلة للراحة ، وفى اليوم الذى يليه حصل لنا شدة وعنـاء فى سقاية حيواناتنا فى (بئر العبد) على مسافة ست سـاعات ، وفـى اليوم التالى أقمنا المخيم بصحراء مهولة موحشة علـى مسـافة ثمـان ساعات تسمى صحراء(برقت) .

ومثلما ذكرنا فيما مضى فى فصل القدوم إلى مصر ، أن العثـور على قطرة ماء فى الأراضى المذكورة كان يعـد ضربـا مـن ضـروب المستحيل ؛ ومن ثم لم نقدم قطرة ماء واحدة إلىحيواناتنا ، وجرى لنـا عين ما جرى فى مأساة شهداء كربلاء .

وموجز القول أنه لم يعد هناك حديث منذ ذلك اليوم يجرى على سائر الألسنة فى الجيش الهمايونى ، سوى الحديث عن الماء ، حتى أن الإمام أفندى تلا قوله تعالى : { وجعلنا من الماء كل شىء حى }[1] ، كما أن خلقا كثيرا ممن لم يحمدوا الله ولو لمرة واحدة فى حياتهم وقتما كانوا يشربون مرارا وتكرارا من الماء الزلال لميزاب الفروسية ، ومصيف رمضان وجبال أركند ، كانوا يحمدون الله مرة بعد مرة ويشكرون نعمته كلما تجرعوا جرعة من الماء الذى أسن منذ أسبوع فى قربهم المبطنة من الداخل بالقار قائلين [٢٢٥-١] :" إن نعمة الماء أسمى وأغلى من سائر النعم الجليلة الأخرى لذى الجلال " .

وتحركنا من مرحلة (برقت) ، وتابعنا المسير حتى حططنا الرحال ونصبنا المخيم بصدر قلعة العريش على مسافة سبع ساعات ، فاستقبلنا كتخدا محمد باشا متصرف القدس فى المنزل المذكور بمقدار من الغلال وعدد من رءوس الأغنام ، وتقوتنا كذلك بما أعده الشيخ صقر سالف الذكر من أقوات وأغنام .

وفى اليوم التالى نزلنا بمرحلة الشيخ (زويد) على مسافة ست ساعات ، وفى تلك المرحلة استقبل متصرف القدس محمد باشا السردار الأكرم وشرف بتقبيل الأرض بين قدميه ، وفى اليوم الذى يليه واصلنا المسير حتى بلغنا أطلال حصن (خان يونس) على مسافة خمس ساعات، فنصبنا فيها المخيم .

١- الأنبياء : (٣٠) .

وبما أن الضعف والفتور كان قد بدأ يعـــترى الحيوانـــات التـــى اجتازت الصحراء ، وينال منها، فقد لبثنا ثلاثة أيام بغزة للراحـــة .وفـــى تلك الأيام ، دعا متصرف القدس المشار إليه السردار الأكـــرم وإبراهيـــم باشا والى حلب ورجال الجيش إلى حمام ، وبسط لهم حـــافل الولائـــم ، وأهدى التحف إلى كل منهم ، كل على حسب مرتبته ، [٢٢٥-ب] كمـــا لم يأل جهدا فى تدبير الميرة اللازمة للجيش الهمايونى .

وبعد أن أقمنا ثلاثة أيام بغزة ، نهضنا عنها فى يوم الاثنين (٤) من شهر ذى القعدة ، وقطعنا مسافة سبع ساعات ونزلنا قرية (سدوس) ولبثنا بها يوما ، ثم غادرناها واجتزنا قصبة (الرملة) على مسافة خمس ساعات ، وتابعنا المسير حتى نزلنا بصدر قصبة (لوط) علـــى مســـافة نصف ساعة من الرملة .

وبينما كان السردار الأكرم يود المضى من غـــزة إلـــى خليـــل الرحمن ومنه إلى القدس الشريف للتشرف بزيارة المراقد العطرة للأنبياء الكرام المدفونين بتلك البقاع المباركة ، إذ أخبره بعض العقلاء أنه إذا مـــا نزل بتلك الأراضى المباركة ، فالأمر يستدعى مكوث الجيش أربعة أيام أو أكثر فى اللواء المذكور . وفضلاً عما سيترتب على ذلك الأمر من الإثقـــال على كاهل الفقراء والرعية ، فإن العساكر سوف يأتون علـــى زراعـــات الأهالى لا محالة فى ذلك .

وهنا لم يسوغ السردار الأكرم ارتكاب شر كلىمن أجل اكتســـاب خير جزئى ، وأرسل عطاياه إلى علماء القدس الشريف وخليل الرحمـــن وفقرائها ومساكينها بالقدر الذى يقوم على تحقيق آمالـــهم ، واســـتمددنا العون من روحانيات الأنبياء العظام المشار إليهم بختم القرآن الكريم من

بعيد ، [٢٢٦-أ] وعندما يئس علماء القدس ووجهائها من قدومه تتابعوا إليه فى (قصبة لوط) وظفروا بتقبيل طرف ثوبه الآصفى ، فخلع عليهم وعطف بإحسانه إليهم وأعادهم أدراجهم من هذه المرحلة .

حتى إن أبا السعود أفندى ـ من عظماء المشايخ الكبار ـ ودع السردار الكرم فى هذه المرحلة وعاد إلى يافا محملاً بالكثير من الوصايا لمحمد باشا متصرف القدس .

وفى ذات اليوم الموافق السبت (٩) من ذى القعدة ، خرجنا مع السردار الأكرم من المنزل المذكور وخيمنا بين قرية (رأس العين) على مسافة خمس ساعات ، وقرية (جلجولة) . وفى اليوم التالى تابعنا المسير حتى بلغنا قرية (قلنسوة) على مسافة ثلاث ساعات ، حيث حططنا الرحال . وفى اليوم الذى يليه نزلنا بمنزل (عين أسادر) على مسافة خمس ساعات ونصف ، ثم سرنا أربع ساعات ، فبلغنا خان (لجونه) .

وفى اليوم التالى نزلنا بقصبة (جنين) على مسافة ثلاث ساعات ، وبعد أن أتينا مواضع الكلأ فى هذا المكان ، نهضنا عنه ، وقطعنا مسافة خمس ساعات ونصف ، فبلغنا (خان الأحمر)، ولدى رحيلنا عنه عبرنا نهر طبرية من الجسر الأحمر وخيمنا بفضاء تربة الشيخ (ميعاد) على مسافة خمس ساعات ونصف .[٢٢٦-ب]

وفى اليوم التالى عاودنا المسير ، حتى وافينا موضعا تكثر به أشجار البلوط بالقرب من قرية (طيبة) ، حيث أقمنا الفسطاط .

وكان متصرف القدس قد قدم الميرة اللازمة من العريش حتى لوط ، وقدم كذلك متسلم نابلس طوقان زاده الميرة من لوط حتى

(الجنين) ، وجرار أوغلو شيخ يوسف من (الجنين) حتى قرية (طيبة) هذه . وفى القرية الأخيرة حضر كل من ممش أفنـــدى وحســن أفنــدى وحسن أفندى دفتردار دمشق ـــ من رؤساء بوابى الباب العالى ـــ بمـيرة دمشق .

وفى اليوم الذى يليه نهضنا عن تلك المرحلة وخيمنا بمشـــارف قرية تسمى (باب الهواء) ، ثم غادرناها إلى قلعـة (مزيـرب) علـى مسافة خمس ساعات .

ومزيرب تلك قلعة صغيرة ، مربعة الشكل ، تضم بداخلها نحـــو مائة بيت يسكنها البدو ، ويتوارد إليها الحجاج ذوى الابتهاج بعد تحركهم من دمشق ، ويسلم أمير الحج ما يحمله فى تلك المرحلة للبدو مؤجـــرى البعير ، ويتبادل معهم الصكوك بذلك على نحو مـــا جـرت بـه العـادة. [٢٢٧- أ] ولكثرة معاملات البيع والشراء والمقايضة التى تتـم بيـن الحجيج وسكان تلك القلعة من البدو ، فإن أمر حراستها والحفاظ عليـــها موضع اهتمام دائم .

وفى اليوم التالى خرجنا من قلعة (مزيرب) ، وعاودنا المسـير ثلاث ساعات حتى بلغنا قرية (دلة) ، فأقمنا بها ، وفى اليوم الذى يليـه وافينا قرية (صنامين) على مسافة أربع ساعات ونصف ، ثم غادرناهـا إلى (خان طارخانه) على مسافة أربع ســاعات ، ولـدى نزولنـا بـهذا المنزل، خرج كافة أعيان دمشق لاستقبال موكب السردار الأكــرم ، ثـم عادوا أدراجهم فى اليوم التالى بعد أن شرفوا بتقبيل طرف ثوبه .

وزينت رءوس العساكر بالطرر وأعملوا أنهم ســوف يدخلـون دمشق فى موكب عظيم مشهود. وفى اليوم التالى الموافق يوم الجمعـــة

(٢٢) من شهر ذى القعدة بلغنا دمشق ــ على مسافة ثلاث ساعات ــ فى صحبة السردار الأكرم وفى موكب عظيم من أبطال الفرسان والمشاة واحتشدت الجماهير رجالا ونساءا على جانبى الطريق ــ بمسيرة ساعة ــ وكأن اليوم هو يوم الحشر ، وقد تعالت أصواتهم حتى بلغت عنان السماء وهم يهتفون" خير مقدم .. خير مقدم".

ومدت الأسمطة الحافلة فى موضع الطعام الذى أعد فى ساحة تربة أحمد باشا الواقعة على حافة دمشق ، ثم تراصت صفوف الموكب من جديد ، وظل السردار الأكرم يلوح بالسلام للمتفرجين على جانبى الطريق من التربة المذكورة وحتى قصر الإمارة ، [٢٢٧-ب] ونثرت الدراهم والدنانير عليهم ، وأطلقت المدافع من الحصون والقلاع ترحيبا به وابتهاجا بقدومه .

ونزل السردار الأكرم فى أبهة عظيمة فى القصر المخصص للأمراء ، كما هيأت ثكنات مناسبة لرجال الجيش الهمايونى وعساكره ، ولم يعل أى شخص هم السكنى مطلقا .

وبرغم أن والى دمشق عظم زاده عبد الله باشا كان وزيرا مستأثرا بالوزارة كابرا عن كابر، كان رجلا به شىء عظيم من الإهمال وبلادة الطبع ، بحيث إذا انتهب أعيان المملكة ورجال دائرة الإيالة المتصرف عليها ، وجعلوها قاعا صفصفا ، ظل غافلا عما يحدث حوله؛ لذا فقد هان أمره وذهبت هيبته .

وبسبب تهاونه وتكاسله فى تحصيل مطلوبات الدولة العلية فى أوانها ، فقد تراكم فى ذمته هو وسائر الناس مال لبد ؛ ومن ثم تقررت الإقامة عدة أيام أخرى لتحصيل الأموال المذكورة بمعرفة دفتردار شق

أول أفندى ، وتم تعيين المباشرين لتحصيل تلك الأموال المتراكمة .
[٢٢٨-١]

ومع أن مضى الجيش الهمايونى من بين (بقراص) ، وقلعة (بياس) بطريق (آدنه) ، كان هو الطريق المستقيم والصحيح ، فإنه كان قد صدر من قبل غير مرة أوامر علية بشأن استئصال شأفة الشقى المسمى (كوجك على أوغلو) المتحصن بقلعة (بياس) ، غير أنه بحكمة الله تعالى حالت الظروف دون تحقيق ذلك ، إضافة إلى امتداد الحرب .

ولقد كان الطريق المذكور يعد معبر استانبول للحجاج ذوى الابتهاج ، وكان لا بد لهم من المضى من داخل القلعة الحصينة التى يسيطر عليها ذلك الشقى ؛ ومن ثم كان من اللازم مسايرته والتغافل عن سيئاته وأخطائه ، أما الآن فقد بات فى حكم المؤكد أن يمر الجيش من الموضع المذكور ، وفطن الصدر الأعظم إلى أنه لا بد وأن يلوح للشقى المرقوم ما اقترف من سيئات ، فيتملكه الخوف والوهم ويلتجىء – قبل حضور الجيش الهمايونى – إلى حصنه المسمى (قاربياض) على مسافة ساعة ونصف أو أكثر والذى يقع وسط جبل عظيم ذى غابات لصق القلعة المذكورة ، ولا يحس بالأمان والطمأنينة ، فيحشد عدداً من المشاة ، ويعلن العصيان ، ويعيث فى البلاد فساداً وإفساداً ؛ وأنه إذا ما بادر إلى تنفيذ أوامر السلطان فيه ، [٢٢٨-ب] فإن ذلك سوف يتسبب فى تأخير الجيش الهمايونى خمسة أو عشرة أو عشرين يوماً ، سوف يحتاج خلالها إلى تدبير الميرة اللازمة ؛ وإذا ما غض الطرف عنه

وتساهل فى أمره والعياذ بالله ، فسوف يسرى شره إلــى خلــق كثــير ، ويتسبب فى وقوع خسائر فادحة .

ولما فطن الصدر الأعظم إلى كل ذلــك ، ووعــاه أرجــأ أمــر استئصال الشقى المرقوم إلى وقته المرهون ، واعتزم المضى بنــا مــن حماة إلى نواحى (حلب) و (ملاطيا) . ومن ثــم أمــر بتهيئــة الميرة اللازمة بحيث تكفى الجيش من دمشق حتى الآستانة ، وأرسل المباشرين على جناح السرعة لابتياع ما يمكن ابتياعــه مــن الشــعير والبقســماط والأغنام .

ولقد بيعت تركه (محمد اغا) ، أغا العبيد المطوعة الذى توفى من قبل، ولما كان المتوفى درويشاً زهيد العين ، فإنه لم يعقب شــيئا ذا بال ، وسُلم إلى جانب الميرى ما استحصل من أثمــان زهيــدة . ولبثنــا والسردار الأكرم خمسة عشر يوماً لقضاء الأشغال المذكورة .

وبعد أن زرنا سيدنا يحيى عليه السلام وابن عربى وسائر البقاع المباركة، خرجنا من دمشق فى يوم الأحد (٨) من ذى الحجــة ووافينــا خان القصير على مسافة ثلاث ساعات ونصف حيــث نصبنــا خيامنــا .
[٢٢٩-أ]

وفى اليوم التالى نهضنا عن (خان القصير) ، وعاودنا المسير فانتهينا إلى قرية (قطيفة) على مسافة خمس ساعات . ورغم أننا قــد وصلنا إلى تلك القرية فى أول أيام عيد الأضحى المبارك ، لم يكن يتوفــر من الميرة ما يكفى تلبث الجيش بهذا المكان ، فرحلنا إلى قرية (نبــك) على مسافة سبع ساعات . وفى هذه المرحلة صار فى متناولنــا المــاء البارد الزلال الذى افتقدناه منذ سنة وأكثر ، فمرغ الجميــع الجبــاه فــى

التراب حمداً لله عز وجل وشكراً لنعمته ، ثم برحنا هذا المكـــان بعـد أن شربنا حتى الغصة وأفضنا القرب ، وقطعنا مسافة أربع ساعات ، حتـــى نصبنا الخيام بصحراء تسمى (عين علق) على مسافة ساعة ونصـــف من قرية (قره لر) .

ولما كان المرحوم (على القـــارى) مدفونـــاً داخـل مـــزارات المسلمين فى تلك القرية ، فقد زرناه ، وفى اليوم التالى ، نزلنا بقصبـــة (حمص) على مسافة ست ساعات ، وفى اليوم الذى يليه غادرناها إلـــى جسر (بسطام) ، حيث خيمنا على جانبيه ، وكان هـــذا الجســر علـــى مسافة أربع ساعات من حمص . ولشدة هبوب الرياح فى اليوم المذكور، [٢٢٩-ب] تهشمت أعمدة أكثرية خيامنا وأوتادها ، ولما طلـــع علينـــا النهار بعد أن قاسينا الأهوال والشدائد صنوفا وألواناً ، تابعنا المسير فـــى حالة من التشتت والتضعضع ، حتى خيمنا فوق تلة باذخة شمال مدينـــة (حماه) .

وإذا ما ذكرنا نبذة عما أقدم عليه متسلم تلك المدينـــة المدعـــو عثمان أغا من أنواع الظلم والتعدى علـــى الفقـــراء وبســـطاء النـــاس ، لشعرنا أنها تكرار لقصة الحجاج بن يوسف . وما رفعه أهالى تلك البـــلاد من شكاوى وتظلمات ، حرك سخط أمير الجيوش وأثار ثائرتـــه ، فعـــزل المتسلم المذكور ، وأمر به فقُـــيِّد فى وثاق .

إضافةً إلى أنه أمر باعتقال المدعو ملك إسماعيل ـــ من رؤساء الديوانكان ـــ ودرويش على وتموز أغا من رؤساء الأدلاء ؛ إذ إنهم كانوا ضالعين فى اعتداءات الشقى المذكور ، والترويج لها . غـــير أن والـــى حلب إبراهيم باشا تشفع لهم عند السردار الأكرم وأخبره أنه مشغول البال

فى تلك الأيام بالقلاقل فى نواحى (شغور) ، وأوضاع إنكشارية حلب ، وأنه فى حاجة إلى عدد وافر من الديوانكان ، ولم يكن هناك من رؤساء الأدلاء من هو أقوى وأفضل من المرقومين ؛ فما كان من السردار الأكرم إلا أن صفح عنهم وتجاوز عن سيئاتهم شريطة ملازمتهم إبراهيم باشا ومؤازرتهم له ، وعين على حلب متسلماً يرضى عنه الجميع يدعى (عبد الله أغا) ، [٢٣٠-أ] وعين كذلك المدعو (قره عمر) رئيساً للديوانكان والأدلاء وذلك نزولا على رغبة الجميع .

ولما كان قد صدر أمر عال بشأن تحصيل ما تبقى من ابتياع الغلال المرتبة من لواء حماه ، فإنه لدى فحص صالح أغا ـ من كديكلوية الباب العالى ـ سجلات المحاسبة التى أعدت بمعرفة المحاسبين، تبدى له عجز جسيم فى سداد ديونهم ، فأمر السردار الأكرم عندئذ بتخفيض قدر منه بغرض تخفيف الأعباء عن كاهل الفقراء واستجلاب دعواتهم لحضرة الخليفة ، ودفع الباقى فى ظرف يوم أو يومين .

وفى رأس الجبل الشامخ الواقع قبالة مدينة حماه ، هناك مقام زين العابدين ، رضى الله عنه . غير أنه بسبب بعد المسافة فقد اكتفينا بإهداء الفاتحة لروحه من بعيد .

وبعد أن لبثنا بحماه أربعة أيام ، غادرناها فى (٢١) من ذى الحجة ، وسرنا حتى انتهينا إلى سهل (خان شيخون)على مسافة ست ساعات ونصف .

ويروى أنه كان يتصدر الخان المذكور بركة عظيمة ، تبلغ فى العمق عشرين ذراعاً ، وفى الطول أربعين ذراعاً ، ومثلها فى العرض ، وكانت

تمتلىء من مياه الأمطار فى موسم الشتاء ، [٢٣٠-ب] وكان سكان الخان يشربون من تلك البركة طوال السنة على الدوام .

وعلاوة على هذه البركة ، هناك بعض الينابيع بالخان المذكور على مسافة نصف ساعة . حتى أنه إبان رحيلنا عنه ، مضى سقاتنا وجاءوا بالماء من تلك الينابيع .

وفى اليوم التالى غادرنا الخان المذكور إلى (معرة النعمان) على مسافة أربع ساعات ، وفى ذلك اليوم قدم بلاكلى مصطفى باشا لاستقبال السردار الأكرم، ونال شرف تقبيل طرف ثوبه فى صدر حماه . ولما بلغنا هذا المصر ، أذن السردار الأكرم للمشار إليه بالعودة بعد أن خلع عليه خلعة فاخرة .

وفى اليوم الذى يليه عاودنا المسير ، فنهضنا عن المعرة وتناولنا الطعام بـ (خان سبيل) ، ثم قطعنا مسافة خمس ساعات ونصف حتى خيمنا فى صدر قصبة (سلمين) العتيقة ، وفى اليوم التالى استأنفنا المسير ، وحططنا الرحال بساحة (خان طومان باى) على مسافة ست ساعات ونصف . وفى تلك الليلة بحكمة الله تعالى هبت ريح صرصر وهطل المطر مدراراً وطغت السيول وكأنه طوفان نوح عليه السلام ، وهب الجميع يلتمسون النجاة متمثلين قوله تعالى :

{ سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء } [١] .

١- هود : (٤٣) .

ولما كانت كل خيامنا قد بليت وفنيت من كثرة الترحال فى بـــرد وحر صحارى يافا ومصر ، وتمزقت أطنابها وحبالها ، [٢٣١-أ] لـــم تعد هناك خيمة قائمة إلا الخيمة السامية لحضرة السردار الأكرم . حتـــى أن الخيمة العتيقة البالية التى كانت تأوينى انهدمت فوقـــى أثنـــاء تـــلك العاصفة ، وبقدر ما جأرت بالاستغاثة بالخدمة والعكامين ، لم يكن هنـــاك من مغيث يأتى إلىّ من أى جهة . ولكنى عندما سمعت صرخات الاستغاثة تنبعث من كل جانب حولى ، سلمت بأنه لا مناص لى ورضيت بقضـــاء الله. غير أنه بعد عناء ومشقة شديدتين ، جاءنى العكامون سابحين فـــى لجة الطين وأخرجونى من تحت أنقاض الخيمة حاسر الـــرأس ، حـــافى القدم ؛ فإذا بى أرى أن جميع العساكر قد تشوش نظامهم جميعا وأختلـط حابلهم بنابلهم بعد أن تهدمت خيامهم ، وانشغل كل واحد بتخليص نفسه، ولم يتأت لأى شخص أن يغيث الآخر.[٢٣١-ب]

ولما تحققتُ الأمر فيما بعد ، وجدت أن أهل الجيـــش عامـــة نالهم ضعف ما نالنى ، فتهلهلت ثيابهم وقبُـحت هيئتهم .

وفى اليوم التالي الموافق (٢٥) من ذى الحجة قطـــع الســـردار الأكرم ونحن معه مسافة ثلاث ساعات، فبلغنا حلب الشـــهباء ، وتنـــاول حضرته الطعام فى جوسق ينشرح له الصدر على مسافة نصف ساعة من البلدة المذكورة ، وفى موكب حافل عظيم يماثل موكب دخـــول دمشـــق ، لوح السردار الأكرم بالسلام لمن اصطفوا على جانبى الطريق من المحـــل المذكور إلى مخيم الجيش فى ساحة تكية الشيخ (أبـــى بكـــر) ، ونـــثر الدنانير والدراهم عليهم . وأطلقت المدافع من القلعة احتفـــاء بقدومـــه ، ووصل بالعدة والعتاد إلى خانقاه الشيخ أبى بكر (قدس سره) المدفـــون

فوق تلة باذخة خارج سور حلب ، ونزل بالقصر الذى فرشه وأعده لـــه والى حلب إبراهيم باشا فى التكية المذكور ، [٢٣٢-أ] وأفردت كذلــك عدد من الجواسق المناسبة لرجال الدولة ووجهاء دائرة السردار الأكرم ، وأقام باقى طوائف العساكر فى الخيام حول تكية الشيخ أبىبكرِ .

ترتيب عقاب دلي حسين متسلم عينتاب

كان الشقى المرسوم ابنا طالحا للمدعو نورى على أغا ـ من أهـالى عينتاب ـ نشأ وترعرع فى خدمة المرحوم عينتابى بطّـال زاده نـورى محمد باشا الذى كانت تربطه به صلة قرابة من بعيد .

وعندما استشهد نورى محمد باشا محصوراً فى قلعـة عينتـاب على يد كوسه مصطفى باشا ، انسل المرقوم من ثغرة فى القلعة المذكورة وفر ، وبعد أن أستوفى فترة فى نواحى بيره جك والرهـا ، عـاد إلـى عينتاب فى ثلة ممن على شاكلته من البطـالين ، وسـلك طريـق الغـى والضلال ، ولم يزل على هذه الحالة ، حتى شاءت الأقدار أن يصبح داود زاده حاجى بطال أغا ـ سليل عائلات عينتاب ـ متسلماً بناء على رغبة كافة الوجهاء والأشراف .

وكان الأغا الموميء إليه رجلاً حليماً ، خيّراً ، صوفى الطبـع ، فاستعان برجل شجاع من الشرفاء منْ أجل الوْقوف فـى وجـه أشـقياء الإنكشارية الفارين ، ورئيس الأدلاء المسمى (قوللقچى أوغلو) الـذى تسلط على عينتاب فى تلك الآونة .[٢٣٢-ب]

وفى الوقت الذى كان يعد فيه العدة لذلك ، عثر على دلى حسين المرقوم، فقلده رئاسة توفكجيته ، ووجدها المذكور فرصة ذهبية وجمـع حوله عدة مئات من الأسافل والأوباش فى غضون عدة أيام ، وتنـاوش (دلي حسين) القتال مع قوللقجى أغلو وظفر به وقتله . ومنذئـذ تـألب على سيده الحاج بطال أغا وغلب على سائر أهالى عينتاب .

غير أنه فى تلك الأيام كان درويش حسن باشا متصرف مرعش يتأهب للزحف على عينتاب ، ففطن المرقوم إلى أنه سوف يقضى عليه إن بقى فى عينتاب ، وأدرك أنه لم يكتسب المقدرة بعد على مجابهته ومصاولته ، وعليه اعتزم دخول قصبة (بيره جك) لعدم استطاعته دخول الرها التى كان يتواجد بها فى تلك الآونة والى الرقة ، وأرسل رسالة مخصوصة مع أحد رجاله سراً إلى جهة علوى باشا المحاصر فى بيره جك ، يعرض عليه أن يأتى لمظاهرته فى حشد من مشاته إن أراد .

وما أن اتصل ذلك النبأ بعلم علوى باشا ، حتى أرسل إليه فى التو والحال ، فقدم إليه على رأس عدة مئات من مشاته ، وحاربوا عدة أيام حتى يئسوا من دخول بيره جك . وفى هذه الأثناء ، قدم متصرف مرعش المومىء إليه ودخل عينتاب ، [٢٣٣-١] ومن ثم اعتزم القضاء على علوى باشا الجبار العتى ، فأرسل يدعوه إليه نيابة عن فقراء عينتاب . غير أنه أساء التدبير ، فجاء علوى باشا فى حشد من أسافل الناس ورعاعهم وتمكن من القبض على متصرف مرعش ومتسلمها (بطّال أغا) وحبسهما حبساً إنفرادياً ، وأجاب دلى حسين إلى كل ما طلب ، فمكث لديه فترة . ولقاء ما أبرزه دلى حسين من خدمات وعبودية له على حساب عباد الله ، تضرع إلى الباب العالى لتعيينه متسلماً على عينتاب وسلمه فرماناً بذلك وألبسه الخلعة .

ومضى علوى باشا إلى منصبه فى الأناضول ، فصفى الجو لـ (دلي حسين) وخلت له الساحة وقويت شوكته واستفحل أمره وأصبح له نحو ألف من الفرسان والمشاة وأرسل الرسل إلى الآستانة يخطب ودها ويلتزم بلواء عينتاب . واجتهد فى الدعاية لنفسه فى كل

الجهات ، وكاتب الوزراء العظام والمير ميران الكرام ، واستطاع في غضون سنة أن يتغلب على الأقضية المجاورة له والعشائر والقبائل المحلية والرحل ، إضافة إلى عينتاب .

وقد بينا فيما مضى أنه فيما كان يتم تعبئة العساكر من شتى الجهات للدفع بهم إلى نواحي عكا ويافا بعد أن وردت الأخبار الموحشة بخروج الفرنسيين إلى بلاد الشام بعد استيلائهم على مصر سمع السودار الأكرم بما لـ (دلي حسين) من شجاعة ، [٢٣٣-ب] فبادر إلى استصدار فرمان من حضرة السلطان بمنحه منصب رئيس بوابين في الباب العالي مع رتبة (مير آخور) ، على أن يمضي بألف من صفوة عساكره لنجدة عكا .

وما إن وصله الفرمان بذلك حتى مضى دلي حسين في التو والحال بألفين من العساكر إلى دمشق ومنها إلى عكا . غير أنه لم يتأت له فعل شيء بسبب سوء تدبير الجزار باشا ، فعاد أدراجه . ومن بعد لدى وصول الجيش الهمايوني إلى ضواحي (أنطاكية) متوجها إلى مصر، حدث أن أرسل متسلم (كليس) في ذلك الوقت (محمود باشا طالطبان أوغلو) رجلا سرا لاغتيال زعيم عشيرة (جوم) المدعو (عمو أوغلو ايبش أغا) ؛ مما حدا بأكراد جبل (كاور) إلى أن أحتشدوا وهاجموا (كليس) وقتلوا عددا من أتباع (طالطبان أغا) من بينهم ابن عمه ، وانتهبوا داره ، ففر عاريا حافيا إلى حلب ، وقبض أحد بكوات الأكراد وهو المدعو (شباب) على أزمة الأمور في كليس، وأرسل الرسل إلى الجيش الهمايوني يلتمس منحه متسلميتها .

[٢٣٤-أ] ولا يزال يجد فى التماس ذلك حتى قدم (دلـــى حســين) الجيش الهمايونى .

واعتذر عن أنه لم يتأت له عمل شيء حينما مضى بقــدر مــن الجند بسبب سوء تدبير الجزار باشا ، وتعهد بأنه إذا ما منح لواء كليس، سوف يطير لمصاحبة الجيش الهمايونى بثلاثة آلاف من العســاكر مــن لواءى عينتاب وكليس.

وأدرك السردار الأكرم أنه إذا ما أسند لواء كليس إلى شبَاب هذا والعيــاذ بالله ، فسوف يكون سبباً فى وقوع ما لا يحمد عقباه ، وإذا مـــا أرســل متسلماً آخر غيره ، فسوف يمنعه شباب من دخول اللواء ، وبذلك يلحق العار بالحكومة ، وينال من هيبتها وحرمتها ، فآثر إسناد لـــواء كليــس بفرمان إلى (دلي حسين) بغض الطرف عما فى ذلــك مــن محــاذير ، وألبسه الخلعة وأعادة أدراجه شريطة أن يصحبه إلى الحرب بثلاثــة آلاف من العساكر .

وعندما انتهى دلى حسين إلى كليس ، عاث فيها ظلما وعدوانا ، وخاس بعهده ولم يرسل جنديا واحدا من اللواءين المذكوريــن ولا مــن جنده . إضافة إلى هذا ، عمد إلى المماطلة والتسويف فى أداء مـــا فــى ذمته من أموال ميرية واحتوى بطريق غير مشــروع كافــة المقاطعــات والتيمارات الموجودة فى لواء عينتاب ، ولم يمنح أصحابها شروى نقير، وعليه كلف إبراهيم باشا ـ والى كليس ـ بالقضاء على الشقى المرقوم.

وبحكمة الله تعالى حدث أن غلب عليه الشــقى المرســوم فــى معركتين بظاهرة كليس ، فقوى شأنه وعلا نجمه . [٢٣٤-ب] وكـــان

ضروريا إرجاء أمر القضاء عليه إلى وقتـــه المرهـــون والتغــافل عـــن سيئاته.

ولم ينفك ذلك الشقى عن إرسال المعروضات إلى عتبة الصــدارة العظمى يعتذر فيها ويرجو الصفح ويلتمس العفو . بيد أنه لم يكن يأبـــه برد الجانب الآصفى أيا كان .

وهذه الكرة لما تحتم عودة الجيش الهمايونى إلى الآستانة بعــد أن استخلص مصر القاهرة من أيدى الكفرة ، وأعاد الأمور إلى أنصبتـــها فى القطر المذكور ، وتعين عليه كذلك الارتحال برا بسبب إنقضاء موســم البحر ، فإنه مصداقا لقضية : " الخائن خائف " ، فر دلى حسين إلى جبــل (كاور) المجاور .

ولدى تحرك الجيش الهمايونى من القاهرة وردت رســالة منــه يزف فيها التهانى بالفتوحات المصرية ، ويعرض تنحيه عـــن منصبـــه ، ويطلب الأمان ، فرد عليه السردار الأكرم بأنه قد صفـــح وتجـــاوز عـــن سيئاته وطلب إليه الحضور لاستقبال الجيش الهمايونى فى حماه وتكليفـــه ببعض المهام. [٢٣٥-١] وعليه عندما وصل الجيش الهمايونى إلـــى دمشق ، تواردت رسالة من الشقى المذكور مع أحد خاصتـــــه، فحواهـــا الامتثال لأمر ولى نعمته ، والتعهد بأنه سوف يمضى فى التـــو والحـــال لاستقبال الجيش الهمايونى فى ضواحى حماه و حمص ، وعمد الســودار الأكرم إلى التحيل ونصب الفخاخ له ، وأرسل إليه يشبعه إطـــراء وثنـــاء بمعسول القول وزخرف الكلام .

وفى اليوم المبارك الذى أنيخت فيه بعير الجيش الهمايونى بظاهر(العصرة) ، حضر الشقى (دلي حسين) فى عدة مئات من فرسانه، وأرسلت فرقة الديوانكان حشدا من ضباطها وفرسانها لاستقباله، وأنزلوه بجوار خيمة عبدى بك صهر السردار الأكرم ومن رؤساء بوابى الباب العالى واحتفوا به وأكرموه ، ثم حمل بمعرفة عبدى بك للمثول بين يدى الحضرة الآصفية ، وصحبه رؤساء الديوانكان . وعندما مرغ جبينه على موطىء قدم الصدر الأعظم ، لم يبد حضرته أى تصرف من شأنه بعث الريبة فى نفسه ، وبش فى وجهه ولاطفه وطمأنه .

وطوى الشقى المذكور المنازل لعدة أيام فى صحبة الجيش الهمايونى . وفى يوم دخول حلب تجمهر عدد من علماء لواء عينتاب وصلحاؤه وأئمته ومشايخه وكافة فقرائه وأهله فى عدة مواضع يبسطون شكاياتهم وظلاماتهم ، [٢٣٥-ب] ويلتمسون العدل والنصفة ، بيد أن السردار الأكرم طعن على هذه الدعاوى وقال: " لما كنت قد خبرت غش أهل عينتاب وتزويرهم ، فإننى أرى أن هذه الظلامات والشكاوى محض كذب وافتراء واضح " ، وطرد المشتكين من البلاد.

وفى أيام إقامته بحلب الشهباء ، كلف نائب الجيش بالمرافعة عن حسين أغا أمام الكتخدا بك ضد عدد من المشتكين من الوجهاء ومعهم مفتى عينتاب ، فأبطل كافة الدعاوى المرفوعة عليه ، وبمثل هذه الحيل بث الطمأنينة فى نفس ذلك الشقى واستغفل لعدة أيام .

وفى تلك الأثناء ، وجه أمير الجيوش رئيس الأدلاء (صويطارى موسى) فيما يزيد على خمسمائة من خيرة فرسان الديوانكان على رئيس التوفكجية الذى كان يعيث فسادا فى قرى عينتاب

فى عدة مئات من رجاله ، وكان كذلك مشايعا لدلى حسين ، لا يقل عنـــه طغيانا وعتوا ،كما وجه صالح أغا ـــ من كدكلوية الباب العـــالى ـــ إلـــى عينتـــاب بـــأمر عـــال إلـــى قاضيـــها ووجهائـــها بـــــالقبض علـــى (لامع مصطفى أفندى) ، [٢٣٦-١] شقيق رئيس التوفكجيـــة وأحـد خاصة سلاحشورية متسلم عينتاب ، وختم على منزله .

وذات يوم دعى دلى حسين إلى قصر إبراهيم باشا والى حلب ، وبمعرفته ألقى القبض على الشقى المذكور فى نفر من رجاله وســـجنوا فى القلعة، ثم أمر بهم فأعدموا ، وسعد بذلك المظلومون وطالبو العـــدل والنصفة من أهل عينتاب وهم الذين ينسوا من عقاب ذلك الشقى على مـا ارتكب من جرائم ، وامتلأت قلوبهم فرحا .

ولم يكن يخفى أن دلي حسين كان شخصا ظالما غاشما ، فاسد الخلق ، يتلذذ بقتل الناس وسفك دمائـــهم . [٢٣٦-ب] ولـــو كـــان ـــ والعياذ بالله ـــ فطن إلى أنه سوف يقبض عليه ، وتأتى له الهرب مـــن معسكر الجيش الهمايونى بمن معه من الأوباش الذين كانوا يبلغون عـدة مئات وعلى جيادهم، لما أمكن الإمساك به ثانية ولكانت كارثـــة محققـــة ليس على أهل عينتاب وحسب ، بل على النواحي والأرجـــاء المجـاورة كافة . إلا أنه بفضل حسن تدبير السردار الأكرم ، أوقع به فى الفخ علـــى نحو من السهولة واستؤصلت شأفته من البلاد بالمكر والخدعة .

وتناوش (صويطارى موسي) ـــ رئيس الأدلاء الـــذى أنفـذه السردار الأكرم من قبل ـــ القتال مع رئيس التوفكجية المذكور ، وظفر به وقتل نفرا من رجاله ، وحمله إلى الجيش الهمايونى وحوكـم فـــى يـوم مغادرة عينتاب ، ومحى اسمه من سجل العالمين .

غير أنه لما كان لابن أخيه (لامع مصطفى أفندى) عدة مئـــات من الأوباش ، لم يكن بمقدور أحد القبض عليه . ولما ســـمع المذكـــور بنزول صالح أغا بالمحكمة ، تفرس الأمـــر وفـــر بأعوانـــه إلـــى جبـــل (كاور)، وأحجم الأهالى عن مطاردته ، وبذلك تخلصوا مـــن شـــروره . وصودرت كافة أموال وممتلكات كل من لامع مصطفى أفنـــدى ورئيـــس التوفكجية .

غير أنهم لما كانوا قبيلا من العيارين والنهابين ، فقـــد أســـالوا دموع الفقراء وانتهبوا أموالهم وبددوها فى سبل غيهم وفسادهم ، ويبقـــى حسابهم على الله يوم القيامة حسابا عسيرا . وانفـــض شـــيعة لامـــع مصطفى أفندى من حوله وتشتت شملهم ، فاختفى لفترة مع اثنيـــن مـــن خدمه فى جبل (كاور) ، ثم لاذ بـــ (ديوركلي كوسه مصطفى) باشا .

نظام إنكشارية حلب

فر إنكشارية حلب الشهباء عن آخرهم على إثر ما صدر منـــهم من أحوال بشعة ، [٢٣٧-١] وصدر أمر عال بالقضاء على رؤســـائهم والعفو عن الباقين وتأمينهم على أرواحهم . وانعقدت نذر قويـــة بعـــدم دخول أى ممن صدر بشأنهم أمر عال إلى داخل البلدة ، وتوقيـــع أقصـــى العقوبة على من يقبض عليه منهم .

وأثناء الأيام العشرة التى مكث فيها السردار الأكـــرم بـــالجيش الهمايونى لقضاء الأشغال وتسوية كافة الأمور المتعلقة بإعادة الأمن فـــى المملكة إلى نصابه ، وتسديد الأمور وإصلاح أحوال الرعية، دعا والـــى

حلب السردار الأكرم ورجال الدولة العلية إلى قصره وهيأ لهم حافل الولائم وأهدى الهدايا إلى كل منهم على حسب درجاتهم .

وفيما بعد لما بات من اللازم مغادرة حلب مع السردار الأكرم والجيش الهمايونى ، نهضنا عنها ونزلنا ببوغاز (خيلان) على مسافة ثلاث ساعات . وفى اليوم التالى عاودنا المسير فنزلنا بموضع يقال له (العبيد) على مسيرة ثلاث ساعات ، ثم غادرناه إلى موضع ينشرح له الصدر بـ (تل الشعير) على مسافة ست ساعات . وفى اليوم التالى لبثنا بصدر قرية (سازغين) إحدى قرى عينتاب على مسافة ست ساعات. [٢٣٧-ب]

وفى اليوم الذى يليه الموافق (١٤) من شهر المحرم ، قطعنا مسافة ثلاث ساعات ، فبلغنا صدر مدينة عينتاب ، ويوم دخولنا المدينة المذكورة ، استقبل سيد قلندر باشا متصرف مرعش ومعه عدة مئات من فرسانه ، الجيش الهمايونى، وبلغوا الأرب بتقبيل ذيل ثوب السردار الأكرم .

وكان الباشا المذكور قد استحصل الميرة المطلوبة من إيالة مرعش على أتم وجه ، وأهدى الجياد المسومة إلى السردار الأكرم ورجال الدولة العلية ، مما كان له حسن الوقع لدى الجميع ، فأعاد السردار الأكرم الباشا المشار إليه ومن قدم معه من علماء مرعش ووجهائها إلى بلدهم بعد أن خلع عليهم واستمال خواطرهم .

وفى الوقت الذى كان فيه نحو ألفين من البدو الا حل من تركمان (ريحان) يصيفون فى جبال (دارنده) ، ناعمين بالراحة والأمن والطمأنينة فى الظلال الهمايونية لحضرة السلطان ، وقد حصل لهم شئ

عظيم من الثراء والاقتدار ، عمدوا إلى المماطلة والتقاعس عن أداء ما عليهم من أموال ميرية بسيطة ، واستطالوا على من جاورهم من أهالى البلاد القريبة من مصيفهم ، وعسفوا بهم .

ولقد كان السردار الأكرم يعلم ذلك فى الأصل ، وكان أكبر همه بعد ردع تلك العشيرة واستئصال شافتها ، [٢٣٨-أ] هو إسكانهم فى لواء (بوز أوق) إذ إنها كانت تتبع محافظة (يكى إيل). غير أن حضرة السلطان كان يريده أن يصل بالجيش الهمايونى إلى الباب العالى سريعا ، وعليه أرجأ ردع تلك العشيرة واكتفى بأخذهم بالمغارم بأخذ عدة آلاف من أغنامهم بمعرفة (قلندر باشا) لصالح المطابخ السلطانية .

وبعد أن لبثنا مع السردار الأكرم سبعة أيام فى تحرى تركة دلى حسين المقتول وبعض أعوانه ، وتسوية الأمور الواجب تسويتها فى اللواء المذكور ، عاودنا التحرك من البلدة المذكورة فى يوم (٢١) من المحرم ، ونزلنا بـ (آق) ، و(كرمان) على مسافة ست ساعات . وفى اليوم التالى اجتزنا جبلا وعر المسالك يعرف بـ (قره طاغ) يسكنه تركمان (قزيق) على مسافة ست ساعات وقطعنا مسافة فى كثير من مواضعه على النعلين وبعد عظيم مشقة ومعاناة، خيمنا بصدر قرية (أردل) فى معمر العربان .

ولما أنهى إلى السردار الأكرم الخبر بأن زعيم قبيلة (قزيق) القاطنة بـ (قره طاغ) شقى يسمى (جيرجى أوغلو محمد) من قطاع الطرق ، قتل خلقا كثيرا ، فجرد عليه من قبل تجريدة من مرحلة عينتاب. غير أن الشقى المذكور اعتبر مما جرى للمقتول (دلى حسين) ولاذ بالفرار قبل أن تصله تلك التجريدة، فهدمت داره وأحرقت وجلبت مواشيه

وحيواناته وبيعت من قبل الحكومة وأحقت حقوق العباد . [٢٣٨-ب] وفى اليوم الذى يليه أقلعنا مع السردار الأكرم من القرية المذكورة وقطعنا مسافة أربع ساعات وخيمنا بمنبت البلوط على مسافة ساعة ونصف أسفل قرية (الجريد) ، ثم عاودنا المسير فنزلنا بموضع قبالة قرية (بيل ويران) ، وفى اليوم التالى قطعنا مسافة ثلاث ساعات وخيمنا بمرج أخضر يعرف بـ (كول باشى) وهو فضاء واسع ، متراحب الأرجاء .

ولما كانت أكثر أنهار (خرده) التى تجرى من قمم الجبل الشامخ المعروف بجبل (نور الحق)، تصب فى هذا الموضع ، فقد تكونت به بحيرة مستطيلة يخيم البدو الرحل على ضفافها لعدة أيام ، عند ذهابهم إلى مشاتيهم ومصايفهم وإيابهم منها ، طلبا للراحة والاستجمام .

وهذا الجبل المسمى جبل (نور الحق) ، جبل شامخ يناطح الفلك ، وفيما كنا نجتاز الهضبة المفضية إلى عينتاب من (إعزاز) ، كان الجبل المذكور ظاهرا لنا ، وإلى أن بلغنا (كول باشى) بقطع مسافة أربع أو خمس ساعات لم يكن يغيب عنا . وعلاوة على هذا فقد قطعنا مراحل ملاطيا وآرغون وحكيمى خانى وحسن جلبى وآلاجه خانى ، [٢٣٩-أ] وإلى أن انتهينا إلى (ديكلى طاش) كان ذلك الجبل لا يزال ظاهرا لنا لم يختف . وعند إجالة النظر من خلف (ديكلى طاش) ، كان يبدو وكأنه موضع يمتد ساعة أو اثنين أو ثلاث ساعات .

مجمل القول أنه جبل يقع بين لواء (بهسنى) وقضاء (بستان) ، ولا ينقطع الجليد عن قمته صيفا وشتاء . ويبدو اللون

الأبيض بدءا من ثلثيه العلويين ، ويصطاف فى سفحه الكرد والتركمان الرحل وغير الرحل ولا يتخطون إلى نصفه العلوى بسبب برودته القارصة.

ونهضنا مع السردار الأكرم عن (كَول باشى) وسرنا خمس ساعات واجتزنا قرية (برورا) ، وحططنا الرحال على جانبى الجسر الكبير الذى أقامه رشوان زاده عمر باشا على النهر العظيم المعروف بنهر (كوصو) .

وفى تلك المرحلة قدم رشوان زاده سيد عبد الرحمن باشا قائمقام بهنسى وهو تربية السردار الأكرم وغرس يمينه ، وقبل الأرض بين يدى أمير الجيوش، وأهدى إليه الجياد المسومة وإلى سائر رجال الدولة ، فقبلت هديته وقدرت خدمته:

وفى اليوم التالى عندما نزلنا بساحة واسعة تجاه قرية (أركند) على مسافة ست ساعات ، نبه على سيد عبد الرحمن باشا بالاجتهاد وتحرى الدقة فيما كلف به مهام ، وأعيد إلى بلده بعد أن خلع عليه خلعة السمور .

وتقع قرية (أركند) تلك فى موضع صخرى يتوسط واد عميق. وهى أرض كثيرة الينابيع التى تنبع من شوامخ الجبال المحدقة بالقرية ، [٢٣٩-ب] ومن بينها نبع عظيم حرى بالإفاضة فى مدح مائه الزلال والثناء عليه يسمى نبع (صقال طوتن) ، وما يجرى من هذا النبع من جداول وأنهار يمر ماؤها على صخرة صماء حتى يبلغ نهر (كبود) .

وعلى جانبى تلك المسافة التى تبلغ أربع ساعات تنمو أشجار (الدلب) الضخمة وسائر الأشجار الأخرى ، فينطبق عليها

قوله تعالى : { جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار }[1] ولم نشهد نظيرا لها فى البلاد التى طفنا بها وجبناها .

وقبالة قرية (برورا) بساعة جدول لطيف ، ينبع من جبل (جنب) تحت أشجار الجوز ، ويقول رحالة العالم عنه أنهم لم يشاهدوا مثله فى صفاء مائه وبرودته .

وعندما نهضنا عن قضاء أركند المذكور ، سرنا ست ساعات ، وخيمنا بأرض كثيرة الينابيع تعرف بـ (سورمه لو بيكار) قبالة قرية (سوركى) بساعة . ثم عاودنا التحرك منها وخيمنا على المشارف الجنوبية لقرية (كوزنه)على خمس ساعات .

وفى اليوم التالى سرنا أربع ساعات ، ونزلنا بطرف البساتين السفلية لقصبة (جير مقدى) ، وفى اليوم الذى يليه الموافق ٣ من صفر الخير قفلنا كذلك من القرية المذكورة وقطعنا مسافة ثلاث ساعات ، [٢٤٠-ا] ونزلنا بمصيف (أسبوزى) الذى تشتهر به ملاطيا.

وبما أن أكثر أغوات ملاطيا وأهلها ، كانوا خاصة خدام السردار الأكرم منذ أمد بعيد وتربوا على يديه ، فقد بسطوا الرجاء إلى ولى نعمتهم ومن له الفضل عليهم كيما ينزل بجيشه ضيفا عليهم .

ولما كان الصدر الأعظم (منصور اللواء) قد نشأ وترعرع فى تلك النواحى ؛ فقد نازعه الحنين والشوق إليها ، وهى مسقط رأسه ، وأراد الاستئناس بأهلها ، فأعد التكنات لنفسه ولكافة رجال الدولة وأهل الجيش الهمايونى قاطبة ، واستراحوا جميعا فى مقصورات ذات بساتين

١- الفتح : (٥) .

ورياحين ، فصفا بالهم وسعدت أرواحهم .

كما قدم كل من أحمد أغا ــ وكيل المناجم ــ وأمراء بالو وأكيل وجيرمن وأغوات خربرت وجارسنجق ، وأمين آرغنى ، ومحافظو كماخ وكرجانيس وسيوره ، [٢٤٠-ب] وصوباشية آغجه طاغ وسائر أعيان المناجم الهمايونية وأمنائها وضباطها ، وزعماء قبائل تلك الجهات وعشائرها ووكلاء عمال مناجم الفحم ، لاستقبال السردار الأكرم ، وسعدوا جميعا بتقبيل الأرض بين قدمه .

ولما كان قد فارق المناجم الهمايونية منذ عدة سنوات ، فقد أسعف كثيرا منهم بحاجتهم ، وقضاها لهم ، وأنعم على العلماء والصلحاء والمشايخ والدراويش والضعفاء وعطف بإحسانه إليهم .

عزل خلوصى أحمد أغا من وكالة المناجم وإسنادها لعبدي بك

عندما تبوأ السردار الأكرم منصب الصدارة العظمى رفع اقتراحه إلى العتبة العلية السلطانية بصرف المناجم الهمايونية من عهدته وإحالتها لشخص آخر . ولما لم يكن هناك إمكانية لصرفها من عهدة حضرته ، صدر إليه الأمر السلطانى بتصريف أمورها من خلال وكيل مناسب ، يعين بمعرفته ؛ وعليه فقد وجه صهره عبدى بك إلى المناجم الهمايونية وكيلا عنه .

وفيما كان الجيش الهمايونى مقيما بصحراء يافا صدر من عبدى بك بعض التصرفات غير اللائقة التى أنكرها حضرة أمير الجيوش ؛ فقام

بعزله وعيـن مكانـه خلوصـى أحمـد أغـا ـ مـن رؤسـاء بوابـى الباب العالى ـ ، وأرسل فى التو والحال فى طلب عبدى بك ليـأتى إلـى الجيش الهمايونى ، [٢٤١-ا] فقدم الأخير وراعى استحصال رضـاء ولى نعمته فى الجيش الهمايونى ولم يقدم على أى تصرف غـير لائـق يستوجب العزل أو التعيين .

إلا أن أغوات نواحى المناجم التمسوا عزل خلوصى أغا وتعييـن عبدى بك ثانية وكيلا للمناجم. كما أن حق القرابة كان يقضى بأن يعامله السردار الأكرم على ذلك النحو ، فقام بعزل خلوصى أحمد أغا من وكالـة المناجم ، وخلع خلعة الوكالة على عبدى بك وأسبغ عليه بره وعطائـه ، وخلع كذلك فاخر الخلع على كل من حضر لاستقباله من نواحى ملاطيـا من الأمناء والحكام والمتسلمين والمحافظين والبكوات ، كل على حسـب درجته ، ونبه عليهم ببذل الجهد واستفراغ الوسع فى الاضطلاع بمـهام وظائفهم ، ثم أذن لهم بالعودة أدراجهم .

ذكر أوصاف ملاطيا ومصيف (أسبوزى)

يذهب الفلاسفة الأقدمون وعلماء الهيئة فى كتبهم إلى أن مدينة ملاطيا تلك كانت من بين أعرق المدن التى بنيت منـذ فجـر التـاريخ . [٢٤١-ب] ويوافقهم فى هذا الرأى كذلك حكماء ملاطيا ويذهبون معـهم إلى نفس المذهب .

غير أننا لم نصادف كتابا أو رواية تتنـاول أحـوال ملاطيـا وتاريخها قبل قيام الإسلامية . وقد جاء فـى بعـض الكتـب التاريخيـة

الموثوقة والتى لها الذيوع والانتشار بين الناس ، أن البلدة المذكورة قد فتحت حربا من قبل العرب فى صدر سلطنة بنى أمية ، وقتل خلق كثير من أهلها وأسر خلق آخر ، وهدمت أسوارها وقوضت مبانيها وعمها الدمار والخراب . ونقل من تبقى من سكانها وأسكنوا فى موضع آخر .

وفى عهد عمر بن عبد العزيز ، أعيد تعمير البلدة المذكورة بتوطين بعض السكان فيها . ولما كانت تمثل ثغرا فاصلا بين كفرة الروم والمسلمين ، فقد أحكم بناء أسوارها وقلعتها ، وشحنت بالعساكر والحاميات وظلت تمثل ثغرا للمالك الإسلامية على مدار عهد خلفاء الأمويين وخلفاء العباسيين على السواء ؛ ولذا كانت من الممالك الإسلامية ذات الشأن والخطر . ولم تخل يوما من أبطال المجاهدين فى سبيل الله ، وكان أهلها دائمى الإغارة على ديار الكفر ، ويقال أن (سيد بطال غازى) كان قد ولد بها وغزا عدة مرات أقاصى بلاد الروم .

وفى نهاية المطاف ، استولى السلاجقة عليها وبسطوا نفوذهم فى أواخر عهد سلطنة العباسيين، وصارت حاضرة لعروش سلاطينهم أمثال (كيكاوس) ، و(كيخسرو) و (علاء الدين كيقباد) . [٢٤٢-١] وآثارهم الباقية إلى يومنا هذا ، تنهض دليلا على ما أسبغوه من إهتمام على تحصينها وإحكام أسوارها وتقوية مبانيها .

وبسبب غزو التتار للأناضول واجتياحهم له بعد ضعف الدولة السلجوقية واضمحلالها ، انفرط عقده بين طوائف الملوك ، وتناوب حكم ملاطيا تارة أمراء (الدانشمنديين) وتارة أخرى (ذو القدرية) بمساعدة سلاطين الجراكسة فى مصر . وفى تلك الغضون ظهر تيمور واستولى عليها ودمر قلعتها وسام أهلها الخسف والتنكيل . وبعد أن انطفأت شرر

شر تيمور فى الأناضول ، آل ملك ملاطيا إلى سلاطين العثمانيين أيد الله سلطنتهم إلى آخر الزمان ، ويستظل أهلها جميعا إلى الآن بالظلال الهمايونية لحضرة السلطان ، وينعمون بالأمن والأمان وصفاء الحال ، وقد أشرف سورها القديم على الانهيار اليوم ، وتبدو بعض آثارها المتهدمة فى أماكن متفرقة .

ويحف بملاطيا الجبال الشاهقة من شتى الجهات ، وفى إحدى تلك الجهات جبل (نور الحق) المتقدم ذكره ، وفى جهة أخرى جبال (بولام ، وطوجاق) ، ويتوسط تلك الجبال الأربعة سهل فسيح مترامى الأطراف يسمى سهل (ملاطيا) ، مروجه وفيرة المحاصيل ، [٢٤٢-أ] وجميع أشجاره ذات ثمار .

ويأتى نهر الفرات من مسافة ساعة تقريبا من شمالها ، ويأتى نهر(طوخمه) كذلك من ساعة تقريبا من شمالها الغربى ، وبعد التقاء النهرين بصدر ملاطيا ، يجرى الأول إلى جهة بغداد .

ويمضى أهالى (ملاطيا) شهور الشتاء الستة بها ، وينزحون فى شهور الصيف الست إلى مصيفهم فى مروج (أسبوزى) على مسافة ثلاث ساعات .

ويتخلف بالمدينة عدد من الأهالى للحراسة . وليس منهم من يعاود الرجوع إلى المدينة طيلة شهور الصيف الست ، ما لم تمس حاجتهم إلى ذلك . أما مروج (أسبوزى) فهى إحدى المنتجعات الشهيرة فى العالم والحرية بالإطراء والمديح.

وينتشر بملاطيا الجوامع والمساجد والمدارس والمعابد ، علاوة على أن ما بها من حمامات وخانات وأسواق ووكالات ليس بالقليل . وأسواقها رائجة ، ومن ثم يؤمها الأكراد والعشائر من شتى النواحى .

وفى الجهة العلوية من منتجع (أسبوزى) ، توجد قرى (تجده، وكلاسك ، وباتازى ، وجيرمقدى ، وكوندوبك) ، لصق بعضها البعض ، لا يفصل بينهم فاصل .

وبجوار أعظم تلك القرى وهى قرية (كوندوبك) ينبع نهر عذب، صاف يسمى نهر(دير المسيح) ، [٢٤٣-١] يكفى كافة عباد ملاطيا .

وعلى جانبى ذلك النهر من منبعه حتى نهاية مروج (اسبوزى) ، لا يخلو قدر شبر من أرض من الأشجار المثمرة وغير المثمرة متشابكات ، ويجرى النهر من تحت ظلال الأشجار حتى إذا بلغ مروج (أسبوزى) ، تفرع أفرعا شتى ، تيار كل منها يكفى لإدارة طاحون مائى .

وقد بنت على ضفتيه بيوت لطيفة ، تعمر الروح ، ومن النادر أن يوجد بيت منها بلا نافورة أو فسقية . وسكانها ليل نهار فى الشوارع والمنتزهات وعلى ضفاف النهر ينعمون بالبهجة والصفاء .

إضافة إلى أن بساتين سروها وصنوف فاكهتها لا تدخل تحت حصر ، وقد نظم الشعر فى تفاحها على وجه الخصوص ، وهو يصدر إلى باقى نواحى المملكة .

مجمل القول أن كونديك تلك بلدة كالفردوس ، نادرة المثال .

خروج الجيش الهمايونى من ملاطيا

[٢٤٣-ب] لم يعد هناك من حال يستوجب مكث الجيش الهمايونى ، علاوة على صدور العديد من الخطوط الهمايونية تستعجله الوصول إلى الباب العالى .

وبعد عشرة أيام من الاستراحة والاستجمام فى مروج (أسبوزى) ، أقلعنا مع السردار الأكرم فى اتجاه الآستانة ، وحططنا الرحال على جانبى الجسر العظيم المعروف بـ (قرق كَوز) ، والذى يمتد فوق نهر (طوخمه) على مسافة ست ساعات . وينبع ذلك النهر من الطرف العلوى لقصبة (كرون) ويجرى مخترقا بساتين قرية (دارنده) التى تفضل ملاطيا بطيب نسيمها وعذوبه مائها ، ويلتقى ذلك النهر ، بنهر آخر يسمى نهر (بالقلاغى) وهو الذى يتجمع من جداول (اوزون يايلا) أسفل دارنده بثلاث ساعات ، ويمضى من حواشى (آغجه طاغ)، ويمر من تحت جسر (قرق كَوز) ، فيلتقى بنهر الفرات على مسافة ساعة جنوبا .

إنه نهر عديم المثال ، يفوق نهر الفرات عذوبة .

ولقد عاودنا التحرك من المنزل المذكور ، وأقمنا بحصن البطريق على سبع مسافة ساعات ، ثم نزلنا حول حصن (حكيمى خانى)، وهو من آثار المرحوم كوبريلى محمد باشا ، يسكنه عدد لا بأس به من السكان ، يقومون على خدمة السابلة لقاء أجر .

ثم عاودنا المسير من ذلك المنزل ونزلنا بـ (حسن چلبى) بعد مسيرة خمس ساعات ، ومنه بلغنا حصن ميناء (آلاجه خانى) على

مسافة ست ساعات ونصف ، وهناك أقمنا المخيم . [٢٤٤-أ] و(آلاجه خان) كذلك من آثار سلاطين السلاجقة، ولم تزل بلا أبنية ولا سكان اللهم إلا خان عتيق ، حتى أرسلت السلطنة السنية فى عام (١١٥٠ هـ) من أقام بها حصنا عظيما ، وأسكن بهذا الحصن سيد هاشم بك أمير جماعات (أستورلى وشماغه لو) من سنيى إيالة طاغستان الذين لاذوا بالممالك العثمانية إبان اجتياح (طهماس نادر) بلادهم ، وعين الأمير المذكور أغا للخان ونصب من معه حماة له ، وبذلوا السعى الأوفى فى حماية السابلة وخدمتهم .

وإن يكن قد تشتت شملهم إلى حد ما من جراء هجمات شراذم السطاة والمغيرين ، فإن محافظها الحالى عبد الغنى بك زاده سيد هاشم بك يبذل قصاراه بحماسة متقده لحماية أبناء السبيل والذود عنهم .

ولقد تابعنا المسير كذلك من (آلاجه خان) وقطعنا مسافة سبع ساعات ونصف ، وخيمنا على أطراف قرية خربة تعرف بقرية (قنقال)، ثم نهضنا عنها ، وتابعنا المسير ونزلنا أرضا كثيرة الجداول تجاه (ديكلى طاش) على مسيرة ست ساعات . ووفى تلك المرحلة استقبلنا ديوركلى كوسه مصطفى باشا والى سيواس وقبل الأرض بين قدمى السردار الأكرم.

ولما كان مصطفى باشا هذا وزيرا غريب الأطوار ، به شىء من تصوف ، [٢٤٤-ب] يتحرى العدل والنصفة ويرعى حقوق الرعية ، فقد قبل السردار الأكرم هديته وكانت عبارة عن عدد من الجياد، وأغدق عليه العطاء بأكثر مما كان يتوقع وخلع عليه فروا سموريا ثمينا،

كما خلع كذلك على كافة وجهاء سيواس الذين قدموا لاستقباله ، وأذن لهم جميعا بالانصراف إلى حال سبيلهم .

ثم نهضنا مع السردار الأكرم من تلك المرحلة ، وانتقلنا إلى صدر قرية(طونوس) على مسافة سبع ساعات ، وهنالك استقبلنا عبد الفتاح بك نجل عبد الجبار زاده سليمان بك ، وكاتبه الحاج مصطفى أفندى ، ومرغ الاثنان جبينهما فى تراب موطىء قدم أمير الجيوش ، وجدا فى خدمه الجيش الهمايونى .

ومن قرية (طونوس) تلك وحتى جبال كرون ، ودارنده وبستان هناك مصايف نادرة الوجود تبلغ مساحة كل منها أربعين ساعة ، وتنتشر بها الجداول والينابيع ، وتكثر بها أزهار (اللالة) و (الناردين)، ويتوافد عليها أربع وعشرون عشيرة من نواحى (بوز اوق) و (كسكين) ، و الأكراد والتركمان الرحل من حواف الجزيرة العربية ، و (جقور آباد) لقضاء الصيف بمصايفها ، [٢٤٥-أ] ثم ينتقلون إلى مشاتيهم فى أوائل الشتاء .

وتبلغ عشائر الرحل تلك نحو عشرين ألف أسرة ، وإذا ما أدركنا أن الضواحى المذكورة تفى بحاجة دواب ومواش هذا القدر من الأسر والعائلات ، لوضح لنا جليا إلى أى مدى هى واسعة ومترامية الأنحاء .

غير أن تلك البقاع كانت موطىء قدم العشائر والقبائل على النحو المذكور فى الذهاب والإياب ؛ فلم تشغر فى أى وقت من الأوقات ، وإن بقيت خالية من العمران .

ولقد عاودنا التحرك مع السردار الأكـــرم مـــن (طونـــوس) ، ونزلنا بجوار قرية (شابلو) على مسافة خمس ساعات ، ثم انتقلنا إلـــى (شارقشلا) على مسافة ست ساعات . وصـــادفت أيـــام المضـــى إلـــى (شارقشلا) تلك طقسا شديد الحرارة ، وكان بتلك الجـــهات نـــوع مـــن الكلاب الضخمة الضارية تسمى (كوين) ، أزعجت أفراد الجيش كافـــة وسببت لهم متاعب جمة ، فوق أنها أزعجت البعير وأهلكـــت اثنيـــن أو ثلاثة منها ، ورأى أهل الجيش هذا رأي العين .

ومن (شارقشلا) انتقلنا إلى قرية جمرك ، على مســـافة ســـت ساعات ومنها سرنا إلى قرية (جابر شيخى) ، ثم قرية (وذيلى) علـــى مسافة ست ساعات ، ثم انتقلنا بأمتعتنا وأثقالنا إلى قرية (بازيلو طاش) على خمس ساعات، وفى اليوم التالى بسطنا فرش الاستراحة فى قصبـــة (يوزغارد) التي يسكنها بنو عبد الجبار على مســـافة ســـبع ســـاعات .
[٢٤٥-ب]

وفيما كان باقيا مرحلة على وصول قصبة (يوزغارد) تلـــك ، أرسل حضرة الصدر الأعظم إلى سليمان بك ، يستعجله للقدوم لاســـتقباله الجيش الهمايونى . وبعد أن حظى المذكور بتقبيل الأرض بين قدميـــه ، نزل (يوزغارد) برفقة الذات السنية ، ونزل بالفسطاط الآصفـــى الـــذى نصب فى الساحة الواسعة بصدر القرية ، وانتجعنا مواطـــن الكـــلأ فـــى المرحلة المذكورة ثلاثة أيام لإراحة دوابنا وفى الأيام الثلاثة تلـــك دعـــا سليمان بك السردار الأكرم ورجال الجيش الهمايونى جميعا إلى قصـــره ، وبالغ فى إكراهم والحدب بهم ، وهيأ لهم أفخر الموائد ، وقدم لهم التحف والهدايا على حسب مرتبة كل منهم ، وأدى حق السردار الأكـــرم عليـــه

على خير وجه ؛ فخلع الصدر الأعظم (منصور اللـــواء) عليـه ثوبـا سموريا ثمينا كان من متعلقاته الشخصية ، كما خلع على نجلـه الكريـم عبد الفتاح بك ؛ إضافة إلى أنه جاد عليه ببعـض مـن رءوس الجيـاد المصرية والعربية الأصيلة ، وأغدق النفحات على خدمة دائرتـه كبـيرا وصغيرا .

وبعد أن أقمنا مع السردار الأكرم أياما ثلاثة فى تلك المرحلـة ، أقلعنا عنها ، وانتقلنا بأثقالنا إلى قرية (طوباج) على ثـلاث سـاعات . [٢٤٦-أ] ومع أن جبار زاده سليمان بك كان قـد التمـس مرافقـة السردار الأكرم لعدة مراحل ، لم يأذن له على أية حال ، وأعاده إلى داره.

وفى اليوم التـالى برحنـا قريـة (طوبـاج) ونزلنـا بقريـة (أرسلان حاجيلر) على سـت سـاعات ، وانتقلنـا منـها إلـى قريـة (طفاصلى) على أربع ساعات ، ومنها إلى قرية (حسن على أوغلـو) على مسافة خمس ساعات ، ثم قرية(حاجيلر) علـى سـت سـاعات ، فقرية (مالجيلر) ثم خيمنا بصدر مدينة (أنقره) وتلبثنا ثلاثة أيام أخرى بالبلدة المذكورة للراحة والاستجمام ، وإراحـة دوابنـا كذلـك، وأغـدق السردار الأكرم نفحاته وصدقاته على علمائـها وصلحائـها ومشـايخها وفقرائها بأكثر مما كانوا يأملون ، وخلع على متسلمها ووجهائها .

ثم تابعنا المسير معه من أنقره ، ونزلنـا بمـنزل (جـابر) ، [٢٤٦-ب] ثم انتقلنا منه إلى قصبة (عيـاش) علـى مسـافة سـت ساعات . وقبل وصول الجيش الهمايونى إلى (عياش) تلك بمرحلتيـن ، كان محافظها مسعود قد أدى اللازم من الخدمات للجيش الهمايونى خـير أداء ؛ فحاز على بركة رضا أمير الجيوش عليه ، وأثنـى علـى حسـن

معاملته لسكان البلاد ، فزين كتفه بفرو سموری ، وثبته فی منصبه كما فی السابق .

وفی اليوم التالی نزلنا بصدر (بك بازاری) علی ست ساعات .

قتل الحاج (كل حسن أوغلو) محافظ (بك بازاری)

كان ذلك الشقی من أهالی (بك بازاری) ، استطاع بطريقة ما أن يصبح محافظا علی هذا القضاء ، ولما كان فی مسقط رأسه لم يكن يكف عن العيث ظلما وفسادا فی تلك البلدة . وفيما كان حقا عليه بذل السعی فی الضرب علی أيدی المجرمين والأراذل والسهر علی راحة الرعايا والعباد ، استطال علی سكان البلدة المذكورة وفرض عليهم عددا من المكوس والضرائب ، فأذل الغنی والفقير بشتی صنوف الحيف والجور والأذی ، وجوع فقراءهم وجعل ثراتهم لا يملكون شروی نقير .

وإبان وصول السردار الأكرم بالجيش ، استولی الخوف والفزع علی الشقی المذكور مصداقا لقول : " الخائن خائف " ، وفطن إلی أنه إذا ما مر الجيش الهمايونی بطريق (بك بازاری) ، فسوف يرفع أهاليها شكاياتهم إلی حضرة الصدر الأعظم ،[٢٤٧-١] مطالبين بالعدل والنصفة

ومن ثم جافی النوم عينيه ، ولبث متمارضا بداره التی بناها من الحجر وجعل لها مزاغل ومتاريس وأحكمها علی شاكلة القلعة ، يحسبها عاصمة له ، وأرسل إلی السردار الأكرم يعتذر له عن عدم مقدرته علی

القيام والحركة ، واصطحب عدة مئات من (السكبانية) تحسبا لما يجد من ظروف .

وعلاوة على أن أمير الجيوش كان قد تحرى عن أحوال الشقى المذكور وتأكد من تصرفاته الظالمة والمتعسفة ، فإنه فى اليوم السعيد الذى مد فيه ظلال عدله على (بك بازارى) تلك ، قدم إليه عدد لا حصر له من الرجال والنساء ممن ظلمهم الشقى المذكور وجار عليهم ، يطلبون العدل والنصفة . فما كان منه إلا أن أرسل فى التو والحال (ملاطيه لي أوغلو) صوباشى القرية المذكورة فى عدة مئات من الديوانكان لإحضار المذكور ، فجاءوا به وألقوه بين يدى حضرته ، وحقق معه ، ثم أمر به فقتل ، وسر بذلك سكان المملكة سرورا عظيما وملأ الفرح قلوبهم ، [٢٤٧-ب] وعين الدفتردار أفندى المباشرين لمصادرة أموال الشقى المقتول وحواصله ، والتحفظ على كافة أملاكه لبيعها فيما بعد .

وقد شكر الفقراء والضعفاء للسردار الأكرم صنيعه بهم ؛ إذ خلصهم من ذلك الشقى الملعون ، ودعوا له وللسلطنة السنية بالخير .

وبعد أن بقينا مع السردار الأكرم يومين لاستئصال شأفة الشقى المذكور، نزلنا بقرية (صاريلر) على مسافة خمس ساعات ، وانتقلنا منها إلى قصبة (كيوه) على ست ساعات ، ومنها إلى قصبة (صبانجى) على تسع ساعات ، ثم طوينا المنازل وقطعنا المراحل ، فانتهينا إلى صدر (أزنكميد) على مسافة خمس ساعات . استقبل رجائى خليل زاده ـ الدفتر دار السابق ـ الجيش الهمايونى ، واستقبله كذلك سيد محمد أفندى كتخدا بابه فى صدر (أزنكميد) وشرف الاثنان بتقبيل ذيل ثوب ولى نعمتهما وصاحب الفضل عليهما ، [٢٤٨-ا] وطار خلق كثير لاستقبال الجيش

الهمايونى بصدر ازنكميد تلك ، وسروا جميعا بلثم ذيل حضرة الســـــردار الأكرم.

وبعد أن لبثنا مع السردار الأكرم يومين بذلك المكان ، رحلنـــــا إلى (هركه) على مسافة أربع ساعات ونصـــف ، ثـــم غادرناهـــا إلـــى صحراء (مالدبه) على مسافة أربع ساعات ونصف .

وبما أن استقبال القائمقام باشا لحضرة السردار الأكـــرم وكافـــة رجال الدولة العلية بعد أن أقاموا أياما عدة بـــ (مال دبه) ، وتوصيلـــه لهم فى موكب عظيم حافل إلى ميناء (اسكدار) الكبير وركوبهم جميعـــا البحر من ذلك الميناء ، وإطلاق المدافع إطلاقا غير مسبوق المثال احتفاء بعودة حضرة السردار الأكرم، وكيفية دخوله إلى الحضرة العلية للخليفـــة الأعظم واحتفائه به وتلطفه معه ، بما أن كل ذلـــك مـــدون علـــى وجـــه التفصيل فى سجل وقائع الدولة العلية ، فقد سكتنا عن تفصيلات الوقـــائع المذكورة .

وبعد أن انتهت ملحمة رسالتنا فى هذا الموضع ، شـــرعنا فـــى خاتمتها فى الترجمة لوزراء الجيش الهمايونى ورجاله . [٢٤٨-ب]

وفـــقنا الله تعالى لإتمامها بحرمة طه ويس .

الخــــــاتمة

وحديثنا فى هــذه الخاتمــة عــن تراجـم الـوزراء العظمــاء والميرميران الكرام أولا، ورجال الدولة ذوى الاحترام ثانيا .

الحاج إبراهيم باشا

من ضواحى حلب ، نشأ فى طائفة (أغوات الأندرون) ، لحــق بخدمة الوزراء العظام فى الألوية القصية ، ففضل أقرانه وطالهم ، وفــى النهاية خرج للحج كأغا قطار فى إمارة المرحوم محمد باشا العظم ، ولـذا اشتهر بالحاج إبراهيم (أغا القطار) ، ولدى عودته ، قدم حلب الشهباء، واستقر بها ، وفى هذه الأثناء حدث أن نفى (چلبــى أفنــدى)ــ كبـير أعيان حلب الشهباء ــ إلى قبرص ، فصفا الجو لإبراهيم باشا وخلت لــه الساحة، فدخل المحكمة والديوان وحظى بمنزلة عظيمة بيــن الوجـهاء والأعيان ، وأخذ القدر يسوق له الفرص حتى نبه ذكره وذهب له صيــت بعيد .

وبسبب من استقامته ونزاهته في مباشرته لأعماله ، وتفانيــه فى خدمه الدولة والولاة على حد سواء ، أسندت إليه (محصلية حلــب) وقائمقاميتها على التوالى ، فصار منقطع النظير ، ليس فى حلب فحسـب بل فيما جاورها من بلاد. ومن بعد ، حينما اقتضت الصرورة تعيين وال لدمشق إبان استيلاء الفرنسيين على مصر ، نال إبراهيــم باشــا رتبــة وزير، ولم يمض طويل زمن حتى خلع من الــوزارة ، [٢٤٩-١] ثــم

أعيد إليها من جديد دون أن يمضى وقت طويل . وبعد حين من الزمن قدم الجيش الهمايونى .

ولما كنا قد بينا آنفا على وجه التفصيل خروجه إلى مصر مع الجيش الهمايوني وبعضا مما كلف به من مهام ، وعودته أدراجه إلى حلب الشهباء فى معية الجيش الهمايونى ؛ اكتفينا بهذا القدر من ترجمته.

شيخ زاده إبراهيم باشا

حفيد الشيخ يوسف أفندى ــ أحد كبار المشايخ والأولياء بديار بكر ــ والابن الرشيد لإسماعيل أغا عين ديارها . بعد أن لحق والده بالرفيق الأعلى ، صارت له الصدارة على الأعيان والأقران ، وأصبح يشار إليه بالبنان ، وفى الوقت الذى كان الجميع فيه يغبطونه على منزلته حتى ليرجع إليه الوزراء العظام الذين يأتون إلى الولاية ، لم يدرك قيمة راحة البال ، وتاقت نفسه إلى حمل عبء الوزارة الثقيل ، فسعى للوصول إليها ، وتقلد أولا قائمقامية الرقة ، ثم نال رتبة الوزارة ، وبعد فترة صار محافظا على أنطاكية .

وحينما كان الجيش الهمايونى فى طريقه إلى دمشق ، أسند إليه السردار الأكرم ولاية ديار بكر، ثم كلفه بالالتحاق بالجيش الهمايونى .

ولما كان به شىء من التوانى والتثاقل ، فقد أسندت إليه ولاية (جدة) . ولما كنا قد استفضنا فى ذكر كيفية انفضاض جنده من حوله، [٢٤٩-ب] وقدومه الجيش الهمايونى ، ومصاحبته له فى الزحف على

مصر ، وتوليه ولاية (أدنه) ، وخلعه من الوزارة ورحيلـــه وتقـاعده ببيته ، اكتفينا بهذا القدر ولم نركن إلى الإسهاب .

والجدير بالذكر أن المشار إليه ، كان وزيرا ، كاتبا ، شـاعرا ، منقطع النظير ، الملقب بـ (حفيد) فى ديوانه الذى يلقى قبـولا وذيوعـا بين الظرفاء .

شـــريف باشــــا

نجل المرحوم سليمان باشا والى جلدر . بعد وفاة والده أسـندت تلك الولاية إلى اسحق باشا ، وفى هذه الأثنـاء هـاجم شـريف باشـا وأتباعه من البكوات، التابعين له فى الولايـة وأتبـاع المرحـوم والـده (آخسخه) ، وحاصروا اسحق باشا وضيقوا عليه الخناق حتى طـردوه عنوة من الولاية وغلبوا هم عليها.

ومن بعد تشبث شريف باشا بالشـفاعة ، وبفضـل مسـاعدة الظروف له نال رتبة وزير بسهولة غير أنه جحد نعمة امتلاكه ولاية مثل آخسخه وتوليه عليها نحو عشر سنوات ، فصدرت منه بعض التصرفـات غير اللائقة والتى استنكرتها السلطنة السنية ؛ ومن ثم فى الوقت الـذى كان فيه السردار الأكرم باسطا حمايته ومهابته على ولاية أرضروم صدر أمر سلطانى قاطع بإسناد ولاية آدنه إلى شريف باشا وإلحاق ولاية جلـدر بأرضروم ، وإخراجه من آخسخه على أية حال، فخـرج إليـه السـردار الأكرم من أرضروم ونما نبأ ذلك إلى المشار إليه ، ففر أول الأمر ، ثـم منح الأمان ، [٢٥٠-١] وأرسل السردار الأكرم فى طلبه وأرسله إلـى

منصبه فى ولاية (آدنه) لتسيير دفة الإدارة بها ، ثم رحل إلـــى ولايـــة حلب .

وقد ذكرنا فيما تقدم ، كيف قدم دمشق وإلى أيـــن ســرت بـــه المقادير ؛ ولذا لن نخوض فى تفصيل ذلك هنا .

رجـــب باشـــــــــــا

هو نجل زاره لى زاده محمد باشا ، وفى الوقت الذى كان فيـــه المشار إليه راتبا البحر من محافظة (ودين) ، متوجـــــها إلـــى ولايـــة (سيواس) ، ولد له رجب هـــذا علـــى صفحـــة البحـــر ، ولـــذا لقـــب بـــ (رجب البحرى) .

وبعد وفاة والده نشأ وترعرع فى بلدة سيواس ، وفاق الأعيـــان والأقران فى الجود والكرم ،[٢٥٠-ب] وأرسل الرسائل غير مرة إلـــى السردار الأكرم يخطب وده ويتذلل إليه ، حتى لجأ إلى بابه وزعم إخلاصه له ، وعندما آلت الصدارة العظمى إلى السردار الأكـــرم ، التمـــس منـــح المذكور الوزارة ، فأجابه حضرة السلطان إلى ذلك ومنح رجب باشا رتبة وزير وأسند إليه إيالة سيواس .

وبعد بضعة أشهر من إقامته بـــها ، مضـــى للحـــاق بـــالجيش الهمايوني وصحبه إلى مصر . وحيث أننا أسلفنا ذكر عودته من مصـــر ، وخلعه من الوزارة وتقاعده فى (توقاد) ، اكتفينا بإجمـــال القـــول فـــى ترجمته .

الحاج محمد باشا

هو نجل المدعو (أبو مرق) متسلم غزة . بعد وفاة والده لحق بخدمة الحاج إبراهيم أمير الحج ، ولم يزل يحقق شهرة وينبه ذكره في مناصب أغوية العجم فى طريق الحج ، وأمانة الشعير ووكالة الخرج بالرها وآدنه ومرعش ، حتى صدر فرمان بالقضاء عليه [1]، فزحفت عليه حملة أخرجته من ماله وملابسه ، فاحتمى بباب السردار الأكرم عاريا حافيا وانخرط فى سلك عبيده ، فأكرمه وأظهر له بالغ الحفاوة وولاه أمانة الشعير ، ثم وكالة الخرج بأرضروم ، فضلا عن بعض المهام الجليلة الأخرى .

ولما تبوأ السردار الأكرم منصب الصدارة العظمى ظفر محمد باشا مجددا بأمانة الشعير ووكالة الخرج . [٢٥١-أ] ومن بعد عندما زحف الجيش الهمايونىعلى بلاد العرب ، عهدت إليه مجددا المهام المتقدم ذكرها ومضى فى معية الجيش الهمايونى . وفى منزل (جسر يعقوب) وبينما كان الجيش متجها من دمشق إلى يافا ، رقى عن جدارة واستحقاق إلى ميرميران ؛ وذلك بناء على استعداده الفطرى وإعجاب كل من السردار الأكرم ورجال الدولة كافة به على حد سواء.

وعندما فتحت قلعة العريش رقى إلى وزير . وكنا قد استفضنا فى ذكر منحه رتبتى ميرميران ووزير ، وما أسداه من خدمات للجيش الهمايونى ، وعليه رفعنا القلم فى هذا الباب .

١- لم يذكر المؤلف ما بدر من محمد باشا حتى صدر ذلك الفرمان ضده (المترجم) .

دكرمنجي زاده مصطفى باشا[1]

كان رئيس توفكجية المرحوم علوى باشا وأحد رجاله ، أسدى جليل الخدمات فى وزارته فأصبح كتخداه ، ومن بعد ونزولا على رغبة سيده المشار إليه نال رتبة وزير . ولما أعدم علوى باشا من بعد أسند إليه منصب مناسب لاستمالته ، ثم منح مرعش شريطة خروجه إلى مصر ، فمضى من الروملي إلى مرعش فى حشد من جنوده حسبما دعت المهمة التى كلف بها ، وبعد أن لبث بتلك القرية بضعة أيام لحق بالجيش الهمايونى فى يافا . [٢٥١-ب] ولما كانت تصرفاته وأحواله محل تقدير السردار الأكرم وإعجابه، فقد حظى منه بكل العطف والإحسان.

ولما كنا قد ذكرنا آنفا ما أظهره من ضروب البسالة إبان فتح قلعة العريش ، وكيفية استشهاده فى آخر الأمر عندما انفجرت به القلعة، اكتفينا بهذا القدر من ترجمته .

كان رحمه الله وزيرا ، شجاعا ، هماما ، وقورا .

١- تنطق بالتركية : داير منجي (المترجم)

فندق زاده حسين باشا

ولد بإحدى قرى (جوروم) لشخص يقال له (فندق أوغلـو) . عمل أول أمره بخدمة حرم مقداد باشا ، ثم انخرط فى سـلك (أغـوات الأندرون) فى أبواب الوزراء العظام ، إلى أن أصبح (جوقدارا) لعلـوى باشا ، ثم (سلاحدارا) لـ (شـنك زاده مصطفـى) باشـا ، وأثنـاء مأمورية الأخير فى (طاغلى) ، أبدى حسين باشا هذا قدرا من البسالة ، فالتمس له رتبة سير ميران . وبعد أن علا قدره بها ، نال رتبة وزير فـى زمن يسير .

ولما كان قد أسند إليه ولاية (آدنه) ـ إبان هجوم الفرنسـيين على مصر ـ شريطة المضى مع الجيش الهمايوني ، مضى مـن جهـة الروملي إلى جهة منصبه وصحبه حشد من جنده ، وبعد أن مكـث بـها بضعة أيام ، خرج سريعا للحاق بالجيش الهمايونى .[٢٥٢-١]

ولما كنا قد ذكرنا تفصيلا فيما تقدم لقاءه بـالجيش الـهمايوني وإصابته فى المعركة التى وقعت بمصر وما بدر منه من عنف لدى العودة إلى يافا ، ورحيله فى حشد من الرعاع والأوباش إلى جهة الرقة وديـار بكر لما أسندنا إليه ، وذكرنا كذلك إقدامه على البغـى والعـدوان وظلـم الناس بشكل غير مسبوق المثال ، وخلعه من ولاية ديار بكر لهذا السبب، والتحيل لاستدعائه إلى نواحى سيواس بحجة إسنادها إليه ، وتكليف طيار محمود باشا وكوسه مصطفى باشـا وعبـد الجبـار زاده سـليمان بـك باستئصال شأفته ، وانهزام جنده وتشتت شملهم بعـد بضـع مناوشـات وقعت بقرية (يكى خان) ، ووقوعه فى أسر فرسان عبد الجبـار زاده،

وإعمال السيف فى رقبته ، فقد ضربنا عنه صفحا فـــى هـذا الموضـــع تحاشيا للتكرار .

لقد كان وزيرا شجاعا ، جريئا ، منقطع النظير ، إلا أن قتله كان واجبا لإراحة البلاد والعباد .

نصـــــــوح باشا

من بنى العظم ، تولى عددا من الولايات فى بـادىء وزارتـــه . غير أنه لم يفلح فى كسب رضاء الدولة العلية ، فخلع من الوزارة وألــزم بالإقامة فى موضع مناسب وعندئذ ذهبت به بعض الظنون والـهواجس ـــ التى لم يكن لها أساس ـــ مذاهبها ففر إلى بلاد المغرب ، ثم لجـــأ إلـــى مصر . وفى هذه الأثناء غزاها الفرنسيون واستولوا عليها ، فاضطر إلى الفرار منها إلى الجزيرة العربية ، وفى اليوم الذى استظلت فــيه دمشــق بظـــلال الجـيش الهمايونــــى، [٢٥٢-ب] قدم نصوح باشـــا وعفــر الجبين على عتبة الصدارة العظمى ، فأسندت إليه ولاية مصر وأعيد إلـــى الوزارة .

وبعد أن عاد الجيش الهمايونى خائبا منكسرا ، بقى نصوح باشا مع كتخدا عثمان أفندى بمصر ، وخاض إلى جانبه معارك المقاومة التـــى وقعت ، غير أنه لم يكن من الأشخاص الذين يسدون ثلمه للدولة العلية ؛ ولذا خلع مجددا من الوزارة عند العودة إلى يافا ، وأحيل إلى التقاعد فـــى حلب الشهباء .

إسماعيل باشا

من أهالى (عربكير) . كان كتخدا المرحـــوم دكرمنجـــى زاده مصطفى باشا وعندما استشهد سيده أسندت الوزارة إلى كتخداه بإجمـــاع الآراء كيلا يتشتت شمل إدارته . ولما كنا قد ذكرنا فيما تقدم كيفية نيلـــه الوزارة ، وسائر أحواله ، فقد اكتفينا بهذا القدر مـــن ترجمتـــه تحاشـــيا للتكرار.

طوسون محمد باشا

كان أحد رؤساء الجبجية فى الجيش الهمايونى ، ولما كنـــا قـــد ذكرنا على وجه التفصيل كيف أسندت إليه ولاية جدة لمـــا دعـــى الأمـــر تنصيب وزير عليها وإرساله إليها ، [٢٥٣-١] وذكرنا كذلـــك مضيـــه لمباشرة مهام منصبه وما وقع له حتى لحق بالرفيق الأعلى ، اكتفينا بهذا القدر من سيرته .

حافظ باشا من (الميرميران)

من أهل أدرنه ، شغل زمنا منصب (أغا السلام) عنـــد ســـليم باشا ، ثم أصبح ميرميرانا فى البوسنة ، وبعد أن جابها بضعـــة أيـــام ، التقى بالجيش الهمايوني فى قونيه ، فأنفذ إلى مصر فى عدد من خدمه .

عمل المذكور بالجيش (ثونا قجيا) ، حينـــا ، و (يســاقجيا) حينا آخر ، ولدى عودة الجيش الهمايونى عين محافظا على الرحمانية ؛ ومن ثم لم يتأت له اللحاق بالجيش الهمايونى . وهو إلى الآن قائما فـــى منصبه .

رشوان زاده سيد عبد الرحمن باشا
من الميرميران

هو حفيد عمر باشا ــ من بنــى رشــوان ــ إحــدى العــائلات العريقة التى استحوذت على الوزارة والإمارة فى الدولة العلية منذ أربعـة قرون من الزمان ، اصطفاه السردار الأكرم حينما كان قائما بأمر المناجم الهمايونية من بين أمراء بنى رشوان ، [٢٥٣-ب] وتوسط لــه لــدى الباب العالى حتى منح رتبة مير ميران ، فضلا عن تعيينه علــى قضــاء (بهسنى) وما يليه ، ولم يكن يرفض له طلب .

ولما كنا قد ذكرنا آنفا قدوم المشار إليه بقدر من صفوة المشــاة والفرسان لمؤازرة الجيش الهمايونى عندما عــاد مــن مصــر منكســرا ودخوله إليها ثانية ، ثم عودته إلى داره مستأذنا ، وذكرنا جميع أحوالــه وما وقع له ؛ لم نبال بتكرار تلك التفاصيل .

طاهر باشا وقلندر باشا (من الميرميران)

لما كانت أحوال المشار إليهما ووقائعهما في الجيش الهمايوني- قبل وبعد منحهما رتبة (ميرميران) - في غني عن التفصيل والبيان؛ فقد رفعنا القلم في هذا الباب .

وحتى هذا الموضع أوردنا جملة وتفصيلا تراجم الوزراء العظام والمير ميران الكرام ، ومن بعد ذلك سوف يكون حديثنا عن تراجم أحوال رجال الدولة العلية على قدر وقوفنا عليها .

عثمان أفندي كتخدا الصدر الأعظم

هو ابن المرحوم موره لي سليمان أفندي ، لشغف والده بالعلم والمعرفة حض ابنه على تحصيل شتى العلوم ورغبه في ذلك ، فصار - وبحق - سعد الدين التفتازاني الثاني وأصبح له ما للعلامة شريف الجرجاني من فضل . [٢٥٤-١] عمل المذكور بقلم مكتوبي الدفتردار وجد في ذلك واجتهد حتى صار في زمن يسير قدوة أصحاب القلم وزبدة أرباب القلم ؛ ومن ثم أسندت إليه عن جدارة واستحقاق وظائف جليلة عدة ، منها مثلا وظيفة مكتوبي الدفتردار وكاتب الكتخدا . كما قلد أمانة الترسانة حينا ، ففاق أقرانه وأصبح ملء السمع والبصر، يشار إليه بالبنان بين رجال الدولة .ظل فترة قابعا بداره السعيد عاطلا ، حتى آل منصب الصدارة العظمى إلى السردار الأكرم ، فأنكر إقامته في بيته عاطلا في زمن صدارته ، ورفع قدره برئاسة الشا ويشية .

وبما أننا استفضنا فيما تقدم فى ذكر توليه منصب كتخدا الصدر الأعظم ورحيله مع الجيش الهمايونى إلى مصر ، وذكرنا كذلك كافة أحواله أثناء تلك الرحلة وعودته إلى الباب العالى بعد أن استأذن الصدر الأعظم ، ثم رجوعه إلى مصر وتوليه منصب كتخدا من جديد ، اكتفينا بهذا القدر من ترجمته .

كان الأفندى المشار إليه وبحق من أساطين رجال الدولة العلية، نأمل ألا نكون قد بخسناه حقه.

رشيد مصطفى أفندى

هو صهر الصدر السابق أمين باشا رحمه الله الذى اشتهر بـ (چلبى أفندى) . بعد أن لحق بزمرة سادة الديوان العالى تولى عددا من المناصب ، مثل كاتب الكتخدا ،[٢٥٤-ب] كما تقلد منصب كتخدا الصدر الأعظم .

ولما ظهر إخلاصه وسداده فيما كلف به من مهام ، وحازت تصرفاته رضاء السلطان ، قلد بإجماع آراء مريدى الخير من رجال الدولة منصب دفتر دار الصدر الجديد ، ولم يزل يبذل السعى فى القيام بمهام منصبه حتى رحل الجيش الهمايونى قاصدا مصر ، فمضى معه وتفانى فى الاضطلاع بما عهد إليه من مهام .

وبعد أن عاد الجيش إلى يافا مهزوما نالت المذكور شدة ، عاد على إثرها إلى الآستانة بعد أن استأذن الصدر الأعظم ، فقضى هناك بضعة أيام مسترسلا فى تفكيره . وفيما كان عاقدا العزم على اللحاق

بالجيش الهمايونى من جديد ، إذ بالأمر يقتضى استبقائه بالآستانة لتقليده منصب مرموق ، أفاض عليه السلطان من سوابغ أفضاله كيلا يناله مـــا ناله من مشقة وعناء فى رحلته إلى بلاد العرب .[٢٥٥-١]

كان رشيد أفندى رجلا حميد السجايا ، كريم الخصـــال ، ألمعـــى الذهن ، مشرق النفس ، حسن الظن بكل الناس ، رحيما بهم .

راسخ أفندى

من أهل استانبول ، لا علم لنا بـــأوائل أحوالـــه ، منـــح رتبـــة ميرميران إبان ذهابه إلى روسيا سفيرا على أن يجرد منها لدى عودتـــه ، اضطلع بمهمة السفارة وعند عودته إلى الباب العالى أسندت إليه بعـــض المناصب الرفيعة . وفى النهاية عندما اعتزم الجيش الهمايونى الخـــروج إلى مصر قلد رئاسة الكتاب . ولما كنا قد ذكرنا آنفا كيفية ذهابـــه مـــع الجيش الهمايونى وسائر أعماله وأحواله ، اكتفينا بهذا القدر الموجز مـــن ترجمته .

كان المذكور شخصا حميد السجايا ، حاضر البديهة ، حصيـــف الرأى .

سعد الله أفندى

دعت الضرورة تقليد شخصين آخرين منصبى الاستيفاء ورئاسة الكتاب اللذين كانا قد شغرا بعودة رشيد أفندى وراسخ افندى إلى الآستانة

بعد أن استأذنا الصدر الأعظم ، [٢٥٥-ب] فأرسل سعد الله أفندى لتولى منصب الاستيفاء .

كان المذكور قد نشأ فى قلم مكتوبى الدفتردار ، كما كان قد ظفر بمنصب (كاتب العربجية) بعد أن أصبح مكتوبى الدفتر دار منذ فترة طويلة ، وبعد أن تولى كتخدا عثمان أفندى الدفتردارية عدة أيام فى يافا، اعتزم الرحيل إلى الآستانة ، وعندئذ آل منصب (مكتوبى دفتردار الصدر العالى) إلى رجائى خليل أفندى ، ونال سعد الله أفندى منصب كتخدا الصدارة العظمى ، غير أنه عزل من منصبه بعد أن دخل مصر فى معية الجيش الهمايونى عندما قلد عثمان أفندى (الكتخداوية) من قبل السلطان ، فركب سعد الله أفندى البحر عائدا إلى الآستانة ولزم داره .

ولما كان المشار إليه رجلا ذا عفة ونزاهة ، فقد تأتى له أن يصل أسباب الود والصداقة بكل الأشخاص زمن اضطلاعه بالكتخداوية والاستيفاء .

محمود رائف أفندى رئيس الكتَّاب

ولد باستانبول . اكتسب معرفة وخبرة فى إدارة المكتوبى ، ففاق أقرانه وبسق عليهم ولما اتفقت آراء أولى العقل على إرسال سفراء أكفاء من أهل الفطانة والذكاء للوقوف على أحوال أوربا ، أرسل محمود رائف أفندى سفيرا للدولة العلية بإنجلترا . [٢٥٦-١] وفى فترة مكثه بها والتى قاربت ثلاث سنوات ، لم يأل جهدا فى تعلم مختلف اللغات الأوربية ، وبذل فى ذلك جهدا جهيدا ، كما توفر على دراسة تواريخ

الإنجليز وسائر تقاليدهم ، وتأتى له الوقوف على أمورهم كافة وأمور دول أوربا وأحاط علما بخفاياها ، وخبر حيل الأوربيين ومكائدهم .
ولما كان الجميع يشهد له بذلك ، فإنه لدى عودته من تلك السفارة ، أسندت إليه نظارة الأسطول الهمايونى عندما لزم إرساله إلى (كورفو) على إثر غزو الفرنسيين لمصر .

وعندما عاد محمود رائف أفندى إلى الآستانة بعد فتح (كورفو) ، أسند إليه منصب (بكلكجى) مكافأة له على ما أسداه من خدمات للدولة . وبعد أيام من ذلك اقتضى الأمر تعيين شخص خبير بمنصب رئاسة الكتاب الذى شغر بعد عودة راسخ أفندى رئيس الكتاب من يافا . ولما كان محمود أفندى ـ على نحو ما أسلفنا تفصيله ـ واقفا على دقائق أحوال دول أوربا ، كانت له الجدارة والأولوية دون غيره بشغل ذلك المنصب ؛ ولذا صدرت الأوامر السلطانية برفع منزلته بمنصب رئاسة الكتاب ، وهو منصب تتعلق به آمال الكتاب وتتوق نفوسهم إليه .
[٢٥٦-ب]

وقد بذل المشار إليه قصارى جهده فيما نيط به من مهام ، ودخل مصر مع الجيش الهمايونى وباشر تسوية بنود اتفاق جلاء الفرنسيين عنها بما يتفق و مصلحة الدولة والدين . وعندما عاد الجيش من مصر استبقى بها كتخدا عثمان أفندى بأمر السلطان ؛ ومن ثم ألحقت وكالة الكتخداوية برئاسة محمود رائف أفندى ريثما يصل إلى استانبول ، ومن بعد رجوعه إلى الآستانة صدرت الأوامر السلطانية بتثبيته فى منصب رئاسة الكتاب عن جدارة واستحقاق ، فأجل قدره ، وأعلى شأنه .

خليل رجائى أفندى

تحدر من سلالة الشيخ علوان نجل عاشق باشا ـ من الأولياء العظام المدفونين بقرية تعرف بقرية (تكية علوان جلبى) فى لواء أماسيا ، وكانت ولاية الأوقاف حكرا على أولاد عاشق باشا ، وقد انتقلت فيهم من بطن إلى بطن حتى أفضت إلى والد رجائى أفندى ، وبعد وفاته آلت إليه هو ، وهذا هو عمدة السبب فى أن آبائه وأجداده ـ منذ فترة من الزمان ـ وهم يعرفون فى تلك النواحى بـ(آل المتولى) .

وفى النهاية نزعت الولاية من أسرته ، [٢٥٧-١] فزايل والده وطنه لبعض الأسباب ،ونزح إلى استانبول ومات بها بعد بضع سنوات ، وكان رجائى أفندى آنذاك لا يزال طفلا فى العاشرة من العمر . وعندما ضاق العيش بأمه فى الآستانة ، اصطحبت أطفالها وعادت بهم إلى القرية المذكورة موطنهم الأصلى .

وكان رجائى قد استوفى زمنا طويلا فى خدمة أحد العلماء الأفاضل ودرس يديه ، فحذق عنه الكتابة والإنشاء ، ثم مشى فى ركاب فيضى سليمان أفندى وهو من كبار رجال الدولة ، فقلده منصب (كاتب الخزانة) لما منح رتبة وزير .

ولما خلع فيضىٌ من الوزارة ، قدم رجائى أفندى الآستانة وعمل فى باب لاله محمود بك ، وانتفع من مصاحبته له انتفاعا عظيما . ولما أفل نجم حياة محمود بك ولحق بالرفيق الأعلى ، لازم رجائى أفندى قلم المكتوبى واشتهر بحسن خطه ، فعلا قدره وزاد اعتباره .

ثم اتجه المذكور صوب المناجم الهمايونية مكلفا ببعض المهام ، ولما كان السردار الأكرم قائما بأمرها آنذاك ، فإنه لحسن حظ رجائى أفندى وسعد طالعه ، ارتبط بالسردار الأكرم ـ حاتمى الكرم ـ وفى نهاية المهام المكلف بها ، رغب السردار الأكرم فى أن قلده منصب (كاتب الديوان) ، ففارقه رجائى أفندى ، [٢٥٧-ب] على أن يمضى إلى الآستانة ويعود أدراجه سريعا .

وبعد بضعة أشهر قدم رجائى (أرضروم) ونهض بمنصب (كاتب الديوان) ، ولازم السردار الأكرم فى عملياته العسكرية فى أرضروم وآخسخه وجانكلر ، وفى تلك الغضون ولى منصب (وكيل الكتخدا) غير مرة ولم ينفك ساعيا فى إنجاز ما يكلف به من مهام . وفى النهاية عندما آل منصب الصدارة العظمى إلى السردار الأكرم قدم رجائى أفندى الآستانة فى معيته ، وحدث أن بدر منه من الأحوال ما أثار حفيظة السردار الأكرم وأسخطه عليه . وفى الوقت الذى كان ينتظر فيه أن يسند إليه منصبا رفيعا ، عهد إليه بـ (كتابة السفن) المسماة (قليون) حطا من قدره ونيلا من منزلته .

وفى هذه الأثناء التمس صادق أفندى ـ مكتوبى الصدر العالى ـ تعيين رجائى أفندى فى منصب (باش خليفة) وذلك إبان مضى الجيش الهمايونى إلى جهة مصر ، فما كان من السردار الأكرم إلا أن رفض ذلك رفضا باتا ، إلا أنه اضطر على إثر إلحاح الحاج صادق أفندى فى طلبه إلى إجابة ذلك الطلب ، ومضى رجائى أفندى إلى الجيش الهمايونى فى منصب (باش خليفة) .

ولما توفى صادق أفندى عند وصوله إلى دمشق ، لم يكن بين (الخلفاء) الموجودين فى قلم المكتوبى من هو أحق وأجدر من رجائى أفندى للقيام بمهمة المكتوبى الجسيمة . [٢٥٨-أ] ولما أظهر رجال الدولة الصدر الوقور على ذلك واقترحوا عليه تقليد رجائى أفندى منصب المكتوبى أجابهم إلى ذلك .

ونهض رجائى أفندى بما كلف به من مهام على خير وجه زمن رحيل الجيش إلى مصر وعودته منها وزمن إقامته بيافا ، ولم يؤخذ عليه أى مأخذ ؛ ولذا أسند إليه منصب (الاستيفاء) الذى كان قد شغر عندما عزل سعد الله أفندى من الدفتردارية ، وقلد كتخداوية الصدر الأعظم رجائى أفندى بإجماع آراء رجال الدولة .

ولقد عانى المذكور الأمرين فى تسيير أمور منصبه ، وما من سبيل إلى إنكار ما بذله من سعى مشكور وتفان ــ على الأخص ــ حينما خرج الجيش الهمايونى قاصدا مصر ، ولما قدر له دخولها بعد ما جرى له من خطوب عظيمة بسبب تعديات الجند .

ولما كانت كافة إيرادات مصر متركزة فى يد دفتردارها ، فقد تحصل له أموال طائلة فى زمن يسير ، واستشاط فى جباية الضرائب ؛ مما أوغر صدور أهالى البلاد وأثار سخطهم عليه .

وفضلا عن فتور العلاقة بينه وبين الجند بسبب تأخر رواتبهم ومستحقاتها ، اشتد عليه حنق السردار الأكرم ، فعزله من الدفتردارية قبل خروج الجيش الهمايونى من مصر ، [٢٥٨-ب] وأذن له بالعودة بحرا إلى الآستانة ، فوافاها المذكور ، وقبع بدار أعدها لتوه .

وبعد أن وصل السردار الأكرم إلى الآستانة بالجيش الهمايونى ، أحصى على رجائى أفندى عددا من المآخذ مما حدا بـــه وبكافـــة أركـــان الدولة إلى السعى لعزله من دفتردارية مصر بعد أن صدر أمر همـــايونى بتوليته إياها من جديد ، غير أن مساعيهم قد حبطت ، ومضـــى رجـــائى أفندى إلى مصر بحرا .

واستشهد الأفندى المذكور على أيدى عصاه الجند بتحريض مـــن أمراء المماليك المصريين الفراعنة ، وذلك بعد خروج خسرو باشا مـــن القاهرة على أثر الفتنة العظيمة التى اشتعلت بسبب نزاعه مع الجند علـــى رواتبهم المتأخرة .

والواقع أنه ليس لأى أحد أن ينكر ما كان لرجائى أفنـــدى مـــن سعة كرم ، وهو وإن لم يكن ذا حظ من العلم والمعرفة ، فقد فاق أقرانه وفضلهم فى الكتابة والإنشاء ، وكان يسهر ساعيا فى أداء ما يكلف بـــه من مهام ، وكان جديرا بالاضطلاع بأى مهمـــة تعـــهد إليـــه ، غـــير أن المذكور لم تكن تأخذه شفقة بمن تحت سلطته من الفقـــراء والبســـطاء ، فتسبب فى ضيق الحال بهم وإقلاق راحتهم بحجة صيانـــة بيـــت المـــال والحفاظ على المال الميرى .

كما كان المذكور سيىء الاعتقاد بالمتصوفة وأهل الحال ، رغـــم أنه كان فى الأصل من بيت مشايخ وأوليـــاء ، [٢٥٩-١] ممـــا أثـــار نقمتهم عليه وكان سببا فى هلاكه . تجاوز الله عن زلاته وسيئاته .

تحسين أفندى

ولد باستانبول ، عمل بقلم (رئاسة المحاسبة) حتى أصبح قدوة أرباب القلم وإمام أصحاب الرقم . وعندما خرج مع الجيش الهمايونى إلى مصر ، حسن سمته فى وظيفة (كيسه دار) دفتردار أول رشيد مصطفى أفندى ، وبعد أن تقلد (وكالة الاستيفاء) بضعة أيام عاد إلى الآستانة مستأذنا ، وبعد أن دخل الجيش الهمايونى مصر ثانية صدرت الأوامر بإسناد دفتردارية مصر إلى شريف أفندى، فأنفذ فى معيته تحسين أفندى (دفتر دار ثان) وظل مضطلعا بمنصبه هذا فى مصر حتى عزل رجائى أفندى ، فأحيل منصب الدفتردارية الشاغر إلى عهدته .

وقد خرج المذكور مع الجيش الهمايونى إلى الآستانة ، ولما بلغها ثبت فى منصب (الاستيفاء) ، ثم عزل بعد فترة ليتولى نظارة الحبوب .

إنه رجل دمث الخلق ، عالى الهمة ، سريع القلم ، يبر الفقراء والمشايخ ويكرمهم.

صادق أفندى المكتوبى

لما كنا قد تعرضنا لترجمته فى ذكر وفاته بدمشق ، لم يعد بنا من حاجة إلى تكرارها .

حميد أفندى المكتوبى

كان من خلفاء المكتوبى ، ولما كان رئيسا لخلفائه فـــى زمـــن دفتردارية رجائى أفندى ، نال عن جدارة واستحقاق منصب المكتوبـــى الذى شغر ، ولازم الجيش الهمايونى فى رحلته إلى مصر وعودته منـــها وأظهر ضروبا من الإخلاص والتفانى . [٢٥٩-ب] ولما انتهى الجيـش إلى الآستانة ، عزل من المكتوبية ، وقلد منصب (تذكرجى ثان) .

إنه رجل قويم الخلق ، تقى ، زاهد ، ورع .

عبد الشكور أفندى

هو ابن راسخ أفندى رئيس الكتاب ، عمل فى قلـــم المكتوبـــى ورحل مع الجيش الهمايونى تشريفاتيا ، وعندما عاد والده إلى الآستانة ، رافقه مستأذنا ، فآل منصب التشريفاتى إلى سيد سالم أفندى .

سيد سالم أفندى

كان والده رجلا تقيا ورعا يدعـــى (آدنـــوى) أفنـــدى ـــ مـــن أصحاب الكرامات ـــ وهو معلم رئيس الكتاب السابق (بـــرى عبـــد الله) أفندى ، وحينما كان سيد أفندى طفلا فى الثامنة من عمره ، توفى والـــده فتولى (عبد الله أفندى) تربيته كرامة لأستاذه ورعاية لحقوقه عليـــه ، فلقنه العلم والمعرفة ، وعلمه الإنشـــاء والكتابـــة وجعلـــه يـــلازم قلـــم

المكتوبى. وبسبب من ذكائه الحاد وطموحه انصرف عن قلم المكتوبى ، وطاف بين إدارات الباشا مشتغلا بالكتابة ، فمضى إلى طرابلس الشام كاتبا لديوان موسى باشا ، وشاءت الأقدار أن يفارق المذكور بعد فترة قصيرة ، ليصل أسبابه بأسباب السردار الأكرم فى أرضروم ، ويمشى فى ركابه .

وفى زمن اضطلاعه بالكتابة فى بابه لأكثر من عام ، حدث أن آلت الصدارة العظمى إلى السردار الأكرم ، فرافقه إلى الآستانة ، وألحق بزمرة (سادة الديوان) .[٢٦٠-١]

وقد خرج سيد سالم أفندى مع الجيش الهمايونى إلى مصر ، ولما رجع إلى الآستانة فى مهمة وعاد أدراجه إلى الجيش الهمايونى ، صدر أمر بتقليده منصب (تشريفاتى) الذى كان قد شغر بعودة عبد الشكور أفندى إلى الآستانة ، غير أنه بسبب ما اعتراه من ضعف وهزل لم يقو على السفر فى صحارى يافا ؛ ولذا عزل من منصبه بعد أشهر ، وأذن له بالعودة إلى الآستانة ، فآل منصب التشريفاتى إلى عبدى بك كاتب الكتخدا .

عبدى بك كاتب الكتخدا

هو نجل المرحوم نورى بك ، اكتسب الخبرة والدراية فى قلم المكتوبى وصار له باع طويل فى فن الإنشاء . قلد غير مرة عدد من المناصب مثل كاتب الكتخدا والتشريفاتى ، وفى النهاية صحب الجيش الهمايونى إلى مصر كاتبا للكتخدا ، ولما عزل سيد سالم أفندى — على نحو ما تقدم ذكره — أسند إليه منصب (تشريفاتى) فى يافا إلحاقا ، ثم جرد فيما بعد من ذلك المنصب ، وقلد منصب كاتب الكتخدا فحسب . وبعد

عدة أشهر عزلت أنا نامق هذه الحروف مـن منصـب (تشـريفاتى) ، وألحق هذا المنصب من جديد بعهدة عبدى بك . وقد تقدم ذكر عودته إلى الآستانة متقلدا منصب (تشريفاتى) و (كاتب الكتخدا) .

إنه رجل كريم الخصال ، [٢٦٠-ب] جواد .

خليل ماهر مولوى أفندى

وصف بكمال معرفته وحنكته فى قلم المكتوبى واشتهر بوفـرة سهمه من الفنون والعلوم ، منح رتبة الأفنديـة إبـان خـروج الجيـش الهمايونى إلى مصر ، فصحبه ضمن كتاب (قلم المكتوبى) ، ولما توفـى سيد صادق أفندى أفضى منصب (المكتوبى) إلى رجائى أفندى ، وصار خليل أفندى (باش خليفة) ؛ وبعد أيام ظفر بمنصب (كاتب الجبجيـة) فى يافا ، ثم صار أفندى للانكشارية .

ولما توفى بليغ أفندى الـ (آمدجى) بمصر ، وقع الاختيار على خليـل أفندى ليخلفه فى منصبه فعاد إلى الآستانة متقلدا ذلك المنصب ، ثم تقاعد من بعد وقبع فى داره .

إنه شخص كريم ، عارف ، زاهد ، متدين ، ورع .

صفى أفندى الـ (البكلكجى)

ولد باستانبول ، اكتسب الخبرة والمهارة فـى قلـم الديـوان ، وصحب الجيش الهمايونى فى منصب (بكلكجى) فحسنت مباشرته وحاز

على رضاء أولى الأمر ، ثم عاد إلى الآستانة مع الجيش الهمايونى ، وثبت فى منصبه لحسن سيرته وسريرته وهو محل تقدير واحترام الجميع.

إنه رجل ممدوح الصفات ، كريم السمات .

تحسين أفندى رئيس وكلاء المكتوبى

هو الابن الرشيد لـ (ديوركلى يازيجى أحمد) أفندى ، نشأ فى قلم المكتوبى حتى صار له الباع الطويل فى الشعر والكتابة والإنشاء ففاق أقرانه وفضلهم .[٢٦١-١]

وبسبب قلة الكتاب وكثرة المهام والأعباء فيما كان الجيش الهمايونى مرابطا فى يافا ، تم استدعاء عدد من الكتاب من الباب العالى ، فسير تحسين أفندى هذا إلى الجيش الهمايونى ، ومعه واحد أو اثنين من الكتاب .

ولما أصبح حميد أفندى مكتوبيا ، ظفر تحسين أفندى بمنصب (باش خليفة) ، فاستفرغ الوسع فى خدمة الجيش الهمايونى ، وباشر مهام منصبه على خير وجه ، وعاد إلى الآستانة بصحبة الجيش الهمايونى ، ولا يزال يبين عن الجد والتفان فى منصبه حتى الآن . إنه رجل متقد الذكاء، راجح العقل ، صحيح الفهم .

رامز عبد الله أفندى

من أهل القرم ومن علماء ديارها ، نزح إلى الآستانة لما احتلت المنطقة المذكورة ، واشتغل بالعلوم العقلية والنقلية واكتسب فضلا وكمالا. وعندما زحف الجيش الهمايونى إلى مصر ، صار نائبا للمعسكر ، فأظهر تفانيا وسدادا واستقامة فى أداء مهام منصبه . وكان يسترشد فى عمله بأحكام الشرع الشريف ولما أرسل السلطان المدعو(حسن أفندى) قاضيا للجيش ، وكان به شيئا من تعصب ، صحبه رامز أفندى وصدرت بعض التصرفات الخرقاء عن حسن أفندى هذا ، بسببها عزل من قضاء مصر الذى كان قد وليه بعد دخول الجيش إلى مصر ، وبعد أن استنيب الحاج قدسى أفندى نحو ثلاثين يوما ، ولى رامز أفندى هذا منصب (قاضى مصر) ،[٢٦١-ب] وضم إليه منصب (كاتب الميرى) ، ومن بعد عندما ظهر قاضى مصر ثانية ، قنع رامز أفندى بكتابة الميرى، وعاد مع الجيش الهمايونى إلى الآستانة .

ولما انتهى المذكور إليها استنكف عن العمل بسلك التدريس والتمس الدخول فى زمرة (سادة الديوان) ، فأجيب إلى ذلك وأسندت إليه روزنامجه مصر ، وأرسل إليها مع خليل رجائى أفندى ــ فحلت به المصائب بدرجة فاقت ما حل بسيد على ــ قبودان السويس الشهير ــ وبعد مشقة وعناء عاد إلى الآستانة حافيا عاريا ، وحمد الله على نجاته بجلده .

إنه رجل فاضل ، معروف برشده وسداده وحسن استعداده وتضلعه في شتى العلوم .

أحمد أغا (أغا الإنكشارية)

خرج من الآستانة مع عمر أغا ــ أغا الإنكشارية ــ ولما منح الثاني ــ على النحو المتقدم بيانه المير ميرانية ، شريطة تولية محافظة العريش ــ آلت أغوية الإنكشارية إلى كتخدا العبيد أحمد أغا وكنا قد بسطنا القول في مير ميرانية عمر باشا وكيفية وفاته .

وقد بذل أحمد أغا كذلك قصارى جهده في مباشرة مهام منصبه، وعندما عزم الجيش الهمايوني على العودة برا ، سمح لأحمد أغا بالرحيل بحرا ومعه كافة كتائبه ، فركب البحر ووافى استانبول حيث خلد إلى الراحة بجوسق (تكه لى) .

كان رجلا دمث الخلق ، أهل تدين وعفة وزهد .[٢٦٢-ا]

عثمان بك رئيس الجبجية

عندما نال طوسون باشا رتبة وزير ، بوأ عثمان بك ــ من رؤساء بوابي الباب العالي ــ رئاسة الجبجية ، فبذل السعي الوفير في الاضطلاع بمهام منصبه، ولدى عودة الجيش الهمايوني ، عاد معه إلى الآستانة في صحبة فرق الجبجية وسائر الفرق العسكرية .

حسن أغا أمين النزل

من أهل (سلانيك) ، شاء القدر أن يستقر بالآستانة ، فحظى بمنزلة وحرمة برتبة رئيس بوابين فى الباب العالى ، أخذ على عاتقه بعض المسئوليات الجسام ، وخدم الدولة العلية واكتسب شهرة باضطلاعه ببعض المهام الصعبة والشاقة منها على سبيل المثال جمرك استانبول. وإبان رحيل الجيش الهمايونى إلى مصر ، تحتم تعيين شخص أمينا للنزل على أن يكون حى الضمير ومن أولى الثراء والسعة ، فصدر الأمر بتقليد عثمان بك ذلك المنصب ، فأظهر إخلاصا وتفانيا وهمة عالية فى أداء مهام منصبه ، وتولى تدبير ميرة الجيش الهمايونى دون تقصير.

وفضلا عن ذلك ، عندما أسندت إيالة دمشق إلى عبد الله باشا العظم ، عين حسن أغا قائمقاما لدمشق علاوة على منصبه وذلك لتدبير أمور الجيش الهمايونى ريثما يصل عبد الله باشا . وحينما خرج الجيش الهمايونى إلى مصر ولحقت الهزيمة به ، أرسل حسن بك إليها ضمن طلائع الجند ، ولما دخل كتخدا عثمان أفندى ـ على النحو السالف بيانه ـ مصر ، مضى إليه حسن أغا المرابط بها أساسا وسانده في أمور شتى وأبرز بسالة فيما نشب من معارك . وفى النهاية بعد أن عاد عثمان أفندى إلى يافا صحبه المذكور ، وكانت قد نالته شدة واعترته علل مختلفة من طول السفر ، فرق السردار الأكرم لحاله، وأذن له بالعودة إلى الآستانة ، فعاد إليها ولبث بداره مشتغلا بأمانة جمرك استانبول ثانية .

مصطفى بك أمين النزل

ولد بـ (آخسخه) . ولما كان والده من أهل الآستانة ، فقد قدمها فى شرخ شبابه ، وبعد وفاة والده ، علت منزلته وارتفع شأنه برتبة (سلاحشور) ، ثم رتبة (رئيس بوابين) فى الباب العالى ، وتقلب فى عدد من المناصب ، وفى النهاية تقلد كتخداوية باب عبد الجبار زاده سليمان بك متصرف (يوز اوق) ؛ ولذا اشتهر بـ (مصطفى بك كتخدا باب جبار زاده) ، وبعد أيام عزل مصطفى بك من منصبه لبعض الأسباب ، وحل محله (أوقاتى زاده سليمان بك) كتخدا لعبد الجبار زاده .

وفيما كان مصطفى بك يمضى وقته فى داره منشغلا بحاله ، عاد حسن أغا أمين النزل من الجيش الهمايونى إلى الآستانة مستأذنا ، فآلت أمانة النزل التى شغرت إلى (مصطفى بك) ، ومضى إلى يافا وأبان عن سداد وتفان فيما نيط به من مهام سواء فى زمن مكث الجيش الهمايونى بيافا أو إبان مضيه إلى مصر ودخولها ، وما أبداه من سعى مشكور فى سائر المهام لدى خروج الجيش الهمايونى من العريش إلى الصالحية كان محل تقدير الجميع .

وفى نهاية المطاف بعد أن دخل المذكور مصر فى معية الجيش الهمايونى ، نازعه حنين وشوق عظيمين لزيارة بيت الله الحرام ، فاستأذن فى الذهاب إلى البقاع المقدسة ، وأجيب إلى ذلك ، ونصب ازميرلى شريف باشا ــ من رؤساء بوابى الباب العالى ــ أمينا للنزل .

وفى التو والحال اتخذ مصطفى بك للسفر أهبته ، وركب البحـــر من ميناء القصير ، وكسب سعادة الدنيا وأحرز مثوبـــة الآخـــرة بزيـــارة الحرمين الشريفين ، ثم قفل راجعا إلى الآستانة مع حجـــاج الروملـــى ، ونزل بداره آمنا سالما ، وانشغل بالدعاء بدوام عمر السلطان ودولته .

كان شخصا حميد السجايا ، أمارا بالبر ، [٢٦٣-ب] ســـاعيا فى الشهامة والمروءة .

ولقد اكتفينا بإيراد هذا القدر من تراجم العظماء فى الخاتمـــة ، ورغم وجود الكثير والكثير من كرام سادة الديوان المعطـــى ، ورؤســـاء بوابى الباب العالى، وسائر خدام الدولة ، وضباط الفرق العسكرية ممـــن ساهموا فى هذه الحملة الهمايونية وكان لهم عليها يـــد بيضـــاء ، فـــهذا المختصر لا يتسع لإيراد مزيد من التراجم ، وأكثر هـــؤلاء ذكـــروا فـــى مواضعهم بما أبدوا من خدمات للجيش الهمايونى ، فكـــان هـــذا القـــدر حسبنا .وعلاوة على عجزى أنا الفقير فى فن الكتابة والإنشاء لما أمرت بكتابة هذه الرسالة بأسلوب فى مستوى فهم العوام والخـــواص، نـــهجت نهج (حمزة نامه) وكتبت رسالتى هذه بلغة تركية بسيطة عاريـــة مـــن الفصاحة والبلاغة، وليتقبل قرائى الكرام عذرى وليتغاضوا عن ســـهوى وما ترديت فيه من خطأ . ومصداقا لقول الشاعر :

كتـــــبت هــــــذا كي يـبقى أبـــــد الدهر

وأنا لا أبقــــــى وهــو يبقــى إلى أبد الآبدين

أصبحت أنا تحـــــت الثرى بأحـــــزاني وآلامي

ولا يـــــــري أحــــد مــــا حــالـــــــي

سيبقى ما كتبته ــ أنا التعس ــ من بعدي في صحيفة الوجود ، فليدع لي من يطالعه من الكرام الفضلاء ، ويقرأ الفاتحة حسبة لله ترحما علــــيّ ، والله الهادي عليه اعتمادي ، تمت الحروف بعون الله الملك الرءوف .

كشاف بالمصطلحات التاريخية والعثمانية الواردة في
(ضيا نامه)

ـ أ ـ

● **آقجه**

وحدة نقدية فضية كانت تستخدم في الدولة العثمانية .

شمس الدين سامي ، (ق . ت) ، ص ١/٤٤

● **أمير آخور**

هو متولي أمور الإسطبلات السلطانية وكبير العاملين بها .

M.Sert oglu , (a.g.e) ,s. ١٥٣ /١-٢

● **آمدجي**

هو الاسم الذي كان يطلق على رؤساء الكتبة العاملين في الأقلام المختلفة للديوان السلطاني .

B. Sitki Baykal , (a.g .e) , s. ١٥ .

● **أمين الشعير**

هو الشخص المختص بتدبير كلف الحيوانات من عشب وشعير ...إلخ .

B. Sitki Baykal , (a.g .e) , s. ١٦ .

● أمين النُزُل

هو الموظف المختص بتجهيز أماكن معسكر الجيش ومـــا تمـــس إليه حاجة الجند من مؤن ، ويُسمى أيضاً مفتش النُزُل .

M. Z. Pakalin , (a.g.e) ,c.٢ , s. ٧١٠/٢ .

● أغا السلام

موظف في معية الصدر الأعظم وبعض الوزراء تنحصر مهمتـــه في استقبال الزائرين وضرب مواعيد المقابلة للصدر الأعظم والوزراء .

M. Sert oglu , (a.g.e) ,s. ٢٩٠/٢ .

● أغاي مستحفظان

المستحفظان : طائفة مـــن الجنـــد ممـــن بلغـــوا ســـن التقـــاعد (أربعون سنة) ، ويُناط بهم مهمة حراسة البـــلاد وحفـــظ الأمـــن بـــها وحراسه القلاع حين تخرج سائر فرق الجيـــش إلـــى الحـــرب ، وأغـــاي مستحفظان هو لقب من كانت له رياسة هذه الطائفة .

شمس الدين سامي ، (ق . ت) ، ص ٢/١٣٣٦

● أندرون ــ (خدمه الأندرون)

أندرون كلمه فارسيه تعني داخل الشـــيء ، وخدمـــه الأنـــدرون أو (أغوات الأندرون) اسم أطلق على طائفة من الخدم المختصين بالخدمـــة الداخلية للقصور السلاطين والصـــدور العظام.

شمس الدين سامي ، (ق . ت) ، ص ١٧٥ /٣

M. Sert oglu , (a.g.e) ,s. ١٥٠/٢ .

● الإنكشارية

اسم مركب من كلمتين : يكي " وتنطق ينـــي " بمعنـــى جديـــد ، وجرى " وتنطق تشري " بمعنى الجنود ، وتعني الجنود الجدد ، وهو اســم أطلق على الجيش المنظم الذي استحدثه الأمير أورخان غازي في القـــرن الـــ ١٤ الميلادي ، وكان هذا الجيش يتألف من الأسرى النصارى الذيـــن ينشّئون تنشئة إسلامية ويُعلّمون اللغة التركية ، كان لهذا الجيش دور عظيم فيما حققته الدولة إبان ازدهارها من انتصارات عسكرية ، ثم فســد نــظام الإنكشارية وكثرت تمرداتهم واعتداءاتهم على السلطان وأجهزه الدولـــــة ، وفشلت كل محاولات إصلاحهم ؛ فأبادهم السلطان محمـــود الثـــاني ســنه ١٨٢٦م فيما عرف بـــ (الوقعة الخيرية) .

M. Sert oglu , (a.g.e) ,s. ٣٤١/١,٢ - ٤٣٢/١ .

● أوج أنباري (عنبرلي)

ضرب من السفن الشراعية الضخمة كان يتألف من ثلاثة طوابـق ، بدأ تصنيعه في أواخر القرن الـــ ١٧ الميلادي ، وكانت كل سفينة منـــه تحمل على متنها نحو ١٢٠ مدفعاً ، وقرابة ١٠٠٠ من البحارة .

Ertugrul Düzdg : Gazavat - I Hayreddin pasa , Tercuman . ١٠٠١ Temel Eser , c.I , s.٤٣.

● أوده باشي

لقب أحد الضباط في أوجاق الإنكشارية تنحصر مهمته في تنظيم مراسم السلام في المواكب والإشراف على أمور الانضباط فـــي كتـــائب الإنكشارية .

B. Sitki Baykal , (a.g .e) , s. ١٠٢ .

— ب —

● الباب العالي

اسم أطلق على الإدارة المركزية للحكومة العثمانية وفيها مقر الصدر الأعظم ، وأطلق هذا الاسم في بادئ الأمر في عهد السلطان عبد الحميد الأول ، وكان اسمها من قبل باب الباشا .

M. Sert oglu , (a.g.e) ,s. ٢٤/١ , ٢٦٣/١ .

● باشا

هو اللقب الرسمي للوزراء ولبعض كبار الموظفين وكبار القادة العسكريين ، كما أطلق على بعض العلماء ممن بلغوا مستوى رفيع من العلم والمعرفة .

B. Sitki Baykal , (a.g .e) , s. ١٠٩ .

● باش باقي قولي

لقب أطلق على كبير مفتشي المالية في الدولة العثمانية .

B. Sitki Baykal , (a.g .e) , s. ٢٢ .

● الباش تبديل

موظف في القصر السلطاني يخرج متنكراً لأداء مهام يُراد لها التكتم والسرية .

M. Z. Pakalin , (a.g.e) ,c.٣ , s.٤٢٨ .

● بطرونه

وهي الرتبة التي تلي رتبة قائد الأسطول العثماني .

M. Sert oglu , (a.g.e) ,s. ٢٦٤/١ .

● بكباشي

كلمة تركية بمعنى رئيس الألف وهي رتبه عسكرية في جيش (العساكر المنصورة) وهو الجيش الذي نظمه السلطان محمود الثاني عقب إبادة جيش الإنكشارية .

M. Sert oglu , (a.g.e) ,s. ٤٥/٢ , ١٨/٢ .

● بلوكباشي

اسم مركب من كلمتين : بلوك " بمعنى كتيبة أو سرية " ، وباش " بمعنى رئيس " ، والياء ياء الإضافة وتعني رئيس الكتيبة أو قائدها ، وهو اللقب الذي أُطلق على قاده الكتائب في الجيش الإنكشاري .

شمس الدين سامي ، (ق . ت) ، ص ٣/٣٣٢

● بكلكجي

لقب رئيس قلم الديوان السلطاني لدى العثمانيين .

شمس الدين سامي ، (ق . ت) ، ص ٢/٢٩٩

● البوستنجية

فئة من الجند كانت تنحصر مهمتهم أول الأمر في الخدمة في حدائق القصر السلطاني العثماني ، ثم أسندت إليهم من بعد مهام الحراسة في قصر السلطان .

شمس الدين سامي ، (ق . ت) ، ص ١/٣١٤

B. Sitki Baykal , (a.g .e) , s. ٢٧ .

● بيرون

بيرون كلمة فارسية بمعنى خارج الشيء ، وخدام البيرون أو (أغوات البيرون) اسم كان يطلق على فئة من الخدم المختصين بالخدمات الداخلية بقصور السلاطين العثمانيين والصدور العظام .

M. Sert oglu , (a.g.e) ,s. ٤٧/١ - ٢ .

ـ ت ـ

● تذكره جي

لقب كان يطلق على مديري الأقلام الخاصة للصدور العظام وسائر الوزراء ، وكانت مهمة هؤلاء تنحصر في تحرير ملخصات القضايا والمسائل وتقديمها للصدر الأعظم أو الوزير .

شمس الدين سامي ، (ق . ت) ، ص ١/٣٩٢

B. Sitki Baykal , (a.g .e) , s. ١٣٩ .

● الترسانة العامرة

اسم يطلق على دار صناعة السفن البحرية ومقر إدارة الشئون البحرية باستانبول .

شمس الدين سامي ، (ق . ت) ، ص ١/٣٩٧

● التشريفاتي

وظيفة استحدثها السلطان سليمان القانوني ، ويسمى القائم بها التشريفاتي أفندي أو التشريفاتجي أفندي ، وكان هذا الموظف على علم بكل المقابلات والزيارات الخاصة بالصدر الأعظم والوزراء ، وكان يضطلع بمهام وظيفته طبق ما لديه من سجل خاص بأصولها وقد ظل هذا الموظف

في القصر السلطاني حتى عهد السلطان أحمد الثالث ثم انتقل إلى ديوان الباشا بعد ذلك .

M. Sert oglu , (a.g.e) ,s. ٣١٥/١ .

● التوفكجية

طائفة من الجنود كانت مهمتها تقتصر على صنع البنادق وصيانتها وحملها وقت الحرب .

B. Sitki Baykal . (a.g .e) , s. ١٤٢ .

— جـ —

● الجردة — فرق الجردة

طائفة من الجند مهمتها حماية طرق القوافل المتوجهة إلى الحج وتأمينها .

B. Sitki Baykal , (a.g .e) , s. ٣٠ .

● الجبجية

فئة من الجنود المشاة مهمتها صناعه الأسلحة وصيانتها وتجهيزها لاستخدام الجنود في المعركة .

B. Sitki Baykal , (a.g .e) , s. ٢٩ .

● الجوربجية

مفردها چوربجي ، وهو اللقب الذي أطلق على أحد ضباط جيش الإنكشارية وكانت تعادل رتبته رتبه يوزباشي (رئيس الـ ١٠٠) كما أطلق هذا اللقب على الوجهاء والأعيان .

M. Sert oglu , (a.g.e) ,s. ٦٩/٢ .

B. Sitki Baykal , (a.g .e) , s. ٣٤ .

● الجوقدارية

فئة من الخدم كانت تقوم بالخدمة في قصور السلاطين والـوزراء ، كانوا يلبسون ثيابا من الجوخ أو يقفون خلف ستار من الجوخ انتظاراً لما يلقى عليهم من تعليمات وأوامر .

شمس الدين سامي ، (ق . ت) ، ص ٣/٥٢١

– خ –

● خاصكي

لقب أطلق بصفة عامه على قدامى الخدم في القصر السـلطاني ممن حازوا رضا السلطان وثقته ، كما أطلق هذا اللقب على صغار ضباط أوجاق (البوستنجية) الموكلون بمختلف الشئون الداخلية بالقصر السلطاني

M. Sert oglu , (a.g.e) ,s. ١٣٣/٢ .

B. Sitki Baykal , (a.g .e) , s. ٥٨ .

● خزينة دار

لقب أطلق على الموظف الذي كان يتبع الوزراء وكبار رجـال الدولة ويختص بحفظ خزائنهم وتدبير أمورهم المالية .

شمس الدين سامي ، (ق.ت) ، ص ٣/٥٨٠ .

● الخط الهمايوني

اسم يطلق عموما على كل ما يخطه السلطان بنفسه من أوامـر ، ويطلق على الخط الهمايوني كذلك خط شريف وإرادة همايونية .

M. Sert oglu , (a.g.e) ,s. ١٣٦/٢ .

● **خليفة**

لقب كان يطلق على كتّاب أو موظفي الطبقة الأولى في دوائـــر الباب العالي .

B. Sitki Baykal , (a.g .e) , s. ٥٧ .

● **خوجه**

كلمة فارسيه الأصل تعني كبير عائلة ، حاكم ، وال .

M. Z. Pakalin , (a.g.e) ,c.١ , s. ٨٤٥/٢ .

ـــ د ـــ

● **الدره بكوات**

مفردها دره بك ، وتعني بك الوادي وهو اسم أُطلق على فئة مـــن موظفي الحكومة تعاظم نفوذهم حتى طغى على نفوذ الحكومة المركزيـــــة نفسها ، وقد بدأ هؤلاء الموظفون في التزايد منذ أواخر القرن الـــــ ١٧ ، وكان أغلبهم من المتسلمين والمحصلين واضطرت الدولة إلى مصالحتـــهم ومهادنتهم لفترة طويلة ، وأحياناً كانت تسمح الظـــروف فتجـرد عليـــهم الحملات التأديبية ، ولم يأت القرن الـــ ١٩ حتى وقع الأناضول بأكمله في يد هؤلاء (الدره بكوات) إلى أن تمكن السلطان محمـــود الثـــاني مـــن استئصال شأفتهم والقضاء عليهم في النهاية .

M. Sert oglu , (a.g.e) ,s. ٧٥/١ .

● **الدفتردار**

لقب كان يُطلق على كبير المحاسبين المتولي النظر في الشـــئون المالية في الدولة العثمانية ومهمته مهمة وزير المالية الآن ، كما كان هـــذا

اللقب يطلق على متولي تدبير الشئون المالية في ولاية من ولايات الدولة العثمانية .

M. Sert oglu , (a.g.e) ,s. ٧٣/٢ - ٧٣/١ .

● الديوان الهمايوني

وهو بمثابة مجلس الوزراء في الوقت الحالي ، وكانت تنظر فيه في الشئون المالية والإدارية والسياسية والشرعية ، كما تعرض فيه الشكاوى والظلامات ، وكان هذا الديوان يتشكل أساسا من الصدر الأعظم ووزراء القبة والقبودان باشا وقاضي عسكر الروملي وقاضي عسكر الأناضول ورئيس الإنكشارية ورئيس الكتاب ورئيس الشاويشية .

M. Sert oglu , (a.g.e) ,s. ٧٩/٢ .

● الدلاة أو الأدلاء

فرقه من الفرسان استحدثت في (الروملي) في أواخر القرن الـ ١٥ الميلادي ، ولما كان هؤلاء من الشجاعة والجسارة بحيث يحملون على الأعداء بتهور غير مبالين الموت ليمهدوا الطريق للجيش ، فقد حرف اسمهم (دليلر) أي الأدلاء ليصبح (دليلر) أي المجانين.

M. Sert oglu , (a.g.e) ,s. ٧٤/٢ .

● الديوانكان

مفردها ديوانه وتعني المجنون ، وهو لقب أطلق على طائفة الأدلاء المتقدم التعريف بها .

شمس الدين سامي ، (ق . ت) ، ص ٦٤٦ /٣

— ر —

● رئيس الكتاب

لقب كان يطلق على رئيس الكتاب في الديوان السلطاني إلى نهاية القرن الـــ ١٨ الميلادي وكانت له مكانه عظيمة في الدولة ، ثم أصبح هذا الموظف يعنى بتحرير ما يتعلق بالشئون السياسية والاتصالات الخارجيـــة والسفارات الأجنبية ، وتطورت مهمته فأصبحت مهمة وزيـــر الخارجيـــة الآن ، ألغي هذا المنصب في سنه ١٨٣٦ م .

M. Sert oglu , (a.g.e) ,s. ١٦٨/٢ .

● الروزنامجي

الروزنامه هي دفتر خاص بتســجيل الإيــرادات والمصروفـــات اليومية ، والروزنامجي هو الموظف المسئول عن هذا الدفتر .

شمس الدين سامي ، (ق . ت) ، ص ١/٦٧٤ .

● الروملي

اسم عام أطلق قديما على أقسام الدولة العثمانية الواقعة في أوروبا .

M. Sert oglu , (a.g.e) ,s. ٢٧٠/١ .

— ز —

● الزغرجي

وتعني مربي كلاب الصيد ، وكان هذا الاسم يطلق على فئة مـــن جيش الإنكشارية وكان منهم المشاة الفرسان ، وككان عددهم ٤٠٠ ، منـــهم ٣٠ من المشاة وكان رئيسهم يسمى (زغرجي باشي) .

شمس الدين سامي ، (ق . ت) ، ص ٢/٦٥٨

M. Sert oglu , (a.g.e) ,s. ٣٤٨/١ .

● **السردار الأكرم**

لقب كان يطلق على الصدر الأعظم حيـــن يخــرج علـــى رأس الجيوش العثمانية .

M. Sert oglu , (a.g.e) ,s. ٢٧٣/٣ .

● **سر جشمه**

لقب الضابط المعني بتسوية أمور المؤن والمرتبات ..إلخ ، ويعد بمثابة وكيل قائد الفرقة .

شمس الدين سامي ، (ق . ت) ، ص ٣/٧١٥

● **سردنكجدية (سردنكجديان)**

فئة من الجند الفدائيين ، يناط بهم المهام الصعبة والخطـــرة فـــي الحروب ، وكان يطلق عليهم كذلك (رجال الحرب).

M. Sert oglu , (a.g.e) ,s. ٧٠/٢ .

● **السكبانية**

ومفردها سكبان ، وهو متولي أمر كلاب الصيد ، وكان السكبان يخرج في مجموعة من زملائه مع السلطان أو الوزيـــر للصيـــد ، وكـــان لهؤلاء كيان مستقل حتى سنة ١٤٥١م ، ثـــم ألحقـــوا مـــن بعـــد بجيـــش الإنكشارية .

M. Sert oglu , (a.g.e) ,s. ٢٨٩/٢ - ٢٩٠/١

● سلاحدار

شخص من أهم أعماله حفظ أسلحه الوزراء والأمراء ، والسـير وراء الوزير أو الأمير في الاحتفالات أو المواكب حاملا سيفه على كتفـه الأيمن .

شمس الدين سامي ، (ق . ت) ، ص ١/٧٣١

B. Sitki Baykal , (a.g .e) , s. ١٢٤ .

● سرعسكر

اسم مركب من كلمتين : سر الفارسية وتعني قـائد أو رئيـس ، وعسكر العربية ، ويعني هذا الاسم قائد الجيوش .

شمس الدين سامي ، (ق . ت) ، ص ٣/٧١٧

● سنجق

كلمة تركية تعني لواء أو راية ، ويطلق هذا الاسم كذلـك علـى وحده إدارية في الدولة العثمانية تنقسم بدورها إلى عدد مـن الأقضيـة ، ويسمى المشرف على الأمور العسكرية والملكية في هذه الوحدة الإداريـة سنجق بك .

شمس الدين سامي ، (ق . ت) ، ص ٣/٧٣٧

● سفن النار

ضرب من السفن الحربية المدمرة لسفن الأعداء صممت لتكـون مكدسة بالمواد المتفجرة والمحرقه ، حتى إذا اقتربت من الـهدف المـراد تدميره نزل من على متنها من البحارة بقوارب تكون خلف السفينة وهربوا قبل أن تنفجر بهم مدمره سفن الأعداء .

Erlugrul Duzdag : (a.g.e) , s. ٤٢ .

— ش —

● شيخ الإسلام

هو صاحب أعلى رتبة علمية في أوائل عهد الدولة العثمانيـــة ، وكان يسمى قاضي العسكر وفي عهد السلطان محمد الفاتح كـــان يعـــرف بالمفتي ، وظل يعرف بهذا الاسم حتى أواخر القرن الـ ١٧ الميلادي ، ثم أصبح يعرف بشيخ الإسلام ، ولشيخ الإسلام الرئاسة على كافـــه العلمـــاء والمدرسين في الدولة ، وهو عضو في الديوان السلطاني .

M. Sert oglu , (a.g.e) ,s. ٣٠٤/١ - ٣٠٤/٢ .

● الشالوبة — (سفن الشالوبة)

ضرب من السفن الشراعية الحربية صغـــيره الحجـــم نســـبيا ، تستخدم في مهام التخابر ، وتحمل على متنها ٧٢ شخصا و ١٢ مدفعا .

Erlugrul Duzdag : (a.g.e) , s. ٤٢

— ص —

● الصدر الأعظم

هو رئيس الحكومة في عهد الدولة العثمانية ، وهو يلي الســـلطان في منزلته ويدون ما يصدر عن السلطان من قرارات ، وهو يرأس الديوان الهمايوني (السلطاني) ، وكان الصدر الأعظم حيـــن يخـــرج علـــى رأس الجيوش العثمانية يسمى (سردار أكرم) ، ويطلق على ديوانه اسم (بـــاب الباشا) أو (الباب الآصفي) .

M. Sert oglu , (a.g.e) ,s. ٢٧٣/١ - ٢ .

● الصوباشي

هو لقب أطلق على الشخص المكلف بحفظ الأمن والنظام في إحدى المدن أو القرى وخاصة القرى .

B. Sitki Baykal , (a.g .e) , s. ١٢٨ .

● الصول أغا

وهو بمثابة مساعد البكباشي الذي يكون له مساعدان ، أحدهما يسمى (صول أغا) والآخر يسمى (صاغ أغا) .

شمس الدين سامي ، (ق . ت) ، ص ٢٠١/٨٤١ .

— ض —

● الضربخانه العامرة

ضربخانه : اسم مركب من كلمتين ضرب العربية وخانه الفارسية ، ومعناها دار ضرب العملة ، والضربخانه العامرة هي دار سك العملة باستانبول .

شمس الدين سامي ، (ق . ت) ، ص ١/٨٥٣

— ط —

● طوبخانة

اسم أطلق على دار صناعه المدافع التابعة للحكومة .

شمس الدين سامي ، (ق . ت) ، ص ٣/٨٨٩

● الطوغ

خصلة من شعر ذيول الخيول كانت تعلق في صاري كالعلم ، وكانت تستخدم شعارا عند أمراء الهند والصين والترك وحكامهم في الأزمنة السحيقة وكان يصنع من شعور (ثور التبت) وقد وجدت هذه

العلامة عند العثمانيين وكانت مميزه للحكام والوزراء والأمـــراء والــولاة غير أنهم كانوا يصنعونها من ذيول الخيول ، وكان للصنجق بك واحـــدة ، والوالي (الباشا) اثنتان ، وللوزير ثلاثة ، أما السلطان فكانت لــــه ســتة وتسمى الطوغ الهمايوني (السلطاني) ، وكان الصدر الأعظم وقت الخروج إلى الحرب على رأس الجيش العثماني يحمل معه الطـــوغ الـــهمايوني ، وكان هذا الطوغ يخرج قبل خروج الجيش العثماني بشهرين في حفل بهيج يشهده الصدر الأعظم وتقرأ فيه الفاتحة وتنحر فيه الذبائح .

M. Sert oglu , (a.g.e) ,s. ٣٢٢/١ - ٢ .

– ع –

● **العربجية**

طائفة من الجند في الجيش الانكشاري يعهد إليها بنقل الأســـلحة والمدافع على المركبات .

B. Sitki Baykal , (a.g .e) , s. ١٤٠ .

– غ –

● **الغازي**

لقب من الألقاب السنية ، أطلق على الملوك والقـــادة المســلمين الذين حققوا انتصارات باهرة فيما كانوا يخوضونه من حروب وغـــزوات في سبيل الله والإسلام .

حسن الباشا : الألقاب الإسلامية في التـــاريخ والوثـــائق والآثـــار ، النهضـــة ١٩٥٧م ، ص ٤١١.

B. Sitki Baykal , (a.g .e) , s. ٥١ .

— ق —

● **القائمقام**

هو الوزير الذي ينوب عن الصدر الأعظم في حالة تغيبـــه عـــن العاصمة لأي سبب من الأسباب .

M. Sert oglu , (a.g.e) ,s. ٢٧٢/١ - ٢ .

● **القبودان دريا**

لقب القائد الأعلى للأسطول العثماني ، وهو عضو في الديـــوان السلطاني باستانبول واستمر هذا اللقب حتى عام ١٨٦٧م .

M. Sert oglu , (a.g.e) ,s. ١٦٣/١ - ٢ - ١٦٤/١ .

● **القليونجية**

ومفردها قليونجي أو قلينجي ، وهو اسم أطلق قديما على البحـارة العاملين على متن السفينة المسماة قليون ، وهي أضخم ضـــروب السـفن الشراعية الحربية عند العثمانيين وكانوا يجمعون من بلدان بعينها كل عـــام في أزمنة الحرب .

B. Sitki Baykal , (a.g .e) , s. ٧١ .

● **القوناقجي**

ضابط يتقدم الجنود الخارجة للغزو لتهيئة مواضع استراحاتهم .

B. Sitki Baykal , (a.g .e) , s. ١٨١ .

● **الكتخدا**

كلمة فارسية الأصل تعني وكيل أو نائب معتمد ، وكان للباشوات وكبار رجال الدولة العثمانية من ينوب عنهم في أعمالـــهم ويطلـــق عليـــه (الكتخدا) .

شمس الدين سامي ، (ق . ت) ، ص ٢/١١٤٥

M. Sert oglu , (a.g.e) ,s. ١٧٣/٢ .

● **الكديكلية**

صنف من الخدام العاملين بالقصر السلطاني ممن يتمتعون بامتياز خاص يتعلق بالمهام التي يكلفون بها .

شمس الدين سامي ، (ق . ت) ، ص ٣/١١٥٢

● **الكرنتيلة**

كلمة إيطالية الأصل بمعنى أربعين ، وكان الواردون من الخـارج الذين يشتبه في مرضهم يحجزون في الحجر الصحي أربعين يوما حتـــى تثبت سلامتهم من الأمراض الوبائية .

أحمد السعيد سليمان : تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيـــل ، دار المعـــارف ، القاهرة ١٩٧٩م ، ص١٨١ .

● **الكلارجي باشي**

الكلار كلمه تركية تعني مخزن الأطعمة ، والكلارجي باشي هـــو متولي أمر مخزن الأطعمة في قصر السلطان أو الباشا .

شمس الدين سامي ، (ق . ت) ، ص ١١٧٤/٢-٣ .

● **الكيسه دار**

هو متولي أمر حافظة أموال وجيه أو وزير ، والإنفاق منها في الوجوه المستحقة (أمين الصندوق) .

شمس الدين سامي ، (ق . ت) ، ص ٣/١٢٢٥

ـ ل ـ

● **اللاز**

شعب من الشعوب القفقاسية يسكن الساحل الجنوبي الشرقي من البحر الأسود ، اشتهر بالجرأة والشجاعة والمهارة في أنشطة الملاحة البحرية .

شمس الدين سامي ، (ق . ت) ، ص ٢/١٢٣٣ .

ـ م ـ

● **المباشر**

موظف معني بإبلاغ أوامر الحكومة إلى موظفيها أو تحصيل الأموال الأميرية .

شمس الدين سامي ، (ق . ت) ، ص ١/١٢٦٨

● **المتسلم**

موظف مهمته تحصيل الأموال الأميرية .

شمس الدين سامي ، (ق . ت) ، ص ٣/١٢٧٧

● **المحصل**

اسم أطلق على موظف مهمته تحصيل الأموال الأميرية .

شمس الدين سامي ، (ق . ت) ، ص ٢/١٣٠١

● **المعروضات**

اسم اطلق على المكاتبات والمحررات التي كانت ترفع مِن جهـــة إلى جهة أعلى وعلى الأخص إلى السلطان .

شمس الدين سامي ، (ق . ت) ، ص ١/١٣٧٤

● **المهترخانه**:

فرقة الموسيقى العسكرية عند العثمانيين ، وكان من آلاتها الطبـل والدف والمزمار .

M. Sert oglu , (a.g.e) ,s. ٢٠٢/١ .

● **المهردار**

لقب حامل أختام كبار رجال الدولـــة والمكلـف بختـم الأوراق الرسمية اللازمة .

B. Sitki Baykal , (a.g .e) , s. ٩٧ .

● **الميري ــ (الأموال الميرية)**

الميري اسم أطلق على كل ما كان يعد ملكا للحكومة من أشــياء منقولة أو غير منقولة أما الأموال الميريه فهي الضرائب المفروضة علـــى الأراضي والتي تعود إلى الخزانة العامة للحكومة .

M. Z. Pakalin , (a.g.e) ,c.II , s. ٥٤٢/٢ .

- شمس الدين سامي ، (ق . ت) ، ص ١/١٤٤٢ .

● **الميرميران**

لقب فارسي بمعنى أميرالأمراء وهو لقب كان يعطى للباشـــوات ذوي الطوغين ويعادل لقب (بكلر بكي) ، وكان هؤلاء الباشوات يرسلون إلى الولايات كقادة عسكريين أو كولاة .

M. Sert oglu , (a.g.e) ,s.

شمس الدين سامي ، (ق . ت) ، ص ١٤٤١/٣

— ن —

● **ناظر**

كلمة عربية الأصل كانت تطلق قديما على القائم بتدبير شـــئون الوقف ، ثم أصبحت تطلق على أعضاء الحكومة ممن يتولـــون الـــوزارة وذلك اعتبارا من عهد السلطان محمود الثاني (١٨٠٨- ١٨٣٩م) فكانت بمعنى الوزير . بطل استخدام هذا اللقب بعد إلغاء السلطنة وسقوط حكومة استانبول .

M. Sert oglu , (a.g.e) ,s. ٢٢٢/١ .

● **نقيب الأشراف**

وظيفة شرفية عرفت في أكثر البلاد العربية الكبرى منـــذ عـــهد الخلفاء العباسيين ، ويختار النقيب من بين أفراد سلالة الحسن حفيد النبـــي (صلى الله عليه وسلم) ، وتكون له مكانه مرموقـــة ، ومـــن واجباتـــه الحفاظ على سجلات السلالة الشريفة وسمعة أفرادها .

الموسوعة العربية الميسرة ، جـ ٢ ، ص١٨٤٦/٢

— هـ —

● همايون — الجيش الهمايوني

الهمايون كلمة فارسية تعني السلطان أو الملك ، والجيش الهمايوني هو الجيش السلطاني .

شمس الدين سامي ، (ق . ت) ، ص ٣/١٥١٠

— و —

● وكيل الخرج

هو متولي أمر المصروفات في أحد النزل أو المراحل .

شمس الدين سامي ، (ق . ت) ، ص ٣/١٤٩٧

— ي —

● ياور

ضابط في معية القادة تنحصر مهمته في إبلاغ أوامرهم إلى ما دونهم من الضباط والجنود .

شمس الدين سامي ، (ق . ت) ، ص ٣/١٥٣٨-١/١٥٣٩

● يساقجي

اسم أطلق على الحارس الذي يسبق إحدى الشخصيات الهامة أو الرسمية لإبعاد الجماهير عنه ، كما أطلق هذا الاسم على حراس السفراء والقناصل الأجانب في الدولة .

شمس الدين سامي ، (ق . ت) ، ص ١/١٥٢٩

قائمة بأهم المصادر والمراجع

أولاً : المخطوطات التركية :ـ

١- بربر زاده يوسف ، مصر قاهره تاريخي (نسخة مصورة من مخطوطة مكتبة جامعة استانبول موجودة بمكتبة مركز بحوث العالم التركي بالقاهرة) .

٢- عزت حسن أفندي الدارندلي : ضيا نامه ، (صورة مخطوطة مكتبة جامعة استانبول موجودة بمكتبة مركز بحوث العالم التركي بالقاهرة) .

٣- مصطفى رسمي أفنـدي : وقعه نامه ، (صورة مخطوطة مكتبة جامعة استانبول موجودة بمكتبة مركز بحوث العالم التركي بالقاهرة) .

ثانياً : المصادر والمراجع العربية :ـ

١- أمل بشور : حملة بونابرت إلى الشرق (مخطوطة نقولا الترك) دراسة وتحقيق ، دار جروس برس لبنان ١٩٩٣م .

٢- الجبرتي : عجائب الآثار في التراجم والأخبار (٤أجزاء) بولاق ١٢٩٧هـ.

٣- حسين مجيب المصري : بين الأدب العربي والفارسي والتركي ، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٦٧م .

٤- حسين مجيب المصري : في الأدب الشعبي الإسلامي المقارن ، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٨١م .

ثالثاً : المراجع العثمانية :ـ

١- أحمد جودت باشا : تاريخ جودت (ترتيب جديد) استانبول ١٣٠٩هـ .

٢- أحمد حامد ، مصطفى محسن : توركيه تاريخى ، استانبول ١٩٢٤م .

٣- بورصلي محمد طاهر : عثمانلي مؤلفلري ، استانبول ١٣٤٢هـ .

٤- على رشـــــاد : قرون جديده تاريخي ، استانبول ١٣٣٣هـ .

٥- قارصلي جمال الدين : عثمانلي تاريخ ومؤرخلري (آيينه٬ ظرفا) ، استانبول ١٣١٤هـ .

رابعاً : المراجع التركية الحديثة :.

1- Agah Sirri Levend Gazavat - Nameler Ve Mihal Oglu Ali Beyin Gazavat Namesi - Ankara 1954 .
2- Enver Ziya Karal . Fransa - Misir Ve Osmanli Impratolu$\tilde{g}$n (1797 - 1802) Milli Mecmua Basimevi - Ist . 1938 .
3- Enver Ziya Karal : Osmanli tarihi , T.T.K. Ankara 1970 .
4- Hakki Dursun : Doguştan günümüze Büyük Islam Tarihi , Ist , 1989 .
5- Ismail Hami Danişmend : Izahli Osmanil Tarihi Kronolojisi , Ist . 1971 .
6- Ismail soysal : Fransiz Ihtilali Ve Türk - Fransiz Diplomasi Münasebetleri (1789 - 1802) T.T.K. Ankara - 1964 .
7 - Ismet Binark : Turk sefer Ve Zaferleri Bibliyrafyasi , Ankara - 1969 .
8 - Murad Sariga , 100 Sorunda Fransiz Ihtilali , Ist . 1970 .
9- Mustafa Nuri Pasa : Netayic Ül-vukuat , sadeleştiren Neşet çagatay , T.T.K. Ankara , 1979 .
10-Yilmaz Oztuna , Osmanli Devleti Tarihi Faisal Finans Kurumu , Ist . 1986 .

خامساً : المعاجم والقواميس العربية :.

١- أحمد عطية : القاموس الإسلامي (جزءان)، النهضة المصرية ١٩٦٢م .
٢- عمر رضا كحاله : معجم المؤلفين (١٤ جزء) ، دار إحياء التراث ـــ بيروت ١٩٥٧م .

٣- محمد رمزي : القاموس الجغرافي للبلاد المصرية من عهد قدماء المصريين إلى سنة ١٩٤٥م ، الهيئة العامة للكتاب ١٩٩٤م .

سادساً : المعاجم والقواميس العثمانية :.

١- شمس الدين سامي : قاموس الأعلام ، استانبول ١٣١٦هـ .

٢- شمس الدين سامي : قاموس تركي ، ١٣١٧هـ .

سابعاً : القواميس ودوائر المعارف التركية :.

1 - Islam Ansiklopedi si , Milli Egitim Basimevi , Ist . 1941 .
2 - Küçük Hayat Ansiklopedisi , Ist . 1968 .
3 - M. çatay Uluçay Bates Tarih Ansiklopedi si ,Ist .1979 .
4- Midhat Sertoglu : Resimli Osmanli Tarihi Ansiklopedi si ,Ist. 1958 .
5 - M. Z. Pakalin : Osmanli Tarih Deyimleri Ve Terimleri Sözlügü , Milli Egitim Basimevi , 2.baski , Ist . 1971 .
6 - Turkiye Gazetesi , Rehber Ansiklopedisi ,Ist. 1984 .
7 - Yeni Türk Ansiklopedisi , Ist. 1985 .

ثامناً : الدوريات التركية :.

1- Ahmet Ugur : Selim - Nameler , 'lahiyat Fakultesi Dergisi , c. XXII , Ankara 1978 .
2 - Ismail Hakki Uzunçarsili , Bonapart'in Cezzar Ahmed Pasa'ya Mektubu , Belletn Tammüz 1964 , sayi III , c. XXVIII .
3 -Nigar Anafarta Napoleon Bonaparte'in Misir'i isgali , Hayat Taiih Mecuasi sayi . mart 1970 .

ثبت بالاختصارات المستخدمة بالكتاب

❋a.e	= ayni eser	المرجع نفســـــــه
❋a.g.e,	= aynı gecen eser	المرجـــع السابـــق
❋a.m	= aynı makale	المقـــــال نفســـــه
❋T.T.K	= Türk Tarih Kurumu .	مجمع التاريخ التركـي
❋T .D.K	= Türk Dil Kurumu.	محمع اللغة التركيـــة

❋ جـ	= جلد	: المجلد
❋ع . جـ	= عينى جلد	: المجلد نفسه
❋ع . ك . أ	= عين كچن أثر	: المرجع السابق
❋ق . ت	= قاموس تركى	: القاموس التركى

تنويــــــــــه

ثمة نقطة مهمة خاصة بنطق بعض الأسماء والمصطلحات التاريخيـة التركيـة العثمانية الواردة بالكتاب ؛ وهى أن نطق بعض حروفها يختلف فى التركية عنه فى اللغة العربية مثـــــل :

١ ـ حرف (چـ) : ينطق مثل حرفي (ch) فى الإنجليزية

مثل :

چلدر تنطق (تشلدر) ؛ چلبى تنطق (تشلبى) .

٢ ـ حرف (گـ) : ينطق مثل حرف الجيم فى اللهجة المصرية ؛

مثل :

گنج تنطق (جنتش) .

٣ ـ حرف (كـ) ينطق كالياء فى اللغة العربية ؛

مثل :

دكرمنجى تنطق (ديرمنجى) .

٤ ـ حرف (ڭـ) ينطق كحرف النون فى اللغة العربية ؛

مثل :

يڭى تنطق (ينى) .

صدر فى هذه السلسلة

١٠ ـ **توفيق دياب ملحمة الصحافة الحزبية،**

محمود فوزى، ١٩٨٧ .

١١ ـ **مائة شخصية مصرية وشخصية،**

شكرى القاضى، ١٩٨٧ .

١٢ ـ **هدى شعراوى وعصر التنوير،**

د . نبيل راغب، ١٩٨٨ .

١٣ ـ **أكذوبة الاستعمار المصرى للسودان: رؤية تاريخية،**

د . عبدالعظيم رمضان، ط ١ ١٩٨٨، ط ٢، ١٩٩٤ .

١٤ ـ **مصر فى عصر الولاة، من الفتح العربى إلى قيام الدولة الطولونية،**

د . سيدة إسماعيل كاشف، ١٩٨٨ .

١٥ ـ **المستشرقون والتاريخ الإسلامى،**

د . على حسنى الخربوطلى، ١٩٨٨ .

١٦ ـ **فصول من تاريخ حركة الإصلاح الاجتماعى فى مصر: دراسة عن دور الجمعية الخيرية (١٨٩٢-١٩٥٢)،**

د . حلمى أحمد شلبى، ١٩٨٨ .

١٧ ـ **القضاء الشرعى فى مصر فى العصر العثمانى،**

د . محمد نور فرحات، ١٩٨٨ .

١٨ ـ **الجوارى فى مجتمع القاهرة المملوكية،**

د . على السيد محمود، ١٩٨٨ .

١٩ ـ **مصر القديمة وقصة توحيد القطرين،**

د . أحمد محمود صابون، ١٩٨٨ .

٢٠ ـ **دراسات فى وثائق ثورة ١٩١٩ : المراسلات السرية بين سعد زغلول وعبدالرحمن فهمى،**

د . محمد أنيس، ط ٢، ١٩٨٨ .

٢١ ـ **التصوف فى مصر إبان العصر العثمانى جـ١ ،**

د. توفيق الطويل، ١٩٨٨ .

٢٢ ـ **نظرات فى تاريخ مصر،**

جمال بدوى، ١٩٨٨

٢٣ ـ **التصوف فى مصر إبان العصر العثمانى جـ٢ ، إمام التصوف فى مصر: الشعرانى ،**

د. توفيق الطويل، ١٩٨٨ .

٢٤ ـ **الصحافة الوفدية والقضايا الوطنية (١٩١٩ـ١٩٣٦) ،**

د . نجوى كامل، ١٩٨٩ .

٢٥ ـ **المجتمع الإسلامى والغرب،**

تأليف: هاملتون جب وهارولد بووين،

ترجمة : د . أحمد عبد الرحيم مصطفى، ١٩٨٩ .

٢٦ ـ **تاريخ الفكر التربوى فى مصر الحديثة ،**

د . سعيد إسماعيل على، ١٩٨٩ .

٢٧ ـ **فتح العرب لمصر جـ١ ،**

تأليف : ألفريد ج. بتلر، ترجمة : محمد فريد أبو حديد، ١٩٨٩ .

٢٨ ـ **فتح العرب لمصر جـ٢ ،**

تأليف : ألفريد ج. بتلر، ترجمة : محمد فريد أبو حديد، ١٩٨٩ .

٢٩ ـ **مصر فى عهد الإخشيديين،**

د . سيدة إسماعيل كاشف، ١٩٨٩ .

٣٠ ـ **الموظفون فى مصر فى عهد محمد على،**

د . حلمى أحمد شلبى، ١٩٨٠ .

٣١ ـ **خمسون شخصية مصرية وشخصية،**

شكرى القاضى، ١٩٨٩ .

٣٢ ـ **هؤلاء الرجال من مصر جـ٢ ،**

لمعى المطيعى، ١٩٨٩ .

٣٣ ـ **مصر وقضايا الجنوب الافريقى: نظرة على الأوضاع الراهنة ورؤية مستقبلية،**

د . خالد محمود الكومى، ١٩٨٩ .

٣٤ ـ **تاريخ العلاقات المصرية المغربية، منذ مطلع العصور الحديثة حتى عام ١٩١٢ ،**

د . يونان لبيب رزق، محمد مزين، ١٩٩٠ .

٣٥ ـ **أعلام الموسيقى المصرية عبر ١٥٠ سنة،**

عبدالحميد توفيق زكى، ١٩٩٠ .

٣٦ ـ **المجتمع الإسلامى والغرب جـ ٢ ،**

تأليف : هاملتون بوين، ترجمة : د . أحمد عبدالرحيم مصطفى، ١٩٩٠ .

٣٧ ـ **الشيخ على يوسف وجريدة المؤيد: تاريخ الحركة الوطنية فى ربع قرن،**

تأليف : د . سليمان صالح، ١٩٩٠ .

٣٨ ـ **فصول من تاريخ مصر الاقتصادى والاجتماعى فى العصر العثمانى،**

د . عبدالرحيم عبدالرحمن عبدالرحيم، ١٩٩٠ .

٣٩ ـ **قصة احتلال محمد على لليونان (١٨٢٤ـ١٨٢٧)،**

د. جميل عبيد، ١٩٩٠ .

٤٠ ـ **الأسلحة الفاسدة ودورها فى حرب فلسطين ١٩٤٨،**

د . عبدالمنعم الدسوقى الجميعى، ١٩٩٠ .

٤١ ـ **محمد فريد: الموقف والمأساة، رؤية عصرية،**

د . رفعت السعيد، ١٩٩١ .

٤٢ . **تكوين مصر عبر العصور،**

محمد شفيق غربال، ط ٢، ١٩٩٠ .

٤٣ . **رحلة فى عقول مصرية ،**

إبراهيم عبد العزيز، ١٩٩٠ .

٤٤ ـ **الأوقاف والحياة الاقتصادية فى مصر، فى العصر العثمانى،**

د . محمد عفيفى، ١٩٩١ .

٤٥ ـ **الحروب الصليبية جـ ١ ،**

تأليف : وليم الصورى، ترجمة وتقديم: د . حسن حبشى، ١٩٩١ .

٤٦ ـ **تاريخ العلاقات المصرية الأمريكية (١٩٣٩ : ١٩٥٧)،**

ترجمة: د . عبدالرؤوف أحمد عمرو، ١٩٩١ .

٤٧ ـ **تاريخ القضاء المصرى الحديث،**

د . لطيفة محمد سالم، ١٩٩١ .

٤٨ ـ **الفلاح المصرى بين العصر القبطى والعصر الإسلامى.**

د . زبيدة عطا، ١٩٩١ .

٤٩ ـ **العلاقات المصرية الإسرائيلية (١٩٤٨-١٩٧٩)،**

د . عبد العظيم رمضان، ١٩٩٢ .

٥٠ ـ **الصحافة المصرية والقضايا الوطنية(١٩٤٦-١٩٥٤)،**

د . سهير اسكندر، ١٩٩٣ .

٥١ـ **تاريخ المدارس فى مصر الإسلامية،**

(أبحاث الندوة التى أقامتها لجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى للثقافة، فى إبريل ١٩٩١)،

أعدها للنشر: د . عبد العظيم رمضان، ١٩٩٢ .

٥٢ـ **مصر فى كتابات الرحالة والقناصل الفرنسيين فى القرن الثامن عشر،**

د . إلهام محمد على ذهنى، ١٩٩٢ .

٥٣ـ **أربعة مؤرخين وأربعة مؤلفات من دولة المماليك الجراكسة ،**

د . محمد كمال الدين عز الدين على، ١٩٩٢ .

٥٤ـ **الأقباط فى مصر فى العصر العثمانى،**

د . محمد عفيفى، ١٩٩٢ .

٥٥ـ **الحروب الصليبية جـ٢ ،**

تأليف : وليم الصورى ترجمة وتعليق : د . حسن حبشى، ١٩٩٢ .

٥٦ـ **المجتمع الريفى فى عصر محمد على: دراسة عن إقليم المنوفية ،**

د . حلمى أحمد شلبى، ١٩٩٢ .

٥٧ـ **مصر الإسلامية وأهل الذمة،**

د . سيدة إسماعيل كاشف، ١٩٩٢ .

٥٨ـ **أحمد حلمى سجين الحرية والصحافة،**

د . إبراهيم عبدالله المسلمى، ١٩٩٣ .

٥٩ ـ **الرأسمالية الصناعية فى مصر، من التمصير إلى التأميم (١٩٥٧-١٩٦١) ،**

د . عبد السلام عبدالحليم عامر، ١٩٩٣ .

٦٠ـ **المعاصرون من رواد الموسيقى العربية،**

عبد الحميد توفيق زكى، ١٩٩٣ .

٦١ - **تاريخ الاسكندرية فى العصر الحديث**،

د . عبد العظيم رمضان، ١٩٩٣ .

٦٢ - **هؤلاء الرجال من مصر جـ٣**،

لمعى المطيعى، ١٩٩٣ .

٦٣ - **موسوعة تاريخ مصر عبر العصور: تاريخ مصر الإسلامية**،

تأليف: د. سيدة إسماعيل كاشف، جمال الدين سرور، وسعيد عبدالفتاح عاشور، أعدها للنشر: د. عبدالعظيم رمضان،١٩٩٣ .

٦٤ - **مصر وحقوق الإنسان، بين الحقيقة والإفتراء: دراسة وثائقية**،

د . محمد نعمان جلال، ١٩٩٣ .

٦٥ - **موقف الصحافة المصرية من الصهيونية (١٨٩٧-١٩١٧)**،

د . سهام نصار، ١٩٩٣ .

٦٦ - **المرأة فى مصر فى العصر الفاطمى**،

د . نريمان عبد الكريم أحمد، ١٩٩٣ .

٦٧ - **مساعى السلام العربية الإسرائيلية: الأصول التاريخية**،

(أبحاث الندوة التى أقامتها لجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى للثقافة، بالإشتراك مع قسم التاريخ بكلية البنات جامعة عين شمس، فى إبريل ١٩٩٣)، أعدها للنشر د. عبدالعظيم رمضان، ١٩٩٣ .

٦٨ - **الحروب الصليبية جـ٣**،

تأليف : وليم الصورى

ترجمة وتعليق : د . حسن حبشى، ١٩٩٣ .

٦٩ - **نبوية موسى ودورها فى الحياة المصرية (١٨٨٦-١٩٥١)**،

د . محمد أبو الإسعاد، ١٩٩٤ .

٧٠ - **أهل الذمة فى الإسلام**،

تأليف : أ. س. ترتون

ترجمة وتعليق: د. حسن حبشى، ط ٢ ، ١٩٩٤ .

٧١ - **مذكرات اللورد كليرن (١٩٣٤-١٩٤٦)** ،

إعداد: تريفور إيفانز، ترجمة : د. عبد الرؤوف أحمد عمرو، ١٩٩٤ .

٧٢ - **رؤية الرحالة المسلمين للأحوال المالية والاقتصادية لمصر فى العصر الفاطمى (٣٥٨-٥٦٧هـ)** ،

د . أميذة أحمد إمام ، ١٩٩٤ .

٧٣ - **تاريخ جامعة القاهرة**،

د. رؤوف عباس حامد، ١٩٩٤ .

٧٤ - **تاريخ الطب والصيدلة المصرية ، جـ١ ، فى العصر الفرعونى** ،

د . سمير يحيى الجمال، ١٩٩٤ .

٧٥ - **أهل الذمة فى مصر، فى العصر الفاطمى الأول**،

د . سلام شافعى محمود، ١٩٩٥ .

٧٦ - **دور التعليم المصرى فى النضال الوطنى (زمن الإحتلال البريطانى)** ،

د . سعيد إسماعيل على، ١٩٩٥ .

٧٧ - **الحروب الصليبية جـ٤** ،

تأليف : وليم الصورى، ترجمة وتعليق: د . حسن حبشى، ١٩٩٤ .

٧٨ - **تاريخ الصحافة السكندرية (١٨٧٣-١٨٩٩)** ،

نعمات أحمد عثمان، ١٩٩٥ .

٧٩ - **تاريخ الطرق الصوفية فى مصر، فى القرن التاسع عشر**،

تأليف : فريد دى يونج، ترجمة : عبد الحميد فهمى الجمال، ١٩٩٥ .

٨٠ - قناة السويس والتنافس الاستعمارى الأوربى (١٨٨٢-١٩٠٤)،

د . السيد حسين جلال، ١٩٩٥.

٨١ - تاريخ السياسة والصحافة المصرية من هزيمة يونيو إلى نصر أكتوبر،

د . رمزى ميخائيل، ١٩٩٥.

٨٢ - مصر فى فجر الإسلام، من الفتح العربى إلى قيام الدولة الطولونية،

د . سيدة إسماعيل كاشف، ط ٢، ١٩٩٤.

٨٣ - مذكراتى فى نصف قرن جـ١،

أحمد شفيق باشا، ط ٢، ١٩٩٤.

٨٤ - مذكراتى فى نصف قرن جـ٢ - القسم الأول،

أحمد شفيق باشا، ط ٢، ١٩٩٥.

٨٥ - تاريخ الإذاعة المصرية: دراسة تاريخية (١٩٣٤ - ١٩٥٢)،

د. حلمى أحمد شلبى، ١٩٩٥.

٨٦ - تاريخ التجارة المصرية فى عصر الحرية الاقتصادية (١٨٤٠ - ١٩١٤)،

د. أحمد الشربينى، ١٩٩٥.

٨٧ - مذكرات اللورد كليرن، جـ ٢، (١٩٣٤ - ١٩٤٦)،

إعداد : تريفور إيفانز، ترجمة وتحقيق: د. عبدالرؤوف أحمد عمرو ١٩٩٥.

٨٨ - التذوق الموسيقى وتاريخ الموسيقى المصرية،

عبدالحميد توفيق زكى، ١٩٩٥.

٨٩ - تاريخ الموانىء المصرية فى العصر العثمانى،

د. عبدالحميد حامد سليمان، ١٩٩٥.

٩٠ ـ معاملة غير المسلمين فى الدولة الإسلامية،

د. نريمان عبدالكريم أحمد، ١٩٩٦.

٩١ ـ تاريخ مصر الحديثة والشرق الأوسط،

تأليف: بيتر مانسفيلد، ترجمة: عبدالحميد فهمى الجمال، ١٩٩٦.

٩٢ ـ الصحافة الوفدية والقضايا الوطنية (١٩١٩ ـ ١٩٣٦)،

جـ ٢، د. نجوى كامل، ١٩٩٦.

٩٣ ـ قضايا عربية فى البرلمان المصرى (١٩٢٤ ـ ١٩٥٨)،

د. نبيه بيومى عبدالله، ١٩٩٦.

٩٤ ـ الصحافة المصرية والقضايا الوطنية (١٩٤٦ ـ ١٩٥٤)،

د. سهير إسكندر، ١٩٩٦.

٩٥ ـ مصر وأفريقيا الجذور التاريخية للمشكلات الأفريقية المعاصرة (أعمال ندوة لجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى للثقافة بالاشتراك مع معهد البحوث والدراسات الأفريقية بجامعة القاهرة)،

إعداد أ. د. عبد العظيم رمضان

٩٦ ـ عبدالناصر والحرب العربية الباردة (١٩٥٨ ـ ١٩٧٠)،

تأليف: مالكولم كير، ترجمة د. عبدالرؤوف أحمد عمرو.

٩٧ ـ العربان ودورهم فى المجتمع المصرى فى النصف الأول من القرن التاسع عشر،

د. إيمان محمد عبد المنعم عامر.

٩٨ ـ هيكل والسياسة الأسبوعية،

د. محمد سيد محمد.

٩٩ ـ تاريخ الطب والصيدلة المصــرية (العصر اليونـانى ـ الرومانى) جـ ٢ ،

د. سمير يحيى الجمال

١٠٠ ـ موسوعة تاريخ مصر عبر العصور: تاريخ مصر القديمة ،

أ. د. عبد العزيز صـالح، أ. د. جـمـال مـخـتـار، أ. د. مـحـمـد ابراهيم بكر، أ.د. ابراهيم نصحى،

أ. د. فاروق القاضى ، أعدها للنشر: أ. د. عبدالعظيم رمضان

١٠١ ـ ثورة يوليو والحقيقة الغائبة ،

اللواء/ مصطفى عبدالمجيد نصير ، اللواء/ عبدالمجيد كفافى،

اللواء/ سعد عبدالحفيظ، السفير/ جمال منصور

١٠٢ ـ المقطم جـريدة الاحـتـلال البـريطانى فى مـصـر ١٨٨٩ ـ ١٩٥٢

د. تيسير أبو عرجة

١٠٣ ـ رؤية الجبرتى لبعض قضايا عصره

د. على بركـــات

١٠٤ ـ تاريخ العمال الزراعيين فى مصر (١٩١٤ ـ ١٩٥٢)

د. فاطمة علم الدين عبد الواحد

١٠٥ ـ السلطة السياسية فى مصر وقضية الديموقراطية ١٨٠٥ ـ ١٩٨٧ .

د. أحمد فارس عبدالمنعم

١٠٦ ـ الشيخ على يوسف وجريدة المؤيد (تاريخ الحركة الوطنية فى ربع قرن.

د. سليمان صالح

١٠٧ ـ **الأصولية الإسلامية.**

تأليف: دليب هيرو: ترجمة: عبدالحميد فهمى الجمال.

١٠٨ ـ **مصر للمصريين جـ ٤.**

سليم النقاش

١٠٩ ـ **مصر للمصريين جـ ٥.**

سليم النقاش

١١٠ ـ **مصادرة الأملاك فى الدولة الإسلامية (عصر سلاطين المماليك) جـ ١.**

د. البيومى اسماعيل الشربيلى.

١١١ ـ **مصادرة الأملاك فى الدولة الإسلامية (عصر سلاطين المماليك) جـ ٢ . ١**

د. البيومى إسماعيل الشربيلى.

١١٢ ـ **إسماعيل باشا صدقى**

د. محمد محمد الجوادى.

١١٣ ـ **الزبير باشا ودوره فى السودان (فى عصر الحكم المصرى)**

د. عز الدين إسماعيل.

١١٤ ـ **دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى**

تأليف أحمد رشدى صالح

١١٥ ـ **مذكراتى فى نصف قرن جـ ٣.**

أحمد شفيق باشا.

١١٦ ـ **أديب اسحق (عاشق الحرية)**

علاء الدين وحيد

١١٧ ـ **تاريخ القضاء فى مصر العثمانية**

عبد الرزاق إبراهيم عيسى (١٥١٧ ـ ١٧٩٨)

١١٨ ـ النظم المالية فى مصر والشام

د. البيومى اسماعيل الشربينى

١١٩ ـ النقابات فى مصر الرومانية

حسين محمد أحمد يوسف

١٢٠ ـ يوميات من التاريخ المصرى الحديث

لويس جرجس

١٢١ ـ الجلاء ووحدة وادى النيل (١٩٤٥ ـ ١٩٥٤)

د. محمد عبد الحميد الحناوى

١٢٢ ـ مصر للمصريين جـ٦

سليم خليل النقاش

١٢٣ ـ السيد أحمد البدوى

د. سعيد عبد الفتاح عاشور

١٢٤ ـ العلاقات المصرية الباكستانية فى نصف قرن

د. محمد نعمان جلال

١٢٥ ـ مصر للمصريين جـ٧

سليم خليل النقاش

١٢٦ ـ مصر للمصريين جـ٨

سليم خليل النقاش

١٢٧ ـ مقدمات الوحدة المصرية السورية (١٩٤٣ ـ ١٩٥٨)،

ابراهيم محمد محمد ابراهيم .

١٢٨ ـ معارك صحفية،

بقلم/ جمال بدوى.

١٢٩ ـ الدين العـــام (وأثره فى تطور الاقـــتـــصـــاد المصـــرى) (١٨٧٦-١٩٤٣).

د. يحيى محمد محمود

١٣٠ ـ تاريخ نقابات الفنانين في مصر (١٩٨٧-١٩٩٧).

سمير فريد.

١٣١ ـ الولايات المتحدة وثورة يولية ١٩٥٢م.

ترجمة/ د. عبدالرءوف أحمد عمر.

١٣٢ ـ دار المندوب السامى فى مصر جـ١ . د. ماجدة محمد حمود.

١٣٣ ـ دار المندوب السامى فى مصر جـ٢ . د. ماجدة محمد حمود.

١٣٤ ـ الحملة الفرنسية على مصر فى ضوء مخطوط عثمانى للدارندلى.

ترجمة/ جمال سعيد عبد الغنى.

فهرس الموضوعات

مخطوطة ضيا نامه للدارندلى : الترجمة العربية

المقدمة

الملحمة

الخاتمة


ة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٧٠٩٨/١٩٩٨

I.S.B.N 977 - 01 - 6021 - 0

هذا الكتاب المهم عن تاريخ الحملة الفرنسية على مصر. كان فى الأصل رسالة علمية من قسم لغات الأمم الإسلامية، قدمها الأستاذ جمال سعيد المدرس المساعد بآداب حلوان، ترجم فيها مخطوطة عثمانية أصلية بعنوان «ضيانامة»، تعد هى المصدر العثمانى الوحيد الذى ظهر حتى الآن، وانفردت بتقديم وجهة النظر العثمانية فى موضوع الحملة الفرنسية على مصر والشام، ودور الدولة العثمانية فى إخراج الفرنسيين.

ومن هنا أهمية الكتاب، إذ يضيف مصدراً جديداً من مصادر تاريخ الحملة الفرنسية غير الجبرتى ونقولا ترك، ويقدم بُعداً جديداً كان غائباً.

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب